
الأربعون القلبية




محمد صالح المنجد


مجموعة زاد
ZAD GROUP
للنشر


العبيكان
Obeikan


الأربعون القلبية


الأربعون القلبية


محمد صالح المنجد


مجموعة زاد
ZAD GROUP
للنشر

ⓒ مجموعة زاد للنشر، ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المنجد، محمد صالح

الأربعون القلبية./ محمد صالح المنجد.- الرياض،

١٤٤٠هـ

٣٢٨ص. ١٦,٥×٢٤سم

ردمك: ٣-٤٣-٨٢٣٤-٦٠٣-٩٧٨

١- الحديث شرح ٢- الحديث الصحيح

أ. العنوان

ديوي: ٢٣٧,٧ ١٤٤٠/٩٤٢

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ/٢٠٢١م

نشـــر 

المملكة العربية السعودية - جدة

حي الشاطئ - بيوتات الأعمال - مكتب ١٦

موبايل: ٦٤٣٢ ٤٤٤ ٥٠ ٩٦٦+، هاتف: ٦٩٢٩٢٤٢ ١٢ ٩٦٦+

ص.ب: ١٢٦٣٧١ جدة ٢١٣٥٢

www.zadgroup.net

توزيع العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - الرياض

طريق الملك فهد - مقابل برج المملكة

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ ١١ ٩٦٦+، ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧




بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات



المقـدّمة

إنَّ الحَمدَ للهِ، نَحمَدُهُ، ونَستعينُهُ، ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللهِ من شُرورِ أنفسِنا، وسَيئاتِ أعمالِنا، مَن يَهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلِل فلا هاديَ لَه، وأشْهدُ أن لا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَه، وأشْهدُ أنَّ محُمدًا عَبدُهُ ورَسولُه.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد ورَدَ عنِ النَّبيِّ ﷺ في الحَثِّ على حِفْظِ أَربَعينَ حديثًا حديثٌ[1] رُويَ من طُرُقٍ مُتعدِّدَةٍ، لا يَخْلُو شَيءٌ منها من مَقالٍ، وقد أَجْمَعَ أهلُ العِلمِ بالحديثِ على ضَعْفِهِ، وعَدَمِ ثُبُوتِهِ، وإن تَعَدَّدَت طُرُقُهُ، وكَثُرَت أسانيدُهُ، **قال النوويُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «اتَّفَقَ الحُفَّاظُ على أنَّه حديثٌ ضَعيفٌ، وإن كَثُرَت طُرُقُهُ»[2].

وقد قامَ غيرُ واحدٍ من أهلِ العِلمِ بجَمْعِ أربَعينَ حديثًا منَ الأحاديثِ النَّبَويَّةِ الصَّحيحَةِ المَشْهُورَةِ، فمنهُم: مَنِ استَأْنَسَ في ذلك بهذا الحديثِ المَذْكُورِ، ومنهُم: مَن قَصَدَ تَبليغَ أحاديثِ النَّبيِّ ﷺ، وبَيانَها للأُمَّةِ، ومنهُم: مَنِ اقتَدَى في ذلك بِمَن سَبَقَهُ من أهلِ العِلمِ، مِمَّن صَنَّفَ في الأربَعينَ.

---

(١) وله ألفاظٌ متعددةٌ، من أشهرها: «مَنْ حَفِظَ على أُمَّتي أَرْبَعينَ حديثًا من أَمْرِ دينِها، بَعَثَهُ اللهُ فَقيهًا، وكُنْتُ له يومَ القيامَةِ شافِعًا وشَهيدًا». رواه البيهقي في الشُّعَب (١٥٩٧)، وقال: «هذا متن مشهور فيما بين الناس، وليس له إسناد صحيح».

(٢) الأربعون النووية (ص٣٨).

ثُمَّ إنّ منهُم مَن جمعَ الأربَعينَ في أصولِ الدِّينِ، وبَعضُهُم في الفُرُوعِ، وبَعضُهُم في الجِهادِ، وبَعضُهُم في الزُّهدِ، وبَعضُهُم في الآدابِ، وبعضُهُم في الخُطَبِ، وغير ذلك منَ المَقاصِدِ.

وأشهَرُ مَن صنَّفَ في ذلك: الإمامُ أبو زَكِريَّا يَحْيَى بنُ شَرَفِ النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فصنَّفَ كتابًا في الأربعينَ جمعَ فيه الأحاديثَ المَشهُوراتِ الكُليَّاتِ، التي يكُونُ عليها مدارُ الدِّينِ.

واقتداءً بهؤلاءِ الأئمَّةِ تمَّ جَمعُ أربعينَ حديثًا في القلبِ، وبيانِ فَضْلِه وشرَفِه على سائرِ الأعضاءِ، وأهميةِ الاعتِناءِ بهِ، وبصلاحِهِ، وتَطهيرِه منَ العُيُوبِ، وعلاجِهِ منَ الأمراضِ، والآفاتِ.

لس اعتمادًا على ما رُويَ في فَضلِ جَمْعِ الأربعينَ حديثًا، ولَكِن من بابِ حِفْظِ العِلْمِ، ونَشْرِهِ، وجَمعِ حديثِ رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وشرحِه، وتفسيرِ غريبِهِ، وبيانِ أحكامِهِ، وآدابِهِ، واستِخْلاصِ فوائِدِه، ونِكاتِهِ.

وقد قال النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ منَّا شَيئًا، فَبَلَّغَهُ كما سَمِعَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوعَى من سامِعٍ**»[١].



(١) رواه الترمذي (٢٦٥٧)، وصححه، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

الأَرْبَعُونَ القلبيَّةُ







لا شَكَّ أنَّ القلبَ هو سَيِّدُ الأَعْضاءِ، وأَميرُها، إذا صَلَحَ صَلَحَ الجَسَدُ كلُّهُ، وإذا فَسَدَ فَسَدَ الجَسَدُ كلُّهُ، فـ«صَلاحُ حَرَكاتِ العبدِ بِجَوارِحِهِ، واجْتِنابُهُ لِلْمُحَرَّماتِ، واتِّقاؤُهُ لِلشُّبُهاتِ، بِحَسَبِ صَلاحِ حَرَكَةِ قلبِهِ.

فإذا كان قلبُهُ سَليمًا، ليس فيه إلَّا مَحَبَّةُ اللهِ، ومَحَبَّةُ ما يُحِبُّهُ اللهُ، وخَشْيَةُ اللهِ، وخَشْيَةُ الوُقُوعِ فيما يَكْرَهُهُ، صَلَحَت حَرَكاتُ الجَوارِحِ كلِّها، ونَشَأَ عن ذلك اجْتِنابُ المُحَرَّماتِ كلِّها، وتَوَقٍّ لِلشُّبَهاتِ؛ حَذَرًا منَ الوُقُوعِ في المُحَرَّماتِ.

وإن كان القلبُ فاسدًا، قَدِ اسْتَولى عليهِ اتِّباعُ هَواهُ، وطَلَبُ ما يُحِبُّهُ، ولو كَرِهَهُ اللهُ، فَسَدَت حَرَكاتُ الجَوارِحِ كلِّها، وانْبَعَثَت إلى كلِّ المَعاصي، والمُشْتَبِهاتِ، بِحَسَبِ اتِّباعِ هَوَى القلبِ.

ولِهذا يُقالُ: القلبُ مَلِكُ الأَعْضاءِ، وبَقِيَّةُ الأَعْضاءِ جُنُودُهُ، وهُم -مَعَ هذا- جُنُودٌ طائِعُونَ له، مُنْبَعِثُونَ في طاعَتِهِ، وتَنْفيذِ أَوامِرِهِ، لا يُخالِفُونَهُ في شَيءٍ من ذلك، فإن كان المَلِكُ صالِحًا، كانَت هذه الجُنُودُ صالِحَةً، وإن كان فاسدًا، كانَت جُنُودُهُ -بِهذه المَثابَةِ- فاسدَةً، ولا يَنْفَعُ عندَ اللهِ إلَّا القلبُ السَّليمُ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، والقلبُ السَّليمُ: هو السالِمُ منَ الآفاتِ والمَكْرُوهاتِ كلِّها، وهو القلبُ الذي ليس فيه سِوَى مَحَبَّةِ اللهِ، وما يُحِبُّهُ اللهُ، وخَشْيَةِ اللهِ، وخَشْيَةِ ما يُباعِدُ منهُ»[١].

وإذا نَفَذْتَ من ساحَةِ الصَّدْرِ إلى مُشاهَدَتِهِ وجَدتَ «مَلِكًا عَظيمًا، جالِسًا على سَريرِ مَمْلَكَتِهِ: يَأْمُرُ، ويَنْهَى، ويُوَلِّي، ويَعْزِلُ، وقد حَفَّ به الأُمَراءُ، والوُزَراءُ، والجُنْدُ، كلُّهُم في خِدْمَتِهِ، إنِ اسْتَقامَ اسْتَقامُوا، وإن زاغَ زاغُوا، وإن صَحَّ صَحُّوا، وإن فَسَدَ فَسَدُوا؛

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٢١١).

فَعليهِ المُعوّلُ، وهو مَحَلُّ نَظَرِ الرَّبِّ تعالى، ومَحَلُّ مَعْرِفَتِهِ، ومَحَبَّتِهِ، وخَشْيَتِهِ، والتَّوَكُّلِ عليهِ، والإنابَةِ إليهِ، والرِّضَى به، وعنهُ، والعُبُوديَّةُ عليهِ أوَّلًا، وعلى رَعيَّتِهِ، وجُنْدِهِ، تَبَعًا.

فَأَشْرَفُ ما في الإنْسانِ: قلبُهُ، فهُو العالِمُ باللهِ، الساعي إليهِ، المُحِبُّ له، وهو مَحَلُّ الإيمانِ، والعِرْفانِ، وهو المُخاطَبُ المَبْعُوثُ إليهِ الرُّسُلُ، المَخْصُوصُ بِأَشْرَفِ العَطايا منَ الإيمانِ، والعَقْلِ، وإنَّما الجَوارِحُ أَتْباعٌ لِلْقلبِ، يَسْتَخْدِمُها اسْتِخْدامَ المُلُوكِ لِلْعَبيدِ، والراعي لِلرَّعيَّةِ، والذي يَسْري إلى الجَوارِحِ منَ الطاعاتِ، والمَعاصي، إنَّما هيَ آثارُهُ، فإن أَظْلَمَ أَظْلَمَتِ الجَوارِحُ، وإنِ اسْتَنارَ اسْتَنارَت، ومع هذا: فهُو بينَ أُصْبُعَينِ من أَصابعِ الرحمنِ عَزَّوَجَلَّ، فَسُبْحانَ مُقَلِّبِ القلوبِ، ومُودِعِها ما يَشاءُ من أَسْرارِ الغُيُوبِ، الذي يَحُولُ بينَ المرءِ، وقلبِهِ، ويَعْلَمُ ما يَنْطَوي عليهِ من طاعَتِهِ، ودينِهِ، مُصَرِّفِ القلوبِ كَيفَ أَرادَ، وحَيثُ أَرادَ، أَوحَى إلى قلوبِ الأَولياءِ: أَن أَقْبِلي إليَّ، فَبادَرَت وقامَت بينَ يَدَي رَبِّ العالَمِينَ، وكَرِه عَزَّوَجَلَّ انْبعاثَ آخرينَ، فَثَبَّطَهُم، وقيلَ: اقْعُدُوا مع القاعِدينَ»[١].

نَسْأَلُ اللهُ أن يُطَهِّرَ قلوبَنا، وأَن يُثَبِّتَها على دينِه، وأَن يُصَرِّفَها إلى طاعَتِهِ؛ إنَّهُ سَميعٌ قَريبٌ.

التَّعريفُ بالقلبِ:

قال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القلبُ -لُغَةً-: صَرْفُ الشَّيءِ إلى عَكْسِهِ، ومنهُ: القلبُ، سُمِّيَ به؛ لِكثرةِ تَقَلُّبِهِ، كما أَشارَ إليهِ حديثُ: «**إنَّ القلوبَ بينَ أُصْبُعَينِ من أَصابعِ الرحمنِ يُقَلِّبُها كَيفَ يَشاءُ**»؛ ولِهذا كان رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يُكْثِرُ** أَن يَقُولَ: «**يا مُقَلِّبَ القلوبِ ثَبِّت قلبي على دينِكَ**»[٢].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القَيّم (ص٤١٢-٤١٣).

(٢) رواه الترمذي (٢١٤٠)، وصححه، ويأتي الكلامُ عليه.

وقد قال الشاعِرُ:

قَد سُـــمِّيَ القلبُ قلبًا من تَقَلُّبِهِ فاحْذَرعلى القلبِ من قلبٍ وتَحْويلِ

ولَهُ ظاهِرٌ، وهو المُضْغَةُ الصَّنَوبَرِيَّةُ المُودَعَةُ في التَّجْويفِ الأَيسَرِ منَ الصَّدْرِ، وهو محَلُّ اللَّطيفَةِ الإنْسانيَّةِ، ولِذا نُسِبَ إليهِ الصَّلاحُ والفَسادُ.

وباطِنٌ، وهو اللَّطيفَةُ النُّورانيَّةُ الرَّبَّانيَّةُ العالِمَةُ، وبِها يكونُ الإنْسانُ إنْسانًا، وبِها يَسْتَعِدُّ لِامْتِثالِ الأَوامِرِ والنَّواهي، وبِها صَلاحُ البَدَنِ وفَسادُهُ.

ويَتَأَطَّرُ القلبُ بِصَفائِهِ ويَتَنَوَّرُ، فَيَنْعَكِس نُورُهُ إلى الجَسَدِ، فَيَصْدُرُ منهُ الأَعْمالُ الصالِحَةُ، وهو المَعْنيُّ بِصَلاحِها، وإذا تَغَذَّى بالحَرامِ يَصيرُ مَرْتَعًا لِلشَّيطانِ والنَّفْسِ، فَيَتَكَدَّرُ فَيُظْلِمُ، وتَنْعَكِسُ ظُلْمَتُهُ إلى البَدَنِ، فلا يَصْدُرُ منهُ إلَّا المَعاصي، وهو المُرادُ بِفَسادِها»[١].

وقال ابنُ الجَوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القلبُ: قِطعَةٌ من دمٍ جامِدَةٌ سَوداءُ، وهوَ مُستكنٌّ في الفؤادِ، وهو بيتُ النَّفسِ، ومَسكَنُ العَقلِ، وسُمِّي قلبًا؛ لتقلُّبِهِ، وقيلَ: لأَنَّه خالِصُ البَدَنِ»[٢].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سُمِّيَ القلبُ قلبًا؛ لِتَقَلُّبِهِ في الأُمُورِ، أَو لأَنَّهُ خالِصُ ما في البَدَنِ، وخالِصُ كلِّ شَيءٍ قلبُهُ، أَو لأَنَّهُ وُضِعَ في الجَسَدِ مَقْلُوبًا»[٣].

الفرقُ بينَ الفُؤادِ والقلبِ:

قيلَ: هو هُوَ، وقيلَ: الفُؤادُ: وسطُ القَلبِ، وقيلَ: باطِنُهُ، وقيلَ: القلبُ أخصُّ منَ الفؤادِ في الاستعمالِ، وقيلَ: غيرُ ذلك.

---

(١) مرقاة المفاتيح (٥/ ١٨٩٣)، باختصار.

(٢) زاد المسير (١/ ٣٠).

(٣) فتح الباري (١/ ١٢٨).

قال ابنُ الأثيرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفُؤادُ: القلبُ، وقيلَ: وسَطُه، وقيلَ: الفُؤادُ: غِشاءُ القلب، والقلبُ حبَّتُه، وسُوَيداؤه، وجَمْعُه: أَفْئِدَة»[١].

وقال القُرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القلبُ قَد يُعَبَّرُ عنهُ بالفُؤادِ، والصَّدْرِ، قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] وقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] يعني في المَوضِعَينِ قلبَكَ.

وقد يُعَبَّرُ به عنِ العَقْلِ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، أَي عَقْلٌ؛ لأنَّ القلبَ محَلُّ العَقْلِ في قَولِ الأَكْثَرينَ. والفُؤادُ محَلُّ القلبِ، والصَّدْرُ محَلُّ الفُؤادِ»[٢].

وعن أَبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتاكُم أهلُ اليَمَنِ، هُم أَرَقُّ أَفْئِدَةً، وأَلْيَنُ قلوبًا**»[٣].

وفي لفظ: «**أهلُ اليَمَنِ أَرَقُّ قلوبًا، وأَلْيَنُ أَفْئِدَةً**»[٤].

قال ابنُ الأثيرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القلوبُ: جَمْعُ القلب، وهو أَخصُّ منَ الفُؤادِ في الِاسْتِعْمالِ.

وقيلَ: هُما قَريبانِ منَ السَّواء، وكَرّر ذِكرَهُما؛ لِاخْتِلافِ لَفْظيهما تَأْكيدًا، وقلب كلِّ شَيءٍ: لُبُّه، وخالِصه»[٥].

وقال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفُؤادُ: القلبُ، فهما لفظانِ بِمَعْنًى، كرَّرَ لَفْظهما؛ لاختلافِهِ تَأْكيدًا، وقيلَ: الفُؤادُ عبارَة عَن باطِنِ القلبِ، وقيلَ: الفُؤادُ عينُ القلبِ، وقيلَ: القلبُ أخصُّ منَ الفُؤادِ، وقيلَ: الفُؤادُ غشاءُ القلبِ، والقلبُ جُثَّتُه»[٦].

---

(١) النهاية (٣/ ٤٠٥).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ١٨٩).

(٣) رواه البخاري (٤٣٨٨)، ومسلم (٥٢).

(٤) رواه أحمد (١٧٤٠٦)، وهو صحيح أيضًا، واللفظ الأولُ أصحُّ، وأشهرُ.

(٥) النهاية (٤/ ٩٦).

(٦) مشارق الأنوار (٢/ ١٤٤).

وقال الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولهُ: «**هُم أَرَقُّ أَفْئِدَةً، وأَلْيَنُ قلوبًا**» أَي: لأنَّ الفُؤادَ غِشاءُ القلبِ، فإذا رَقَّ نَفَذَ القَولُ، وخَلَصَ إلى ما وراءَهُ، وإذا غَلُظَ بَعُدَ وُصُولُهُ إلى داخِلٍ، وإذا كان القلبُ لَيِّنًا، عَلِقَ كلُّ ما يُصادِفُه»[1].

وقال أبو منصُورٍ الأزهريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وصَفَ القلوبَ بالرِّقةِ، والأفئدةَ باللِّينِ، وكَأَنَّ القلْبَ أخَصُّ من الفُؤادِ في الاِسْتِعْمالِ؛ ولذلك قالُوا: أَصَبْتَ حَبَّةَ قلبِهِ، وسُويداءَ قلبِهِ.

وأنْشدَ بَعضُهم:

لَيتَ الغرابَ رَمَى حماطَةَ قلبِهِ عَمروٌ بأسهُمِهِ التي لم تُلغَبِ

وقيلَ: القلوبُ والأفئدَةُ قريبانِ منَ السَّواءِ، وكُرِّرَ ذكرهما؛ لاخْتِلاف لفظَيهما تَأْكيدًا.

وقال بعضُهم: سمِّي القلبُ قلبًا؛ لتقلُّبِه، وسمِّي فؤادًا؛ لتحرُّقِه على مَن يُشفِقُ عليهِ.

ورَأَيتُ منَ العربِ مَن يُسمِّي لحمةَ القلبِ -بشحمِها، وحِجابِها- قَلبًا، ورَأَيتُ بَعضَهم يسمُّونَه فؤادًا، ولا أنكرُ أَن يكونَ القلبُ هيَ العَلَقَةَ السَّوداءَ في جَوفِه، واللهُ أعلَمُ؛ لأنَّ قلبَ كلِّ شَيءٍ: لُبُّه، وخالِصُه.

وقال اللَّيثُ: «جئتُك بِهذا الأَمرِ قَلبًا، أَي: مَحْضًا لا يشُوبُه شَيء»[2].

وقال أبو بكرٍ الأنباريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال اللغويُّونَ: إنَّما سُمِّي القلبُ قلبًا؛ لتقلُّبِه، وكثرةِ تَغَيُّرِه.

---

(١) فتح الباري (٨/ ١٠٠).

(٢) تهذيب اللغة (٩/ ١٤٣).

وأصلُهُ منْ: قَلَبْتُ الشَّيءَ أقلبُهُ قلبًا، والعرَبُ تَكْني بالقلبِ عنِ العقلِ، فيقولُونَ: قد دلَّه قلبُهُ على الشَّيءِ، يريدُونَ: دلَّه عقلُهُ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾، أرادَ: لِمَن كان له عقلٌ، وتمييزٌ، ورُبَّما كَنَوا بالفؤادِ عنِ العقلِ، والقلبِ»[١].

وقال الخطَّابيُّ أيضًا: «زعَمَ بعضُهُم أنَّ الفؤادَ غِشاءُ القلبِ، وأنَّ القلبَ حَبَّتُه، وسُوَيداؤه، وقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتاكُم أهلُ اليَمَنِ هُم أَلْيَنُ قلوبًا، وأَرَقُّ أَفْئِدَةً**»[٢].

وقال الراغبُ الأصبهانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفُؤادُ كالقلبِ، لكِن يقالُ لَه: فُؤادٌ إذا اعتُبِرَ فيه معنَى التَّفَؤُّدِ، أي: التَّوقُّدِ، يُقالُ: فَأَدْتُ اللَّحمَ: شَوَيتُهُ، ولحم فَئِيدٌ: مَشويٌّ، وجمعُ الفؤادِ: أَفْئِدَةٌ، قال تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٦-٧]، وتخصيصُ الأفئدَةِ تنبيهٌ على فَرْطِ تأثيرٍ لَه»[٣].

العقل والقلب:

اختلَفَ الناسُ في مكانِ العَقلِ من جسمِ الإنسانِ، فقيلَ: إنَّ العقلَ مَحَلُّهُ الدِّماغُ، أي: الرَّأسُ، ودليلُهُم: أنَّه إذا ضُرِبَ الرَّأسُ ضربةً قويَّةً، زالَ معها العقلُ. وقالُوا أيضًا: إنَّ العربَ تقولُ للعاقلِ: وافرُ الدِّماغِ، ولضعيفِ العقلِ: خفيفُ الدِّماغِ، وهوَ محلُّ الإحساسِ.

وقيلَ: محلُّه القلبُ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ

(١) الزاهرُ (٢/ ٣٧٣).

(٢) غريبُ الحديث (١/ ١٩٦).

(٣) المفردات (ص٦٤٦).

بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴾ [ق: ٣٧].

والصَّحيحُ: أنَّ القلبَ في العقلِ، ولَه اتِّصالٌ بالدِّماغِ؛ ولهذا ذهبَ عامَّةُ الفقهاءِ إلى أنَّ مَحَلَ النِّيَّةِ منَ المُكَلَّفِ القلبُ في كلِّ موضِعٍ؛ لأَنَّهُ مَحَلُ العَقْلِ، والعِلْمِ، والمَيلِ، والنُّفْرَةِ، والاِعْتِقادِ(١).

وقال الإمامُ البُخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأدبِ المُفردِ: «بابُ العَقْل في القلبِ»(٢).

ثمَّ روى عن عياضِ بنِ خَليفَةَ، عن عَليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَهُ بِصِفِّينَ يَقُولُ: «إنَّ العَقْلَ في القلبِ»(٣).

وروَى الإمامُ أحمدُ في الفضائِلِ عن مُغيرَةَ قال: قيلَ لِابنِ عَبَّاسٍ كَيفَ أَصبْتَ هذا العِلْمَ؟ قال: «بِلِسانٍ سَؤُولٍ، وقلبٍ عَقُولٍ»(٤).

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَأَمَّا قولهُ: أَينَ مَسْكَنُ العَقْلِ فيهِ؟ فالعَقْلُ قائِمٌ بِنَفْسِ الإنْسانِ التي تَعْقِلُ، وأَمَّا منَ البَدَنِ فهُو مُتَعَلِّقٌ بِقلبِهِ، كما قال تعالى: **﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾** [الحج: ٤٦]، وقيلَ لِابنِ عَبَّاسٍ: بِماذا نِلْت العِلْمَ: قال: «بِلِسانِ سَؤولٍ وقلبٍ عَقُولٍ»، لَكِنَّ لَفْظَ «القلبِ» قَد يُرادُ به المُضْغَةُ الصَّنَوبَريَّةُ الشَّكْلِ، التي في الجانِبِ الأَيسَرِ منَ البَدَنِ، التي جَوفُها عَلَقَةٌ سَوداءُ، كما في الصَّحيحَينِ عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**إنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَت صَلَحَ لَها سائِرُ الجَسَدِ، وإذا فَسَدَت فَسَدَ لَها سائِرُ الجَسَدِ**».

---

(١) الموسوعة الفقهية (٤٢/ ٦٥).

(٢) الأدب المفرد (ص١٩٢).

(٣) وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٤٢٥).

(٤) فضائل الصحابة (١٩٠٣).

وقد يُرادُ بالقلبِ: باطِنُ الإنْسانِ مُطْلَقًا؛ فإنَّ قلبَ الشَّيءِ باطِنُهُ، كَقلبِ الحِنْطَةِ، واللَّوزَةِ، والجَوزَةِ، ونَحْوِ ذلك، ومنهُ سُمِّيَ القَليبُ قَليبًا؛ لأَنَّهُ أَخْرَجَ قلبَهُ وهو باطِنُهُ، وعلى هذا فإذا أُريدَ بالقلبِ هذا، فالعَقْلُ مُتَعَلِّقٌ بِدِماغِهِ أَيضًا؛ ولِهذا قيلَ: إنَّ العَقْلَ في الدِّماغِ، كما يَقُولُهُ كثيرٌ من الأَطِبَّاءِ، ونُقِلَ ذلك عن الإمامِ أَحْمَد، ويَقُولُ طائِفَةٌ من أَصْحابِهِ: إنَّ أَصْلَ العَقْلِ في القلبِ، فإذا كَمُلَ انْتَهَى إلى الدِّماغِ.

والتَّحْقيقُ: أنَّ الرُّوحَ التي هيَ النَّفْسُ لَها تَعَلُّقٌ بِهذا وهذا، وما يَتَّصِفُ من العَقْلِ به يَتَعَلَّقُ بِهذا وهذا، لَكِنَّ مَبْدَأَ الفِكْرِ والنَّظَرِ في الدِّماغِ، ومَبْدَأَ الإرادَةِ في القلبِ.

والعَقْلُ يُرادُ به العِلْمُ، ويُرادُ به العَمَلُ، فالعِلْمُ والعَمَلُ الِاخْتياريُّ أَصْلُهُ الإرادَةُ، وأَصْلُ الإرادَةِ في القلبِ، والمُريدُ لا يكونُ مُريدًا إلَّا بَعْدَ تَصَوُّرِ المُرادِ، فلا بُدَّ أَن يكونَ القلبُ مُتَصَوِّرًا، فَيكونُ منهُ هذا وهذا، ويَبْتَدِئُ ذلك من الدِّماغِ، وآثارُهُ صاعِدَةٌ إلى الدِّماغِ، فمنهُ المُبْتَدَأُ، وإليهِ الِانْتِهاءُ، وكِلا القَولَينِ له وجْهٌ صَحيحٌ، واللهُ أَعْلَمُ»[١].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَصَلاحُ القلبِ وحَقُّهُ، والذي خُلِقَ من أَجْلِهِ، هو أَن يَعْقِلَ الأَشْياءَ، لا أَقُولُ أَن يَعْلَمَها فقَط، فَقَد يَعْلَمُ الشَّيءَ مَن لا يكونُ عاقِلًا له، بَل غافِلًا عنهُ، مُلْغيًا له، والذي يَعْقِلُ الشَّيءَ هو الذي يُقَيِّدُهُ، ويَضْبُطُهُ، ويَعيهِ، ويُثْبِتُهُ في قلبِهِ، فَيكونُ وقْتَ الحاجَةِ إليهِ غَنيًّا، فَيُطابِقُ عَمَلُهُ قَولَهُ، وباطِنُهُ ظاهِرَهُ، وذلك هو الذي أُوتيَ الحِكْمَةَ»[٢].

وقال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «احْتَجَّ القائِلُونَ بِأَنَّهُ في الدِّماغِ: بِأَنَّهُ إذا فَسَدَ الدِّماغُ، فَسَدَ العَقْلُ، ويكونُ من فَسادِ الدِّماغِ الصَّرَعُ، في زَعْمِهِم، ولا حُجَّةَ لهم في ذلك؛ لأَنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى أَجْرَى العادَةَ بِفَسادِ العَقْلِ عندَ فَسادِ الدِّماغِ، مع أَنَّ العَقْلَ ليس فيهِ، ولا امْتِناعَ من ذلك»[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٩).

(٣) شرح النووي على مسلم (١١/ ٢٩).

وقال ابنُ عثيمينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هَلِ العقلُ في الدِّماغِ، أو العقلُ في القَلبِ؟

قال بعضُ الناسِ: في القلبِ، وقال بعضُ الناسِ: في الدِّماغِ، وكلٌّ منهُم له دَليلٌ، الذينَ قالُوا: إنَّه في القلبِ قالُوا: لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿**أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ**﴾ [الحج: ٤٦].

قال: ﴿**قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ**﴾، ثمَّ قال: ﴿**تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ**﴾.

إذًا: العقلُ في القلبِ، والقلبُ في الصَّدرِ، فكان العقلُ في القلبِ.

وقال بعضُهُم: بلِ العقلُ في الدِّماغِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا اختَلَّ دماغُهُ، اختَلَّ تصرُّفُه؛ ولأنَّنا نشاهِدُ في الزمَنِ الأخيرِ الرَّجلَ يُزالُ قلبُهُ، ويُزرَعُ له قلبٌ جديدٌ، ونجدُ عقلَه لا يختلفُ، عقلُهُ وتفكيرُه هو الأوَّلُ.

نَجدُ إنسانًا يُزرَعُ له قلبُ شخصٍ مجنونٍ، لا يُحسِنُ يتصرَّفُ، ويبقَى هذا الذي زُرِعَ فيه القلبُ عاقلًا! فكيفَ يكونُ العقلُ في القلبِ؟ إذًا: العقلُ في الدماغِ؛ لأنَّه إذا اختلَّ الدماغُ، اختلَّ التَّصرُّفُ، واختلَّ العقلُ.

ولكنَّ بعضَ أهلِ العلمِ قال: إنَّ العقلَ في القلبِ، ولا يُمكنُ أن نَحيدَ عمَّا قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى هو الخالِقُ، وهوَ أعلَمُ بمخلوقِهِ من غيرِهِ، كما قال تعالى: ﴿**أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ**﴾ [الملك: ١٤]؛ ولأنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: «**ألا وإنَّ في الجَسدِ مُضغَةً، إذا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كلُّهُ، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كلُّهُ**» .

فالعقلُ في القلبِ، والقلبُ في الصَّدرِ، لكنَّ الدِّماغَ يَستقبلُ، ويتصوَّرُ، ثمَّ يُرسلُ هذا التصوُّرَ إلى القلبِ؛ لينظرَ أوامرَهُ، ثمَّ ترجِع الأوامرُ منَ القلبِ إلى الدماغِ، ثمَّ يُنفِّذ الدماغُ.

إذًا: الدماغُ بمنزلةِ السكرتيرِ، ينظِّمُ المعاملاتِ، ويرتِّبُها، ثمَّ يُرسلُها إلى القلبِ، إلى المسؤولِ الذي فوقَه.

هذا القلبُ يُوقِّعُ، يمضي، أو يردُّ، ثمَّ يدفَعُ المُعاملةَ إلى الدماغِ، والدماغُ يأمُرُ الأعصابَ، وتتمَشَّى، وهذا القولُ هو الذي تطمئِنُّ إليهِ النَّفسُ، وهوَ المُوافقُ للواقِعِ، وقد أشارَ إليهِ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كُتُبِه، والإمامُ أحمَدُ أشارَ إليهِ إشارةً عامةً؛ فقال: محَلُّ العقلِ القلبُ، ولَه اتِّصالٌ بالدماغِ.

لكنَّ التفصيلَ الأوَّلَ واضحٌ جدًّا، الذي يقبلُ الأشياءَ، ويتصوَّرُها، ويمحِّصُها هو الدماغُ، ثمَّ يُرسلُ النتيجَةَ إلى القلبِ، ثمَّ القلبُ يأمُرُ: إمَّا بالتنفيذِ، وإمَّا بالمَنعِ؛ لقولِ الرسولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كلُّهُ، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كلُّهُ**»[١].

وقال -أيضًا- رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذِه مسألةٌ أُشكِلَت على كثيرٍ منَ النظَّارِ الذينَ ينظُرُونَ إلى الأمورِ نظرةً ماديَّةً، لا يرجِعُونَ فيها إلى قولِ اللهِ تعالى، وقولِ رسُولِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإلَّا فالحقيقةُ أنَّ الأمرَ فيها واضحٌ، أنَّ العقلَ في القلبِ، وأنَّ القلبَ في الصَّدرِ، ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ**﴾ وقال: ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ**﴾ [الحج: ٤٦]، ولم يَقُلْ: القلوبَ التي في الأدمِغَةِ، قال: ﴿**ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ**﴾، فالأمرُ فيه واضحٌ جدًّا: أنَّ العقلَ يكُونُ في القلبِ»[٢].



(١) مجموع فتاوَى ورسائل العثيمين (٧/ ٢٩٩).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٤١).

الحديثُ الأولُ:

عنِ النُّعْمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رسولَ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ -وأَهْوَى النُّعْمانُ بِإِصْبَعَيهِ إلى أُذُنَيهِ-: **«إنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ، وإنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ، وبينَهُما مُشْتَبِهاتٌ، لا يَعْلَمُهُنَّ كثيرٌ منَ الناسِ، فمَنِ اتَّقَى الشُّبُهاتِ، اسْتَبْرَأَ لِدينِه، وعِرْضِه، ومَن وقَعَ في الشُّبُهاتِ، وقَعَ في الحَرامِ، كالراعي يَرْعَى حَولَ الحِمَى، يُوشِكُ أَن يَرْتَعَ فيهِ، أَلا وإنَّ لِكلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا وإنَّ حِمَى اللّهِ مَحارِمُهُ، أَلا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَت، صَلَحَ الجَسَدُ كلُّهُ، وإذا فَسَدَت، فَسَدَ الجَسَدُ كلُّهُ، أَلا وهيَ القلبُ»**[١].

وهذا الحديثُ من جُملةِ الأَحاديثِ الكليَّةِ، التي يكونُ عليها مَدارُ الدِّينِ.

قال الإمامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أُصُولُ الإسلامِ على ثَلاثةِ أَحاديثَ: حديثُ عُمَرَ: «**الأَعْمالُ بالنِّيَّاتِ**»، وحديثُ عائِشَةَ: «**مَن أَحْدَثَ في أَمْرِنا هذا ما ليس منهُ، فهُو رَدٌّ**»، وحديثُ النُّعمانِ ابنِ بَشيرٍ: «**الحَلالُ بَيِّنٌ، والحَرامُ بَيِّنٌ**».

وعن إسْحاقَ بنِ راهَوَيهِ، قال: «أَرْبَعَةُ أَحاديثَ هيَ من أُصُولِ الدِّينِ: حديثُ عُمَرَ: «**إنَّما الأَعْمالُ بالنِّيَّاتِ**»، وحديثُ: «**الحَلالُ بَيِّنٌ، والحَرامُ بَيِّنٌ**»، وحديثُ: «**إنَّ خَلْقَ أَحَدِكُم يُجْمَعُ في بَطْنِ أُمِّهِ**»، وحديثُ: «**مَن صَنَعَ في أَمْرِنا شَيئًا ليس منهُ، فهُو رَدٌّ**»[٢].

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، واللفظ له.

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٦١).

قولهُ ﷺ: «إنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ، وإنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ»:

يعني أنَّ الحَلالَ المَحْضَ بَيِّنٌ لا اشْتِباهَ فيهِ، وكذلك الحَرامُ المَحْضُ.

فالحَلالُ البَيِّنُ: مِثْلُ أَكْلِ الطَّيِّباتِ منَ الزُّرُوعِ، والثِّمارِ، وبَهيمَةِ الأَنْعامِ، وشُرْبِ الأَشْرِبَةِ الطَّيِّبَةِ، ولِباسِ ما يُحْتاجُ إليهِ منَ القُطْنِ، والكَتَّانِ، أَوِ الصُّوفِ، أَوِ الشَّعْرِ، وكالنِّكاحِ، والتَّسَرِّي، وغيرِ ذلك، إذا كان اكْتِسابُهُ بِعَقْدٍ صَحيحٍ، كالبَيعِ، أَو بِميراثٍ، أَو هِبَةٍ، أَو غَنيمَةٍ.

والحَرامُ المَحْضُ مِثْلُ: أَكْلِ المَيتَةِ، والدَّمِ، ولَحْمِ الخِنْزيرِ، وشُرْبِ الخَمْرِ، ونِكاحِ المَحارِمِ، ولِباسِ الحَريرِ لِلرِّجالِ، ومِثْلُ: الأَكْسابِ المُحَرَّمَةِ، كالرِّبا، والمَيسِرِ، وثَمَنِ ما لا يَحِلُّ بَيعُهُ، وأَخْذِ الأَمْوالِ المَغْصُوبَةِ: بِسَرِقَةٍ، أَو غَصْبٍ، أَو تَدْليسٍ، أَو نَحْوِ ذلك[١].

«وَبينَهُما مُشْتَبِهاتٌ»:

أَي: شُبِّهَت بِغيرِها، مِمَّا لم يَتَبَيَّن به حُكْمُها على التَّعْيينِ[٢].

فَما تَرَكَ اللهُ ورسولُهُ حَلالًا إلَّا مُبَيَّنًا، ولا حَرامًا إلَّا مُبَيَّنًا، لَكِنَّ بعضَهُ كان أَظْهَرَ بَيانًا من بعضٍ، فَما ظَهَرَ بَيانُهُ، واشْتَهَرَ، وعُلِمَ منَ الدِّينِ بالضَّرُورَةِ من ذلك، لم يَبْقَ فيه شَكٌّ، ولا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهْلِهِ في بَلَدٍ يَظْهَرُ فيه الإسلامُ، وما كان بَيانُهُ دُونَ ذلك، فمنهُ ما اشْتهرَ بينَ حَمَلَةِ الشَّريعَةِ خاصَّةً، فَأَجْمَعَ العُلَماءُ على حِلِّهِ، أَو حُرْمَتِهِ، وقد يَخْفَى على بعضِ مَن ليس منهُم، ومنهُ ما لم يَشْتَهِر بينَ حَمَلَةِ الشَّريعَةِ أَيضًا، فاخْتَلَفُوا في تَحْليلِهِ وتَحْريمِهِ[٣].

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٩٤).

(٢) فتح الباري (١/ ١٢٧).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٦).

«لا يَعْلَمُهُنَّ كثيرٌ منَ الناسِ»:

قال الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَي: أنَّها تَشْتَبِهُ على بعضِ الناسِ دُونَ بعضٍ، ولَيسَ أنَّها في ذَواتِ أَنْفُسِها مُشْتَبِهَةٌ، لا بَيانَ لَها في جُمْلَةِ أُصُولِ الشَّريعَةِ؛ فإنَّ اللهَ سُبْحانَهُ لم يَتْرُك شَيئًا يَجِبُ له فيه حُكْمٌ إلَّا وقد جَعَلَ فيه له بَيانًا، ونَصَبَ عليهِ دَليلًا، ولَكِنَّ البَيانَ ضَرْبانِ: بَيانٌ جَليٌّ يَعْرِفُهُ عامَّةُ الناسِ، وخَفيٌّ لا يَعْرِفُهُ إلَّا الخاصُّ منَ العُلَماءِ.

والدَّليلُ على صِحَّةِ ما قُلْنا: قولهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «لا يَعْلَمُها كثيرٌ» وقد عُقِلَ بِبَيانِ فَحواهُ أنَّ بعضَ الناسِ يَعْرِفُونَها، وإن كانُوا قَليلي العَدَدِ.

وإذا صارَ مَعْلُومًا عندَ بعضِهِم، فَلَيسَ بِمُشْبِهٍ في نَفْسِهِ»[1]

«فَمَن اتَّقى الشُّبُهاتِ»:

أَي: حَذِرَ منها، وحَفِظَ نَفسَهُ عَنها؛ فترَكَ ما يَشْتَبِهُ عليهِ.

«اسْتَبْرَأَ لِدينِه، وعِرْضِه»:

أَي: حَصَلَ له البَراءَةُ لِدينِهِ منَ الذَّمِّ الشَّرْعيِّ، وصانَ عِرْضَهُ عن كَلامِ الناسِ فيهِ[2].

وقال ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «طَلَبَ البَراءَةَ لِدينِهِ، وعِرْضِهِ، منَ النَّقْصِ، والشَّينِ، والعِرْضُ: هو مَوضِعُ المَدْحِ، والذَّمِّ، منَ الإنْسانِ، وما يَحْصُلُ له بِذِكْرِهِ بالجَميلِ مَدْحٌ، وبِذِكْرِهِ بالقَبيحِ قَدْحٌ، وقد يكونُ ذلك تارَةً في نَفْسِ الإنْسانِ، وتارَةً في سَلَفِهِ، أَو في أهلِهِ، فَمَنِ اتَّقى الأُمُورَ المُشْتَبِهَةَ واجْتَنَبَها، فَقَد حَصَّنَ عِرْضَهُ منَ القَدْحِ والشَّينِ الداخِلِ على مَن لا يَجْتَنِبُها، وفي هذا دَليلٌ على أنَّ مَنِ ارْتَكَبَ الشُّبُهاتِ، فَقَد

---

(١) معالم السنن (٣/ ٥٦)، باختصار.

(٢) شرح النووي على مسلم (١١/ ٢٨).

عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْقَدْحِ فيه والطَّعْنِ، كما قال بعضُ السلفِ: «مَن عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلتُّهَمِ، فلا يَلُومَنَّ مَن أَساءَ به الظَّنَّ».

وفي روايةٍ لِلتِّرْمِذيِّ في هذا الحديثِ: «**فَمَن تَرَكَها اسْتِبْراءً لِدينِهِ، وعِرْضِهِ، فَقَد سَلِمَ**»[١].

والمعنى: أنَّهُ يَتْرُكُها بِهذا القَصْدِ -وَهُوَ بَراءَةُ دينِهِ، وعِرْضِهِ عنِ النَّقْصِ- لا لِغَرَضٍ آخَرَ فاسدٍ من رياءٍ، ونَحْوِهِ.

وفيهِ دَليلٌ على أنَّ طَلَبَ البَراءَةِ لِلْعِرْضِ مَمْدُوحٌ، كَطَلَبِ البَراءَةِ لِلدِّينِ»[٢].

ثمَّ قال: **«وَمَن وقَعَ في الشُّبُهاتِ، وقَعَ في الحَرامِ».**

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**يَحْتَمِلُ وجْهَينِ**:

أَحَدُهُما: أَنَّهُ من كثرةِ تَعاطيهِ الشُّبُهاتِ يُصادِفُ الحَرامَ، وإن لم يَتَعَمَّدْهُ، وقد يَأْثَمُ بِذلك، إذا نُسِبَ إلى تَقْصيرٍ.

والثاني: أَنَّهُ يَعْتادُ التَّساهُلَ، ويَتَمَرَّنُ عليهِ، ويَجْسُرُ على شُبْهَةٍ ثُمَّ شُبْهَةٍ أَغْلَظَ منها، ثُمَّ أُخْرَى أَغْلَظَ وهكذا، حَتَّى يَقَعَ في الحَرامِ عَمْدًا، وهذا نَحْوَ قَولِ السلفِ: «المَعاصي بَريدُ الكفرِ» أَي: تَسُوقُ إليهِ، عافانا اللهُ تعالى منَ الشَّرِّ»[٣].

ثُمَّ بيَّن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ذلك بمَثَلٍ ضَرَبَهُ، فقال**: **«كالراعي يَرْعَى حَولَ الحِمَى، يُوشِكُ أَن يَرْتَعَ فيهِ، أَلا وإنَّ لِكلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا وإنَّ حِمَى اللّهِ مَحارِمُهُ»**:

---

(١) رواه الترمذي (١٢٠٥)، وصححه، وصححه الألباني.
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٠٣).
(٣) شرح النووي على مسلم (١١/ ٢٩).

«هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لِمَن وقَعَ في الشُّبُهاتِ، وأنَّهُ يَقْرُبُ وُقُوعَهُ في الحَرامِ المَحْضِ، وفي بعضِ الرِّواياتِ: أنَّ النبيَّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**سَأَضْرِبُ لَكُم مَثَلًا**»[١]، ثُمَّ ذَكَرَ هذا الكَلامَ، فَجَعَلَ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مَثَلَ المُحَرَّماتِ كالحِمَى الذي يَحْميهِ المُلُوكُ، ويَمْنَعُونَ غيرَهُم من قُرْبانِهِ.

واللهُ عَزَّوَجَلَّ حَمَى هذه المُحَرَّماتِ، ومَنَعَ عِبادَهُ من قُرْبانِها، وسَمَّاها حُدُودَهُ، فقال: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ١٨٧]، وهذا فيه بَيانٌ أنَّهُ حَدَّ لهم ما أَحَلَّ لهم، وما حَرَّمَ عليهِم، فلا يَقْرَبُوا الحَرامَ، ولا يَعْتَدُوا الحَلالَ، وكذلك قال في آيةٍ أُخْرَى: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وجَعَلَ مَن يَرْعَى حَولَ الحِمَى، وقَريبًا منهُ، جَديرًا بِأَن يَدْخُلَ الحِمَى، ويَرْتَعَ فيهِ؛ فَلذلك مَن تَعَدَّى الحَلالَ، ووَقَعَ في الشُّبُهاتِ، فإنَّهُ قَد قارَبَ الحَرامَ غايَةَ المُقارَبَةِ، فَما أَخْلَقَهُ بِأَن يُخالِطَ الحَرامَ المَحْضَ، ويَقَعَ فيهِ، وفي هذا إشارَةٌ إلى أنَّهُ يَنْبَغي التَّباعُدُ عنِ المُحَرَّماتِ، وأَن يَجْعَلَ الإنْسانُ بينَهُ وبينَها حاجِزًا»[٢].

ثُمَّ قال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«ألَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً»:**

المُضْغةُ: القِطْعةُ منَ اللحمِ، قَدْرَ ما يُمْضَغُ، وجَمْعُها: مُضَغٌ[٣]، **قال النوويُّ** رَحِمَهُٱللَّهُ: «قالُوا: المُرادُ: تَصْغيرُ القلبِ بالنِّسْبَةِ إلى باقي الجَسَدِ، مع أنَّ صَلاحَ الجَسَدِ، وفَسادَهُ، تابِعانِ لِلْقلبِ»[٤].

---

(١) رواه الطحاويُّ في شرح مشكل الآثار (٧٤٩).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٣) النهاية (٤/ ٣٣٩).

(٤) شرح النووي على مسلم (١١/ ٢٩).

«إذا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كلُّه، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كلُّه، أَلا وهيَ القلبُ».

قال النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال أهلُ اللُّغَةِ: يُقالُ: صلَحَ الشيءُ، وفسَدَ، بِفَتْحِ اللامِ والسِّينِ، وضَمِّهِما، والفَتْحُ أَفْصَحُ وأَشْهَرُ»[1].

وفي الحديثِ: «إشارَةٌ إلى أنَّ صَلاحَ حَرَكاتِ العبدِ بِجَوارِحِهِ، واجْتِنابَهُ المُحَرَّماتِ، واتِّقاءَهُ لِلشُّبَهاتِ، بِحَسَبِ صَلاحِ حَرَكَةِ قلبِهِ. فإذا كان قلبُهُ سَليمًا، ليس فيه إلَّا مَحَبَّةُ اللهِ، ومَحَبَّةُ ما يُحِبُّهُ اللهُ، وخَشْيَةُ اللهِ، وخَشْيَةُ الوُقُوعِ فيما يَكْرَهُهُ، صَلَحَت حَرَكاتُ الجَوارِحِ كلِّها، ونَشَأَ عن ذلك اجْتِنابُ المُحَرَّماتِ كلِّها، وتَوَقٍّ لِلشُّبَهاتِ؛ حَذَرًا منَ الوُقُوعِ في المُحَرَّماتِ.

وإن كان القلبُ فاسدًا، قَدِ اسْتَولى عليهِ اتِّباعُ هَواهُ، وطَلَبُ ما يُحِبُّهُ، ولو كَرِهَهُ اللهُ، فَسَدَت حَرَكاتُ الجَوارِحِ كلِّها، وانْبَعَثَت إلى كلِّ المَعاصي، والمُشْتَبِهاتِ، بِحَسَبِ اتِّباعِ هَوَى القلبِ؛ ولِهذا يُقالُ: القلبُ مَلِكُ الأَعْضاءِ، وبَقِيَّةُ الأَعْضاءِ جُنُودُهُ، وهُم مع هذا جُنُودٌ طائِعُونَ له، مُنْبَعِثُونَ في طاعَتِهِ، وتَنْفيذِ أَوامِرِهِ، لا يُخالِفُونَهُ في شَيءٍ من ذلك، فإن كان المَلِكُ صالِحًا، كانَت هذه الجُنُودُ صالِحَةً، وإن كان فاسدًا، كانَت جُنُودُهُ بِهذه المَثابَةِ فاسدَةً، ولا يَنْفَعُ عندَ اللهِ إلَّا القلبُ السَّليمُ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

والقلبُ السَّليمُ: هو السالِمُ منَ الآفاتِ، والمَكْرُوهاتِ كلِّها، وهو القلبُ الذي ليس فيه سِوَى مَحَبَّةِ اللهِ، وما يُحِبُّهُ اللهُ، وخَشْيَةِ اللهِ، وخَشْيَةِ ما يُباعِدُ منهُ.

وأَعْمالُ الجَوارِحِ لا تَسْتَقيمُ إلَّا بِاسْتِقامَةِ القلبِ، ومعنى اسْتِقامَةِ القلبِ: أَن يكونَ مُمْتَلِئًا من مَحَبَّةِ اللهِ، ومَحَبَّةِ طاعَتِهِ، وكَراهَةِ مَعْصيَتِهِ.

---

(١) شرح النووي على مسلم (١١/ ٢٨).

فلا صَلاحَ لِلْقلوبِ حَتَّى يَسْتَقِرَّ فيها مَعْرِفَةُ اللهِ، وعَظَمَتُهُ، ومَحَبَّتُهُ، وخَشْيَتُهُ، ومَهابَتُهُ، ورَجاؤُهُ، والتَّوَكُّلُ عليهِ، وتَمْتَلِئَ من ذلك، وهذا هو حَقيقَةُ التَّوحيدِ، وهو معنى قَولِ: «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، فلا صَلاحَ لِلْقلوبِ حَتَّى يكونَ إِلَهُها الذي تَأْلَهُهُ، وتَعْرِفُهُ، وتُحِبُّهُ، وتَخْشاهُ، هو اللهَ وحْدَهُ لا شَريكَ له، ولو كان في السَّماواتِ، والأَرْضِ، إِلَهٌ يُؤَلَّهُ سِوَى اللهِ، لَفَسَدَت بِذلك السَّماواتُ، والأَرْضُ، كما قال تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

فَعُلِمَ بِذلك: أَنَّهُ لا صَلاحَ لِلْعالَمِ العُلْويِّ والسُّفْلِيِّ مَعًا، حَتَّى تَكُونَ حَرَكاتُ أهلِها كلُّها للهِ، وحَرَكاتُ الجَسَدِ تابِعَةٌ لِحَرَكَةِ القلبِ، وإرادَتِهِ، فإن كانَت حَرَكَتُهُ، وإرادَتُهُ، للهِ وحْدَهُ، فَقَد صَلَحَ وصَلَحَت حَرَكاتُ الجَسَدِ كلِّهُ، وإن كانَت حَرَكَةُ القلبِ، وإراداتُهُ، لِغيرِ اللهِ تعالى، فَسَدَ، وفَسَدَت حَرَكاتُ الجَسَدِ بِحَسَبِ فَسادِ حَرَكَةِ القلبِ»[1].

وقد روى مَعْمَرٌ في جامِعِه، عن عاصِمِ بنِ أَبي النَّجُودِ، عن أَبي صالِحٍ، عن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «القلبُ مَلِكٌ، ولَهُ جُنُودٌ، فإذا صَلُحَ المَلِكُ، صَلُحَت جُنودُهُ، وإذا فَسَدَ المَلِكُ، فَسَدَت جُنودُهُ، الأُذُنانِ قَمْعٌ، والعَينانِ مَسْلَحَةٌ، واللِّسانُ تَرْجُمانٌ، واليَدانِ جَناحانِ، والرِّجْلانِ بَريدانِ، والكَبِدُ رَحْمَةٌ، والطِّحالُ والكُلْيَتانِ مَكْرٌ، والرِّئَةُ نَفَسٌ، فإذا صَلُحَ المَلِكُ، صَلُحَت جُنودُهُ، وإذا فَسَدَ المَلِكُ، فَسَدَت جُنودُهُ»[2].

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «اعْتِقادُ القلبِ أَصْلٌ لِقَولِ اللِّسانِ، وعَمَلُ القلبِ أَصْلٌ لِعَمَلِ الجَوارِحِ، والقلبُ هو مَلِكُ البَدَنِ، ومَن كان بِأُمُورِ القلبِ أَعْلَمَ، كان أَعْلَمَ به، وأَعْلَمَ بِمَعاني القرآنِ، والحديثِ»[3].

وقال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «**فَأَمَّا القلبُ**: فهُو المَلِكُ المُسْتَعْمِلُ لِجَميعِ آلاتِ البدنِ،

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٢١٠-٢١٢)، باختصار.

(٢) جامع معمر بن راشد (٢٠٣٧٥)، ومن طريقه رواه البيهقي في الشعب (١٠٨)، وإسناده حسن.

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٣٤).

والمستخدمُ لَها، فهُو محفُوفٌ بها، محشُودٌ، مخدومٌ، مُسْتَقِرٌّ في الوسطِ، وهو أشرفُ أعضاءِ البدنِ، وبِه قوامُ الحَياةِ، وهو منبعُ الرُّوحِ الحيوانيِّ، والحرارَةِ الغريزيَّةِ، وهو مَعْدِنُ العقلِ، والعلمِ، والحِلْمِ، والشجاعَةِ، والكَرمِ، والصَّبْرِ، والاِحْتِمالِ، والحبِّ، والإرادةِ، والرِّضا، والغَضَبِ، وسائِرِ صِفاتِ الكمالِ، فَجَميعُ الأعضاءِ الظاهِرَةِ، والباطنةِ، وقواها إنَّما هيَ جندٌ من أجنادِ القلبِ، فإنَّ العينَ طليعَتُه، ورائِدُه، الذي يكْشف له المرئيَّاتِ، فإن رَأَت شَيئًا، أدَّته إليه، ولشدَّةِ الارتباطِ الذي بينها وبينَهُ، إذا اسْتَقرَّ فيه شَيءٌ، ظهَرَ فيها، فَهيَ مرآتُهُ المُترجمَةُ للنَّاظِرِ ما فيهِ، كما أن اللِّسان تَرجُمانُه المُؤَدِّي للسَّمعِ ما فيهِ؛ ولهذا كثيرًا ما يَقرنُ سُبْحانَهُ في كِتابه بينَ هَذِه الثَّلاث، كَقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقَولِه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقَوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨]، وكذلك يَقرِنُ بين القلبِ، والبَصَرِ، كَقَولِه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقَولِه في حقِّ رسولِه محمدٍ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]، ثمَّ قال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، وكذلك الأُذُنُ هيَ رسولُه المُؤَدِّي إليهِ، وكذلك اللِّسانُ تَرجُمانُه، وبِالجُمْلَةِ: فسائرُ الأعضاءِ خَدَمُه، وجُنُودُه»(١).

وهذا الحديثُ من أصَحِّ وأجَلِّ الأحاديثِ الوارِدَةِ في القلْبِ، وفضلِهِ، وبَيانِ قدْرِه، وعَظيمِ خَطَرِه، مِمَّا يَبعثُ على وُجوبِ العِنايَةِ به، والنّظرِ في صَلاحِهِ، ولا يَكونُ ذلك إلَّا بِتقوَى اللهِ، والعَملِ الصالحِ.

فَيأتي المُسلمُ ما أمرَ اللهُ، ويَجتنِبُ ما حَرّمَ اللهُ، ويستبرِئُ لِدينِهِ وعِرضِهِ بِتَرْكِ ما اشْتبهَ عَليهِ، وبذلك يتمُّ صلاحُ قلبِه، فَيحيا حَياةً طيبَةً، بِملازمَةِ التّقوَى، والمُسارعَةِ في الخَيراتِ.



---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٩٣).

الحديث الثاني:

عن أَبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسولُ اللّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«لا تُكْثِرُوا الضَّحِكَ؛ فإنَّ كثرةَ الضَّحِكِ تُميتُ القلبَ»**[١].

الضَّحِكُ: قال أهلُ اللُّغَةِ: هو انْبِساطُ الوَجْهِ، حَتَّى تَظْهَرَ الأَسْنانُ منَ السُّرُورِ، فإن كان بِصَوتٍ، وكان بِحَيثُ يُسْمَعُ من بُعْدٍ؛ فهُو القَهْقَهَةُ، وإلَّا: فهُو الضَّحِكُ، وإن كان بِلا صَوتٍ؛ فهُو التَّبَسُّمُ، والتَّبَسُّمُ مَبادِئُ الضَّحِكِ، وتُسَمَّى الأَسْنانُ في مُقَدَّمِ الفَمِ الضَّواحِكَ، وهيَ الثَّنايا، والأَنْيابُ، وما يَليها، وتُسَمَّى النَّواجِذُ[٢].

وكان ضَحِكُ رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **التَّبَسُّمَ**: فعن عائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالتْ: «**ما رَأَيتُ النبيَّ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **مُسْتَجْمِعًا قَطُّ ضاحِكًا، حَتَّى أَرَى منهُ لَهَواتِهِ، إنَّما كان يَتَبَسَّمُ**»[٣].

«مُسْتَجْمِعًا قَطُّ ضاحِكًا»:

المُسْتَجْمِعُ: المُجِدُّ في الشَّيءِ، القاصِدُ له، يُقالُ: اسْتَجْمَعَ السَّيلُ: اجْتَمَعَ من كلِّ مَوضِعٍ، **والمعنى**: أَي: مُبالِغًا في الضَّحِكِ، لم يَتْرُك منهُ شَيئًا.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٥)، وابنُ ماجه (٤١٩٣)، وأحمد (٨٠٩٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٥٣)، والطبراني في الأوسط (٧٠٥٤)، والبيهقي في الشُّعَب (٥٣٦٦) من طرق، عن أبي هريرة به مرفوعًا. وفي رواية للبخاري في الأدب المفرد (٢٥٢): «أَقِلَّ الضحكَ؛ فإنَّ كثرةَ الضحكِ تُميتُ القلبَ»، والحديث صححه البُوصيري في مصباحِ الزجاجةِ (٤/ ٢٣٣)، وكذا صححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

(٢) فتح الباري (١٠/ ٥٠٤).

(٣) رواه البخاري (٦٠٩٢)، ومسلم (٨٩٩).

واللهَواتُ: جَمْعُ لَهَاةٍ، وهيَ: اللَّحْمَةُ التي بِأَعْلى الحَنْجَرَةِ من أَقْصَى الفَمِ[١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ الحارِثِ بنِ جَزْءٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «**ما رَأَيتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تبَسُّمًا من رسولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٢].

وفي لَفْظٍ لِلتِّرْمذيِّ: «**ما كان ضَحِكُ رسولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إلَّا تَبَسُّمًا**»[٣].

قال الحافِظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذي يَظْهَرُ من مَجْمُوعِ الأَحاديثِ: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في مُعْظَمِ أَحْوالِهِ لا يَزيدُ على التَّبسُّمِ، ورُبَّما زادَ على ذلك فَضَحِكَ، والمَكْرُوهُ من ذلك: إنَّما هو الإكْثارُ منهُ، أَوِ الإفْراطُ فيهِ؛ لأَنَّهُ يُذْهِبُ الوَقارَ»[٤].

فهذا التَّبَسُّمُ يُفيدُ: الوَقارَ، والمُلاطَفَةَ، والمُؤانَسَةَ، وهو دَليلُ اعْتِدالِ المزاجِ، وصَفاءِ الطَّوِيَّةِ؛ لذلك كان التَّبَسُّمُ في وجْهِ المسلمِ صَدَقَةً.

أَمَّا كثرةُ الضَّحِكِ، والقَهْقَهَة: فَيَدُلُّ على انْحِرافٍ في الطَّبْعِ، وغَفْلَةٍ في القلبِ، تُورِثُهُ قَسْوَةً، فلا يَتَخَلَّلُهُ الوَعْظُ، ولا يَنْتَفِعُ بالذِّكْرِ، الذي هو حَياةُ القلبِ.

وقال المُناويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الضَّحِكُ: كَيفيَّةٌ يَحْصُلُ منها انْبِساطٌ في القلبِ، مِمَّا يُعْجِبُ الإنْسانَ منَ السُّرُورِ، ويَظْهَرُ ذلك في الوَجْهِ، والإكْثارُ منهُ مُضِرٌّ بالقلبِ، مَنْهيٌّ عنهُ شَرْعًا، وهو من فِعْلِ السُّفَهاءِ، والأَراذِلِ، مُوَرِّثٌ لِلْأَمْراضِ النَّفْسانيَّةِ؛ ولِذا قال: «**فإنَّ كثرةَ الضَّحِكِ تُميتُ القلبَ**» أَي: تُصَيِّرُهُ مَغْمُورًا في الظُّلُماتِ، بِمَنْزِلَةِ المَيِّتِ، الذي لا يَنْفَعُ نَفْسَهُ بِنافِعَةٍ، ولا يَدْفَعُ عنها شَيئًا من مَكْرُوهٍ.

وحَياتُهُ، وإشْراقُهُ، مادَّةُ كلِّ خَيرٍ، ومَوتُهُ، وظُلْمَتُهُ، مادَّةُ كلِّ شَرٍّ، وبِحَياتِهِ تَكُونُ قُوَّتُهُ، وسَمْعُهُ، وبَصَرُهُ، وتَصَوُّرُ المَعْلُوماتِ، وحَقائِقِها على ما هيَ عليهِ.

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٥٠٦).

(٢) رواه الترمذي (٣٦٤١)، وأحمد (١٧٧٠٤)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٣) سننُ الترمذي (٣٦٤٢)، وصححه الألباني.

(٤) فتح الباري (١٠/ ٥٠٥).

والضَّحِكُ المُميتُ لِلْقلبِ يَنْشَأُ منَ الفَرَحِ، والبَطَرِ، بالدنيا، ولِلْقلبِ حَياةٌ، ومَوتٌ، فَحَياتُهُ بِدَوامِ الطاعَةِ، ومَوتُهُ بِإجابَةِ غيرِ اللهِ منَ النَّفْسِ، والهَوَى، والشَّيطانِ، وبِتَواتُرِ أَسْقامِ المَعاصي تَمُوتُ الأَجْسامُ بِأَسْقامِها.

واقْتَصَرَ من أسبابِ مَوتِهِ على كثرةِ الضَّحِكِ، وهو يَنْشَأُ عن جَميعِها؛ لِانْتِشائِهِ من حُبِّ الدنيا.

وفي الحديثِ: إيذانٌ بالإذْنِ في قَليلِ الضَّحِكِ، لا سيَّما إذا كان في مَصْلَحَةٍ»[١].

وقال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كثرةُ الضَّحِكِ تُورِثُ قَساوَةَ القلبِ، وهيَ مُفْضيَةٌ إلى الغَفْلَةِ، ولَيسَ مَوتُ القلبِ إلَّا الغَفْلَةُ»[٢].

وقال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «كثرةُ الضَّحِكِ تُميتُ القلبَ إن كان حَيًّا، ويَزيدُ اسْوِدادًا إن كان مَيِّتًا»[٣].

وقال السِّنْديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تُميتُ القلبَ: أَي: تجعلُهُ قاسيًا، لا يَتَأَثَّرُ بالمَواعِظِ، كالمَيِّتِ»[٤].

وقال المُبارْكَفُوريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: تُصَيِّرُهُ بِمَنْزِلَةِ المَيِّتِ، الذي لا يَنْفَعُ نَفْسَهُ بِنافِعَةٍ، ولا يَدْفَعُ عنها مَكْرُوهًا، وهذا من جَوامِعِ الكَلِمِ»[٥].

وفي لَفْظٍ عندَ البَيهَقيِّ في الشُّعَبِ: «**وَإِيَّاكَ وكثرةَ الضَّحِكِ؛ فإنَّ في كثرةِ الضَّحِكِ فَسادُ القلبِ**»[٦].

---

(١) فيض القدير (١/ ١٢٤)، (٥/ ٥٢).

(٢) شرح المشكاة (١٠/ ٣١٣٣).

(٣) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٢٣٧).

(٤) حاشية السندي (٢/ ٥٤٨).

(٥) تُحْفَةُ الأَحْوَذي (٦/ ٤٨٧).

(٦) شعب الإيمان (١٠٦١٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٣٣).

فكثرةُ الضَّحِكِ تُميتُ القلبَ إماتَةً، فلا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، أو تُفْسِدُهُ إفْسادًا؛ فَيَرَى المُنْكَرَ مَعْرُوفًا، والمَعْرُوفَ مُنْكَرًا.

لماذا يموتُ القلبُ من كثرةِ الضَّحِكِ؟

* لأنَّ كثرةَ الضَّحِكِ تُورِثُهُ قَسْوَةً، تَمْنَعُهُ منَ الانتفاعِ بالآياتِ، والذِّكْرِ.

* ولأنَّ كثرةَ الضَّحِكِ تُورِثُهُ الغَفْلَةَ؛ فَيُصْرَفُ عن آياتِ اللهِ، قال اللهُ تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

* ولأنَّ كثرةَ الضَّحِكِ تَدُلُّ على الفَرَحِ، والبَطَرِ بالدنيا.

* ولأنَّ كثرةَ الضَّحِكِ تَسُوقُ إلى الأَفْعالِ السَّيِّئَةِ المَذْمُومَةِ؛ فإنَّ المُولَعَ بالضَّحِكَ، وكَثْرَتِهِ، لا يُبالي: صَدَقَ في حديثِهِ، أم كَذَبَ، فَعَلَ الخيرَ، أم الشَّرَّ، قال حَقًّا، أم قال باطِلًا؛ ولذلك قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَيلٌ لِلَّذي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ؛ لِيُضْحِكَ به القَومَ، ويلٌ لَهُ، ويلٌ لَهُ**»[1].

فَأَدَّاهُ وَلَعُهُ بالضَّحِكِ إلى الكَذِبِ؛ لِيُضْحِكَ الناسَ، فهذا: ويلٌ له، ويلٌ له.

فَتَعَدَّى ضَرَرُهُ إلى الخلقِ، بصفةٍ من أَسْوَأِ ما يَتَّصِفُ به الناسِ، وهيَ الكَذِبُ.

وقد جاءت نصوصُ الشَّريعَةِ بالحَثِّ على التِزامِ الجادَّةِ، والاِنْشِغالِ بِأَمْرِ الآخرةِ، والإقْلالِ منَ الضَّحِكِ، والمُزاحَةِ، واللهْوِ: فعن عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -في حديثِ الكُسُوفِ- عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**يا أُمَّةَ محمدٍ، واللهِ لَو تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُم قَليلًا، ولَبَكَيتُم كثيرًا**»[2].

---

(١) رواه أبوداود (٤٩٩٠)، والترمذي (٢٣١٥)، وأحمد (٢٠٠٤٦)، وهو حديث حسن.

(٢) رواه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

والمعنى: «لَو تَعْلَمُونَ من عِظَمِ انْتِقامِ اللهِ تعالى من أهلِ الجَرائِمِ، وشِدَّةِ عقابِهِ، وأَهْوالِ القيامَةِ، وما بعدها، كما عَلِمْتُ، وتَرَونَ النارَ كما رَأَيتُ في مَقامي هذا، وفي غيرِهِ؛ لَبَكَيتُم كثيرًا، ولَقَلَّ ضَحِكُكُمْ؛ لِفِكْرِكُم فيما عَلِمْتُمُوهُ»[١].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَومٍ يَضْحَكُونَ، ويَمْزَحُونَ؛ فقال: **«أَكْثِرُوا ذِكْرَ هاذِمِ اللَّذَّاتِ»**[٢].

فَشَبَّهَ اللَّذَّاتِ الفانيَةَ، والشَّهَواتِ العاجِلَةَ، ثُمَّ زَوالَها، بِبِناءٍ مرتفعٍ، يَنْهَدِمُ بِصَدَماتٍ هائِلَةٍ، ثُمَّ أَمَرَ المُنْهَمِكَ فيها بِذِكْرِ الهادِمِ؛ لِئَلَّا يَسْتَمِرَّ على الرُّكُونِ إليها، ويَشْتَغِلَ عمَّا يَجِبُ عليهِ منَ الفِرارِ إلى دارِ القَرارِ[٣].

وقد كان السلفُ يَعيبُونَ الضَّحِكَ من غيرِ سببٍ، ويَنْهَونَ عنِ الإكْثارِ منهُ: فعن جَعْفَرِ بنِ بُرْقانَ، قال: بَلَغَنا أنَّ سَلْمانَ الفارِسيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يَقُولُ: «أَضْحَكَني ثَلاثٌ، وأَبْكاني ثَلاثٌ: ضَحِكْتُ من مُؤَمِّلِ الدنيا، والمَوتُ يَطْلُبُهُ، وغافِلٍ لا يُغْفَلُ عنهُ، وضاحِكٍ مِلْءَ فيهِ، لا يَدْري: أَمُسْخِطٌ رَبَّهُ، أَو مُرْضيه.

وأَبْكاني ثَلاثٌ: فِراقُ الأَحِبَّةِ: محمدٍ، وحِزْبِهِ، وهَولُ المُطَّلَعِ عندَ غَمَراتِ المَوتِ، والوُقُوفُ بينَ يَدَي رَبِّ العالَمِينَ، حينَ لا أَدْري: إلى النارِ أَنْصَرِفُ، أَم إلى الجَنَّةِ»[٤].

---

(١) شرح النووي على مسلم (٦/ ٢٠١).

(٢) رواه البيهقي في الشُّعَبِ (٢/ ٢٤٧)، والبزار في مسنده (٦٩٨٧)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١١٨)، وتابَعَهُ الألباني على تحسينهِ في صحيح الترغيب.

و«هاذِمِ اللَّذَّاتِ» قال القاري: «بِالدالِ المُهْمَلَةِ في أَكْثَرِ النُّسَخِ المُعْتَمَدَةِ، وفي بعضِها بالذالِ المُعْجَمَةِ، واقْتصرَ عليه السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في حاشيةِ الترمذي، وفي القامُوسِ: هَذَمَ بالمُعْجَمَةِ: قَطَعَ وأَكَلَ بِسُرْعَةٍ، وبِالمُهْمَلَةِ: نَقَضَ البِناءَ» مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٣٥٣).

(٣) مرقاة المفاتيح (٣/ ١١٦٠).

(٤) رواه الإمام أحمد في الزهد (ص١٢٧)، ومن طريقه: أبو نُعَيمٍ في الحِلْيَةِ (١/ ٢٠٧).

وعنِ الحسنِ، قال: «كثرةُ الضَّحِكِ تُميتُ القلبَ»(١).

وعنهُ- أيضًا- قال: «ضَحِكُ المؤمنِ غَفْلَةٌ من قلبِهِ»(٢).

وهذا مَحْمُولٌ على الضَّحِكِ المَذْمُومِ، أَو كثرةِ الضَّحِكِ.

وقال عاصِمُ بنُ العَبَّاسِ الأَسَديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان سَعيدُ بنُ المُسَيِّبِ يُصافِحُ كلَّ مَن لَقيَهُ، وكان يَكْرَهُ كثرةَ الضَّحِكِ».

عن أَبي جَعْفَرٍ الباقِرِ رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: «إِيَّاكُم وكثرةَ الضَّحِكِ؛ فإِنَّهُ يَمُجُّ العِلْمَ مَجًّا»(٣).

وقال الأَحْنَفُ بنُ قَيسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كثرةُ الضَّحِكِ تُذْهِبُ الهَيبَةَ، وكثرةُ المَزْحِ تُذْهِبُ المُرُوءَةَ، ومَن لَزِمَ شَيئًا عُرِفَ به»(٤).

وعنِ الخَطَّابِ بنِ المُعَلَّى المَخْزُوميِّ القُرَشيِّ: أَنَّهُ وعَظَ ابنَهُ، فقال: «يا بُنَيَّ، عَلَيكَ بِتَقْوَى اللهِ، وطاعَتِهِ، وتَجَنُّبِ مَحارِمِهِ، وإِيَّاكَ وكثرةَ الضَّحِكِ، والمُزاحِ، ومُهازَلَةِ الإِخْوانِ؛ فإِنَّ ذلك يُذْهِبُ البَهاءَ، ويُوقِعُ الشَّحْناءَ، وعَلَيكَ بالرَّزانَةِ، والتَّوَقُّرِ، من غيرِ كِبْرٍ يُوصَفُ منْكَ، ولا خُيَلاءَ تُحْكَى عَنْكَ»(٥).

وقال بعضُ السلفِ: «مَن كَثُرَ ضَحِكُهُ، اسْتُخِفَّ به، وذَهَبَ بَهاؤُهُ»(٦).

وقال بعضُ العُلَماءِ: «كثرةُ الضَّحِكِ أَمارَةُ الحُمْقِ»(٧).

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٣٨) بسند صحيح.

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٥/ ٣٣٨) بسند صحيح.

(٣) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٢٣).

(٤) المُرُوءَةُ لابن المرزبان (ص١٢٤).

(٥) روضة العقلاء (ص١٩٨).

(٦) الآداب الشرعية (٢/ ٢٢٣).

(٧) وفيات الأعيان (٦/ ١٧٠).

وقال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كثرةُ الضَّحِكِ من خِفَّةِ الرُّوحِ، ونُقْصانِ العَقْلِ، بخلافِ التَّبَسُّمِ؛ فإنَّهُ من حُسْنِ الخُلُقِ، وكمالِ الإدْراكِ»(١).

وقال الراغِبُ الأَصْفَهانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إيرادُ المُضْحكاتِ على سَبيلِ السُّخْفِ نهايةُ القَباحَةِ، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَيلٌ لِلَّذي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ؛ ليُضْحِكَ القَومَ، ويلٌ لَهُ، ويلٌ لَهُ**»(٢).

وقال أَبو موسى بنُ الحسنِ بنِ عبدِ الصَّمَدِ:

الكِـبْرُ ذُلٌّ والتَّواضُـعُ رِفْعَـةٌ ... والمَزْحُ والضَّحِكُ الكثيرُ سُقُوطُ
والحِـرْصُ ذُلٌّ والقَناعَـةُ عِزَّةٌ ... واليَـأْسُ من صُنْعِ الإلَـهِ قُنُوطُ(٣)

وعن يَحْيَى بنِ أَبي كثيرٍ، قال: قال: سُلَيمانُ بنُ داوُدَ عليهما السَّلامُ لِابنِهِ: «يا بُنَيَّ، لا تُكْثِرِ الضَّحِكَ؛ فإنَّ كثرةَ الضَّحِكِ تَسْتَخِفُّ فُؤادَ الرَّجُلِ الحَكيمِ»(٤).



(١) هدايةُ الحيارى (٢/ ٣٦٣).
(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص٢٠٢).
(٣) بهجة المجالس (ص١٢٥).
(٤) رواه البيهقي في الشُّعَبِ (٢/ ٢٤٨).



الحديث الثالث:

عن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسولِ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إنَّ العبدَ إذا أَخْطَأَ خَطيئَةً، نُكِتَ في قلبِهِ نُكْتَةٌ سَوداءُ، فإن هو نَزَعَ، واسْتَغْفَرَ، وتابَ، صُقِلَت، وإن عادَ زيدَ فيها، حَتَّى تُغْلِقَ قلبَهُ**[1]**، فهُو الرانُ الذي ذَكَرَ اللّهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»**[2].

في هذا الحديثِ: بَيانُ أَثَرِ الذُّنُوبِ في القلبِ، وفي ظُلْمَتِهِ، وبَيانُ المُضادِّ لِهذه الذُّنُوبِ، وهُو: تَرْكُها، والتَّوبَةُ منها.

قولُهُ: «إنَّ العبدَ إذا أَخْطَأَ خَطيئَةً، نُكِتَ في قلبِهِ نُكْتَةٌ سَوداءُ»:

أَي: إذا أَذْنَبَ ذَنْبًا أَثَّرَ ذلك في قلبِهِ، فالنَّكْتُ: هو الأَثَرُ في الشَّيءِ، فَيُؤَثِّرُ ذلك في قلبِهِ كَنُقْطَةٍ سَوداءَ، وإن أَذْنَبَ ثانيَةً، انْضَمَّ إليها نُكْتَةٌ ثانيَةٌ، وثالِثَةٌ، ورابِعَةٌ.

ويَتَوَقَّفُ أَثَرُ هذه النُّكَتِ السَّوداء على فِعْلِ الإنْسانِ تِجاهَها.

«فإن هو نَزَعَ، واسْتَغْفَرَ، وتابَ، صُقِلَتْ»:

يعني: الإقْلاعَ عنِ الذَّنْبِ، والاِسْتِغْفار، والتَّوبَة، فالحديثُ راعَى ما جُبِلَ عليهِ الإنْسانُ منَ الضَّعْفِ، وأنَّهُ لا بُدَّ أَن يُخْطِيءَ، فَأَمَرَ بالاِسْتِغْفارِ منَ الذُّنُوبِ، وهو

---

(١) وفي رواية: «حَتَّى تَعْلُوَ قلبَهُ».

(٢) رواه أحمد (٧٩٥٢)، والترمذي (٣٣٣٤)، وابنُ ماجه (٤٢٤٤)، والنَّسائي في الكُبْرَى (١٠١٧٩)، (١١٥٩٤) –واللفظ له–، وقال الترمذي: حَسَنٌ صحيح، وحسنه الألباني.

طَلَبُ المَغْفِرَةِ، والعبدُ أَحْوَجُ شَيءٍ إليهِ؛ لأَنَّهُ يُخْطِئُ باللَّيلِ، والنَّهارِ، وقد تكَرَّرَ في القرآنِ ذِكْرُ التَّوبَةِ، والاِسْتِغْفارِ، والأَمْرُ بها، والحَثُّ عليها، وهذا كما ثَبَتَ عن أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**كلُّ ابنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وخَيرُ الخَطَّائينَ التَّوَّابُونَ**»[١].

فلا بُدَّ أن يَجْرِيَ على العبدِ ما سَبَقَ به القدَرُ، فكَأَنَّهُ قال: لا بُدَّ لَكَ من فِعْلِ الذُّنُوبِ؛ لأنَّها مَكْتُوبَةٌ عَليك، فَأَحْدِث تَوبَةً، فإنَّهُ لا يُؤْتَى العبدُ من فِعْلِ المَعْصيَةِ، وإن عَظُمَت، بَل من تَرْكِ التَّوبَةِ[٢].

فَراعَى سُبْحانَهُ طَبيعَةَ الإنْسانِ، وكَلَّفَهُ بِما يُطيقُ، وأَوجَدَ دَواءً لِهذا الداءِ، بَل ومن إحْسانِهِ سُبْحانَهُ أَنَّهُ يُزيلُ هذه النُّكْتَةَ السَّوداءَ إذا تحقَّقَتِ التَّوبَةُ الصَّحيحَةُ، كما قال: «**فإن هو نَزَعَ، واسْتَغْفَرَ، وتابَ، صُقِلَتْ**».

وعندَ ابنِ ماجه: «**صُقِلَ قلبُهُ**»: أي: نَظُفَ وصَفيَ؛ لأنَّ التَّوبَةَ بِمَنْزِلَةِ المِصْقَلَةِ، تَمْحُو وسَخَ القلبِ، وسَوادَهُ[٣].

قولهُ: «وَإن عادَ، زيدَ فيها، حَتَّى تُغْلِقَ قلبَهُ، فهُو الرانُ الذي ذَكَرَ اللّهُ»:

«﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»: وفي هذا: تَحْذيرٌ منَ الإصْرارِ على الذُّنُوبِ، وتَرْكِ التَّوبَةِ، وإخبارٌ بِأَنَّ القَبائِحَ تُسَوِّدُ القلبَ، وتُطْفِئُ نُورَهُ، والإيمانُ هو نُورٌ في القلبِ، والقَبائِحُ تَذْهَبُ به، أَو تُقَلِّلُهُ قَطْعًا، فالحسناتُ تَزيدُ نُورَ القلبِ، والسَّيِّئاتُ تُطْفِئُ نُورَ القلبِ.

وهذا الحديثُ تَفْسيرٌ لِما أخبرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ به، من أنَّ كَسْبَ القلوبِ سببٌ لِلرَّانِ الذي يَعْلُوها، في قولِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٩٩)، وحسنه الألباني.

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/ ٢١٢).

(٣) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٦٢٢).

«وَأَصْلُ الرَّينِ: الغَلَبَةُ، ومنهُ: رانَتِ الخَمْرُ على عَقْلِ شارِبِها، ومعنى الآيةِ: أنَّ الذُّنُوبَ غَلَبَت على قلوبِهِم، وأَحاطَت بِها»[1].

قال القُرْطُبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال المُفَسِّرُونَ: هو الذَّنْبُ على الذَّنْبِ، حَتَّى يَسْوَدَّ القلبُ.

قال مُجاهِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: هو الرَّجُلُ يُذْنِبُ الذَّنْبَ، فَيُحيطُ الذَّنْبُ بِقلبِهِ، ثُمَّ يُذْنِبُ الذَّنْبَ، فَيُحيطُ الذَّنْبُ بِقلبِهِ، حَتَّى تَغْشى الذُّنُوبُ قلبَهُ، وهي مثلُ الآيةِ التي في سُورَةِ البَقَرَةِ: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١].

ونَحْوهُ عنِ الفَرَّاءِ، قال: «يَقُولُ: كَثُرَتِ المَعاصي منهُم والذُّنُوبُ، فَأَحاطَت بِقلوبِهِم، فَذلك الرَّينُ عليها».

وقال أَبو مُعاذٍ النَّحْويُّ: «الرَّينُ: أَن يَسْوَدَّ القلبُ منَ الذُّنُوبِ، والطَّبْعُ: أَن يُطْبَعَ على القلبِ، وهذا أَشَدُّ منَ الرَّينِ، والإقْفالُ أَشَدُّ منَ الطَّبْعِ».

وقال الزَّجَّاجُ: «الرَّينُ: هو كالصَّدَأِ، يُغَشِّي القلبَ، كالغَيمِ الرَّقيقِ».

وذَكَرَ الثَّعْلَبيُّ عنِ ابنِ عَبَّاسٍ: «﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ أَي: غَطَّى عليها».

وهذا هو الصَّحيحُ عنهُ إن شاءَ اللهُ»[2].

وفي هذا: بَيانُ أَثَرِ الذُّنُوبِ في القلوبِ، وقد تَعَدَّدَتِ المَواضِعُ التي فيها بَيانُ نَتيجَةِ الذَّنْبِ السَّيِّئَةِ على القلبِ، كما أخبرَ أَنَّهُ أَرْكَسَ المُنافِقينَ بِما كَسَبُوا، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ [النساء: ٨٨].

وأخبرَ أنَّ نَقْضَ الميثاقِ الذي أَخَذَهُ على عِبادِهِ، سببٌ لِتَقْسِيَةِ القلبِ، فقال:

(١) إرْشادُ الساري لِشرح صحيح البخاري (٧/ ٤١٣).

(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٥٩-٢٦١).

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] فَجَعَلَ ذَنْبَ النَّقْضِ مُوجِبًا لِهذه الآثارِ، من تَقْسيَةِ القلبِ، واللَّعْنَةِ، وتَحْريفِ الكَلِمِ، ونِسْيانِ العِلْمِ.

فالمَعاصي لِلْإيمانِ، كالمَرَضِ والحُمَّى لِلْقُوَّةِ، سَواءً بِسَواءٍ؛ ولذلك قال السلفُ: «المَعاصي بَريدُ الكفرِ، كما أنَّ الحُمَّى بَريدُ المَوتِ».

فَإيمانُ صاحِبِ القَبائِحِ كَقُوَّةِ المَريضِ، على حَسَبِ قُوَّةِ المَرَضِ وضَعْفِهِ[1].

وفي الحديثِ: الحَثُّ على التَّباعُدِ عنِ الذُّنوبِ ما أَمْكَنَ.

وفيهِ: الحَثُّ على التَّوبَةِ كلَّما أَذْنَبَ العبدُ ذَنْبًا، وأَلَّا يَقَعَ في فَخِّ الشَّيطانِ، وهو اليَأْسُ من مَغْفِرَةِ اللهِ تعالى، وقد ثَبَتَ في الصَّحيحَينِ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ عبدًا أَصابَ ذَنْبًا، فقال: رَبِّ أَذْنَبْتُ فاغْفِر لي، فقال رَبُّهُ: أَعَلِمَ عبدي أنَّ لَهُ رَبًّا، يَغْفِرُ الذَّنْبَ، ويَأْخُذُ به؟ غَفَرْتُ لِعبدي، ثُمَّ مَكَثَ ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ أَصابَ ذَنْبًا، أَو أَذْنَبَ ذَنْبًا، فقال: رَبِّ أَذْنَبْتُ آخَرَ، فاغْفِرْهُ، فقال: أَعَلِمَ عبدي أنَّ لَهُ رَبًّا، يَغْفِرُ الذَّنْبَ، ويَأْخُذُ به؟ غَفَرْتُ لِعبدي، ثُمَّ مَكَثَ ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وقال: رَبِّ أَذْنَبْتُ آخَرَ، فاغْفِرْهُ لي، فقال: أَعَلِمَ عبدي أنَّ لَهُ رَبًّا، يَغْفِرُ الذَّنْبَ، ويَأْخُذُ به؟ غَفَرْتُ لِعبدي -ثَلاثًا-، فَلْيَعْمَل ما شاءَ**».

«يعني: ما دامَ على هذه الحالِ، كلَّما أَذْنَبَ ذَنْبًا، اسْتَغْفَرَ منهُ»[2].

قال السُّيُوطيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «لَيسَ في هذا إطْلاقٌ وإذْنٌ منهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له في المُحَرَّماتِ، والجَرائِمِ، وإنَّما يَدُلُّ على أنَّهُ يَغْفِرُ له ما دامَ كذلك: إذا أَذْنَبَ تابَ.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٤١٣).

واخْتِصاصُ هذا العبدِ بِهذا؛ لأَنَّهُ قَد عَلِمَ أَنَّهُ لا يُصِرُّ على ذَنْبٍ، وأَنَّهُ كلَّما أَذْنَبَ تابَ، وهو حُكْمٌ يَعُمُّ كلَّ مَن كانَت حالُهُ حالَهُ، لَكِنَّ ذلك العبدَ[1] مَقْطُوعٌ له بِذلك، كما قُطِعَ به لِأهلِ بدرٍ»[2].

وأَمَّا غيرُهُ: فَيَتُوبُ، ويَرْجُو قَبُولَ تَوبَتِهِ، ولَكِن لا يَقْطَعُ لِنَفْسِهِ بِأَنَّهُ قَد غُفِرَ له.



(١) الَّذي في الحديثِ.

(٢) قُوتُ المُغْتَذي على جامع الترمذي (٢/ ٨١٩).





الحديث الرابع:

عنِ النَّوّاسِ بنِ سَمْعانَ الأَنْصاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسولِ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:
«ضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا صِراطًا مُسْتَقيمًا، وعلى جَنْبَتَيِ الصِّراطِ سُورانِ، فيهِما أَبْوابٌ مُفَتَّحَةٌ، وعلى الأَبْوابِ سُتُورٌ مُرْخاةٌ، وعلى بابِ الصِّراطِ داعٍ يَقُولُ: أَيُّها النّاسُ، ادْخُلُوا الصِّراطَ جَميعًا، ولا تَتَعَرَّجُوا، وداعٍ يَدْعُو من فَوقِ الصِّراطِ، فإذا أَرادَ يَفْتَحُ شَيئًا من تِلْكَ الأَبْوابِ، قال: ويحَكَ لا تَفْتَحْهُ! فإنَّكَ إن تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، والصِّراطُ: الإسلامُ، والسُّورانِ: حُدُودُ اللّهِ، والأَبْوابُ المُفَتَّحَةُ: مَحارِمُ اللّهِ، وذلك الداعي على رَأْسِ الصِّراطِ: كِتابُ اللّهِ، والداعي مِن فَوقِ الصِّراطِ: واعِظُ اللّهِ في قلبِ كلِّ مسلمٍ»[1].

ورواهُ الطَّحاويُّ في شرحِ مُشْكِلِ الآثارِ، وفيهِ: «**فالصِّراطُ: الإسلامُ، والسُّتُورُ: حُدُودُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والأَبْوابُ المُفَتَّحَةُ: مَحارِمُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ**»[2].

ورواهُ ابنُ أَبي عاصِمٍ، وفيهِ: «**والأَبْوابُ التي على جَنَبَتَيِ الصِّراطِ: حُدُودُ اللهِ، لا يَقَعُ أَحَدٌ في حُدُودِ اللهِ حَتَّى يَهْتِكَ سِتْرَ اللهِ**»[3].

(١) رواه أحمد (١٧٦٣٤)، والترمذي (٢٨٥٩)، وحَسَّنَهُ، والنَّسائي في الكُبْرَى (١١١٦٩)، وابنُ أَبي عاصم في السنة (١٨)، والبيهقي في الشُّعَبِ (٦٨٢١).

(٢) شرح مشكل الآثار (٥/ ٣٩٠).

(٣) السنة (١/ ١٤). والحديثُ: جَوَّدَ إسناده شيخُ الإسلام ابنُ تَيمية، كما في جامع الرسائل (٢/ ٩٧)، وصححه ابنُ كثيرٍ في التفسير (١/ ١٣٩)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ١٧١)، =

قولهُ: «ضَرَبَ اللّه مَثَلًا صِراطًا مُسْتَقيمًا... »:

هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ النبيُّ ﷺ لِلنَّاسِ؛ ليَعْقِلُوهُ، ويَتفَكَّرُوا فيه، ويَتَدَبَّرُوهُ، ويَعْمَلُوا بِمُوجَبِهِ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن هذا الحديثِ**: «فَلْيَتأَمَّلِ العارِفُ قَدْرَ هذا المَثَلِ، ولْيَتَدَبَّرْهُ حَقَّ تَدَبُّرِه، ويَزِن به نَفْسَهُ، ويَنْظُر أَينَ هو منهُ؟»[1].

وقال الحافِظُ ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ضَرَبَ النبيُّ ﷺ مَثَلَ الإسلامِ في هذا الحديثِ بِصِراطٍ مُسْتَقيمٍ، وهو الطَّريقُ السَّهْلُ الواسِعُ، المُوَصِّلُ سالِكَهُ إلى مَطْلُوبِه، وهو -مَعَ هذا- مُسْتَقيمٌ، لا عِوَجَ فيهِ، فَيَقْتَضي ذلك قُرْبَهُ، وسُهُولَتَهُ، وعلى جَنْبَتَي الصِّراطِ يَمْنَةً، ويَسْرَةً، سُورانِ، وهُما: حُدُودُ اللهِ، وكما أنَّ السُّورَ يَمْنَعُ مَن كان داخِلَهُ من تَعَدِّيهِ، ومُجاوَزَتِهِ، فَكذلك الإسلامُ يَمْنَعُ مَن دَخَلَهُ منَ الخُرُوجِ عن حُدُودِهِ، ومُجاوَزَتِها، ولَيسَ وراءَ ما حَدَّ اللهُ منَ المَأْذُونِ فيه إلَّا ما نَهى عنهُ؛ ولهذا مَدَحَ سُبْحانَهُ الحافِظِينَ لِحُدُودِهِ، وذَمَّ مَن لا يَعْرِفُ حَدَّ الحَلالِ منَ الحَرامِ، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧].

فَمَن لم يُجاوِز ما أُذِنَ له فيه إلى ما نُهِيَ عنهُ، فَقَد حَفِظَ حُدُودَ اللهِ، ومَن تَعَدَّى ذلك، فَقَد تَعَدَّى حُدُودَ اللهِ.

= وكذا حَسَّنَهُ ابنُ حَجَرٍ الهَيتَمي في الزَّواجِرِ (٢/ ٢١٠)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، وكذا صححه محققو المسند.

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٧٨).

وقد تُطْلَقُ الحُدُودُ، ويُرادُ بها نَفْسُ المَحارِمِ، وحينَئِذٍ فيقالُ: لا تَقْرَبُوا حُدُودَ اللهِ، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقد تُسَمَّى العُقُوباتُ المُقَدَّرَةُ الرادِعَةُ عنِ المَحارِمِ المُغَلَّظَةِ حُدُودًا، كما يُقالُ: حَدُّ الزِّنا، وحَدُّ السَّرِقَةِ، وحَدُّ شُرْبِ الخَمْرِ، ومنهُ: قَولُ النبيِّ ﷺ لِأُسامَةَ: «أَتَشْفَعُ في حَدٍّ من حُدُودِ اللهِ؟!»[١] يعني: في القَطْعِ في السِّرَّقَةِ، وهذا هو المَعْرُوفُ منَ اسْمِ الحُدُودِ في اصْطِلاحِ الفُقَهاءِ»[٢].

وقال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «**سُورانِ**»: أَي: جِدارانِ فاصِلانِ بينَ الصِّراطِ المُسْتَقيمِ، وطَرَفَيهِ الخارِجَينِ عنِ الصِّراطِ القَويمِ، المُشَبَّهَينِ بِسُورِ البَلَدِ من جَنْبَتَيهِ، أَحَدُ جانِبَيهِ من أهلِهِ، والآخَرُ منَ العَدُوِّ.

وفيهِ: إيماءٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، واللهُ أَعْلَمُ بالصَّوابِ.

قولُهُ: «**وعلى الأَبْوابِ سُتُورٌ مُرَخاةٌ**» أَي: مُرْسَلَةٌ»[٣].

وقال الصَّنْعانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولم يَذكُرِ السُّتورَ المُرخاةَ ما هي؟ وكَأَنَّها: ما شَرَعَهُ اللهُ من الزَّواجِرِ والوَعيدِ عَلى الداخِلِ فيها»[٤].

وقال أَبو محمدٍ الرامَهُرْمُزيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصِّراطُ: الطَّريقُ، والسُّورُ: الحائِطُ، يُقالُ: سُرْتُ الحائِطَ، وتَسَوَّرْتُهُ: إذا صِرْتُ في أَعْلاهُ، وجَنْبَتا الصِّراطِ: ناحيَتاهُ، والجَمْعُ جَنَبات، والحَدُّ: المِقْدارُ والتَّناهي المَمْنُوعُ من تَجاوُزِهِ، كما قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ**

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٦١).

(٣) مرقاة المفاتيح (١/ ٢٧٣).

(٤) التّنويرُ شرح الجامع الصّغيرِ (٧/ ١٠١).

ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وأَصْلُ الحَدِّ: المَنْعُ، ومنهُ ضَرْبُ الحَدِّ، وهو عَدَدٌ، ومِقْدارٌ، مَنَعَ اللهُ من تُجاوُزِه، وحُدُودُ الدارِ: هو المِقْدارُ والتَّناهي الذي لا يَتجاوَزُها صاحِبُ الدارِ، ويُسَمَّى البَوَّابُ حَدَّادًا؛ لأَنَّهُ يَمْنَعُ منَ الدُّخولِ، وتَقُولُ: دُونَ ذلك الأَمْرِ حَدَدٌ، أَي: مانِعٌ»[١].

وقال **ابنُ رَجَبٍ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في هذا المَثَلِ الذي ضَرَبَهُ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنَّ الإسلامَ هو الصِّراطُ المُسْتَقيمُ الذي أَمَرَ اللهُ تعالى بالاِسْتِقامَةِ عليهِ، ونَهى عن تَجاوُزِ حُدُودِهِ، وأنَّ مَنِ ارْتَكَبَ شَيئًا منَ المُحَرَّماتِ، فَقَد تَعَدَّى حُدُودَهُ»[٢].

قولهُ: «وعلى بابِ الصِّراطِ داعٍ، يَقُولُ: أَيُّها الناسُ، ادْخُلُوا الصِّراطَ جَميعًا، ولا تَتَعَرَّجُوا»:

وفي روايةٍ: «**وَلا تَتَعَوَّجُوا**»، وفي روايةٍ: «**وَلا تَتَفَرَّجُوا**»، والمعنى مُتَقارِبٌ.

قولهُ: «وَداعٍ يَدْعُو من فَوقِ الصِّراطِ، فإذا أَرادَ يَفْتَحُ شَيئًا من تِلْكَ الأَبْوابِ، قال: ويحَكَ لا تَفْتَحْهُ!»:

قال **ابنُ الأَثيرِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَيحَ: كَلمةُ تَرَحُّمٍ، وتَوَجُّعٍ، تُقالُ لِمَن وقَعَ في هَلَكةٍ لا يَسْتَحِقُّها، وقد تُقالُ بِمعنى المَدْحِ، والتَّعجُّبِ، وهيَ مَنْصُوبَةٌ على المصدَرِ، وقد تُرْفَعُ، وتُضافُ، ولا تُضافُ، يُقالُ: ويحَ زَيدٍ، ووَيحًا له، ووَيحٌ له»[٣].

وقال **ابنُ مَنْظُورٍ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَيحٌ، ووَيلٌ: كلمةُ عَذابٍ؛ وقيلَ: هُما بِمَعْنًى واحِدٍ، وهُما مَرْفُوعَتانِ بالاِبْتِداءِ؛ يُقالُ: ويحٌ لِزَيدٍ، ووَيلٌ لِزَيدٍ.

---

(١) أَمْثال الحديثِ (ص١٤)
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ١٠٢).
(٣) النِّهايَة (٥/ ٢٣٥).

وقال ابنُ الفَرَجِ: «الوَيحُ، والوَيلُ، والوَيسُ، واحِدٌ»، **وقال ابنُ سِيدَهْ**: «ويحَهُ كَوَيلَهُ، وقيلَ: ويحٌ تَقْبيحٌ».

وقال نَصْرٌ النَّحْويُّ: «سَمِعْتُ بعضَ مَن يَتَنَطَّعُ بِقَولِ: الوَيحُ رَحْمَةٌ؛ قال: ولَيسَ بينَهُ وبينَ الوَيلِ فُرْقانٌ، إلَّا أنَّهُ كَأنَّهُ أَلْيَنُ قَليلًا، قال: ومَن قال: هو رَحْمَةٌ؛ يعني: أَن تَكُونَ العربُ تَقُولُ لِمَن تَرَحَّمَهُ: ويحَهُ، رِثايَةً له».

وقال الأَزْهَريُّ: «وقد قال أكثرُ أهلِ اللُّغَةِ: إنَّ الوَيلَ كلمةٌ تُقالُ لِكلِّ مَن وقَعَ في هَلَكَةٍ، وعَذابٍ، والفَرْقُ بينَ ويحٍ، ووَيلٍ: أنَّ ويلًا تُقالُ لِمَن وقَعَ في هَلَكَةٍ، أَو بَليَّةٍ، لا يُتَرَحَّمُ عليهِ، ووَيحٌ تُقالُ لِكلِّ مَن وقَعَ في بَليَّةٍ، يُرْحَمُ، ويُدْعَى له بالتَّخَلُّصِ منها، أَلا تَرَى أنَّ الوَيلَ في القرآنِ لِمُسْتَحَقِّي العَذابِ بِجَرائِمِهِمْ: ﴿**وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ**﴾ [الهمزة: ١]، ﴿**وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ**﴾ [فصلت: ٦-٧]، ﴿**وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ**﴾ [المطففين: ١]، وما أَشْبهَها؟ وما جاءَ ويلٌ إلَّا لِأَهلِ الجَرائِمِ.

وأَمَّا ويحٌ: فإنَّ النبيَّ ﷺ قالها لِعمَّارٍ رضي الله عنه: «**وَيحَ عمَّارٍ، تَقْتُلُهُ الفِئَةُ الباغيَةُ**»، كَأَنَّهُ أُعْلِمَ ما يُبْتَلى به منَ القَتْلِ، فَتَوَجَّعَ له، وتَرَحَّمَ عليهِ».

قال: «وأَصْلُ ويحٍ، ووَيسٍ، ووَيلٍ، كلمةٌ كلُّهُ عِنْدي: وي، وُصِلَت بِحاءٍ مَرَّةً، وبِسينٍ مَرَّةً، وبِلامٍ مَرَّةً»[١].

وقال اليَزيديُّ: «الوَيحُ، والوَيلُ، بِمَعْنًى واحِدٍ»[٢].

وقد تَأْتي «وَيلٌ» ولا يُرادُ منها العَذابُ، وإنَّما التَّعَجُّبُ، كما في قَولِ النبيِّ ﷺ لِأَبي بَصيرٍ رضي الله عنه: «**وَيلُ امِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ، لَو كان لَهُ أَحَدٌ**»[٣].

---

(١) لسان العرب (٢/ ٦٣٨)، وينظر: تهذيب اللغة (٥/ ١٩١).

(٢) تهذيب اللغة (٥/ ١٩١).

(٣) رواه البخاري (٢٧٣١).

قال الحافِظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَيلُ امِّهِ: هيَ كلمةُ تَعَجُّبٍ لا يُرادُ بِها الذَّمُّ»[١].

وقال أيضًا: «قولهُ: «وَيلُ امِّهِ» بِضَمِّ اللامِ، ووَصْلِ الهَمْزَةِ [٢]، وكَسرْ الميمِ المُشَدَّدَةِ، وهيَ كلمةُ ذَمٍّ تَقُولُها العربُ في المَدْحِ، ولا يَقْصِدُونَ معنى ما فيها منَ الذَّمِّ؛ لأنَّ الوَيلَ الهَلاكُ، فهُو كَقولِهِمْ: لِأُمِّهِ الوَيلُ، قال بَديعُ الزَّمانِ: والعربُ تُطْلِقُ: «تَربَت يَمينُهُ» في الأَمْرِ إذا أَهَمَّ، ويَقُولُونَ: ويلُ امِّهِ، ولا يَقْصِدُونَ الذَّمَّ، والوَيلُ: يُطْلَقُ على العَذابِ، والحَرْبِ، والزَّجْرِ»[٣].

وقال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنِ المَدينَةِ: «**وَيلُ أُمِّها من قَرْيَةٍ، يَتْرُكُها أهلُها كَأَعْمَرَ ما تَكُونُ، يَأْتيها الدَّجَّالُ، فَيَجِدُ على كلِّ بابٍ من أَبْوابِها مَلَكًا، فلا يَدْخُلُها**»[٤].

فَقَد تَجيءُ «وَيلٌ» ولا يُقْصَدُ بِها الذَّمُّ، وإن كان غالِبُ ما يُؤتَى بها في الذَّمِ.

أَمَّا **«وَيحُ»**:

فَغالِبُ اسْتِعْمالِها في التَّرَحُّمِ.

قولهُ: «فإنَّكَ إن تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ»:

أَي: تَدْخُلْهُ، يعني: لا تَقْدِرُ أَن تَمْلِكَ نَفْسَكَ، وتُمْسِكَها عنِ الدُّخولِ بَعْدَ الفَتْحِ.

قولُه: «والصِّراطَ: الإسلامُ»:

فَأخبرَ: أنَّ الصِّراطَ هو الإسلامُ ، وهو طَريقٌ مُسْتَقيمٌ، والمَطْلُوبُ منَ العبدِ الِاسْتِقامَةُ عليهِ.

---

(١) فتح الباري (١/ ٢٠٧).

(٢) قال الزَّجَّاجُ: «يُقالُ: ويلُ أُمِّه ووَيلُ امِّهِ، والأَكثر إِثْباتُ الهَمْزَةِ» لسان العرب (١٣/ ٤٧٠)

(٣) فتح الباري (٥/ ٣٥٠).

(٤) رواه أحمد (١٨٩٧٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٤١)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

«والسُّورانِ: حُدُودُ اللّهِ»:

أي: ما حَدّ العِبادَ عَنهُ، ومَنَعهُم من إتْيانِه.

«والأَبْوابُ المُفَتَّحَةُ: مَحارِمُ اللّهِ»:

فإنّها أَبْوابٌ لِلْخُرُوجِ عن كمالِ الإسلامِ، والاِسْتِقامَةِ، والدُّخُولِ في العَذابِ، والمَلامَةِ(١).

وفي جَعْلِها أبْوابًا مُفتّحةً، ما يُفهَمُ منهُ رَغبةُ النّفوسِ إليها، وتَيَسّرها، وسُهولةُ الدّخُولِ فيها(٢).

وفي الصَّحيحَينِ من حديثِ أَبي هريرةَ مَرْفُوعًا: «**يُضْرَبُ الصِّراطُ بينَ ظَهْرَي جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنا وأُمَّتي أَوَّلَ مَن يُجيزُ، وفي جَهَنَّمَ كَلاليبُ مِثْلُ شَوكِ السَّعْدانِ، غيرَ أَنَّهُ لا يَعْلَمُ ما قَدْرُ عِظَمِها إلّا اللهُ، تَخْطَفُ الناسَ بِأَعْمالِهِمْ**»(٣).

قال الحافِظُ ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن كان في الدنيا قَد خَرَجَ عنِ الاِسْتِقامَةِ على الصِّراطِ، فَفَتَحَ أَبْوابَ المَحارِمِ، التي في سُتُورِ الصِّراطِ يَمْنَةً، ويَسْرَةً، ودَخَلَ إليها -سَواءٌ كانَتِ المَحارِمُ منَ الشَّهَواتِ، أَو منَ الشُّبُهاتِ -: أَخَذَتْهُ الكَلاليبُ التي على ذلك الصِّراطِ يَمْنَةً، ويَسْرَةً، بِحَسَبِ ما فَتَحَ في الدنيا من أَبْوابِ المَحارِمِ، ودَخَلَ إليها.

فمنهُمْ: المَكْدُوشُ في النارِ، ومنهُمْ: مَن تَخْدشُهُ الكَلاليبُ.

ومَن صَبَرَ نَفْسَهُ على الاِسْتِقامَةِ على الصِّراطِ، ولم يُعَرّج عنهُ يَمْنَةً، ويَسْرَةً، ولا

(١) مرقاة المفاتيح (١/ ٢٧٣).
(٢) التّنويرُ (٧/ ١٠٠).
(٣) رواه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

كَشَفَ شَيئًا منَ السُّتُورِ المُرْخاةِ على جانِبَيهِ -مِمَّا تَهْواهُ النُّفُوسُ منَ الشَّهَواتِ، أَوِ الشُّبُهاتِ- بَل سارَ على مَتْنِ الصِّراطِ المُسْتَقيمِ، حَتَّى أَتَى رَبَّهُ، وصَبَرَ على دِقَّةِ ذلك: عُرِّضَ له الصِّراطُ في الآخرةِ.

ومَن وسَّعَ على نَفْسِهِ الصِّراطَ في الدنيا، فَلَم يَسْتَقِم على جادَّتِهِ، بَل كَشَفَ سُتُورَهُ المُرْخاةَ من جانِبَيهِ يَمْنَةً، ويَسْرَةً، ودَخَلَ مِمَّا شاءَت نَفْسُهُ منَ الشَّهَواتِ، والشُّبُهاتِ: دَقَّ عليهِ الصِّراطُ في الآخرةِ، فَكان عليهِ أَدَقَّ منَ الشَّعْرِ»[١].

قولهُ: **«وَذلك الداعي على رَأْسِ الصِّراطِ: كِتابُ اللّهِ، والداعي مِنِ فَوقَ الصِّراطِ: واعِظُ اللّهِ في قلبِ كلِّ مسلمٍ»:**

قال أَبو جَعْفَرٍ الطَّحاويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الواعِظَ منَ الآدَميِّينَ: هو الذي يَنْهَى الناسَ عنِ الوُقُوعِ فيما حَرَّمَ اللهُ عليهِم، فَعَقَلْنا بِذلك أنَّ مثلَهُ في قلبِ المسلمِ هيَ حُجَجُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، التي تَنْهاهُ عنِ الدُّخُولِ فيما مَنَعَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وحَظَرَهُ عليهِ، وأَنَّها هيَ واعِظُ اللهِ في قلبِهِ منَ البَصائِرِ التي جَعَلَها فيهِ، والعُلُومِ التي أَودَعَهُ إيَّاها»[٢].

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَيَّنَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديثِ العَظيمِ -الذي مَن عرفَهُ، انْتَفَعَ به انْتِفاعًا بالِغًا، إن ساعَدَهُ التَّوفيقُ، واسْتَغْنَى به عن عُلُومٍ كثيرَةٍ-: أنَّ في قلبِ كلِّ مُؤْمِنٍ واعِظًا، والوَعْظُ: هو الأَمْرُ، والنَّهْيُ؛ والتَّرْغيبُ، والتَّرْهيبُ.

وإذا كان القلبُ مَعْمُورًا بالتَّقْوَى، انْجَلَت له الأُمُورُ، وانْكَشَفَت، بخلافِ القلبِ الخَرابِ المُظْلِمِ، قال حُذَيفَةُ بنُ اليَمانِ: «إنَّ في قلبِ المؤمنِ سِراجًا يُزْهِرُ».

وفي الحديثِ الصَّحيحِ: «**إنَّ الدَّجَّالَ مَكْتُوبٌ بينَ عَينَيهِ كافِرٌ، يَقْرَؤُهُ كلُّ مُؤْمِنٍ**

---

(١) مجموعُ رَسائل ابنِ رَجَبٍ (١/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٢) شرح مشكل الآثار (٥/ ٣٩٢).

قارِئٍ، وغيرِ قارِئٍ»، فَدَلَّ على أنَّ المؤمنَ يَتبَيَّنُ له ما لا يَتبَيَّنُ لِغيرِهِ؛ ولا سيَّما في الفِتَنِ.

وكلَّما قَوِيَ الإيمانُ في القلبِ، قَوِيَ انْكِشافُ الأُمُورِ له، وعرفَ حَقائِقَها من بَواطِلِها، وكلَّما ضَعُفَ الإيمانُ، ضَعُفَ الكَشْفُ، وذلك مِثْلُ السِّراجِ القَوِيِّ، والسِّراجِ الضَّعيفِ، في البَيتِ المُظْلِمِ؛ ولِهذا قال بعضُ السلفِ في قولِهِ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] قال: «هُوَ المؤمنُ يَنْطِقُ بالحِكْمَةِ المُطابِقَةِ لِلْحَقِّ، وإن لم يَسْمَع فيها بالأَثَرِ، فإذا سَمِعَ فيها بالأَثَرِ، كان نُورًا على نُورٍ».

فالإيمانُ الذي في قلبِ المؤمنِ يُطابِقُ نُورَ القرآنِ»[1].

وقال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «جَعَلَ اللهُ في قلبِ كلِّ مُؤْمِنٍ واعِظًا له، يَأْمُرُهُ، ويَنْهاهُ، ويُناديهِ، ويُحَذِّرُهُ، ويُبَشِّرُهُ، ويُنْذِرُهُ؛ وهو الداعي الذي يَدْعُو فَوقَ الصِّراطِ»[2].

وقال أَيضًا: «العبدُ له من حَيائِهِ آمِرٌ يَأْمُرُهُ بالحسنِ، وزاجِرٌ يَزْجُرُهُ عنِ القَبيحِ، ومَن لم يَكُن من نَفْسِهِ هذا الآمِرُ، لم تَنْفَعْهُ الأَوامِرُ، وهذا هو واعِظُ اللهِ في قلبِ العبدِ المؤمنِ الذي أَشارَ إليهِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا تَنْفَعُ المَواعِظُ الخارِجَةُ إن لم تُصادِف هذا الواعِظَ الباطِنَ، فَمَن لم يَكُن له من نَفْسِهِ واعِظٌ، لم تَنْفَعْهُ المَواعِظُ، فإذا فُقِدَ هذا الآمِرُ الناهي بِفَقْدِ الحَياءِ؛ فهُو مُطيعٌ -لا محالةَ- لِداعي الغَيِّ، والشَّهْوَةِ، طاعَةً لا انْفِكاكَ له منها»[3].

وقال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعِظُ اللهِ في قلبِ كلِّ مُؤْمِنٍ: هو لَمَّةُ المَلَكِ في قلبِ المؤمنِ، واللَّمَّةُ الأُخْرَى هيَ لَمَّةُ الشَّيطانِ»[4]

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٥).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٧٢).

(٣) بدائع الفوائد (١/ ١٠٤).

(٤) مرقاة المفاتيح (١/ ٢٧٣).

وقال ابنُ جِبْرِينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا سَلامَةَ لِلْمُجْتَمَعِ منَ الرَّذيلَةِ، والفاحِشَةِ، والمُحَرَّماتِ، إلَّا إذا وُجِدَ في قلوبِهِم واعِظُ اللهِ، وهو التَّقْوَى الرادِعَةُ عنِ المَعاصي، ثُمَّ إقامَةُ الحُدُودِ الشَّرْعيَّةِ»[١].

وقد قال ابنُ عَبَّاسٍ في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦] قال: «مالُوا إلى الدنيا، وأَعْرَضُوا عن مَواعِظِ اللهِ»[٢].

فإذا هَمَّ العبدُ بِفِعْلِ السَّيِّئَةِ، فَوَجَدَ في نَفْسِهِ واعِظًا من قلبِهِ يَنْهاهُ عنها، فإنِ انْتَهَى فهُو صاحِبُ قلبٍ حَيٍّ سَليمٍ، وإن لم يَنْتَهِ فهُو صاحِبُ قلبٍ مَريضٍ سَقيمٍ، ومَن لم يَجِد هذا الواعِظَ من قلبِهِ، فَقلبُهُ قاسٍ، لا يَتَخَلَّلُهُ الوَعْظُ.

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «صارَت قلوبُ بَني إسْرائيلَ مع طُولِ الأَمَدِ قاسيَةً، بَعيدَةً عنِ المَوعِظَةِ، فَهيَ في قَسْوَتِها كالحِجارَةِ، التي لا عِلاجَ لِلينِها، أَو أَشَدُّ قَسْوَةً»[٣].



(١) شرح أخصر المختصرات (٧٩/ ١) بترقيم الشاملة.
(٢) تفسير البغوي (٥/ ٣٠).
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٠٤).

الحديثُ الخامسُ:

عن أَبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يا أَبا ذَرٍّ، أَتَرَى كثرةَ المالِ هو الغِنَى؟»**، قُلْتُ: نَعَم يا رسولَ اللّهِ، قال: **«فتَرَى قِلَّةَ المالِ هو الفَقْرَ؟»**، قُلْتُ: نَعَم يا رسولَ اللّهِ، قال: **«إنَّما الغِنَى غِنَى القلبِ، والفَقْرُ فَقْرُ القلبِ»**[١].

وهُو في معنى ما في الصّحيحَينِ عن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لَيسَ الغِنَى عن كثرةِ العَرَضِ، ولَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ»**[٢].

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «معنى الحديثِ: الغِنَى المَحْمُودُ غِنَى النَّفْسِ، وشِبَعُها، وقِلَّةُ حِرْصِها، لا كثرةَ المالِ مع الحِرْصِ على الزِّيادَةِ؛ لأنَّ مَن كان طالِبًا لِلزِّيادَةِ، لم يَسْتَغْنِ بِما مَعَهُ، فَلَيسَ له غِنًى»[٣].

وغِنَى القلبِ، وغِنَى النَّفْسِ، مُتَقارِبانِ مُتَلازِمانِ، ولا يَحْصُلُ غِنَى النَّفْسِ إلَّا بِغِنَى القلبِ، ولا غِنَى القلبِ إلَّا بِغِنَى النَّفْس.

وقد روى الحَسنُ -مُرسلًا- حديثَ أَبي هُريرةَ، بِلفظِ: **«لَيسَ الغِنَى عن كثرةِ المالِ، لَكِنَّ الغِنَى غِنَى القلبِ»**[٤].

---

(١) رواه النَّسائي في السنن الكبرى (١١٧٨٥)، وابنُ حِبَّان (٦٨٥)، والحاكمُ (٧٩٢٩)، والبيهقي في الشُّعَبِ (٩٨٦١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨١٦).

(٢) رواه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

(٣) شرح النووي على مسلم (٧/ ١٤٠).

(٤) رواه الحسين المروزي في زوائد الزهد (١٠٠٨)، وسنده جيد، لكنه مرسل.



قال ابنُ حجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال ابنُ بَطَّالٍ: معنى الحديثِ: ليس حَقيقَةُ الغِنَى كثرة المالِ؛ لأنَّ كثيرًا مِمَّن وسَّعَ اللهُ عليهِ في المالِ، لا يَقْنَعُ بِما أُوتيَ، فهُو يَجْتَهِدُ في الاِزْديادِ، ولا يُبالي من أَينَ يَأْتيهِ، فَكَأَنَّهُ فَقيرٌ لِشِدَّةِ حِرْصِهِ، وإنَّما حَقيقَةُ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ، وهو مَنِ اسْتَغْنَى بِما أُوتيَ، وقَنِعَ به، ورَضيَ، ولم يَحْرِص على الاِزْديادِ، ولا أَلَحَّ في الطَّلَبِ، فكَأَنَّهُ غَنيٌّ».

وقال القُرْطُبيُّ: «معنى الحديثِ: أنَّ الغِنَى النافِعَ، أَوِ العَظيمَ، أَوِ المَمْدُوحَ، هو غِنَى النَّفْسِ، وبَيانُهُ: أَنَّهُ إذا اسْتَغْنَت نَفْسُهُ كَفَّت عنِ المَطامِعِ؛ فَعَزَّت، وعَظُمَت، وحَصَلَ لَها منَ الحُظْوَةِ، والنَّزاهَةِ، والشَّرَفِ، والمَدْحِ، أكثرُ منَ الغِنَى الذي يَنالُهُ مَن يكونُ فَقيرَ النَّفْسِ لِحِرْصِهِ؛ فإنَّهُ يُوَرِّطُهُ في رَذائِلِ الأُمُورِ، وخَسائِسِ الأَفْعالِ؛ لِدَناءَةِ هِمَّتِهِ، وبُخْلِهِ، ويَكْثُرُ مَن يَذُمُّهُ منَ الناسِ، ويَصْغُرُ قَدْرُهُ عِنْدَهُمْ؛ فَيكونُ أَحْقَرَ من كلِّ حَقيرٍ، وأَذَلَّ من كلِّ ذَليلٍ».

والحاصِلُ: أنَّ المُتَّصِفَ بِغِنَى النَّفْسِ يكونُ قانِعًا بِما رَزَقَهُ اللهُ، لا يَحْرِصُ على الاِزْديادِ لِغيرِ حاجَةٍ، ولا يُلِحُّ في الطَّلَبِ، ولا يُلْحِفُ في السُّؤالِ، بَل يَرْضَى بِما قَسَمَ اللهُ له، فكَأَنَّهُ واجِدٌ أَبَدًا، والمُتَّصِف بِفَقْرِ النَّفْسِ على الضِّدِّ منهُ؛ لِكَونِهِ لا يَقْنَعُ بِما أُعْطيَ، بَل هو -أَبَدًا- في طَلَبِ الاِزْديادِ من أَيِّ وجهٍ أَمْكَنَهُ، ثُمَّ إذا فاتَهُ المَطْلُوبُ حَزِنَ، وأَسِفَ، فكَأَنَّهُ فَقيرٌ منَ المالِ؛ لأَنَّهُ لم يَسْتَغْنِ بِما أُعْطيَ، فَكَأَنَّهُ ليس بِغَنيٍّ.

ثُمَّ غِنَى النَّفْسِ إنَّما يَنْشَأُ عنِ الرِّضا بِقَضاءِ اللهِ تعالى، والتَّسْليمِ لِأَمْرِهِ، عِلْمًا بِأَنَّ الذي عندَ اللهِ خَيرٌ وأَبْقَى، فهُو مُعْرِضٌ عنِ الحِرْصِ، والطَّلَبِ، وما أَحْسَنَ قَولَ القائِلِ: «غِنَى النَّفْسِ ما يَكْفيكَ من سَدِّ حاجَةٍ، فإن زادَ شَيئًا، عادَ ذاكَ الغِنَى فَقْرًا».

وقال الطِّيبيُّ: «يُمْكِنُ أَن يُرادَ بِغِنَى النَّفْسِ: حُصُولُ الكمالاتِ العِلْميَّةِ، والعَمَليَّةِ، وإلى ذلك أَشارَ القائِلُ:

وَمَن يُنْفِقِ الساعاتِ في جَمْعِ مالِهِ مَخافَــةَ فَقْرٍ، فالذي فَعَــلَ الفَقْرُ

أَي: يَنْبَغي أَن يُنْفِقَ أَوقاتَهُ في الغِنَى الحَقيقيِّ، وهو تَحْصيلُ الكمالاتِ، لا في جَمْعِ المالِ؛ فإنَّهُ لا يَزْدادُ بِذلك إلَّا فَقْرًا».

وهذا -وَإن كان يُمْكِنُ أَن يُرادَ-، لَكِنَّ الذي تَقَدَّمَ أَظْهَرُ في المُرادِ، وإنَّما يَحْصُلُ غِنَى النَّفْسِ بِغِنَى القلبِ، بِأَن يَفْتَقِرَ إلى رَبِّهِ في جَميعِ أُمُورِهِ، فَيَتَحَقَّق أَنَّهُ المُعْطي المانِعُ، فَيَرْضَى بِقَضائِهِ، ويَشْكُرُهُ على نَعْمائِهِ، ويَفْزَع إليهِ في كَشْفِ ضَرَّائِهِ، فَيَنْشَأُ عنِ افْتِقارِ القلبِ لِرَبِّهِ غِنَى نَفْسِهِ عن غيرِ رَبِّهِ تعالى، والغِنَى الوارِدُ في قولِهِ: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨] يَتَنَزَّلُ على غِنَى النَّفْسِ؛ فإنَّ الآيةَ مَكِّيَّةٌ، ولا يَخْفَى ما كان فيه النبيُّ ﷺ قبل أَن تُفْتَحَ عليهِ خَيبَرُ، وغيرُها، من قِلَّةِ المالِ، واللهُ أَعْلَمُ»(١).

وقال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أُمُورُ القلبِ أَكْمَلُ، وأَقْوَى، من أُمُورِ النَّفْسِ، والنَّفْسُ من جُنْدِ القلبِ، ورَعِيَّتِهِ، وهيَ من أَشَدِّ جُنْدِهِ خلافًا عليهِ، وشِقاقًا له، فإذا حَصَلَ له كمالٌ بالغِنَى، لم يَتِمَّ له إلَّا بِغِناها أَيضًا؛ فإنَّها مَتَى كانَت فَقيرَةً، عادَ حُكْمُ فَقْرِها عليهِ، وتَشَوَّشَ عليهِ غِناهُ، فكان غِناها تَمامًا لِغِناهُ، وكمالًا له، وغِناهُ أَصْلًا بِغِناها، فمنهُ يَصِلُ الغِنَى إليها، ومنها يَصِلُ الفَقْرُ، والضَّرَرُ، والعَنَتُ إليهِ»(٢).

وقال أَيضًا: «ثَبَتَ عنِ النبيِّ ﷺ أَنَّهُ قال: «**لَيسَ الغِنَى عن كثرةِ العَرَضِ، ولَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ**»، ومَتَى اسْتَغْنَتِ النَّفْسُ، اسْتَغْنَى القلبُ.

والغَنيُّ إنَّما يَصيرُ غَنيًّا بِحُصُولِ ما يَسُدُّ فاقَتَهُ، ويَدْفَعُ حاجَتَهُ، وفي القلبِ فاقَةٌ عَظيمَةٌ، وضَرُورَةٌ تامَّةٌ، وحاجَةٌ شَديدَةٌ، لا يَسُدُّها إلَّا فَوزُهُ بِحُصُولِ الغِنَى الحَميدِ، الذي إن حَصَلَ لِلْعبدِ حَصَلَ له كلُّ شَيءٍ، وإن فاتَهُ فاتَهُ كلُّ شَيءٍ.

---

(١) فتح الباري (١١/ ٢٧٢-٢٧٣).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٢١).

فَكما أَنَّهُ سُبْحانَهُ الغَنيُّ على الحَقيقَةِ، ولا غَنيَّ سِواهُ، فالغَنيُّ به هو الغَنيُّ في الحَقيقَةِ، ولا غِنًى بغَيرِهِ أَلْبَتَةَ، فَمَن لم يَسْتَغْنِ به عمَّا سِواهُ، تَقَطَّعَت نَفْسُهُ حَسَراتٍ، ومَنِ اسْتَغْنَى به، زالَت عنهُ كلُّ حَسْرَةٍ، وحَضَرَهُ كلُّ سُرُورٍ، وفَرَحٍ، واللهُ المُسْتَعانُ.

وكمالُ صَلاحِ النَّفْسِ في غِناها بالاِسْتِقامَةِ من جَميعِ الوُجُوهِ، وبُلُوغُها إلى دَرَجَةِ الطُّمَأْنينَةِ، لا يكونُ إلَّا بَعْدَ صَلاحِ القلبِ، وصَلاحُ كلٍّ واحِدٍ منهُما مُقارِنٌ لِصَلاحِ الآخَرِ.

ولَكِن لَمَّا كان القلبُ هو المَلِكَ، وكان صَلاحُهُ صَلاحَ جَميعِ رَعيَّتِهِ، كان أَولى بالتَّقْديمِ، وقد قال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَت صَلَحَ لَها سائِرُ الجَسَدِ، وإذا فَسَدَت، فَسَدَ لَها سائِرُ الجَسَدِ، ألا وهيَ القلبُ**».

والقلبُ إذا اسْتَغْنَى بِما فاضَ عليهِ من مَواهِبِ رَبِّهِ، وعَطاياهُ السَّنيَّةِ؛ خَلَعَ على الأُمَراءِ، والرَّعيَّةِ، خِلَعًا تُناسِبُها، فَخَلَعَ على النَّفْسِ خِلَعَ الطُّمَأْنينَةِ، والسَّكينَةِ، والرِّضا، والإخْباتِ، فَأَدَّتِ الحُقُوقَ سَماحَةً -لا كَظْمًا- بِانْشِراحٍ، ورِضًا، ومُبادَرَةٍ؛ وذلك لأنَّها جانَسَتِ القلبَ حينَئِذٍ، ووافَقَتْهُ في أَكْثَرِ أُمُورِهِ، واتَّحَدَ مُرادُهُما غالِبًا؛ فَصارَت له وزيرَ صِدْقٍ، بَعْدَ أَن كانَت عَدُوًّا مُبارِزًا بالعَداوَةِ، فلا تَسْأَلْ عمَّا أَحْدَثَت هذه المُؤازَرَةُ، والمُوافَقَةُ، من طُمَأْنينَةٍ، ولَذَّةِ عَيشٍ، ونَعيمٍ.

وخَلَعَ على الجَوارِحِ خِلَعَ الخُشُوعِ، والوَقارِ، وعلى الوَجْهِ خِلْعَةَ المَهابَةِ، والنُّورِ، والبَهاءِ، وعلى اللِّسانِ خِلْعَةَ الصِّدْقِ، والقَولِ السَّديدِ الثابِتِ، والحِكْمَةِ النافِعَةِ، وعلى العَينِ خِلْعَةَ الاِعْتِبارِ في النَّظَرِ، والغَضِّ عنِ المَحارِمِ، وعلى الأُذُنِ خِلْعَةَ اسْتِماعِ النَّصيحَةِ، واسْتِماعِ القَولِ النافِعِ، وعلى اليَدَينِ، والرِّجْلَينِ خِلْعَةَ البَطْشِ في الطاعاتِ، أَينَ كانَت، بِقُوَّةٍ وأَيدٍ، وعلى الفَرْجِ خِلْعَةَ العِفَّةِ، والحِفْظِ؛ فَغَدا العبدُ، وراحَ، يَرْفُلُ في هذه الخِلَعِ.

فَغِنَى النَّفْسِ مُشْتَقٌّ من غِنَى القلبِ، وفَرْعٌ عليهِ، فإذا اسْتَغْنَى سَرَى الغِنَى منهُ إلى النَّفْسِ، وغِنَى القلبِ ما يُناسِبُهُ من تَحْقيقِهِ العُبُوديَّةَ المَحْضَةَ الَّتي هيَ أَعْظَمُ خِلْعَةٍ تُخْلَعُ عليهِ؛ فَيَسْتَغْني حينَئِذٍ بِما تُوجِبُهُ هذه العُبُوديَّةُ له منَ المعرفةِ الخاصَّةِ، والمَحَبَّةِ الناصِحَةِ الخالِصَةِ، وبِما يَحْصُلُ له من آثارِ الصِّفاتِ المُقَدَّسَةِ، وما تقتضيهِ منَ الأَحْكامِ، والعُبُوديَّاتِ المُتَعَلِّقَةِ بِكلِّ صِفَةٍ على الاِنْفِرادِ، ومَجْمُوعها قائِمَة بالذاتِ، وهذا أَمْرٌ تَضيقُ عن شرحِهِ عِدَّةُ أَسْفارٍ.

فإذا اسْتَغْنَى القلبُ بِهذا الغِنَى الذي هو غايَةُ فَقْرِهِ؛ اسْتَغْنَتِ النَّفْسُ غِنًى يُناسِبُها، وذَهَبَ عنها إخْلادُها إلى الأَرْضِ، وسُقيَت بِماءِ الحَياةِ، فَحينَئِذٍ انْقادَت بِزِمامِ المَحَبَّةِ إلى مَولاها الحَقِّ، مُؤَدِّيَةً لِحُقُوقِهِ، قائِمَةً بِأَوامِرِهِ، راضيَةً عنهُ، مَرْضيَّةً له، بِكمالِ طُمَأْنينَتِها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]»[١].

قَولُهُ: «والفَقْرُ فَقْرُ القلبِ»:

أي أنَّ الفَقرَ الحَقيقيَّ، هو فَقْرُ القَلبِ.

وقد ثَبَتَ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَتَعَوَّذُ منَ الفَقْرِ[٢].

قال غيرُ واحِدٍ من أهلِ العِلْمِ: «هُوَ فَقْرُ القلبِ»[٣].

وقال الحافِظُ رَحِمَهُ اللهُ: «الذي اسْتَعاذَ منهُ، وكَرِهَهُ: فَقْرُ القلبِ، والذي اخْتارَهُ، وارْتَضاهُ: طَرْحُ المالِ.

---

(١) طريق الهجرتين (ص٣٤-٣٦).

(٢) رواه أبوداود (١٥٤٤)، وصححه الألباني.

(٣) انظر: مرقاة المفاتيح (٤/ ١٧٠٩)، تحفة الأحوذي (٧/ ١٨)، مرعاة المفاتيح (٨/ ٢٢٦).

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ: «الذي اسْتَعاذَ منهُ هو الذي لا يُدْرَكُ مَعَهُ القُوتُ، والكَفافُ، ولا يَسْتَقِرُّ مَعَهُ في النَّفْسِ غِنًى؛ لأنَّ الغِنَى عِنْدَهُ ﷺ غِنَى النَّفْسِ، وقد قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨]، ولم يَكُن غِناهُ أَكْثَرَ من ادِّخارِهِ قُوتَ سَنَةٍ لِنَفْسِهِ، وعيالِهِ، وكان الغِنَى مَحَلُّهُ في قلبِهِ؛ ثِقَةً بِرَبِّهِ، وكان يَسْتَعيذُ من فَقْرٍ مُنْسي، وغِنًى مُطْغي»[1].

وقال أَبو سُلَيمانَ الدارانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا عَمَلَ كَطَلَبِ السَّلامَةِ، ولا سَلامَةَ كَسَلامَةِ القلبِ، ولا عَقْلَ كَمُخالَفَةِ الهَوَى، ولا فَقْرَ كَفَقْرِ القلبِ، ولا غِنًى كَغِنَى النَّفْسِ، ولا قُوَّةَ كَرَدِّ الغَضَبِ، ولا نُورَ كَنُورِ اليَقينِ، ولا يَقينَ كاسْتِصْغارِ الدنيا، ولا مَعْرِفَةَ كَمَعْرِفَةِ النَّفْسِ، ولا نِعْمَةَ كالعافيَةِ منَ الذُّنُوبِ، ولا زُهْدَ كَقِصَرِ الأَمَلِ، ولا حِرْصَ كالمُنافَسَةِ في الدَّرَجاتِ، ولا عَدْلَ كالإنْصافِ، ولا تَعَدِّيَ كالجَورِ، ولا طاعَةَ كَأَداءِ الفَرائِضِ، ولا تَقْوَى كاجْتِنابِ المَحارِمِ، ولا عَدَمَ كَعَدَمِ العَقْلِ، ولا عَدَمَ عَقْلٍ كَقِلَّةِ اليَقينِ، ولا فَضيلَةَ كالجِهادِ، ولا جِهادَ كَمُجاهَدَةِ النَّفْسِ، ولا ذُلَّ كالطَّمَعِ، ولا ثَوابَ كالعَفْوِ، ولا جَزاءَ كالجَنَّةِ»[2].

فالغِنَى الحَقيقيُّ غِنَى القلبِ، والفَقْرُ الحَقيقيُّ فَقْرُ القلبِ.

ومَن كان غَنيَّ القلبِ فَما أَغْناهُ، وإن كان أَفْقَرَ الناسِ.

ومَن كان فَقيرَ القلبِ فَما أَفْقَرَهُ، وإن كان أَغْنَى الناسِ.

ولا يَتَحَقَّقُ غِنَى القلبِ إلَّا بتَمامِ الفَقْرِ إلى اللهِ، المُسْتَلْزِمِ لِكَمالِ عُبُوديَّتِهِ، بِتَحْقيقِ مَقاماتِ الشُّكْرِ، والصَّبْرِ، والخُشُوعِ، والإخْباتِ، والرِّضا، والإنابَةِ، والخَشْيَةِ، وغيرِ ذلك من مَقاماتِ الإيمانِ، والإحْسانِ.

---

(١) التخليص الحبير (٣/ ٢٦٥).

(٢) حلية الأولياء (٩/ ٢٧٠).

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَكْمَلُ الخلقِ: أَكْمَلُهُم عُبُوديَّةً، وأَعْظَمُهُم شُهُودًا لِفَقْرِهِ، وضَرُورَتِهِ، وحاجَتِهِ إلى رَبِّهِ، وعَدَمِ اسْتِغْنائِهِ عنهُ طَرْفَةَ عَينٍ؛ ولِهذا كان من دُعائِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَصْلِح لي شَأْني كلَّهُ، ولا تَكِلْني إلى نَفْسي طَرْفَةَ عَينٍ**»، وكان يَدْعُو: «**يا مُقَلِّبَ القلوبِ ثَبِّت قلبي على دينِكَ**».

فَضَرُورَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى رَبِّهِ، وفاقَتُهُ إليهِ، بِحَسَبِ مَعْرِفَتِهِ به، وحَسَبِ قُرْبِهِ منهُ، ومَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ؛ ولِهذا كان أَقْرَبَ الخلقِ إلى اللهِ وسيلَةً، وأَعْظَمَهُم عِنْدَهُ جاهًا، وأَرْفَعَهُم عِنْدَهُ مَنْزِلَةً؛ لِتَكْميلِهِ مَقامَ العُبُوديَّةِ والفَقْرِ إلى رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ»[1].



(١) طريق الهجرتين (ص١٠).



الحديثُ السادسُ:

عن زَيدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَن كان هَمُّهُ الآخرةَ، جمعَ اللهُ شَمْلَهُ، وجَعَلَ غِناهُ في قلبِهِ، وأَتَتْهُ الدنيا وهيَ راغِمَةٌ، ومَن كانَت نيَّتُهُ الدنيا، فَرَّقَ اللهُ عليهِ ضَيعَتَهُ، وجَعَلَ فَقْرَهُ بينَ عَينَيهِ، ولم يَأْتِهِ منَ الدنيا إلا ما كُتِبَ لَهُ»[١].

وعن مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «مَن جَعَلَ اللهُ له الغِنَى في قلبِهِ نَفَعَتْهُ الدنيا، ومَن لم يَجْعَلِ اللهُ غِناهُ في قلبِهِ لم تَنْفَعْهُ الدنيا»[٢].

وصحّ عن طاوُسٍ، قال: «مَن تكُنِ الدنيا هيَ نيَّتَهُ وأَكْبَرَ هَمِّهِ، يَجْعَلِ اللهُ فَقْرَهُ بينَ عَينَيهِ، ويُفْشي عليهِ ضَيعَتَهُ، ومَن تكُنِ الآخرةُ هيَ نيَّتَهُ، وأَكْبَرَ هَمِّهِ، يَجْعَلِ اللهُ غِناهُ في نَفْسِهِ، ويَجْمَع عليهِ ضَيعَتَهُ»[٣].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢١٥٩٠)، وابنُ ماجه (٤١٠٥)، وابنُ حِبَّان (٦٨٠)، والطبراني في المُعْجَمِ الكَبيرِ (٤٨٩١)، وجَوَّدَ إسناده الحافظ العِراقي في تَخْرِيجِ الإحْياءِ (ص١٥٧٤)، وصححه البُوصيري في الزَّوائِدِ (٤/ ٢١٢)، وكذا صححه الألباني في صحيح ابنِ ماجه، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٥٦): «رواه ابنُ ماجه، ورُواتُهُ ثِقاتٌ». ورواه الترمذي (٢٤٦٥)، والطبراني في الأوسط (٨٨٨٢)، والبَغَوي في تفسيرِهِ (١/ ٥١٩)، من حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ورواه الطبراني في الأوسط (٥٠٢٥)، وابنُ الأَعْرابي في مُعْجَمِهِ (١٧٥٩)، وابنُ شاهينَ في الترغيب (٣٥٥)، وأبو نُعَيمٍ في الحِلْيَةِ (١/ ٢٢٧)، من حديث أَبي الدرْداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ورواه ابنُ شاهينَ في الترغيب (٣٥٣)، من حديث أُبَيِّ بن كعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ورواه أحمد في الزهد (١٨٠)، عنِ الحسنِ مُرْسَلًا بنَحْوِهِ، وسَنَدُهُ صحيح.

(٢) رواه أبوداود في الزهد (١٨٣)، وصححه ابنُ القَيِّمِ في إعلام الموقعين (٢/ ١٦٨).

(٣) رواه ابنُ المُبارَكِ في الزهد (١/ ٢٦٩).

وعن يَحْيَى بنِ مُعاذٍ، قال: «مَن كان غِناهُ في كيسِهِ لم يَزَل فَقيرًا، ومَن كان غِناهُ في قلبِهِ لم يَزَل غَنيًّا»[١].

والحديثُ ورَدَ في الحَثِّ على الِاهْتِمامِ بِأَمْرِ الآخرةِ؛ فَفي ذلك جَمْعُ الشَّمْلِ، وغِنَى القلبِ، أَمَّا الِانْشِغالُ بِأَمْرِ الدنيا، والتَّكالُبُ عليها: فَفيهِ تَفْريقُ الهَمِّ، وفَقْرُ القلبِ.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إخْراجُ فُضُولِ المالِ، والِاقْتِصارُ على الكِفايَةِ، أَفْضَلُ وأَسْلَمُ، وأَفْرَغُ لِلْقلبِ، وأَجْمَعُ لِلْهَمِّ، وأَنْفَعُ في الدنيا، والآخرةِ»[٢].

فَقولهُ: «مَن كان هَمُّهُ الآخرةَ»:

فَيَعْمَلُ في دُنْياهُ بِطاعَةِ اللهِ، ويَسْعَى في مَرْضاةِ مَولاهُ، وكَأَنَّ الدنيا لَيسَت له على بالٍ، يَعْلَمُ أَنَّهُ يَأْتيهِ منها ما قُدِّرَ له، فاهْتَمَّ بِأَمْرِ الآخرةِ، وسَعَى لَها سَعْيَها وهو مُؤْمِنٌ.

«جمعَ اللهُ شَمْلَهُ»:

أَي: أُمُورَهُ المُتَفَرِّقَةَ، بِأَن جَعَلَهُ مَجْمُوعَ الخاطِرِ[٣].

وشَمْلُ القَومِ: مُجْتَمَعُ عَدِّهِم، وأَمْرِهِمْ[٤]؛ يُقالُ: جمعَ اللهُ شَمْلَهُم، أَي: ما تَشَتَّتَ من أَمْرِهِم، وفَرَّقَ اللهُ شَمْلَهُم، أَي: فَرَّقَ ما اجْتَمَعَ من أَمْرِهِمْ[٥]، ويُقالُ في الدُّعاءِ: جمعَ اللهُ شَمْلَهُ، إذا دُعيَ له بِتَأَلُّفِ أُمُورِهِ، واسْتِوائِها[٦].

---

(١) رواه الضياء في المنتقى من مسموعات مَرْوٍ (ص١٧٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ١٠٨).

(٣) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٣٣٤).

(٤) العين (٦/ ٢٦٦).

(٥) الصحاح (٥/ ١٧٣٩).

(٦) جمهرة اللغة (٢/ ٨٧٩).

«وَجَعَلَ غِناهُ في قلبِهِ»:

أي: جَعَلَهُ قانِعًا بالكَفافِ؛ كَيلا يَتْعَبَ في طَلَبِ الزِّيادَةِ[١].

ومَنِ اغْتَنَى قلبُهُ، كَبَحَ جِماحَ هَواهُ، وسَلِمَ من تَخْليطِ نَفْسِهِ، واسْتَقامَ على الهُدَى، واسْتَغْنَى بِعِبادَةِ اللهِ، عن كلِّ ما سِواهُ.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «لا يَسْتَغْني القلبُ إلَّا بِعِبادَةِ اللهِ تَعالى؛ فإنَّ الإنْسانَ خُلِقَ مُحْتاجًا إلى جَلْبِ ما يَنْفَعُهُ، ودَفْعِ ما يَضُرُّهُ، ونَفْسُهُ مُريدَةٌ دائِمًا، ولا بُدَّ لَها من مُرادٍ يكونُ غايَةَ مَطْلُوبِها؛ لِتَسْكُنَ إليهِ، وتَطْمَئِنَّ به، ولَيسَ ذلك إلَّا للهِ وحْدَهُ؛ فلا تَطْمَئِنُّ القلوبُ إلَّا به، ولا تَسْكُنُ النُّفُوسُ إلَّا إليهِ، ولا يَحْصُلُ صَلاحُ القلوبِ إلَّا بِعِبادَةِ اللهِ وحْدَهُ لا شَريكَ له.

فإذا لم تَكُنِ القلوبُ مُخْلِصَةً للهِ الدِّينَ: عَبَدَت غيرَهُ منَ الآلِهَةِ التي يَعْبُدُها أكثرُ الناسِ مِمَّا رَضُوهُ لِأَنْفُسِهِم، فَبِالعِبادَةِ له تَسْتَغْني عن مَعْبُودٍ آخَرَ، وبالِاسْتِعانَةِ به تَسْتَغْني عنِ الِاسْتِعانَةِ بالخلقِ، وإذا لم يَكُنِ العبدُ كذلك: كان مُذْنِبًا مُحْتاجًا، وإنَّما غِناهُ في طاعَةِ رَبِّهِ»[٢].

وقال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «مَن طَلَبَ اللهَ بِصِدْقٍ وجَدَهُ، ومَن وجَدَهُ أَغْناهُ وُجُودُهُ عن كلِّ شَيءٍ، فَأَصْبَحَ حُرًّا في غِنًى، ومَهابَةٍ، على وجْهِهِ أَنْوارُهُ، وضياؤُهُ، وإن فاتَهُ مَولاهُ جَلَّ جَلالُهُ تَباعَدَ ما يَرْجُو، وطالَ عَناؤُهُ، ومَن وصَلَ إلى هذا الغِنَى قَرَّت به كلُّ عَينٍ؛ لأنَّهُ قَد قَرَّت عَينُهُ باللهِ، والفَوزِ بِوُجُودِهِ، ومَن لم يَصِل إليهِ، تَقَطَّعَت نَفْسُهُ على الدنيا حَسَراتٍ»[٣].

---

(١) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٣٣٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٥٥).

(٣) طريق الهجرتين (ص٤٧).

ويُقْصَدُ بِوُجُودِ اللهِ: مَعْرِفَتُهُ، والعِلْمُ به، وهذا يَقْتَضي العِلْمَ النافِعَ، والعَمَلَ الصالِحَ.

«وَأَتَتْهُ الدنيا»:

أي: أَتاهُ ما قُدِّرَ وقُسِمَ له منها.

«وَهيَ راغِمَةٌ»:

أي: ذَليلَةٌ حَقيرَةٌ تابِعَةٌ له، لا يَحْتاجُ في طَلَبِها إلى سَعْيٍ كثيرٍ، بَل تَأْتيهِ هَيِّنَةً لَيِّنَةً، على رَغْمِ أَنْفِها، وأَنْفِ أَرْبابِها.

«وَمَن كانَت نيَّتُهُ الدنيا»:

فَسَعَى لَها سَعْيَها، وشَغَلَتْهُ عن مَهامِّ الآخرةِ.

«فَرَّقَ اللّهُ عليهِ ضَيعَتَهُ»:

الضَّيعَةُ: تُطْلَقُ على الأَرْضِ المُغَلَّةِ، وعلى العَمَلِ النافِعِ المُرْبِحِ، كالتِّجارَةِ، والصِّناعَةِ، وغيرِهِما منَ الحِرَفِ، وقد تُطْلَقُ على الرِّبْحِ نَفْسِهِ، ويُقالُ: فَشَت عليهِ ضَيعَتُهُ: إذا كَثُرَ مالُهُ، أَو كَثُرَت أَشْغالُهُ، وانْتَشَرَت عليهِ أُمُورُهُ، والجَمْعُ: ضياعٌ، وضِيَعٌ[1].

وقال شَمِرٌ: «كانَت ضَيعَةُ العربِ سياسَةَ الإبِلِ، والغَنَمِ»، قال: «ويَدْخُلُ في الضَّيعةِ: الحِرْفَةُ، والتِّجارَةُ، يُقالُ لِلرَّجُلِ: قُم إلى ضَيعَتِك».

قال الأَزْهَريُّ: «الضَّيعَةُ والضِّياعُ عندَ الحاضِرَةِ: مالُ الرَّجُلِ منَ النَّخْلِ، والكَرْمِ، والأَرْضِ.

---

(١) المعجم الوسيط (١/ ٥٤٧).

والعربُ لا تَعْرِفُ الضَّيعَةَ إلَّا الحِرْفَةَ، والصِّناعَةَ»، قال: «وسَمِعْتُهُم يَقُولُونَ: ضَيعةُ فُلانٍ: الجِزارَةُ، وضَيعَةُ الآخَرِ: رَعْيُ الإبِلِ، وما أَشْبَهَ ذلك، كالصَّنْعَةِ، والزِّراعَةِ، وغيرِ ذلك»[١].

فالمَقْصُودُ بِـ «**ضَيعَتِهِ**»: ما يكونُ منهُ مَعاشُهُ كَصَنْعَةٍ، وتِجارَةٍ، وزِراعَةٍ، ونَحْوِها.

فَمَن كانَتِ الدنيا هَمَّهُ، شَتَّتَ اللهُ عليهِ ضَيعَتَهُ، وانْشَغَلَ بالُهُ بِها له هاهُنا وهاهُنا.

وفي حديثِ أنسٍ: «**فَرَّقَ عليهِ شَمْلَهُ**»، أَي: فَرَّقَ ما اجْتَمَعَ من أَمْرِهِ.

«وَجَعَلَ فَقْرَهُ بينَ عَينَيه»:

كِنايَةً عن كَونِهِ يَصيرُ مُسْتَحْضِرًا له أَبَدًا، ومُشْفِقًا منَ الوُقُوعِ فيه، فهُو نُصْبَ عَينَيهِ على طُولِ المَدَى، فلا يَزالُ فَقيرَ القلبِ، حَريصًا على الدنيا، مُتَهافِتًا عليها، مُنْهَمِكًا في تَحْصيلِها، وإن كان مُوسِرًا، مُمْتَدَّ الطَّمَعِ، وإن طالَ الأَمَدُ، فلا يَزالُ بينَ طَمَعٍ فارِغٍ، وأَمَلٍ كاذِبٍ، حَتَّى تُوافيَهُ المَنيَّةُ، وهو على هذه الحالَةِ الرَّديَّةِ، وذلك من عَلاماتِ سُوءِ الخاتِمَةِ[٢].

«وَلَم يَأْتِهِ مِنَ الدنيا إلا ما كُتِبَ لَهُ».

قال السِّنْديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما كُتِبَ لِلْعبدِ منَ الرِّزْقِ يَأْتيهِ لا محالَةَ، إلَّا أَنَّهُ مَن طَلَبَ الآخرةَ يَأْتيهِ بِلا تَعَبٍ، ومَن طَلَبَ الدنيا يَأْتيهِ بِتَعَبٍ، وشِدَّةٍ، فَطالِبُ الآخرةِ قَد جمعَ بينَ الدنيا، والآخرةِ، فإنَّ المَطْلُوبَ من جَمْعِ المالِ الراحَةُ في الدنيا، وقد حَصَلَت لِطالِبِ الآخرةِ، وطالِبُ الدنيا قَد خَسِرَ الدنيا، والآخرةَ؛ لأَنَّهُ في الدنيا في التَّعَبِ الشَّديدِ في طَلَبِها، فَأَيُّ فائِدَةٍ له في المالِ إذا فاتَتِ الراحَةُ؟»[٣].

---

(١) لسان العرب (٨/ ٢٣٠)، تهذيب اللغة (٣/ ٤٧).

(٢) فيض القدير (١/ ٢٥٥).

(٣) حاشية السندي على ابنِ ماجه (٢/ ٥٢٥).

وقال المُناويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن كانَتِ الدنيا نُصْبَ عَينَيهِ، صارَ الفَقْرُ بينَ عَينَيهِ، وتَفَرَّقَ سِرُّهُ، وتَشَتَّتَ أَمْرُهُ، وتَعِبَ بَدَنُهُ، وشَرِهَت نَفْسُهُ، وازْدادَتِ الدنيا منهُ بُعْدًا، وهو لَهَا أَشَدُّ طَلَبًا، فَمَن رَأى نَفْسَهُ مائِلَةً إلى الآخرةِ، فَلْيَشْكُر رَبَّهُ على ذلك، ويَسْأَلْهُ الاِزْديادَ من تَوفيقِهِ، ومَن وجَدَ نَفْسَهُ طامِحَةً إلى الدنيا، فَلْيَتُب إلى اللهِ، ولْيَسْتَغِث به في إزالَةِ الفَقْرِ من بينِ عَينَيهِ، والحِرْصِ من قلبِهِ، والتَّعَبِ من بَدَنِهِ»[١].

وقال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تَجِدُ أَتْعَبَ مِمَّنِ الدنيا أَكْبَرُ هَمِّهِ، وهو حَريصٌ بِجهْدِهِ على تَحْصيلِها.

ومِن أَبْلَغِ العَذابِ في الدنيا: تَشْتيتُ الشَّمْلِ، وتَفَرُّقُ القلوبِ، وكَونُ الفَقْرِ نُصْبَ عَينَيِ العبدِ لا يُفارِقُهُ، ولَولا سَكْرَةُ عُشَّاقِ الدنيا بِحُبِّها، لاسْتَغاثُوا من هذا العَذابِ»[٢].

وقال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أَرادَ اللهُ بِعبدِهِ خَيرًا، جَعَلَ الغِنَى في قلبِهِ، وجَعَلَهُ أَمينًا للهِ، وأَعانَهُ على أَداءِ الأَماناتِ التي افْتَرَضَ عليهِ جَلَّ جَلالُهُ، فَذلك العبدُ الذي أَلْهَمَهُ اللهُ تعالى رُشْدَهُ، وبَصَّرَهُ عُيُوبَ نَفْسِهِ، وجَعَلَ غِناهُ في قلبِهِ.

وإذا أَرادَ بِعبدِهِ شَرًّا، جَعَلَ فَقْرَهُ بينَ عَينَيهِ، وفي قلبِهِ، وكَسَّلَهُ عن أَداءِ الأَماناتِ، وغَيَّبَ عنهُ رُشْدَهُ، وسَلَّطَ عليهِ الشَّيطانَ، فَزَيَّنَ له سُوءَ عَمَلِهِ، وحَبَّبَ إليهِ عُيُوبَهُ.

فإذا كان العبدُ كذلك فلا يُبالي عمَّا قال، ولا عمَّا قيلَ فيهِ، ولا يكونُ هَمُّهُ إلَّا في دُنْياهُ، وإصْلاحِها، ولا يُبالي بِتَلَفِ دينِهِ، فَذلك العبدُ الذي قَد سَخِطَ عليهِ مَولاهُ، وأَبْعَدَهُ عن أَبْوابِ الخَيرِ كلِّها، وقَرَّبَهُ من أَبْوابِ الشَّرِّ كلِّها»[٣].

---

(١) فيض القدير (٢/ ٣٦٩).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣٦).

(٣) بستان الواعظين (ص٥٦).

وقال ابنُ دَقيقِ العيدِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السَّعيدُ: مَنِ اخْتارَ باقيَةً يَدُومُ نَعيمُها، على باليَةٍ لا يَنْفَدُ عَذابُها»[١].

فَأَفادَ هذا الحديثُ:

أنَّ في الاِهْتِمامِ بِأَمْرِ الآخرةِ: جَمْعَ الشَّمْلِ، وغِنَى القلبِ، وفي هذا سَعادَةُ الدارَينِ.

وفي الاِنْشِغالِ بِأَمْرِ الدنيا: تَشْتيت الشَّمْلِ، وفَقْر القلبِ، وفي هذا خَسارَةُ الدارَينِ.

وفي معنى هذا الحديثِ:



(١) شرح الأربعين النووية (ص١٠٥).



الحديثُ السابعُ:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنَّ اللهَ يَقُولُ: **«يا ابنَ آدَمَ، تَفَرَّغ لِعِبادَتي، أَمْلأْ قلبَكَ غِنًى، وأَسُدَّ فقرَكَ، وإلاَّ تَفْعَل، أَمْلأْ يَدَيكَ شُغْلاً، ولم أَسُدَّ فقْرَكَ»**[١].

وعِنْدَ التِّرْمِذيِّ، وابنِ ماجه، وغيرهما: «**أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى**» بَدَلَ «**قلبكَ**» وهُما بِمعنى؛ لأنَّ القلبَ في الصَّدْرِ.

قال المُناويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أَمْلأُ صَدْرَكَ غِنًى**»: أَي: قلبَكَ الذي في صَدْرِكَ»[٢].

وعن خَيثَمَةَ بنِ عبدِالرحمنِ، قال: «مَكْتُوبٌ في التَّوراةِ: ابنَ آدَمَ، تَفَرَّغ لِعِبادَتي، أَمْلَأْ قلبَكَ غِنًى، وأَسُدَّ فَقْرَكَ، وإلَّا تَفْعَلْ: أَمْلأْ قلبَكَ شُغلًا، ولا أَسُدّ فَقْرَكَ»[٣].

ورواهُ أَبو القاسِمِ الخُتّليّ عن إبراهيمَ، قال: «مكتوبٌ في التَّوراةِ: ...» فَذَكَرَهُ[٤].

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٦)، وحَسَّنَهُ، وابنُ ماجه (٤١٠٧)، وأحمد (٨٦٩٦)، وابن أبي شيبة (٣٤٦٩٩)، وابنُ حِبَّان (٣٩٣)، والحاكمُ (٣٦٥٧). وصححه الحاكمُ، ووافقهُ الذَّهبي، وكذا صححه الألباني في صحيح الترمذي، وقال ابنُ مُفْلِح في الآداب الشرعية (٣/ ٢٧٠): «حديثٌ جَيِّدٌ». ورواه الحاكمُ (٧٩٢٦)، وأَبو نُعَيم في الحِلْيَةِ (٢/ ٣٠٣)، من حديث مَعْقِلِ بن يَسارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ. ورواه مَعْمَرٌ في جامعهِ (٢٠٣٠٥) عن لَيثٍ مرسلًا.

(٢) فيض القدير (٢/ ٣٠٨).

(٣) حلية الأولياء (٤/ ١١٦)

(٤) الدِّيباجِ (٤٨).

ورواهُ أَحْمَدُ فِي الزُّهْدِ، عن أَبِي سِنانٍ قال: «يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ...» فَذَكَرَهُ[١].

ورواهُ هَنَّادُ بنُ السّريِّ فِي الزُّهْدِ، عن شَمرِ بنِ عَطيَّةَ قال: يَقُولُ اللهُ تَبارَكَ وتعالى: «يا ابنَ آدَمَ...» فَذَكَرَهُ[٢].

قولُه: «يا ابنَ آدَمَ»:

نِداءٌ عامٌّ، لا فَرْقَ فيه بينَ عَرَبِيٍّ، وعَجَميٍّ، وأَبْيَضَ، وأَسْوَدَ، فَمَنِ اسْتَجابَ كان له الأَجْرُ، ومَن لم يَسْتَجِب حَطَّ عليهِ الوِزْرُ؛ لأنَّ الناسَ إنَّما يَتَفاضَلُونَ بالتَّقْوَى.

«تَفرَّغ لِعِبادَتي»:

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أَي**: بالِغ فِي فَراغِ قلبِكَ؛ لِعِبادَةِ رَبِّكَ»[٣].

وقال السِّنْديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أَي**: كُن فارِغًا عن كلِّ شَيءٍ؛ لِأَجَلِ العِبادَةِ، واصْرِف وقْتَكَ فيها»[٤].

وقال المُناويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أَي**: تَفَرَّغ عن مُهِمَّاتِكَ لِطاعَتي، ولا تَشْتَغِل بِاكْتِسابِ ما يَزِيدُ على قُوتِكَ، وقُوتِ مَن تَعُولُهُ؛ فإنَّكَ إنِ اقْتَصَرْتَ على ما لا بُدَّ منهُ، واشْتَغَلْتَ بِعِبادَتي، مَلَأْتَ قلبَكَ غِنًى»[٥].

وقال العَلائيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَمَرَ اللهُ فِي هذا الخَبَرِ بالتَّفَرُّغِ لِعِبادَتِهِ، ومن جُمْلَةِ ذلك: أَن لا يكونَ فِي القلبِ شاغِلٌ عنِ الإقْبالِ على طاعَتِهِ سُبْحانَهُ»[٦].

---

(١) الزهد (٥٠٥).
(٢) الزهد (٢/ ٣٥٤).
(٣) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٢٣٨).
(٤) حاشية السندي على ابن ماجه (٢/ ٥٢٥).
(٥) فيض القدير (٢/ ٣٠٨).
(٦) المصدر السابق.

والعِبادَةُ: اسْمٌ جامِعٌ لِكلِّ ما يُحِبُّهُ اللهُ، ويَرْضاهُ، منَ الأَقْوالِ، والأَعْمالِ، الباطِنَةِ، والظاهِرَةِ[١].

وهيَ أَيضًا: اسْمٌ جامِعٌ لِغايَةِ الحُبِّ للهِ، وغايَةِ الذُّلِّ له؛ فَمَن ذَلَّ له من غيرِ حُبٍّ، لم يَكُن عابِدًا، والحُبُّ يُوجِبُ الذُّلَّ، والطاعَةَ، والقلبُ لا يَصْلُحُ إلَّا بِعِبادَةِ اللهِ وحْدَهُ[٢].

فالعِبادَةُ تَتَضَمَّنُ غايَةَ الحُبِّ بِغايَةِ الذُّلِّ، وذلك لا يَسْتَحِقُّهُ إلَّا اللهُ وحْدَهُ[٣].

ولَيسَ المَقْصُودُ منَ الحديثِ: التَّفَرُّغَ التامَّ لِلْعِبادَةِ، وتَرْكَ مَهامِّ الدنيا، وإهْمالَها بالكلِّيَّةِ، ولَكِنَّ المَقْصُودَ: أَلَّا تَشْغَلَكَ الدنيا عنِ الآخرةِ، واكْتَفِ فيها بالكَفافَ؛ كما روى أَحْمَدُ، عنِ الحسنِ، قال: لَمَّا احْتُضِرَ سَلْمانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَكَى، وقال: «**إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَهِدَ إلينا أَن يكونَ بُلْغَةُ أَحَدِنا منَ الدنيا كَزادِ الراكِبِ**»[٤].

وفي الصَّحيحَينِ، عن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُمَّ اجْعَل رِزْقَ آلِ محمدٍ قُوتًا**».

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «القُوتُ: ما يَسُدُّ الرَّمَقَ، وفيهِ: فَضيلَةُ التَّقَلُّلِ منَ الدنيا، والاِقْتِصارِ على القُوتِ منها، والدُّعاء بِذلك»[٥].

والأَحاديثُ في هذا المعنى كثيرَةٌ.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٦).
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٦٦)، إغاثة اللهفان (٢/ ١٣٣).
(٤) رواه أحمد (٢٣٧١١)، وصححه محققو المسند.
(٥) شرح النووي على مسلم (٧/ ١٤٦).

قولهُ: «أَمْلأُ قلبَكَ غِنًى»:

وذلك لأَنَّهُ انْشَغَلَ بِما فيه غِنَى القلبِ، من طاعَةِ اللهِ، وعِبادَتِهِ، فلَمَّا ذاقَ القلبُ حَلاوَةَ الإيمانِ، ولَذَّةَ الطاعَةِ، اكْتَفَى بِها عن مَلاذِّ الدنيا كلِّها، وانْشَغَلَ عن أَطايِبِها بِما هو فيه منَ الغِنَى، والنَّعيمِ التامِّ.

كان أَبو جَعْفَرٍ النَّسَفيُّ، عالِمَ الحَنَفيَّةِ في زَمانِهِ، وكان فَقيرًا مُتَزَهِّدًا، باتَ لَيلَةً قَلِقًا لِما عِنْدَهُ منَ الفَقْرِ، والحاجَةِ، فعَرَضَ له فِكْرٌ في فَرْعٍ منَ الفُرُوعِ كان أَشْكَلَ عليهِ، فانْفَتَحَ له، فَقامَ يَرْقُصُ ويَقُولُ: «أَينَ المُلُوكُ، وأَبْناءُ المُلُوكِ؟» فَسَأَلَتْهُ امْرَأَتُهُ عن خَبَرِهِ، فَأَعْلَمَها بِما حَصَلَ له، فتَعَجَّبَت من شَأْنِهِ، رحمه اللهُ[1].

فَمَنِ انْشَغَلَ بِأَمْرِ الآخرةِ، وجَدَ في قلبِهِ منَ الغِنَى، والفَرَحِ، أَعْظَمَ ممَّا يَجِدُهُ المُلُوكُ، وأَبْناءُ المُلُوكِ، منَ السَّعادَةِ، بِما تَيَسَّرَ لهم من أسبابِها، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَغْنانا بالفَرَحِ بِفَضْلِهِ، ورَحْمَتِهِ، وهُما القرآنُ، والإيمانُ، عنِ الفَرَحِ بِما يَجْمَعُهُ أهلُ الدنيا منَ المَتاعِ، والعَقارِ، والأَثْمانِ»[2].

فإذا انْشَغَلَ العبدُ بالقرآنِ، والإيمانِ، والعَمَلِ الصالِحِ، أَغْنَى اللهُ قلبَهُ غِنًى لا تَطُولُهُ قلوبُ أَغْنَى مَياسيرِ أهلِ الدنيا، ولا أَوجَهِهِم مَنْزِلَةً، ولا أَرْفَعِهِم مَقامًا.

قولهُ: «وَأَسُدَّ فَقْرَكَ»:

أَي: وأَسُدَّ بابَ حاجَتِكَ إلى الناسِ[3]؛ لأَنَّهُ إذا حَصَلَ الغِنَى، والكِفايَةُ، زالَ الفَقْرُ، والحاجَةُ، ومَنِ اسْتَغْنَى باللهِ، أَغْناهُ اللهُ عن جَميعِ خَلْقِهِ.

---

(١) البداية والنهاية (١٥/ ٦٠١).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٧٠).

(٣) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٢٣٨).

قولهُ: «وَإلاَّ تَفْعَلْ»:

أَي: ما أَمَرْتُكَ به منَ الإعْراضِ عنِ الدنيا، والإقْبالِ على عِبادَةِ المَولى، النافِعَةِ في الدِّينِ والأُخْرَى.

«مَلأْتُ يَدَيكَ»:

أَي: جَوارِحَكَ، وإنَّما خُصَّتِ اليَدَينِ بالذِّكْرِ؛ لِمُزاوَلَةِ أَكْثَرِ الأَفْعالِ بهما.

«شُغلاً»:

أَيِ: اشْتِغالًا من غيرِ مَنْفَعَةٍ[1].

«وَلم أَسُدَّ فَقْرَكَ»:

أَي: لا من شُغلِكَ، ولا من غيرِه.

وحاصِلُهُ: أَنَّكَ تُتعِبُ نَفْسَكَ بِكثرةِ التَّرَدُّدِ في طَلَبِ المالِ، ولا تَنالُ إلَّا ما قَدَّرْتُ لَكَ، وتُحْرَمُ غِنَى القلبِ؛ لِتَرْكِ عِبادَةِ الرَّبِّ[2].

وهذا فَقْرُ الحاجَةِ، والعَوَزِ، فَقْرُ الرَّغْبَةِ في الدنيا، والفَقْرُ إلى المَخْلُوقينَ.

أَمَّا الفَقْرُ إلى اللهِ: فَهذه مَنْزِلَةٌ شَرِيفَةٌ، يَنْزِلُها خَواصُّ عِبادِ اللهِ الصالِحينَ.

قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْزِلَةُ الفَقْرِ أَشْرَفُ مَنازِلِ الطَّرِيقِ، وأَعْلاها، وأَرْفَعُها، بَل هيَ رُوحُ كلِّ مَنْزِلَةٍ، وسِرُّها، ولُبُّها، وغايَتُها، وإذا عرفْتَ معنى الفَقْرِ، عَلِمْتَ أَنَّهُ عَينُ الغِنَى باللهِ»[3].

---

(١) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٢٣٨).

(٢) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٢٣٨).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٤٠٩)، باختصار.

وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ نَبيَّكُم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَن جَعَلَ الهُمُومَ هَمًّا واحِدًا، هَمَّ آخِرَتِهِ، كَفاهُ اللهُ هَمَّ دُنْياهُ، ومَن تَشَعَّبَت به الهُمُومُ في أَحْوالِ الدنيا، لم يُبالِ اللهُ في أَيِّ أَودِيَتِها هَلَكَ**»[1].

والحاصِلُ: أنَّ مَنِ انْشَغَلَ بِعِبادَةِ رَبِّهِ، وأَفْرَغَ لَها قلبَهُ، وكانَتِ الآخرةُ أَكْبَرَ هَمِّهِ، وجَعَلَ الهُمُومَ هَمًّا واحِدًا، جمعَ اللهُ عليهِ شَمْلَهُ، ومَلَأَ قلبَهُ غِنًى، وكَفاهُ أَمْرَ دُنْياهُ، وآخِرَتِهِ.

ومَن كانَتِ الدنيا أَكْبَرَ هَمِّهِ، فانْشَغَلَ بِها عن طاعَةِ رَبِّهِ، فَرَّقَ اللهُ عليهِ شَمْلَهُ، ولم يَجْمَع عليهِ شَتاتَ قلبِهِ، وجَعَلَ فَقْرَهُ بينَ عَينَيهِ، ولم يَأْتِهِ منَ الدنيا إلَّا ما كُتِبَ له.



(١) رواه ابنُ ماجه (٢٥٧)، والبيهقي في الشُّعَبِ (١٧٤٤)، والبزار في مسنده (١٦٣٨)، وحسنه الألباني في صحيح ابنِ ماجه.

الحديثُ الثامن:

عن أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسولُ اللّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«إنَّ اللّهَ لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُم، وأَمْوالِكُم، ولَكِن يَنْظُرُ إلى قلوبِكُم، وأَعْمالِكُمْ».**

وفي رواية: **«إنَّ اللّهَ لا يَنْظُرُ إلى أَجْسادِكُم، ولا إلى صُوَرِكُم، ولَكِن يَنْظُرُ إلى قلوبِكُمْ»**، وأَشارَ بِأَصابِعِهِ إلى صَدْرِهِ[١].

يبيِّنُ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في هذا الحديثِ أنَّ القلبَ هو محلُّ نظرِ الرَّبِّ تعالى، فإذا صلَحَ القلبُ، صَلَحَتِ الجوارِحُ، فصلَحَ العملُ، وإذا فَسدَ القلبُ، فسدَتِ الجوارحُ، ففسَدَ العملُ، ولا اعتدادَ بالصُّورةِ الظاهرةِ: حَسُنَت، أو قَبُحَت، ولا بالأموالِ المُكتسبةِ: كثُرَت، أم قلَّت.

قال النوويُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «مَقْصُودُ الحديثِ: أنَّ الاِعْتِبارَ في هذا كلِّهِ بالقلبِ، وهو من نَحْوِ قولهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إلَّا أَن في الجَسَدِ مُضْغَةٌ** ...»، الحديثَ»[٢].

وقولُهُ: «إنَّ اللّهَ لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ»:

إذ لا اعْتِبارَ بِحُسْنِها، وقُبْحِها.

«وَأَمْوالِكُمْ»:

إذ لا اعْتِبارَ بِكَثْرَتِها، وقِلَّتِها.

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٢١).



«وَلَكِن يَنْظُرُ إلى قلوبِكُمْ»

أَي: إلى ما فيها منَ اليَقينِ، والصِّدْقِ، والإِخْلاصِ، وقَصْدِ الرِّياءِ، والسُّمْعَةِ، وسائِرِ الأَخْلاقِ الرَّضيَّةِ، والأَحْوالِ الرَّديَّةِ.

«وَأَعْمالِكُمْ»

أَي: من صَلاحِها وفَسادِها، فَيُجازيكُم على وفْقِها[١].

وقال السَّفارينيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إلى الصُّوَرِ، وإنَّما يَنْظُرُ إلى الأَعْمالِ، والقلوبِ، فَكَم من جِسْمٍ وسيمٍ وهو عندَ اللهِ من أَصْحابِ الجَحيمِ»[٢].

فالنَّظرُ والحسابُ والجزاءُ على ما يقومُ في القلوبِ منَ الإيمانِ، والتصديقِ، وحُسْنِ الاعتقادِ الذي يتبعُهُ صلاح، فمَن كان قلبُهُ تقيًّا، وعملُهُ مرضيًّا على وفقِ شرعِ اللهِ؛ فهذا الذي يرضاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ومَن كان بعكسِ ذلك، فقَد تعرَّضَ لمقتِ اللهِ، وغضَبِه، وعقابِهِ.

أمَّا الصُّورُ، والأحسابُ، والأنسابُ، والأموالُ: فلا اعتدادَ بها، «فَقَد يكونُ كثيرٌ مِمَّن له صُورَةٌ حَسَنَةٌ، أَو مالٌ، أَو جاهٌ، أَو رياسَةٌ في الدنيا، قلبُهُ خَرابًا منَ التَّقْوَى، ويكونُ مَن ليس له شَيْءٌ من ذلك، قلبُهُ مَمْلُوءًا منَ التَّقْوَى، فَيكونُ أَكْرَمَ عندَ اللهِ تعالى، بَل ذلك هو الأكثرُ وُقُوعًا»[٣].

وعن أَبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**افْتَخَرَتِ الجَنَّةُ، والنارُ، فقالتِ النارُ: يا رَبِّ يَدْخُلُني الجَبابِرَةُ، والمُتَكَبِّرُونَ، والمُلُوكُ، والأَشْرافُ،**

---

(١) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٣٣١).

(٢) لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٨٨).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٧٦).

وقالتِ الجَنَّةُ: أَي رَبِّ يَدْخُلُني الضُّعَفاءُ، والفُقَراءُ، والمَساكينُ، فَيَقُولُ اللهُ تَبارَكَ وتَعالى لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذابي أُصيبُ بِكِ مَن أَشاءُ، وقال لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتي وسِعَت كلَّ شَيءٍ، ولِكلِّ واحِدَةٍ منْكُما مِلْؤُها»[1].

وقال محمدُ بنُ كَعْبٍ القرظيُّ في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ١-٣]: «تَخْفِضُ رِجالًا كانُوا في الدنيا مرتفعينَ، وتَرْفَعُ رِجالًا كانُوا في الدنيا مَخْفُوضينَ»[2].

«وَذلك أنَّ اللهَ يُمَتِّعُ بالصُّوَرِ كما يُمَتِّعُ بالأَمْوالِ، وكِلاهُما من زَهْرَةِ الحَياةِ الدنيا، وكِلاهُما يَفْتِنُ أهلَهُ، وأَصْحابَهُ، ورُبَّما أَفْضَى به إلى الهَلاكِ، دُنْيا وأُخْرَى»[3].

«فعُلِمَ أنَّ مجرَّدَ الجمالِ الظاهرِ في الصُّورِ، والثيابِ، لا ينظرُ اللهُ إليهِ، وإنَّما ينظرُ إلى القلوبِ، والأعمالِ، فإن كان الظاهرُ مُزيَّنًا مجمَّلًا بحالِ الباطنِ أحبَّه اللهُ، وإن كان مقبَّحًا مدنَّسًا بقُبحِ الباطنِ، أبغضَهُ اللهُ، فإنَّه سبحانَه يُحبُّ الحسَنَ الجميلَ، ويُبغِضُ السيئَ الفاحشَ.

وأهلُ جمالِ الصُّورةِ يُبتلُونَ بالفاحشةِ كثيرًا، واسمُها ضدُّ الجمالِ؛ فإنَّ اللهَ سمَّاه فاحشةً، وسوءًا، وفسادًا، وخبيثًا، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ

---

(١) رواه الإمام أحمد (١١٠٩٩)، وصححه محققو المسند، وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«تَحاجَّتِ الجَنَّةُ والنارُ، فقالتِ النارُ: أُوثِرْتُ بالمُتَكَبِّرينَ والمُتَجَبِّرينَ، وقالتِ الجَنَّةُ: ما لي لا يَدْخُلُني إلَّا ضُعَفاءُ الناسِ وسَقَطُهُمْ، قال اللهُ تَبارَكَ وتَعالى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشاءُ من عِبادي، وقال لِلنَّارِ: إنَّما أَنْتِ عَذابي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشاءُ من عِبادي، ولِكلِّ واحِدَةٍ منْكُما مِلْؤُها»**.

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٥١٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٩٨).

ﱡﭐ ٱلۡخَبَـٰٓئِثَ ﱠ [الأنبياء: ٧٤]، وقال: ﱡﭐ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﱠ [العنكبوت: ٣٠]»[١].

فإذا كان مجرَّدُ الجمالِ الظاهِرِ قد يدُلُّ على الفاحشةِ، والسُّوءِ، فكيفَ يكونُ محلَّ نظرِ الربِّ تعالى؟

ولكِن جمالَ القلبِ، وحُسنَ العملِ، لا يدلُّ إلَّا على البرِّ، والتقوَى، وهذا حريٌّ بقبولِ الربِّ، وحبِّه، ورضاهُ.

وفي روايةٍ: «**إنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُم، ولا إلى أَحْسابِكُم، ولكِن يَنْظُرُ إلى قلوبِكُم، وأَعْمالِكُمْ**»[٢].

فذكرَ في هذه الروايةِ الأحسابَ، فأخلَصَ الناسَ إلى مطيعٍ كريمٍ، وعاصٍ لئيمٍ، غيرَ معتدٍّ بالصُّورِ، ولا الأحسابِ، ولا الأنسابِ، ولا الأموالِ، فلا يتفاضَلُ الناسُ عندَ اللهِ إلا بالتقوَى.

وعن ابنِ عُمَرَ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ خَطَبَ الناسَ يومَ فَتْحِ مَكَّةَ؛ فقال: «**يا أَيُّها الناسُ، إنَّ اللهَ قد أَذْهَبَ عَنْكُم عُبِّيَّةَ الجاهِلِيَّةِ، وتَعاظُمَها بِآبائِها، فالناسُ رَجُلانِ: بَرٌّ تَقيٌّ كَريمٌ على اللهِ، وفاجِرٌ شَقيٌّ هَيِّنٌ على اللهِ، والناسُ بَنُو آدَمَ، وخَلَقَ اللهُ آدَمَ من تُرابٍ، قال اللهُ**: ﱡﭐ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﱠ [الحجرات: ١٣]»[٣].

وعن أَبي هريرةَ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ اللهَ** عَزَّوَجَلَّ **قَد أَذْهَبَ عَنْكُم عُبِّيَّةَ الجاهِلِيَّةِ، وفَخْرَها بالآباءِ مُؤْمِنٌ تَقيٌّ، وفاجِرٌ شَقيٌّ، أَنْتُم بَنُو آدَمَ، وآدَمُ من**

---

(١) الاستقامة (١/ ٣٥٧).

(٢) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٤٢٦)، وابن منده في الإيمان (٣٢٧)، والطبراني في الكبير (٣٤٥٦)، من طرق.

(٣) رواه الترمذي (٣٢٧٠)، وصححه الألباني.

تُرابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجالٌ فَخْرَهُم بِأَقْوامٍ، إنَّما هُم فَحْمٌ من فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَو لَيكونُنَّ أَهْوَنَ على اللهِ منَ الجِعْلانِ، التي تَدْفَعُ بِأَنْفِها النَّتِنَ»(١).

وقولُه: **«وَلَكِن يَنْظُرُ إلى قلوبِكُمْ»:**

فالمُجازاةُ، والمُحاسَبَةُ إنَّما تَكُونُ على ما في القلبِ، دُونَ الصُّورَةِ الظاهِرَةِ، فيصلحُ القلبُ بالتقوى، والخشيةِ، والإخباتِ، والإنابةِ، والمحبَّةِ، والخوفِ، والرجاءِ، وغيرِ ذلك من أعمالِ القلوبِ المقربةِ من علَّامِ الغُيوبِ، ويفسدُ باتِّباعِ الغيِّ، والضلالَةِ، وملازمةِ الهوَى.

«وَأَعْمالِكُمْ»:

مِنَ الكَلِمِ الطيِّبِ، والعملِ الصالِحِ، وصلاحُ العملِ مُستمدٌّ من صلاحِ القلبِ، وكلَّما صلحَ العملُ، ازدادَ القلبُ صلاحًا، **قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإذا قامَ بالقلبِ التَّصْديقُ باللهِ، والمَحَبَّةُ له، لَزِمَ ضَرُورَة أَن يَتَحَرَّكَ البَدَنُ بِمُوجبِ ذلك من الأَقْوالِ الظاهِرَةِ، والأَعْمالِ الظاهِرَةِ، فَما يَظْهَرُ على البَدَنِ من الأَقْوالِ، والأَعْمالِ، هو مُوجَبُ ما في القلبِ ولازِمُهُ، ودَليلُهُ، ومَعْلُولُهُ، كما أنَّ ما يَقُومُ بالبَدَنِ من الأَقْوالِ، والأَعْمالِ، له أَيضًا تَأْثيرٌ فيما في القلبِ، فَكلٌّ منهُما يُؤَثِّرُ في الآخرِ، لَكِنَّ القلبَ هو الأَصْلُ، والبَدَن فَرْعٌ له، والفَرْعُ يسْتَمدُّ من أَصْلِهِ، والأَصْلُ يَثْبُتُ ويَقْوَى بِفَرْعِهِ، كما في الشَّجَرَةِ التي يُضْرَبُ بِها المَثَلُ لِكلمةِ الإيمانِ»(٢).



(١) رواه أبوداود (٥١١٦)، وحسنه الألباني.

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤١).



الحديثُ التاسعُ:

عن عبدِ اللّهِ بنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسولُ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنَّ الإيمانَ لَيَخْلَقُ في جَوفِ أَحَدِكُم، كما يَخْلَقُ الثَّوبُ، فاسْأَلُوا اللّهَ أَن يُجَدِّدَ الإيمانَ في قلوبِكُمْ»**[١].

شبَّه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديثِ الإيمانَ إذا ضَعفَ في قلبِ العبدِ، بما يكتَسِبُه منَ الإثمِ، وما يُصيبُهُ منَ السُّوءِ، بالثَّوبِ إذا بَلِيَ.

ثمَّ أرشَدَ الناسَ إلى أن يسألُوا ربَّهم أن يُجدِّدَ الإيمانَ في قلوبِهِم.

وهذا الحديثُ يدلُّ على أنَّ الإيمانَ يزيدُ، وينقصُ، وأنَّ على المسلمِ أن يتعاهَدَه بالعملِ الصالحِ، وأن يصونَه عنِ الآفاتِ والأمراضِ التي تُضعِفُه، وتسلِّطُ عليهِ العدُوَّ، فإنَّه إذا خلُقَ فترِك، ازدادَ ضعفًا، حتَّى ربَّما أدَّى بهِ ذلك إلى أن يموتَ، كما أنَّ الثوبَ إذا بَلِيَ، وتُرِكَ، تقطَّعَ، وتمزَّق، ورُميَ به.

وعن أبي الدَّرْداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «إنَّ من فِقْهِ العبدِ: أَن يَتعاهَدَ إيمانَهُ، وما نَقَصَ منهُ، ومن فِقْهِ العبدِ: أَن يَعْلَمَ أَمُزْدادٌ هو أَم مُنْتَقِصٌ، وإنَّ من فِقْهِ الرَّجُلِ: أَن يَعْلَمَ نَزَغاتِ الشَّيطانِ أَنَّى تَأْتيه»[٢].

---

(١) رواه الطبراني في الكَبيرِ (١٤٦٦٨)، والحاكمُ (٥)، وقال: «وَرُواتُهُ مِصْريونَ ثِقاتٌ»، وقال في مجمع الزوائد (١/ ٥٢): «وَإسناده حسن»، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٨٥).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ١٠١٦) تاريخ دمشق (٤٧/ ١٢٩).

فتضمَّنَ كلامُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ على العبدِ أن يتفقَّدَ حالَه، ويتعاهَدَ إيمانَه، هَل يزدادُ إيمانُه أم يَنقصُ؟ فإن كان يزدادُ اجتهَدَ في المزيدِ، وإن كان ينقصُ، فتَّشَ نفسَه، ونظَرَ: من أينَ يأتي الخَللُ؟ ومن أيِّ بابٍ يدخُلُ عليهِ الشَّيطانُ؟ ويكونُ هذا دأبَه.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الغَرْسُ والزَّرْعُ النافِعُ، قَد أَجْرَى اللهُ سُبْحانَهُ العادَةَ أَنَّهُ لا بُدَّ أَن يُخالِطَهُ دَغَلٌ، ونَبْتٌ غَريبٌ، ليس من جِنْسِهِ، فإن تَعاهَدَهُ رَبُّهُ، ونَقَّاهُ، وقَلَعَهُ، كَمُلَ الغَرْسُ، والزَّرْعُ، واسْتَوَى، وتَمَّ نَباتُهُ، وكان أَوفَرَ لِثَمَرَتِهِ، وأَطْيَبَ، وأَزْكَى، وإن تَرَكَهُ، أَوشَكَ أَن يَغْلِبَ على الغَرْسِ، والزَّرْعِ، ويكون الحُكْمُ له، أَو يُضْعِفَ الأَصْلَ، ويَجْعَلَ الثَّمَرَةَ ذَميمَةً ناقِصَةً بِحَسبِ كَثْرَتِهِ، وقِلَّتِهِ، ومَن لم يَكُن له فِقْهُ نَفْسٍ في هذا، ومَعْرِفَةٌ به، فإِنَّهُ يَفُوتُهُ رِبْحٌ كَبيرٌ، وهو لا يَشْعُرُ؛ فالمؤمنُ -دائِمًا- سَعْيُهُ في شَيئَينِ: سَقْيِ هذه الشَّجَرَةِ، وتَنْقِيَةِ ما حَولَها، فَبِسَقْيِها تَبْقَى، وتَدُومُ، وبِتَنْقِيَةِ ما حَولَها تَكْمُلُ، وتَتِمُّ»[1].

والإيمانُ يزيدُ بالطاعَةِ، وينقُصُ بالمعصيَةِ، وهذا من أصولِ أهلِ السُّنةِ، ويلزَمُ من معرفةِ هذا الأصلِ تفقُّدُ الإيمانِ، والنظرُ في حالِ القلبِ، ومعرفةُ أنَّ الاجتراءَ على اللهِ بالقبائِح تُضعِفُ الإيمانَ، وتُقسِّي القلبَ، وتُطفِئ نورَه، وطاعة الربِّ تزيدُ الإيمانَ، وتُصقِلُ القلبَ، وتنيرُ بصيرتَه.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإيمانُ عندَ جَميعِ أهلِ السُّنةِ يَزيدُ بالطاعَةِ، ويَنْقُصُ بالمَعْصيَةِ، وإضْعافُ المَعاصي لِلْإيمانِ أَمْرٌ مَعْلُومٌ؛ فإنَّ العبدَ إذا أَذْنَبَ، نُكِتَ في قلبِهِ نُكْتَةٌ سَوداءُ، فإن تابَ، واسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قلبُهُ، وإن عادَ فَأَذْنَبَ، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ أُخْرَى، حَتَّى تَعْلُوَ قلبَهُ.

فالقَبائحُ تُسَوِّدُ القلبَ، وتُطْفِئُ نُورَهُ، والإيمانُ هو نُورٌ في القلبِ، والقَبائِحُ تَذْهَبُ به، أَو تُقَلِّلُهُ قَطْعًا.

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٣٤).

فالحسناتُ تزيدُ نُورَ القلبِ، والسَّيِّئاتُ تُطْفِئُ نُورَ القلبِ، وقد أخبرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّ كَسْبَ القلوبِ سببٌ لِلرَّانِّ الذي يَعْلُوها، وأخبرَ أنَّهُ أَرْكَسَ المُنافِقينَ بِما كَسَبُوا، وأخبرَ أنَّ نَقْضَ الميثاقِ الذي أَخَذَهُ على عِبادِهِ سببٌ لِتَقْسيَةِ القلبِ.

فالمَعاصي لِلْإيمانِ، كالمَرَضِ والحُمَّى لِلْقُوَّةِ، سَواءً بِسَواءٍ؛ ولذلك قال السلفُ: «المَعاصي بَريدُ الكفرِ، كما أنَّ الحُمَّى بَريدُ المَوتِ».

وهذه الأُمُورُ الثَّلاثةُ –وهيَ: صَونُ النَّفْسِ، وتَوفيرُ الحسناتِ، وصيانَةُ الإيمانِ– صاحِبُها أَرْفَعُ هِمَّةً؛ لأنَّهُ عامِلٌ على تَزْكيَةِ نَفْسِهِ، وصَونِها، وتَأْهيلِها لِلْوُصُولِ إلى رَبِّها، فهُو يَصُونُها عمَّا يَشينُها عِنْدَهُ، ويَحْجُبُها عنهُ، ويَصُونُ حَسَناتِهِ عمَّا يُسْقِطُها، ويَضَعُها؛ لأنَّهُ يَسيرُ بِها إلى رَبِّهِ، ويَطْلُبُ بِها رِضاهُ، ويَصُونُ إيمانَهُ بِرَبِّهِ من حُبِّهِ له، وتَوحيدِهِ، ومَعْرِفَتِهِ به، ومُراقَبَتِهِ إيَّاهُ، عمَّا يُطْفِئُ نُورَهُ، ويُذْهِبُ بَهْجَتَهُ، ويُوهِنُ قُوَّتَهُ»[1].

وقولُهُ: «إنَّ الإيمانَ لَيَخْلَقُ في جَوفِ أَحَدِكُمْ»:

هو خبرٌ يتضمَّنُ معنَى التحذيرِ من ضعفِ الإيمانِ، ومباشرةِ أسبابِهِ، والعمل على صيانةِ القلبِ منَ الآفاتِ والعِللِ، التي يَحصُلُ بها ضَعفُ الإيمانِ.

ثمَّ قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «فاسْأَلُوا اللهَ أَن يُجَدِّدَ الإيمانَ في قلوبِكُمْ»:

والفعلُ المضارعُ يدلُّ على الاستمرارِ، والتجدُّدِ، ففي الحديثِ: الحثُّ على المداومَةِ على هذا الدعاءِ، والإلْحاح على اللهِ في هذا الطَّلبِ؛ فكما أنَّه لولا اللهُ ما حصلَتِ الهدايَةُ أصلًا، فكذلك لولا اللهُ ما ثبتَ قلبٌ على الإيمانِ، ولَمَا زادَ إيمانُ العبدِ، فحصولُ تجديدِ الإيمانِ، وزيادَتِه، وصيانَتِه من الآفاتِ، والضعفِ، والبلى، لا يكونُ إلا باللهِ، فإذا عَلِمَ العبدُ ذلك توجَّهَ إلى ربِّه في كلِّ حالٍ، وحينٍ، سائلًا إيَّاهُ

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٧).

أن يثبتَ إيمانَه، ويصونَ قلبَه، ويحفظَه منَ الزللِ، فالقلوبُ بينَ أصبعَينِ من أصابعِ الرَّحمنِ، مَن شاءَ أَقامَهُ، ومن شاءَ أَزاغَهُ.

وفي هذا الحديثِ منَ الفوائدِ:

* بيانُ أنَّ الإيمانَ يزيدُ، وينقُصُ، فيزيدُ بالطاعَةِ، وينقُصُ بالمعصيَةِ.

* وأنَّ على المسلمِ أن يتعاهَدَ إيمانَه، ويُراقِبَ حالَ قلبِه.

* وأنَّ تشبيهَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القلبَ المَريضَ ضعيفَ الإيمانِ بالثَّوبِ الخَلِقِ، يدلُّ على أنَّ الشبهاتِ، والشهواتِ، تتخطَّفُ القلوبَ، حتَّى يصيرَ القلبُ كالثوبِ يُصيبُ البلى نَسجَه.

* وأشارَ الحديثُ إلى أهميةِ الدعاءِ، واللجوءِ إلى اللهِ؛ للثباتِ على الإيمانِ، وتجديدِه، وصيانةِ القلبِ، وزيادةِ نُورِ بصيرَتِه.



الحديثُ العاشرُ:

عن أَبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسولُ اللّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمُ الكَرْمُ؛ فإنَّما الكَرْمُ: قلبُ المؤمنِ»**[١].

وفي لَفْظٍ لِمسلمٍ: **«لا تُسَمُّوا العِنَبَ الكَرْمَ؛ فإنَّ الكَرْمَ: الرَّجُلُ المسلمُ»**.

وعِنْدَ أَبي داوُدَ، وغيرِه: **«لا يَقُلْ أَحَدُكُمُ: الكَرْمُ؛ فإنَّما الكَرْمُ: الرَّجُلُ المسلمُ، ولَكِن قُولُوا: حَدائِقَ الأَعْنابِ»**[٢].

ورواهُ مسلمٌ عن عَلْقَمَةَ بنِ وائِلٍ، عن أَبيهِ، مَرْفُوعًا، ولَفْظُهُ: **«لا تَقُولُوا: الكَرْمُ، ولَكِن قُولُوا: العِنَبُ، والحَبْلَةُ»**[٣].

هذا الحديثُ ورَدَ مَورِدَ الغيرَةِ على قلبِ المؤمنِ العامِرِ بالإيمانِ، أَن يَتَّصِفَ بصفةٍ كَريمَةٍ مَن لا يَسْتَحِقُّ الاِتِّصافَ بِها، فَنَقَلَها الشَّرْعُ عنهُ إلى قلبِ المؤمنِ الجَديرِ بالاِتِّصافِ بِها؛ تَأْكيدًا لِحُرْمَتِهِ، وإشارَةً إلى ما يَعمُرُهُ منَ البِرِّ، والتَّقْوَى.

قال الحافِظُ رَحِمَهُٱللَّهُ: «الحَبْلَةُ: بِفَتْحِ المُهْمَلَةِ، وحُكيَ ضَمُّها، وسُكُونُ المُوَحَّدَةِ، وبِفَتْحِها أَيضًا، وهو أَشْهَرُ –يعني: الفَتْحَ– هيَ شَجَرَةُ العِنَبِ، وقيلَ: أَصْلُ الشَّجَرَةِ، وقيلَ: القَضيبُ منها»[٤].

(١) رواه البخاري (٦١٨٣)، ومسلم (٢٢٤٧)، واللفظ له.
(٢) رواه أبوداود (٤٩٧٤)، والنَّسائي في السنن الكبرى (١١٥٨٠)، وسَنَدُهُ صحيح.
(٣) صحيح مسلم (٢٢٤٨).
(٤) الفَتْح (١٠/ ٥٦٨).



ورواهُ ابنُ حِبَّان في صَحيحِهِ، بِلَفْظِ: «**تَقُولُونَ: الكَرَمُ، وإنَّما الكَرْمُ قلبُ المؤمنِ**»[١].

وبَوَّبَ لَهُ: «**ذِكْرُ البَيانِ بِأنَّ قَولَهُ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الكَرْمُ: الرَّجُلُ المسلمُ**» **أَرادَ به قلبَهُ**».

وقال الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّما نَهاهُم عن تَسْميَةِ هذه الشَّجَرَةِ كَرْمًا؛ لأنَّ هذا الِاسْمَ عِنْدَهُم مُشْتَقٌّ منَ الكَرَمِ، والعربُ تَقُولُ: رَجُلٌ كَرَمٌ بِمعنى كَريمٍ، وقَومٌ كَرَمٌ أَي: كِرامٌ، ثُمَّ تُسَكَّنُ الراءُ منهُ فيقالُ: كَرْمٌ، فَأَشْفَقَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن يَدْعُوَهُم حُسْنُ اسْمِها إلى شُرْبِ الخَمْرِ المُتَّخَذَةِ من ثَمَرِها، فَسَلَبَها هذا الِاسْمَ، وجَعَلَهُ صِفَةً لِلْمسلمِ الذي يَتوَقَّى شُرْبَها، ويَمْنَعُ نَفْسَهُ الشَّهْوَةَ فيها؛ عِزَّةً، وتَكَرُّمًا»[٢].

وقال البَغْويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قيلَ في معنى نَهْيِهِ عن تَسْميَةِ هذه الشَّجَرَةِ كَرْمًا: إنَّ هذا الِاسْمَ عِنْدَهُم مُشْتَقٌّ منَ الكَرَمِ، سَمَّوا شَجَرَةَ العِنَبِ كَرْمًا؛ لأَنَّهُ يُتَّخَذُ منهُ الخَمْرُ، وهيَ تَحُثُّ على السَّخاءِ، والكَرَمِ، فاشْتَقُّوا لِتِلْكَ الشَّجَرَةِ اسْمًا منَ الكَرَمِ، فكَرِهَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْميَتَهُ لِشَيءٍ حَرَّمَهُ الشَّرْعُ بِاسْمٍ مَأْخُوذٍ منَ الكَرَمِ، وأَشْفَقَ أَن يَدْعُوَهُم حُسْنُ الِاسْمِ إلى شُرْبِ الخَمْرِ المُتَّخَذَةِ من ثَمَرِها، فَسَلَبَها هذا الِاسْمَ؛ تَحْقيرًا لِشَأْنِها، وتَأْكيدًا لِحُرْمَتِها.

وقولهُ: «**إنَّ الكَرْمَ قلبُ المؤمنِ**»؛ لِما فيه من نُورِ الإيمانِ، وتَقْوَى الإسلامِ»[٣].

وقال النوويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «في هذه الأَحاديثِ: كَراهَةُ تَسْميَةِ العِنَبِ كَرْمًا؛ بَل يُقالُ: عِنَبٌ، أَو حَبَلَةٌ، قال العُلَماءُ: سببُ كَراهَةِ ذلك: أَن لَفْظَةَ الكَرْمِ كانَتِ العربُ تُطْلِقُها على شَجَرِ العِنَبِ، وعلى العِنَبِ، وعلى الخَمْرِ المُتَّخَذَةِ منَ العِنَبِ،

---

(١) صحيح ابن حبان (٥٨٣٣).

(٢) معالم السنن (٤/ ١٣٠).

(٣) شرح السُّنةِ (١٢/ ٣٥٦).

سَمَّوها كَرْمًا؛ لِكَونِها مُتَّخَذَةً منهُ، ولأنَّها تَحْمِلُ على الكَرَمِ، والسَّخاءِ، فَكَرِهَ الشَّرْعُ إطْلاقَ هذه اللَّفْظَةِ على العِنَبِ، وشَجَرِهِ؛ لأنَّهُم إذا سَمِعُوا اللَّفْظَةَ رُبَّما تَذَكَّرُوا بِها الخَمْرَ، وهَيَّجَت نُفُوسَهُم إليها، فَوَقَعُوا فيها، أَو قارَبُوا ذلك، وقال -يعني: النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إنَّما يَسْتَحِقُّ هذا الاِسْمَ الرَّجُلُ المسلمُ، أَو قلبُ المؤمنِ؛ لأنَّ الكَرْمَ مُشْتَقٌّ منَ الكَرَمِ بِفَتْحِ الراءِ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فَسُمِّيَ قلبُ المؤمنِ كَرْمًا؛ لِما فيه منَ الإيمانِ، والهُدَى، والنُّورِ، والتَّقْوَى، والصِّفاتِ المُسْتَحِقَّةِ لِهذا الاِسْمِ، وكذلك الرَّجُلُ المسلمُ، قال أهلُ اللُّغَةِ: يُقالُ: رَجُلٌ كَرْمٌ، وامْرَأَةٌ كَرْمٌ، ورَجُلانِ كَرْمٌ، ورِجالٌ كَرْمٌ، وامْرَأَتانِ كَرْمٌ، ونِسْوَةٌ كَرْمٌ، كلُّهُ بِفَتْحِ الراءِ وإسْكانِها، بِمعنى كَريمٍ، وكَريمَينِ، وكِرامٍ، وكَريماتٍ، وُصِفَ بالمَصْدَرِ، كَضَيفٍ، وعَدْلٍ»[1].

وقال الحافِظُ رَحِمَهُ اللهُ: «حَكَى ابنُ بَطَّالٍ عنِ ابنِ الأَنْبارِيِّ: أَنَّهُم سَمَّوا العِنَبَ كَرْمًا؛ لأنَّ الخَمْرَ المُتَّخَذَةَ منهُ تَحُثُّ على السَّخاءِ، وتَأْمُرُ بِمَكارِمِ الأَخْلاقِ، حَتَّى قال شاعِرُهُمْ:

***** *** *** والخَمْرُ مُشْتَقَّةُ المعنى منَ الكَرْمِ**

وقال آخَرُ:

شُقِقْتُ منَ الصِّبَى واشْتُقَّ منِّي كما اشْتُقَّت منَ الكَرْمِ الكُرُومُ

فَلذلك نَهى عن تَسْميَةِ العِنَبِ بالكَرْمِ؛ حَتَّى لا يُسَمُّوا أَصْلَ الخَمْرِ بِاسْمٍ مَأْخُوذٍ منَ الكَرْمِ، وجُعِلَ المؤمنُ الذي يَتَّقي شُرْبَها، ويَرَى الكَرَمَ في تَرْكِها، أَحَقَّ بِهذا الاسمِ.

(١) شرح النووي على مسلم (١٥/ ٤).

وقد ورَدَ النَّهْيُ تارَةً عنِ العِنَبِ، وتارَةً عن شَجَرَةِ العِنَبِ، فَيكونُ التَّنْفيرُ بِطَريقِ الفَحْوَى؛ لأَنَّهُ إذا نَهى عن تَسْميَةِ ما هو حَلالٌ في الحالِ بالاِسْمِ الحسنِ لِما يَحْصُلُ منهُ بالقُوَّةِ مِمَّا يُنْهَى عنهُ، فَلأَن يَنْهَى عن تَسْميَةِ ما يُنْهَى عنهُ بالاِسْمِ الحسنِ أَحْرَى.

وقال الشَّيخُ أَبو محمدِ بنِ أَبي جَمْرَةَ ما مُلَخَّصُهُ: «لَمَّا كان اشْتِقاقُ الكَرْمِ منَ الكَرَمِ، والأَرْضُ الكريمَةُ هيَ أَحْسَنُ الأَرْضِ، فلا يَليقُ أَن يُعَبَّرَ بِهذه الصِّفَةِ إلَّا عن قلبِ المؤمنِ الذي هو خَيرُ الأَشْياءِ؛ لأنَّ المؤمنَ خَيرُ الحَيوانِ، وخَيرُ ما فيه قلبُهُ؛ لأَنَّهُ إذا صَلَحَ صَلَحَ الجَسَدُ كلُّهُ، وهو أَرْضٌ لِنَباتِ شَجَرَةِ الإيمانِ».

قال: «ويُؤْخَذُ منهُ: أنَّ كلَّ خَيرٍ -باللَّفْظِ، أَوِ المعنى، أَو بهما، أَو مُشْتَقًّا منهُ، أَو مُسَمًّى به- إنَّما يُضافُ بالحَقيقَةِ الشَّرْعيَّةِ لِلإيمانِ وأهلِهِ، وإن أُضيفَ إلى ما عَدا ذلك، فهُو بِطَريقِ المَجازِ».

وفي تَشْبيهِ الكَرْمِ بِقلبِ المؤمنِ مَعْنًى لَطيفٌ؛ لأنَّ أَوصافَ الشَّيطانِ تَجْري مع الكَرْمَةِ، كما يَجْري الشَّيطانُ في بَني آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، فإذا غَفَلَ المؤمنُ عن شَيطانِهِ، أَوقَعَهُ في المُخالَفَةِ، كما أنَّ مَن غَفَلَ عن عَصيرِ كَرْمِهِ، تَخَمَّرَ فتَنَجَّسَ.

ويُقَوِّي التَّشَبُّهَ أَيضًا: أنَّ الخَمْرَ يَعُودُ خَلًّا من ساعَتِهِ بِنَفْسِهِ، فَيَعُودُ طاهِرًا، وكَذا المؤمنُ يَعُودُ من ساعَتِهِ بالتَّوبَةِ النَّصُوحِ طاهِرًا من خَبَثِ الذُّنُوبِ المُتَقَدِّمَةِ، التي كان مُتَنَجِّسًا بِاتِّصافِهِ بِها، إمَّا بِباعِثٍ من غيرِهِ من مَوعِظَةٍ، ونَحْوِها، أَو بِباعِثٍ من نَفْسِهِ.

فَيَنْبَغي لِلْعاقِلِ أَن يَتَعَرَّضَ لِمُعالَجَةِ قلبِهِ؛ لِئَلَّا يَهْلِكَ وهو على الصِّفَةِ المَذْمُومَةِ»[1].

وقال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال العُلَماءُ: إنَّما سَمَّتِ العربُ العِنَبَ كَرْمًا؛ لِكثرةِ حَمْلِهِ،

(١) فتح الباري (١٠/ ٥٦٧-٥٦٨).

وسُهُولَةِ قَطْفِهِ، وكثرةِ مَنافِعِهِ؛ إذ هو فاكِهَةٌ، وقُوتٌ، ويُتَّخَذُ منهُ خَلٌّ، ودِبْسٌ، وغيرُ ذلك، والخَمْرُ كَرْمٌ؛ لأنَّها كانَت تَحُثُّهُم على الكَرَمِ، فَنَهى الشَّرْعُ عن تَسْمِيَةِ العِنَبِ كَرْمًا؛ لِتَضَمُّنِهِ مَدْحَها، فَتَتَشَوَّقُ إليها النُّفُوسُ، وكان اسْمُ الكَرْمِ بالمؤمنِ وبِقلبِهِ أَلْيَقَ وأَعْلَقَ؛ لِكثرةِ خَيرِهِ، ونَفعِهِ، واجْتِماعِ الأَخْلاقِ والصِّفاتِ الجَميلَةِ فيهِ»(١).

وقال: «بَيَّنَ لهم أنَّ قلبَ المؤمنِ هو الكَرْمُ؛ لأَنَّهُ مَعْدِنُ التَّقْوى لا الخَمْرُ المُؤَدِّي إلى اخْتِلالِ العَقْلِ، وفَسادِ الرَّأْيِ، وإتْلافِ المالِ، وصَرْفِهِ على وجْهِ الصَّوابِ»(٢).

وقال الزَّمَخْشَرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَرادَ أَن يُقَرِّرَ، ويُشَدِّدَ، ما في قولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣]، بِطَريقَةٍ أَنيقَةٍ، ومَسْلَكٍ لَطيفٍ، ورَمْزٍ خَلُوبٍ؛ فَبَصَّرَ أَنَّ هذا النَّوعَ من غيرِ الأَناسيِّ المُسَمَّى بالِاسْمِ المُشْتَقِّ منَ الكَرَمِ، أَنْتُم أَحِقَّاءُ بِأَلَّا تُؤَهِّلُوهُ لِهذه التَّسْمِيَةِ، ولا تُطْلِقُوها عليهِ، ولا تُسْلِمُوها له؛ غيرَةً لِلْمسلمِ التَّقيِّ، ورَبْأً به، أَن يُشارَكَ فيما سَمَّاهُ اللهُ به، واخْتَصَّهُ بِأَن جَعَلَهُ صِفَتَهُ، فَضْلًا أَن تُسَمُّوا بالكريمِ مَن ليس بِمسلمٍ، وتَعْتَرِفُوا له بِذلك»(٣).

وقال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**إِنَّما الكَرْمُ قلبُ المؤمنِ**: يُشيرُ بِذلك إلى ما فيه من نُورِ الإيمانِ، وبَرَكاتِ التُّقَى»(٤).

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الكَرَمُ: كثرةُ الخَيرِ، ويَسْرَتُهُ؛ ولِهذا قال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تُسَمُّوا العِنَبَ الكَرْمَ؛ فإِنَّما الكَرْمُ قلبُ المؤمنِ**»، وهُم سَمَّوُا العِنَبَ الكَرْمَ؛ لأَنَّهُ أَنْفَعُ الفَواكِهِ، يُؤْكَلُ رَطْبًا، ويابِسًا، ويُعْصَرُ، فَيُتَّخَذُ منهُ أَنْواعٌ.

(١) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٢٩٢).
(٢) المصدر السابق (٧/ ٣٠٠٢).
(٣) الفائق (٣/ ٢٥٧).
(٤) كشف المشكل (٣/ ٣٤٥).

ومع هذا: نَهى النبيُّ ﷺ عن تَسْميَتِهِ بالكَرْمِ، وقال: «**الكَرْمُ قلبُ المؤمنِ**»، فإنَّهُ ليس في الدنيا أكثرُ، ولا أَعْظَمُ خَيرًا، من قلبِ المؤمنِ»[١].

وقال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَهى رسولُ اللهِ ﷺ عن تَسْميَةِ العِنَبِ كَرْمًا، وقال: «**الكَرْمُ قلبُ المؤمنِ**».

وهذا؛ لأنَّ هذه اللَّفْظَةَ تَدُلُّ على كثرةِ الخَيرِ، والمَنافِعِ، في المُسَمَّى بِها، وقلبُ المؤمنِ هو المُسْتَحِقُّ لذلك، دُونَ شَجَرَةِ العِنَبِ، ولَكِنْ:

هَلِ المُرادُ النَّهْيُ عن تَخْصيصِ شَجَرَةِ العِنَبِ بِهذا الاِسْمِ، وأنَّ قلبَ المؤمنِ أَولى به منهُ، فلا يُمْنَعُ من تَسْميَتِهِ بالكَرْمِ، كما قال في المِسْكينِ، والرَّقُوبِ، والمُفْلِسِ، أَوِ المُرادُ أنَّ تَسْميَتَهُ بِهذا مع اتِّخاذِ الخَمْرِ المُحَرَّمِ منهُ وصْفٌ بالكَرَمِ، والخَيرِ، والمَنافِعِ، لِأَصْلِ هذا الشَّرابِ الخَبيثِ المُحَرَّمِ، وذلك ذَريعَةٌ إلى مَدْحِ ما حَرَّمَ اللهُ، وتَهْييجِ النُّفُوسِ إليهِ؟ هذا مُحْتَمَلٌ، واللهُ أَعْلَمُ بِمُرادِ رسولِهِ ﷺ، والأَولى أَن لا يُسَمَّى شَجَرُ العِنَبِ كَرْمًا»[٢].

وقال الحَكيمُ التِّرْمِذيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّما سَمَّي العِنَبَ كَرْمًا؛ لأَنَّهُ لَيِّنٌ يَنْقادُ حَيثُ ما اسْتُقيدَ، فَكذلك المؤمنُ قلبُهُ لَيِّنٌ رَطْبٌ بِذِكْرِ اللهِ سُبْحانَهُ وتعالى، يَنْقادُ للهِ تعالى في أُمُورِهِ، وأَحْكامِهِ»[٣].

وقال أَيضًا: «الكَرْمُ: ما انْقادَ وذَلَّ؛ ولذلك سَمَّى شَجَرَةَ العِنَبِ كَرْمًا؛ لأَنَّهُ حَيثُ ما مَدَدْتَها امْتَدَّت، وذَلَّت لَكَ، قال ﷺ: «**لا تَقُولُوا لِلْعِنَبِ كَرْمًا؛ إنَّما الكَرْمُ قلبُ المؤمنِ**».

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٩٣).

(٢) زاد المعاد (٢/ ٣١٨).

(٣) نوادر الأصول (١/ ٣٨٢).

فإذا ولَجَ النُّورُ القلبَ رَطِبَ، ولانَ، وبرُطُوبَتِهِ، ولينِهِ، تَرْطُبُ النَّفْسُ، وتَلينُ، وتَذْهَبُ كَزازَتُها[١]، ويُبْسُها، وطُفِئَت حَرارَةُ الشَّهَواتِ بالنُّورِ الوارِدِ على القلبِ؛ لأَنَّهُ منَ الرَّحْمَةِ، والرَّحْمَةُ بارِدَةٌ، فانْقادَ القلبُ، فاتَّقى»[٢].

فَنَهى عن تَسْميَةِ العِنَبِ بالكَرْمِ، وإن كان العِنَبُ ذا مَنافِعَ كثيرَةٍ، وفَوائِدَ مُتَعَدِّدَةٍ، ولَكِن لَمَّا كان يُتَّخَذُ منهُ الخَمْرُ، والسُّكْرُ، كَرِهَ النبيُّ ﷺ أَن يُسَمَّى بِهذا الاِسْمِ؛ رِعايَةً لِحَقِّ مَن هو أَولى بِهذا الاِسْمِ منهُ، وغيرَةً عليهِ، وإشْفاقًا أَن يَتَّحِدَ مع ما يُتَّخَذُ منهُ الخَمْرُ أُمُّ الخَبائِثِ في صِفَةٍ من أَعْظَمِ صِفاتِهِ.

وهذا من تَعْظيمِ حُرُماتِ اللهِ، ومنَ الغيرَةِ على القلوبِ العامِرَةِ بالإيمانِ، وبِذِكْرِ اللهِ، وطاعَتِهِ، والبِرِّ، والتَّقْوَى؛ فَكَيفَ يَتَّصِفُ ما يُتَّخَذُ منهُ الخَمْرُ أُمُّ الخَبائِثِ بِما يَتَّصِفُ به القلبُ التَّقيُّ النَّقيُّ الذي لا خَبَثَ فيهِ؟

وكَيفَ يُوصَفُ ما يُتَّخَذُ منهُ الخَمْرُ، بِما يُوصَفُ به القلبُ الذي هو مَعْدِنُ التَّقْوَى، ومَحَلُّ نَظَرِ الرَّبِّ؟

فإن قيلَ: صحّ عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «**أَنَّ رسولَ اللهِ** ﷺ **نَهى عنِ المُزابَنَةِ**» والمُزابَنَةُ: بَيعُ الثَّمَرِ بالتَّمْرِ كَيلًا، وبَيعُ الزَّبيبِ بالكَرْمِ كَيلًا[٣].

فَها قَد سَمَّاهُ كَرْمًا، فَما وجْهُ ذلك؟ وكَيفَ نُوَفِّقُ بينَ هذه الرِّوايَةِ، وبينَ ما تَقَدَّمَ؟

قيلَ: لِلْعُلَماءِ في ذلك مَسْلَكانِ:

أَوَّلُهما: أنَّ تَسْميَتَهُ كَرْمًا في هذه الرِّوايَةِ؛ لِبَيانِ الجَوازِ، ويُحْمَلُ النَّهْيُ في الأَحاديثِ المُتَقَدِّمَةِ على التَّنْزيهِ.

---

(١) الكَزازَةُ: اليُبْسُ، والاِنْقِباضُ.

(٢) نوادر الأصول (٢/ ٢٢١).

(٣) رواه البخاري (٢١٧١)، ومسلم (١٥٤٢).

ثانيهما: أنَّ تَسْميَةَ العِنَبِ كَرْمًا هو من قَولِ الصَّحابيِّ، أَو مَن دُونَهُ، ولَيسَ من قَولِ النبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قال الزُّرْقانيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ في شرحِهِ لِحديثِ ابنِ عُمَرَ هذا: «فيهِ: جَوازُ تَسْميَةِ العِنَبِ كَرْمًا، وحديثُ النَّهْيِ عن تَسْميتِهِ به لِلتَّنْزيهِ، وعَبَّرَ به هُنا لِبَيانِ الجَوازِ، قيلَ: وهذا على أنَّ التَّفْسيرَ مَرْفُوعٌ، أَمَّا على أنَّهُ من قَولِ الصَّحابيِّ: فَلا»[١].

ويُؤَيِّدُ أنَّ تَسْميَتَهُ كَرْمًا ليس من كَلامِ النبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أنَّ مسلمًا رَحِمَهُٱللَّهُ رواهُ في صَحيحِهِ، عنِ ابنِ عُمَرَ بِلَفْظِ العِنَبِ، ولَفْظُهُ: «**أنَّ النبيَّ** صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **نَهى عنِ المُزابَنَةِ، بَيعِ ثَمَرِ النَّخْلِ بالتَّمْرِ كَيلًا، وبَيعِ العِنَبِ بالزَّبيبِ كَيلًا، وبَيعِ الزَّرْعِ بالحِنْطَةِ كَيلًا**»[٢].

ورواهُ التِّرْمِذيُّ، وصَحَّحَهُ، عن رافِعِ بنِ خَديجٍ، وسَهْلِ بنِ أَبي حَثْمَةَ: «**أنَّ رسولَ اللهِ** صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **نَهى عن بَيعِ المُزابَنَةِ الثَّمَرِ بالتَّمْرِ، إلَّا لِأَصْحابِ العَرايا، فإنَّهُ قَد أَذِنَ لَهُم، وعن بَيعِ العِنَبِ بالزَّبيبِ**»[٣].

وبِكلِّ حالٍ: فالنَّهْيُ في الأَحاديثِ المُتَقَدِّمَةِ لِلتَّنْزيهِ، لا لِلتَّحْريمِ.

واللهُ تعالى أَعْلَمُ.



(١) شرح الموطأ (٣/ ٤٠٦).

(٢) صحيح مسلم (١٥٤٢)، وكذلك رواه أحمد (٤٦٤٧)، وابنُ حبان (٤٩٩٩)، وأبوعوانةَ في مستخرجه (٥٠٢٦)، وابن عساكر في معجمه (٨١٧)، بلفظ العِنَبِ بدل الكَرْمِ.

(٣) سنن الترمذي (١٣٠٣).

الحديثُ الحادي عشَرَ:

عنِ النُّعْمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أَقْبَلَ رسولُ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الناسِ بِوَجْهِهِ، فقال: **«أَقيمُوا صُفُوفَكُمْ»** -ثَلاثًا- **«واللّهِ لَتُقيمُنَّ صُفُوفَكُم، أَو لَيُخالِفَنَّ اللّهُ بينَ قلوبِكُمْ»**[١].

وهو في الصَّحيحينِ عنِ النُّعْمانِ، ولَفْظُهُ: **«لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُم، أَو لَيُخالِفَنَّ اللّهُ بينَ وُجوهِكُمْ»**[٢].

ورواهُ ابنُ حِبَّان في صَحيحِهِ، فقال: «ذِكْرُ البَيانِ بِأَنَّ قَولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بينَ وُجُوهِكُمْ»، أَرادَ به «بينَ قلوبِكُمْ»»[٣].

ثُمَّ ساقَهُ بِلَفْظِ أَبي داوُدَ.

ويَدُلُّ عليهِ -أَيضًا- حديثُ أَبي مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْسَحُ مَناكِبَنا في الصَّلاةِ، ويَقُولُ: **«اسْتَوُوا، ولا تَخْتَلِفُوا، فَتَخْتَلِفَ قلوبُكُمْ»**[٤].

وقال الحافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولهُ: **«أَو لَيُخالِفَنَّ اللهُ بينَ وُجُوهِكُمْ»** أَي: إن لم تُسَوُّوا، والمُرادُ بِتَسْوِيَةِ الصُّفُوفِ: اعْتِدالُ القائِمينَ بِها على سَمْتٍ واحِدٍ، أَو يُرادُ بِها: سَدُّ الخَلَلِ»[٥].

---

(١) رواه أبوداود (٦٦٢)، والترمذي (٢٢٧)، وصححه، وأحمد (١٨٤٣٠)، وابنُ خُزيمة (١٦٠)، وابنُ حبَّان (٢١٧٦)، والبيهقي (٣٥٧)، وهو حديثٌ صحيح.

(٢) رواه البخاري (٧١٧)، ومسلم (٤٣٦).

(٣) صحيح ابن حبان (٥/ ٥٤٩).

(٤) رواه مسلم (٤٣٢).

(٥) فتح الباري (٢/ ٢٠٧).

وقال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **في قولِهِ: «لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُم، أَو لَيُخالِفَنَّ اللهُ بينَ وُجُوهِكُمْ»**: «مَعْناهُ: يُوقِعُ بينكُمُ العَداوَةَ، والبَغْضاءَ، واخْتِلافَ القلوبِ، كما يُقالُ: تَغَيَّرَ وجْهُ فُلانٍ عَلَيَّ، أَي: ظَهَرَ لي من وجْهِهِ كَراهَةٌ لي، وتَغَيَّرَ قلبُهُ عَلَيَّ؛ لأنَّ مُخالَفَتَهُم في الصُّفُوفِ مُخالَفَةٌ في ظَواهِرِهِم، واخْتِلافُ الظَّواهِرِ سببٌ لِاخْتِلافِ البَواطِنِ»[١].

وقال المُظْهِرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**يعني**: أَدَبُ الظاهِرِ عَلامَةُ أَدَبِ الباطِنِ، فإن لم تُطيعُوا أَمْرَ اللهِ، ورسولِهِ، في الظاهِرِ، يُؤَدِّي ذلك إلى اخْتِلافِ القَولِ، فَيُورِثُ كُدُورَةً، فَيَسْري ذلك إلى ظاهِرِكُم، فَيَقَعُ بينكُم عَداوَةٌ، بِحَيثُ يُعْرِضُ بعضُكُم عن بعضٍ»[٢].

وقال ابنُ العربيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بينَ وُجُوهِكُم»، يعني: بينَ مَقاصِدِكُم، «فإِنَّ اسْتِواءَ القلوبِ يَسْتَدْعي اسْتِواءَ الجَوارِحِ، واعْتِدالَها، فإذا اخْتَلَفَتِ الصُّفُوفُ دَلَّ على اخْتِلافِ القلوبِ، فلا تَزالُ الصُّفُوفُ تَضْطَرِبُ، وتُهْمَلُ، حَتَّى يَبْتَلِيَ اللهُ بِاخْتِلافِ المَقاصِدِ، وقد فَعَلَ»[٣].

وقال أبو العبَّاسِ القُرْطُبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَعْناهُ: تَفْتَرِقُونَ، فَيَأْخُذُ كُلُّ واحِدٍ وجْهًا غيرَ الذي أَخَذَ صاحِبُهُ؛ لأنَّ تَقَدُّمَ الشَّخْصِ على غيرِهِ مَظِنَّةُ الكِبْرِ، المُفْسِدِ لِلْقلبِ، الداعي إلى القَطيعَةِ»[٤].

وقال بدرُ الدِّينِ العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «معنى المُخالَفَةِ بينَ القلوبِ: أَن يَتَغَيَّرَ بعضُهُم على بعضٍ، فإِنَّ تَقَدُّمَ الإنْسانِ على الشَّخْصِ، أَو على الجَماعَةِ، وتَخْليفَهُ إِيَّاهُم، من غيرِ أَن يكونَ مُقامًا لِلْإِمامَةِ، قَد يُوغِرُ صُدُورَهُم، وذلك مُوجِبٌ لِاخْتِلافِ قلوبِهِمْ»[٥].

---

(١) شرح النووي على مسلم (٤/ ١٥٧).

(٢) مرقاة المفاتيح (٣/ ٨٤٨).

(٣) عارضة الأحوذي (١/ ٢٦).

(٤) المُفهم (٤/ ١٤٨)، فتح الباري (٢/ ٢٠٧).

(٥) شرح أَبي داوُدَ (٣/ ٢١١).

وقال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُم، أَو لَيُخالِفَنَّ اللهُ بينَ وُجُوهِكُمْ**»: الجُمْلَةُ الأُولى: مُؤَكَّدَةٌ بِثَلاثةِ مُؤَكِّداتٍ؛ بالقَسَمِ المُقَدَّرِ، واللامِ، ونُونِ التَّوكيدِ.

«أَو لَيُخالِفَنَّ اللّهُ بينَ وُجُوهِكُمْ»،

يعني: إن لم تُسَوّوا الصُّفُوفَ، خالَفَ اللهُ بينَ وُجُوهِكُم، وهذه الجُمْلَةُ أَيضًا مُؤَكَّدَةٌ بِثَلاثةِ مُؤَكِّداتٍ: بالقَسَمِ، واللامِ، والنُّونِ.

واخْتَلَفَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، في معنى مُخالَفَةِ الوَجْهِ:

فقال بعضُهُمْ: إنَّ المعنى: أنَّ اللهَ يُخالِفُ بينَ وُجُوهِهِم مُخالَفَةً حِسِّيَّةً، بِحَيثُ يَلْوي الرَّقَبَةَ، حَتَّى يكونَ وجْهُ هذا مُخالِفًا لِوَجْهِ هذا، واللهُ على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ، فهُو عَزَّوَجَلَّ قَلَبَ بعض بَني آدَمَ قِرَدَةً، قال لهمْ: «كُونُوا قِرَدَةً»، فَكانُوا قِرَدَةً، فهُو قادِرٌ على أَن يَلْويَ رَقَبَةَ الإنْسانِ، حَتَّى يكونَ وجْهُهُ من عِنْدِ ظَهْرِهِ، وهذه عُقُوبَةٌ حِسِّيَّةٌ.

وقال بعضُ العُلَماءِ: بَلِ المُرادُ بالمُخالَفَةِ: المُخالَفَةُ المَعْنَوِيَّةُ، يعني: مُخالَفَةَ القلوبِ؛ لأنَّ القلبَ له اتِّجاهٌ، فإذا اتَّفَقَتِ القلوبُ على وجْهَةٍ واحِدَةٍ، حَصَلَ في هذا الخَيرُ الكثيرُ، وإذا اخْتَلَفَت تفَرَّقَتِ الأُمَّةُ، فالمُرادُ بالمُخالَفَةِ: مُخالَفَةُ القلوبِ.

وهذا التَّفْسيرُ أَصَحُّ؛ لأَنَّهُ قَد ورَدَ في بعضِ الأَلْفاظِ: «**أَو لَيُخالِفَنَّ اللهُ بينَ قلوبِكُمْ**».

وعلى هذا فَيكونُ المُرادُ بِقولِهِ: «**أَو لَيُخالِفَنَّ اللهُ بينَ وُجُوهِكُمْ**»، أَي: بينَ وِجْهاتِ نَظَرِكُم، وذلك بِاخْتِلافِ القلوبِ.

وعلى كلِّ حالٍ: فَفي هذا دَليلٌ على وُجُوبِ تَسْويَةِ الصُّفُوفِ، وأَنَّهُ يَجِبُ على المَأْمُومينَ أَن تُسَوَّى صُفُوفُهُم، وأَنَّهُم إن لم يَفْعَلُوا ذلك، فَقَد عَرَّضُوا أَنْفُسَهُم لِعُقُوبَةِ اللهِ.

ومَعْلُومٌ أنَّ الِاخْتِلافَ الظاهِرَ يُؤَدِّي إلى اخْتِلافِ الباطِنِ، فإذا اخْتَلَفَ الناسُ فيما بينَهُم ظاهِرًا؛ أَدَّى ذلك إلى اخْتِلافِ القلوبِ، وإذا اخْتَلَفَتِ القلوبُ صارَ الشَّرُّ، والفَسادُ»[1].

وقال ابنُ جِبْرِينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في الحديثِ: «**لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُم، أَو لَيُخالِفَنَّ اللهُ بينَ وُجُوهِكُمْ**» وفي روايةٍ: «**أَو لَيُخالِفَنَّ اللهُ بينَ قلوبِكُمْ**» والمعنى واحِدٌ، وكَأَنَّ هذا من بابِ العُقُوبَةِ، وكَأَنَّهُ يَقُولُ: إذا لم تَتَحاذَوا، فَتَقَدَّمَ هذا، وتَأَخَّرَ هذا، كان ذلك سببًا في وُقُوعِ الِاخْتِلافِ فيما بينكُمْ؛ عُقُوبَةً لَكُم.

ولا شَكَّ أنَّ آثارَ المُخالَفَةِ بينَ الوُجُوهِ والمُخالَفَةِ بينَ القلوبِ سَيِّئَةٌ؛ لأَنَّهُم إذا اخْتَلَفُوا اخْتَلَفَت قلوبُهُمْ؛ فَحَصَلَ تَقاطُعٌ، وحَصَلَ تَهاجُرٌ، وحَصَلَ تَخالُفٌ في الآراءِ، وحَصَلَ اخْتِلافٌ في المَوَدَّةِ، والمَحَبَّةِ، فلا يكونُونَ إِخْوانًا كما أَمَرَهُمُ اللهُ تعالى، بَل كُلٌّ منهُم يَنْفِرُ منَ الآخَرِ، وكُلٌّ منهُم يكونُ ضِدًّا لِلْآخَرِ، هذا قد يكونُ عُقُوبَةً لهم، إذا تَرَكُوا ما أَرْشَدَهُم إليهِ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[2].

وتَأْلِيفُ القلوبِ لا يَقْدِرُ عليهِ الخلقُ، ولو أَنْفَقَ أَحَدُهُم ما في الأَرْضِ جَميعًا؛ لِيُؤَلِّفَ بينَ القلوبِ، ما أَلَّفَ بينَها.

قال تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

فأفادَ هذا الحديث:

أنَّ الظَّواهِرَ تُؤَثِّرُ في المَخابِرِ، واخْتِلافَ الظَّواهِرِ؛ سببٌ في اخْتِلافِ البَواطِنِ، وأنَّ صَلاحَ الظاهِرِ عُنْوانُ صَلاحِ الباطِنِ.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٨٨)، (٥/ ١١٤).

(٢) شرح عمدة الأحكام (١٢/ ٦) بترقيم الشاملة.

قال سَهْلُ بنُ عبدِ اللهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّما على العبدِ حِفظُ جَوارِحِهِ، وحِفْظُ حُدُودِ اللهِ، وكُفُّ النَّفْسِ عن شَهَواتِها، فإذا فَعَلَ ذلك حَفِظَ اللهُ تعالى قلبَهُ، وأَصْلَحَ سِرَّهُ»[١].

وقال ابنُ مُفْلِحٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الشَّيخُ تَقيُّ الدِّينِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ -مُعَلِّقًا على حديثِ: «**أَلا إنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً**»-: فَأخبرَ أنَّ صَلاحَ القلبِ مُسْتَلْزِمٌ لِصَلاحِ سائِرِ الجَسَدِ، وفَسادَهُ مُسْتَلْزِمٌ لِفَسادِهِ، فإذا رَأَى ظاهِرَ الجَسَدِ فاسدًا غيرَ صالِحٍ، عَلِمَ أنَّ القلبَ ليس بِصالِحٍ، بَل فاسدٌ، ويَمْتَنِعُ فَسادُ الظاهِرِ مع صَلاحِ الباطِنِ، كما يَمْتَنِعُ صَلاحُ الظاهِرِ مع فَسادِ الباطِنِ؛ إذ كان صَلاحُ الظاهِرِ، وفَسادُهُ، مُلازِمًا لِصَلاحِ الباطِنِ، وفَسادِهِ.

قال عثمانُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ما أَسَرَّ أَحَدٌ سَريرَةً إلَّا أَظْهَرَها اللهُ عَزَّ وَجَلَّ على صَفَحاتِ وجْهِهِ، وفَلَتاتِ لِسانِهِ».

وقال ابنُ عَقيلٍ في الفُنُونِ: «لِلْإيمانِ رَوائِحُ، ولَوائِحُ، لا تَخْفَى على اطِّلاعِ مُكَلَّفٍ بالتَّلَمُّحِ لِلْمُتَفَرِّسِ، وقَلَّ أَن يُضْمِرَ مُضْمِرٌ شَيئًا إلَّا وظَهَرَ مع الزَّمانِ على فَلَتاتِ لِسانِهِ، وصَفَحاتِ وجْهِهِ»[٢].

ولِشَيخِ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **-وكَذا ابنِ القَيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ- **كَلامٌ مُهِمٌّ في التَّلازُمِ بينَ الظاهِرِ، والباطِنِ.**

قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والتَّحْقيقُ: أنَّ إيمانَ القلبِ التامِّ يَسْتَلْزِمُ العَمَلَ الظاهِرَ بِحَسَبِهِ لا مَحالَةَ، ويَمْتَنِعُ أَن يَقُومَ بالقلبِ إيمانٌ تامٌّ بِدُونِ عَمَلٍ ظاهِرٍ»[٣].

وقال أَيضًا: «وَإذا قامَ بالقلبِ التَّصْديقُ به، والمَحَبَّةُ له؛ لَزِمَ ضَرُورَة أَن يَتَحَرَّكَ

---

(١) بحر الفوائد (ص١٢٢).

(٢) الآداب الشرعية (١/ ١٣٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٠٤).

البَدَنُ بِمُوجبِ ذلك من الأَقْوالِ الظاهِرَةِ، والأَعْمالِ الظاهِرَةِ، فَما يَظْهَرُ على البَدَنِ منَ الأَقْوالِ، والأَعْمالِ، هو مُوجَبُ ما في القلبِ، ولازِمُهُ، ودَليلُهُ، ومَعْلُولُهُ، كما أنَّ ما يَقُومُ بالبَدَنِ منَ الأَقْوالِ، والأَعْمالِ، له أَيضًا تَأْثيرٌ فيما في القلبِ، فَكلٌّ منهُما يُؤَثِّرُ في الآخرِ، لَكِنَّ القلبَ هو الأَصْلُ، والبَدَنَ فَرْعٌ له، والفَرْعُ يستمدُّ من أَصْلِهِ، والأَصْلُ يَثْبُتُ ويَقْوَى بِفَرْعِهِ»[١].

وقال أَيضًا: «وَمَثَلُ الإيمانِ، والإسلامِ، أَيضًا: كَفُسْطاطٍ قائِمٍ في الأَرْضِ، له ظاهِرٌ، وأَطْنابٌ، ولَهُ عَمُودٌ في باطِنِهِ؛ فالفُسْطاطُ مِثْلُ الإسلامِ، له أَرْكانٌ من أَعْمالِ العَلانيَةِ، والجَوارِحِ، وهيَ الأَطْنابُ التي تُمْسِكُ أَرْجاءَ الفُسْطاطِ، والعَمُودُ الذي في وَسَطِ الفُسْطاطِ مَثَلُهُ كالإيمانِ، لا قِوامَ لِلْفُسْطاطِ إلَّا به، فَقَد احْتاجَ الفُسْطاطُ إليها؛ إذ لا قِوامَ له، ولا قُوَّةَ، إلَّا بهما، كذلك الإسلامُ في أَعْمالِ الجَوارِحِ، لا قِوامَ له إلَّا بالإيمانِ، والإيمانُ من أَعْمالِ القلوبِ، لا نَفْعَ له إلَّا بالإسلامِ، وهو صالِحُ الأَعْمالِ»[٢].

وقال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإيمانُ له ظاهِرٌ، وباطِنٌ، وظاهِرُهُ: قَولُ اللِّسانِ، وعَمَلُ الجَوارِحِ، وباطِنُهُ: تَصْديقُ القلبِ، وانْقيادُهُ، ومَحَبَّتُهُ، فلا يَنْفَعُ ظاهِرٌ لا باطِنَ له، وإن حُقِنَ به الدِّماءُ، وعُصِمَ به المالُ، والذُّرِّيَّةُ، ولا يُجْزِئُ باطِنٌ لا ظاهرَ له، إلَّا إذا تَعَذَّرَ بِعَجْزٍ، أَو إكْراهٍ، وخَوفِ هَلاكٍ، فَتَخَلُّفُ العَمَلِ ظاهِرًا مع عَدَمِ المانِعِ دَليلٌ على فَسادِ الباطِنِ، وخُلُوِّهِ منَ الإيمانِ، ونَقْصُهُ دَليلُ نَقْصِهِ، وقُوَّتُهُ دَليلُ قُوَّتِهِ، فالإيمانُ قلبُ الإسلامِ، ولُبُّهُ، واليَقينُ قلبُ الإيمانِ، ولُبُّهُ، وكلُّ عِلْمٍ وعَمَلٍ لا يَزيدُ الإيمانَ واليَقينَ قُوَّةً فَمَدْخُولٌ، وكلُّ إيمانٍ لا يَبْعَثُ على العَمَلِ فَمَدْخُولٌ»[٣].

---

(١) المصدر السابق (٧/ ٥٤١).

(٢) المصدر السابق (٧/ ٣٣٤).

(٣) الفوائد (ص٨٥).

وعن أَبي ثَعْلَبَةَ الخُشَنيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان الناسُ إذا نَزَلُوا مَنْزِلًا، تَفَرَّقُوا في الشِّعابِ، والأَوديَةِ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنَّ تفَرُّقَكُم في هذه الشِّعابِ، والأَوديَةِ، إنَّما ذلكم منَ الشَّيطانِ»**.

فَلم يَنْزِل بَعْدَ ذلك مَنْزِلًا، إلَّا انْضَمَّ بعضُهُم إلى بعضٍ، حَتَّى يُقال: لَو بُسِطَ عليهِم ثَوبٌ لَعَمَّهُمْ[1].

فَنَهاهُم عن تَفَرُّقِ الظاهِرِ؛ لأَنَّهُ يَدُلُّ على تَفَرُّقِ الباطِنِ، أَو يَدْعُو إليهِ.

وعن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحابُّوا، أَوَلا أَدُلُّكُم على شَيءٍ إذا فَعَلْتُمُوهُ تَحابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بينكُمْ»**[2].

فَجَعَلَ إفْشاءَ السَّلامِ -وَهُوَ من عَمَلِ الظاهِرِ- من أسبابِ حُصُولِ المَحَبَّةِ بينَهُم، والتي هيَ شَرْطٌ في كمالِ الإيمانِ، الذي هو شَرْطُ دُخُولِ الجَنَّةِ.

وعن عَمْرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«فَصْلُ ما بينَ صيامِنا، وصيامِ أهلِ الكِتابِ: أَكْلَةُ السَّحَرِ»**[3].

فَجَعَلَ السَّحُورَ -وَهُوَ سُنَّةٌ- فارِقًا بينَ صيامِ أهلِ الإيمانِ، وصيامِ أهلِ الكتابِ.



---

(١) رواه أبوداود (٢٦٢٨)، وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم (٥٤).

(٣) رواه مسلم (١٠٩٦).



الحديثُ الثاني عشَرَ:

عن عبدِ اللّهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسولُ اللّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«ما أَصابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ، ولا حَزَنٌ، فقال: اللهُمَّ إنِّي عبدُكَ، ابنُ عبدِكَ، ابنُ أَمَتِكَ، ناصيَتي بيَدِكَ، ماضٍ فيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فيَّ قَضاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكلِّ اسْمٍ هو لَكَ، سَمَّيتَ به نَفْسَكَ، أَو عَلَّمْتَهُ أَحَدًا من خَلْقِكَ، أَو أنزلْتَهُ في كِتابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ به في عِلْمِ الغَيبِ عِنْدَكَ، أَن تجعلَ القرآنَ رَبيعَ قلبي، ونُورَ صَدْري، وجِلاءَ حُزْني، وذَهابَ هَمِّي، إلا أَذْهَبَ اللّهُ هَمَّهُ، وحُزْنَهُ، وأَبْدَلَهُ مَكانَهُ فَرَحًا».**

قال: فَقيلَ: يا رسولَ اللّهِ، أَلا نَتَعَلَّمُها؟ فقال: **«بَلى، يَنْبَغي لِمَن سَمِعَها أَن يَتَعَلَّمَها»**[١].

هذا الحديثُ من أَحاديثِ أَدْعيَةِ الكَرْبِ المَشْهُورَةِ، التي يَدْعُو بِها المَكْرُوبُ؛ لِزَوالِ كَرْبِهِ، وذَهابِ هَمِّهِ، وحُزْنِهِ، ولِيُبْدِلَهُ اللهُ مَكان كَرْبِهِ، وحُزْنِهِ، فَرَحًا، وغِبْطَةً، وسُرُورًا؛ كما قال في الحديثِ: «**إلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ، وحُزْنَهُ، وأَبْدَلَهُ مَكانَهُ فَرَحًا**».

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣٧١٢)، وأَبو يَعْلى في مسنده (٥٢٩٧)، والبزار في مسنده (١٩٩٤)، وابنُ حِبَّان في صحيحهِ (٩٧٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٤٠)، والطبراني في المُعْجَم الكَبيرِ (١٠٣٥٢). والحديث حسنهُ الحافظ ابنُ حَجَرٍ، كما في الفُتُوحاتِ الرَّبَّانيةِ (٤/ ١٣)، وصححه ابنُ القَيِّم في إعلام الموقعين (١/ ١٢٥)، وكذا صححه الصَّنْعاني في الإنْصافِ (ص١٠٢)، والألباني في الصحيحةِ (١٩٩)، وكذا ابنُ عُثَيمينَ، كما في مجموع الفتاوى (٥/ ٢٨٠).

وقولهُ: «اللهُمَّ إنِّي عبدُكَ، ابنُ عبدِكَ، ابنُ أَمَتِكَ»:

هذا فيه تَوَسُّلٌ إلى اللهِ تعالى بِرُبُوبيَّتِهِ، وأُلُوهيَّتِهِ، وكذلك بِفَقْرِ العبدِ، وعُبُوديَّتِهِ لِرَبِّهِ تعالى.

«ناصيَتي بيَدِكَ»:

أَي: لا حَولَ، ولا قُوَّةَ، إلَّا بِكَ، وهو مُقْتَبَسٌ من قولِهِ تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هودُ: ٥٦][١].

قال القُرْطُبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: يُصَرِّفُها كَيفَ يَشاءُ، ويَمْنَعُها مِمَّا يَشاءُ»، وقال الفَرَّاءُ: «مالِكُها، والقادِرُ عليها»، وقال القُتَبيُّ: «قاهِرُها»؛ لأنَّ مَن أَخَذْتَ بِناصيَتِهِ فَقَد قَهَرْتَهُ، والناصيَةُ: قُصاصُ الشَّعْرِ في مُقَدَّمِ الرَّأْسِ.

قال ابنُ جرير: «إنَّما خَصَّ الناصيَةَ؛ لأنَّ العربَ تَسْتَعْمِلُ ذلك إذا وصَفَت إنْسانًا بالذِّلَّةِ، والخُضُوعِ، فَيَقُولُونَ: ما ناصيَةُ فُلانٍ إلَّا بيدِ فُلانٍ، أَي: أنَّهُ مُطيعٌ له، يُصَرِّفُهُ كَيفَ يَشاءُ.

وكانُوا إذا أَسَرُوا أَسيرًا، وأَرادُوا إطْلاقَهُ، والمَنَّ عليهِ، جَزُّوا ناصيَتَهُ؛ لِيُعْرَفُوا بِذلك؛ فَخْرًا عليهِ، فَخاطَبَهُم بِما يَعْرِفُونَهُ في كَلامِهِمْ»[٢].

فَحَياةُ العبدِ، ومَوتُهُ، وسَعادَتُهُ، وشَقاوَتُهُ، وعافيَتُهُ، وبَلاؤُهُ، كلُّ ذلك إليهِ سُبْحانَهُ، ليس إلى العبدِ منهُ شَيءٌ، وإذا آمَنَ العبدُ بأنَّ ناصيَتَهُ ونَواصيَ العِبادِ كلَّها بيَدِ اللهِ وحْدَهُ، يُصَرِّفُهُم كَيفَ شاءَ، لم يَخَف بَعْدَ ذلك منهُم، ولم يَرْجُهُم، ولم يُنْزِلْهُم مَنْزِلَةَ المالِكينَ، ولم يُعَلِّق أَمَلَهُ، ورَجاءَهُ بهم، وحينَئِذٍ يَسْتَقيمُ له تَوحيدُهُ، وتَوَكُّلُهُ، وعُبُوديَّتُهُ[٣].

---

(١) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٧٠١).

(٢) تفسير القرطبي (٩/ ٥٢)، تفسير الطبري (١٥/ ٣٦٤).

(٣) انظر: الفوائد، لابن القيم (ص٢٣).

«ماضٍ فيَّ حُكْمُكَ»:

أَي: ثابِتٌ، ونافِذٌ، في حَقِّي حُكْمُكَ: أَيِ: الأَمْرِيُّ، أَوِ الكَونيُّ، كَإِهْلاكٍ، وإِحْياءٍ، ومَنْعٍ، وعَطاءٍ.

«عَدْلٌ فيَّ قَضاؤُكَ»:

أَي: ما قَدَّرْتَهُ عَلَيَّ؛ لأَنَّكَ تَصَرَّفْتَ في مُلْكِكَ على وفْقِ حِكْمَتِكَ.

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا يَتَناوَلُ حُكْمَ الرَّبِّ الكَونيَّ، والأَمْرِيَّ، وقَضاءَهُ الذي يكونُ بِاخْتيارِ العبدِ، وغيرِ اخْتيارِهِ، وكِلا الحُكْمَينِ ماضٍ في عبدِهِ، وكِلا القَضائَينِ عَدْلٌ فيهِ»[١].

وعنِ ابنِ الدَّيلَميِّ، قال: أَتَيتُ أُبَيَّ بنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ له: وقَعَ في نَفْسي شَيءٌ منَ القَدَرِ، فَحَدِّثْني بِشَيءٍ لَعَلَّ اللهَ أَن يُذْهِبَهُ من قلبي، قال: «**لَو أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أهلَ سَماواتِهِ، وأهلَ أَرْضِهِ، عَذَّبَهُم وهو غيرُ ظالِمٍ لَهُم، ولو رَحِمَهُم كانَت رَحْمَتُهُ خيرًا لَهُم من أَعْمالِهِم، ولو أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا في سَبيلِ اللهِ، ما قَبِلَهُ اللهُ منْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بالقَدَرِ، وتَعْلَمَ أنَّ ما أَصابَكَ، لم يَكُن لِيُخْطِئَكَ، وأنَّ ما أَخْطَأَكَ، لم يَكُن لِيُصيبَكَ، ولو مُتَّ على غيرِ هذا لَدَخَلْتَ النارَ**».

قال: ثُمَّ أَتَيتُ عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ، فقال: مِثْلَ ذلك، قال: ثُمَّ أَتَيتُ حُذَيفَةَ بنَ اليَمانِ، فقال: مِثْلَ ذلك، قال: ثُمَّ أَتَيتُ زَيدَ بنَ ثابِتٍ، فَحَدَّثَني عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ ذلك[٢].

---

(١) الجواب الكافي (ص٢٠٨).

(٢) رواه أبوداود (٤٦٩٩)، وابنُ ماجه (٧٧)، وأحمد (٢١٥٨٩)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، وقال محققو المسند: إسناده قَوي.

وقوله: «أَسْأَلُكَ بِكلِّ اسْمٍ هو لَكَ، سَمَّيتَ به نَفْسَكَ، أَو عَلَّمْتَهُ أَحَدًا من خَلْقِكَ، أَو أنزلْتَهُ في كِتابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ به في عِلْمِ الغَيبِ عِنْدَكَ»:

هذا فيهِ: تَوَسُّلٌ بِأَسْماءِ اللهِ الحُسْنَى، وهو منَ التَّوَسُّلِ المَشْرُوعِ الجائِزِ.

قال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَنْواعُ التَّوَسُّلِ الجائِزَةُ كثيرَةٌ شَرْعيَّةٌ، منها: التَّوَسُّلُ إلى اللهِ تعالى بِأَسْمائِهِ على سَبيلِ العُمُومِ، ومنهُ: حديثُ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في دُعاءِ الهَمِّ، والغَمِّ: «**أَسْأَلُكَ بِكلِّ اسْمٍ هو لَكَ...**»، فهذا تَوَسُّلٌ إلى اللهِ تعالى بِأَسْمائِهِ كلِّها، ما عَلِمْنا منها، وما لم نَعْلَمْ»[١].

وفيهِ أَيضًا: أنَّ الأَسْماءَ الحُسْنَى غيرُ مَحْصُورَةٍ، وقد روى هذا الحديثَ البَيهَقيُّ في الأَسْماءِ، والصِّفاتِ، وبَوَّبَ له: «بابُ: بَيانِ أنَّ للهِ جَلَّ ثَناؤُهُ أَسْماءً أُخْرَى، ولَيسَ في قَولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**للهِ تِسْعَةٌ وتِسْعُونَ اسْمًا**» نَفْيُ غيرِها، وإنَّما وقَعَ التَّخْصيصُ بِذِكْرِها؛ لأنَّها أَشْهَرُ الأَسْماءِ، وأَبْيَنُها مَعانيَ»[٢].

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال الخَطَّابيُّ، وغيرُهُ: هذا الحديثُ يَدُلُّ على أنَّ للهِ أَسْماءً اسْتَأْثَرَ بها، وذلك يَدُلُّ على أنَّ قَولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ للهِ تِسْعَةً وتِسْعينَ اسْمًا مِائَةً إلَّا واحِدًا، مَن أَحْصاها دَخَلَ الجَنَّةَ**»[٣]، أنَّ في أَسْمائِهِ تِسْعَةً وتِسْعينَ، مَن أَحْصاها دَخَلَ الجَنَّةَ، كما يَقُولُ القائِلُ: «إنَّ لي أَلْفَ دِرْهَمٍ، أَعْدَدْتُها لِلصَّدَقَةِ»، وإن كان مالُهُ أَكْثَرَ من ذلك، واللهُ في القرآنِ قال: ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فَأَمَرَ أَن يُدْعَى بِأَسْمائِهِ الحُسْنَى مُطْلَقًا، ولم يَقُلْ: لَيسَت أَسْماؤُهُ الحُسْنَى إلَّا تِسْعَةً وتِسْعينَ اسْمًا»[٤].

---

(١) فتاوى نور على الدرب (٤/ ٢) بترقيم الشاملة.

(٢) الليلة، والصِّفاتِ (١/ ٢٧).

(٣) مُتَّفَقٌ عليه.

(٤) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤٨٦).

وقال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأَسْماءُ الحُسْنَى لا تَدْخُلُ تَحْتَ حَصْرٍ، ولا تُحَدُّ بِعَدَدٍ؛ فإنَّ للهِ تعالى أَسْماءً، وصِفاتٍ، اسْتَأْثَرَ بها في عِلْمِ الغَيبِ عِنْدَهُ، لا يَعْلَمُها مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نَبيٌّ مُرْسَلٌ، كما في الحديثِ الصَّحيحِ.

فَجَعَلَ أَسْماءَهُ ثَلاثةَ أَقْسامٍ:

قِسْمٌ سَمَّى به نَفْسَهُ، فَأَظْهَرَهُ لِمَن شاءَ من مَلائِكَتِهِ، أَو غيرِهِم، ولم يَنْزِل به كِتابُهُ.

وقِسْمٌ أنزلَ به كِتابَهُ، فَتَعَرَّفَ به إلى عِبادِهِ.

وقِسْمٌ اسْتَأْثَرَ به في عِلْمِ غَيبِهِ، فَلم يَطَّلِع عليهِ أَحَدٌ من خَلْقِهِ؛ ولِهذا قال: «**اسْتَأْثَرْت به**» أَي: انْفَرَدْت بِعِلْمِهِ، ولَيسَ المُرادُ انْفِرادَهُ بالتَّسَمِّي به؛ لأنَّ هذا الإنْفِرادَ ثابِتٌ في الأَسْماءِ التي أنزلَ اللهُ بها كِتابَهُ.

وأَمَّا قولهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ للهِ تِسْعَةً وتِسْعينَ اسْمًا، مَن أَحْصاها دَخَلَ الجَنَّةَ**»، فالكَلامُ جُمْلَةٌ واحِدَةٌ، وقولهُ: «**مَن أَحْصاها دَخَلَ الجَنَّةَ**»، صِفَةٌ لا خَبَرٌ، والمعنى: له أَسْماء مُتَعَدِّدَةٌ، من شَأْنِها أنَّ مَن أَحْصاها دَخَلَ الجَنَّةَ، وهذا لا يَنْفي أَن يكونَ له أَسْماءٌ غيرها، وهذا كما تَقُولُ: «لِفُلانٍ مِائَة مَمْلُوكٍ، وقد أَعَدَّهُم لِلْجِهادِ»، فلا يَنْفي هذا أَن يكونَ له مَماليك سِواهُم، مُعَدُّونَ لِغيرِ الجِهادِ، وهذا لا خلافَ بينَ العُلَماءِ فيهِ»[1].

«أَن تجعلَ القرآنَ رَبيعَ قلبي»:

أَي: راحَتَهُ، هذا هو المَطْلُوبُ، والسابِقُ وسائِل إليهِ، فَأَظْهَرَ -أَوَّلًا- غايَةَ ذِلَّتِهِ، ونِهايَةَ عَجْزِهِ، وافْتِقارِهِ، وثانيًا: بَيَّنَ عَظَمَةَ شَأْنِهِ، وجَلالَةَ اسْمِهِ سُبْحانَهُ، وأَلْطَفَ في المَطْلُوبِ؛ حَيثُ جَعَلَ المَطْلُوبَ وسيلَةً إلى إزالَةِ الهَمِّ، وجَعل القرآن رَبيعَ القلبِ،

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٦٦).

وهو عِبارَةٌ عنِ الفَرَحِ؛ لأنَّ الإنْسانُ يَرْتَعُ قلبُهُ في الرَّبيعِ منَ الأَزْمانِ، ويَميلُ إليهِ في كلِّ مَكانٍ، وكما أنَّ الرَّبيعَ سببُ ظُهُورِ آثارِ رَحْمَةِ اللهِ تعالى، وإحْياءِ الأَرْضِ بَعْدَ مَوتِها، كذلك القرآنُ سببُ ظُهُورِ تَأْثيرِ لُطْفِ اللهِ منَ الإيمانِ، والمَعارِفِ، وزَوالِ ظُلُماتِ الكفرِ، والجَهْلِ[1].

وقال الشَّوكانيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أَي: أَسْأَلُكَ أَن تجعلَ القرآنَ كالرَّبيعِ الذي يَرْتَعُ فيه الحَيَوانُ، وكذلك القرآنُ رَبيعُ القلوبِ، أَي: يَجْعَل قلبَهُ مُرْتاحًا إلى القرآنِ، مائِلًا إليهِ، راغِبًا في تِلاوَتِهِ، وتَدَبُّرِهِ»[2].

«وَنُورَ صَدْري»:

أَي: يُشْرِقُ في قلبي نُورُهُ، فَأُمَيِّزُ به الحَقَّ من غيرِهِ.

قال الشَّوكانيُّ: «سَأَلَهُ أَن يَجْعَلَ القرآنَ مُنَوِّرَ البَصيرَةِ، والنُّورُ مادَّةُ الحَياةِ، وبِهِ يَتِمُّ مَعاشُ العِبادِ»[3].

وقال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «لَمَّا كان الصَّدْرُ أَوسَعَ منَ القلبِ، كان النُّورُ الحاصِلُ له يَسْري منهُ إلى القلبِ؛ لأَنَّهُ قد حَصَلَ لِما هو أَوسَعُ منهُ، ولَمَّا كانَت حَياةُ البَدَنِ والجَوارِحِ كلّها بِحَياةِ القلبِ، تَسْري الحَياةُ منهُ إلى الصَّدْرِ، ثمَّ إلى الجَوارِحِ، سَأَلَ الحَياةَ له بالرَّبيعِ الذي هو مادَّتُها»[4].

«وَجِلاءَ حُزْني»:

يعني: ذَهابَ حُزْني، وزَوالَهُ من قلبي.

---

(١) شرح المشكاة للطيبيّ (٦/ ١٩١٠)، مرقاة المفاتيح (٤/ ١٧٠١).

(٢) تحفة الذاكرين (ص٢٩٧).

(٣) تحفة الذاكرين (ص٢٩٨)، مرعاة المفاتيح (٨/ ٢٠٧).

(٤) الفوائد (ص٢٦).

فَسَأَلَ اللهَ أَن يَجْعَلَ القرآنَ لِحُزْنِهِ كالجِلاءِ، الذي يَجْلُو الطُّبُوعَ، والأَصْدِيَةَ[١].

«وَذَهابَ هَمِّي»:

سَأَلَهُ أَن يَجْعَلَ القرآنَ شِفاءَ هَمِّهِ، وغَمِّهِ؛ ليكونَ بِمَنْزِلَةِ الدَّواءِ، الذي يَسْتَأْصِلُ الداءَ، ويُعيدُ البَدَنَ إلى صِحَّتِهِ، واعْتِدالِهِ[٢].

وفي روايةٍ: «**وَذَهابَ هَمِّي، وغمِّي**»[٣].

فَذَكَرَ الحُزْنَ، والهَمَّ، والغَمَّ، فَما الفَرْقُ بينَهُمْ؟

قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمَّا كان الحُزْنُ، والهَمُّ، والغَمُّ، يُضادُّ حياةَ القلبِ، واسْتِنارَتَه، سَأَلَ أَن يكونَ ذَهابُها بالقرآنِ، فإنَّها أَحْرَى أَن لا تَعُودَ، وأَمَّا إذا ذَهَبَت بِغيرِ القرآنِ من صِحَّةٍ، أَو دُنْيا، أَو جاهٍ، أَو زَوجَةٍ، أَو ولَدٍ، فإنَّها تَعُودُ بِذَهابِ ذلك.

والمَكْرُوهُ الوارِدُ على القلبِ:

* إن كان من أَمْرٍ ماضٍ أَحْدَثَ الحُزْنَ.

* وإن كان من مُسْتَقْبَلٍ، أَحْدَثَ الهَمَّ.

* وإن كان من أَمْرٍ حاضِرٍ، أَحْدَثَ الغَمَّ»[٤].

وقال أَبو هِلالٍ العَسْكَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفَرْقُ بينَ الهَمِّ، والغَمِّ: قيلَ: الغَمُّ: ما لا يَقْدِرُ الإنْسانُ على إزالَتِهِ، كَموتِ المَحْبُوبِ، والهَمُّ: ما يَقْدِرُ على إزالَتِهِ، كالإفْلاسِ مَثَلًا.

---

(١) تحفة الذاكرين (ص٢٩٨).

(٢) المصدر السابق (ص٢٩٨).

(٣) رواه ابن السُّنِّي في عملِ اليومِ والليلةِ (٣٣٩)، والبيهقي في الليلةِ والصِّفاتِ (٧).

(٤) الفوائد (ص٢٦).

ويُؤَيِّدُهُ: قولهُ تعالى في وصْفِ أهلِ النارِ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]، فإنَّهُم لم يكونُوا قادِرينَ على إزالَةِ ما بهم منَ العَذابِ.

* **وقيلَ**: الهَمُّ: قبل نُزُولِ الأَمْرِ، ويَطْرُدُ النَّومَ.

* والغَمُّ: بَعْدَ نُزُولِ الأَمْرِ، ويَجْلِبُ النَّومَ.

* وأَما الحُزْنُ: فهُو الأَسَفُ على ما فاتَ»[1].

وهذه كلُّها يكونُ مُسْتَقَرُّها في القلبِ، فَسَأَلَ اللهَ لِقلبِهِ عِدَّةَ أَشْياءَ:

* أَن يَجْعَلَ القرآنَ رَبيعَ قلبِهِ.

* ونُورَ صَدْرِهِ.

* فَيَرْتَعَ في رياضِ القرآنِ، وتَكُونَ منهُ مادَّةُ حَياتِهِ.

* وجِلاءَ حُزْنِهِ.

* وذَهابَ هَمِّهِ، وغَمِّهِ.

فَيَذْهَبَ عنهُ ما يُنَغِّصُ عليهِ حَياتَهُ، في مَراتِعِهِ الوَسيمَةِ.

قال في الحديثِ: **«إلا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ، وحُزْنَهُ، وأَبْدَلَهُ مَكانَهُ فَرَحًا»**.

فلا أَحَدَ هو أَفْرَح بِشيءٍ، منَ المؤمنِ بالقُرآنِ والإيمانِ.

وقد رواهُ ابنُ السُّنِّيِّ، من حديثِ أَبي موسى به، ولَفْظُهُ: «**مَن قالهُنَّ؛ التِماسَ ما فيهِنَّ، أَذْهَبَ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **حُزْنَهُ، وأَطالَ فَرَحَهُ**»[2].

فَقيلَ: يا رسولَ اللهِ، أَلا نَتعَلَّمُها؟ فقال: «**بَلى، يَنْبَغي لِمَن سَمِعَها أَن يَتَعَلَّمَها**».

(١) مُعْجَمُ الفُرُوقِ اللُّغَويةِ (ص٥٦٠).

(٢) عمل اليومِ والليلةِ (٣٣٩).

فَفيهِ: الحَثُّ على تَعَلُّمِ هذا الدُّعاءِ، والعَمَلِ به وقْتَ الحُزْنِ، والهَمِّ، والغَمِّ، وأنَّ مَن فَعَلَ ذلك، أَذْهَبَ اللهُ عنهُ ما يَجِدُ، وأَبْدَلَهُ مَكان الهَمِّ، والغَمِّ، فَرَحًا، فَحَصَّلَ فَضْلَينِ: ذَهابَ ما يَكْرَهُ من قلبِهِ، وحُصُولَ ما يُحِبُّ منَ الفَرَحِ به.

وثَمَّةَ فَضْلٌ ثالِثٌ، وهُو: أَن يَصيرَ القرآنُ -لا غيرُهُ- رَبيعَ قلبِهِ، فَيَحْيا به، ويَسْتَنيرَ بِهُداهُ، فلا يَضِلّ، ولا يَشْقَى.

وقال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تَضَمَّنَ هذا الحديثُ العَظيمُ أُمُورًا منَ المعرفةِ، والتَّوحيدِ، والعُبُوديَّةِ، **منها**:

أنَّ الداعي به صَدَّرَ سُؤالَهُ بِقولِهِ: «إنِّي عبدُكَ، ابنُ عبدِكَ، ابنُ أَمَتِكَ»، وهذا يتناوَلُ مَن فَوقَهُ من آبائِهِ، وأُمَّهاتِهِ، إلى أَبَوَيهِ آدَمَ، وحَوَّاءَ، وفي ذلك تَمَلُّقٌ له، واسْتِجْداءٌ بينَ يَدَيهِ، واعْتِرافٌ بِأَنَّهُ مَمْلُوكُهُ، وآباؤُهُ مَماليكُهُ، وأنَّ العبدَ ليس له غيرُ بابِ سَيِّدِهِ، وفَضْلِهِ، وإحْسانِهِ، وأنَّ سَيِّدَهُ إن أَهْمَلَهُ، وتَخَلَّى عنهُ هَلَكَ، ولم يُؤْوِهِ أَحَدٌ، ولم يَعْطِف عليهِ، بَل يَضيعُ أَعْظَمَ ضَيعَةٍ، فَتَحْتَ هذا الاِعْتِرافِ: أَنِّي لا غِنًى بي عَنْكَ طَرْفَةَ عَينٍ، ولَيسَ لي مَن أَعُوذُ به، وأَلُوذُ به، غيرُ رَبِّي الذي أَنا عبدُهُ، وفي ضِمْنِ ذلك: الاِعْتِرافُ بِأَنَّهُ مَرْبُوبٌ مُدَبَّرٌ مَأْمُورٌ مَنْهِيٌّ، إنَّما يَتَصَرَّفُ بِحُكْمِ العُبُوديَّةِ، لا بِحُكْمِ الاِخْتيارِ لِنَفْسِهِ، فَلَيسَ هذا شَأْنَ العبدِ، بَل شَأْن المُلُوكِ، والأَحْرارِ، وأَمَّا العَبيدُ: فَتَعْرِفُهُم على مَحْضِ العُبُوديَّةِ، فَهَؤُلاءِ عَبيدُ الطاعَةِ، المُضافُونَ إليهِ سُبْحانَهُ في قولِهِ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقولِهِ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وفيهِ أَيضًا: أَنِّي لا أَتَصَرَّفُ فيما خَوَّلْتَني من مالي، ونَفْسي، إلَّا بِأَمْرِكَ، كما لا يَتَصَرَّفُ العبدُ إلَّا بِإِذْنِ سَيِّدِهِ، وأَنِّي لا أَمْلِكُ لِنَفْسي ضَرًّا، ولا نَفْعًا، ولا مَوتًا، ولا حَياةً، ولا نُشُورًا.

ثُمَّ قال: **«ناصيَتي بيَدِكَ»:**

أي: أَنْتَ المُتَصَرِّفُ فِيَّ كَيفَ تَشاءُ، لَسْتُ أَنا المُتَصَرِّفَ في نَفْسي، وكَيفَ يكونُ له في نَفْسِهِ تَصَرُّفٌ مَن نَفْسُهُ بيَدِ رَبِّه، وسَيِّدِهِ، وناصيَتُهُ بيَدِهِ، وقلبُهُ بينَ أُصْبُعَينِ من أَصابِعِهِ، ومَوتُهُ، وحَياتُهُ، وسَعادَتُهُ، وشَقاوَتُهُ، وعافيَتُهُ، وبَلاؤُهُ، كلُّهُ إليهِ سُبْحانَهُ، ليس إلى العبدِ منهُ شَيءٌ؟ بَل هو في قَبْضَةِ سَيِّدِهِ أَضْعَفُ من مَمْلُوكٍ ضَعيفٍ حَقيرٍ، ناصيَتُهُ بيَدِ سُلْطانٍ قاهِرٍ، مالِكٍ له، تَحْتَ تَصَرُّفِهِ، وقَهْرِهِ.

وقولُهُ: **«عَدْلٌ فيَّ قَضاؤُكَ»:**

يَتَضَمَّنُ جَميعَ أَقْضيَتِهِ في عبدِهِ من كلِّ الوُجُوهِ، من صِحَّةٍ، وسَقَمٍ، وغِنًى، وفَقْرٍ، ولَذَّةٍ، وأَلَمٍ، وحَياةٍ، ومَوتٍ، وعُقُوبَةٍ، وتَجاوُزٍ، وغيرِ ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ [الشورى: ٤٨]، فَكلُّ ما يُقْضى على العبدِ، فهُو عَدْلٌ فيه.

وقولُهُ: «أَسْأَلُكَ بِكلِّ اسْمٍ هو لَكَ...» إلى آخِرِهِ:

تَوَسُّلٌ إليهِ بِأَسْمائِهِ كلِّها، ما عَلِمَ العبدُ منها، وما لم يَعْلَم، وهذه أَحَبُّ الوَسائِلِ إليهِ، فإنَّها وسيلَةٌ بِصِفاتِهِ، وأَفْعالِهِ، التي هيَ مَدْلُولُ أَسْمائِهِ.

وقولُهُ: «أَن تجعلَ القرآنَ رَبيعَ قلبي، ونُورَ صَدْري»:

الرَّبيعُ: المَطَرُ الذي يُحْيي الأَرْضَ، شَبَّهَ القرآنَ به؛ لِحَياةِ القلوبِ به، وكذلك شَبَّهَهُ اللهُ بالمَطَرِ، وجمعَ بينَ الماءِ الذي تَحْصُلُ به الحَياةُ، والنُّورِ الذي تَحْصُلُ به الإضاءَةُ، والإشْراقُ، كما جمعَ بينَهُما سُبْحانَهُ في قولِهِ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ [الرعد: ١٧].

فَتَضَمَّنَ الدُّعاءُ: أَن يُحْيِيَ قلبَهُ بِرَبيعِ القرآنِ، وأَن يُنَوِّرَ به صَدْرَهُ، فَتَجْتَمِع له الحَياةُ، والنُّورُ، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢][1].

مَسْأَلَةٌ:

ماذا تَقُولُ المَرْأَةُ إذا أَرادَت أَن تَدْعُوَ بِهذا الحديثِ: هَل تَقُولُ: «اللهُمَّ إنِّي عبدُكَ، وابنُ عبدِكَ، وابنُ أَمَتِكَ»، أَم تَقُولُ: «اللهُمَّ إنِّي أَمَتُكَ، بِنْتُ عبدِكَ، بِنْتُ أَمَتِك»؟

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَنْبَغي لِلْمَرْأَةِ أَن تَقُولَ: «اللهُمَّ إنِّي أَمَتُكَ، بِنْتُ عبدِكَ، بِنْتُ أَمَتِكَ» فهُو أَولى، وأَحْسَنُ، وإن كان قَولُها: «عبدُكَ ابنُ عبدِكَ» له مَخْرَجٌ في العربيَّةِ، كَلَفْظِ الزَّوجِ، واللهُ أَعْلَمُ»[2].

فائِدَةٌ:

لا يَنْتَفِعُ بِهذا الحديثِ إلَّا أهلُ القرآنِ، الذينَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ، ويَعْمَلُونَ بِأَحْكامِهِ، ويَتَأَدَّبُونَ بِآدابِهِ؛ إذ كَيفَ يَجْعَلُ اللهُ القرآنَ نُورًا وشِفاءً وهِدايَةً، لِعبدٍ يَهْجُرُ القرآنَ، فلا يَتْلُوهُ، ولا يَعْمَلُ به؟

فالقرآنُ رَبيعُ القلبِ، ونُورُ الصَّدْرِ، وجِلاءٌ لِلْحُزْنِ، وذَهابٌ لِلْهَمِّ، والغَمِّ، لِمَن هو من أهلِهِ، أَمَّا مَن لم يَكُن من أهلِهِ؛ فهُو مِمَّن هَجَرَ القرآنَ، ولا يَنالُ هاجِرُ القرآنِ هذا الفَضْلَ.



---

(١) الفوائد (ص٢٢-٢٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤٨٨).



الحديثُ الثالثَ عشَرَ:

عن عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالتْ: كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **«اللهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ من فتنةِ النارِ، وعَذابِ النارِ، وفتنةِ القَبْرِ، وعَذابِ القَبْرِ، وشَرِّ فتنةِ الغِنَى، وشَرِّ فتنةِ الفَقْرِ، اللهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ من شَرِّ فتنةِ المَسيحِ الدَّجَّالِ، اللهُمَّ اغْسِل قلبي بِماءِ الثَّلْجِ، والبَرَدِ، ونَقِّ قلبي منَ الخَطايا، كما نَقَّيتَ الثَّوبَ الأَبْيَضَ منَ الدَّنَسِ، وباعِد بيني وبينَ خَطايايَ، كما باعَدْتَ بينَ المَشْرِقِ، والمَغْرِبِ، اللهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ منَ الكَسَلِ، والمَأْثَمِ، والمَغْرَمِ»**[(١)].

هذا الدُّعاءُ منَ الأَدْعيَةِ الثابِتَةِ عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، التي كان يَدْعُو بِها، وقد ذُكِرَت فيه الِاسْتِعاذَةُ من خَمْسِ فِتَنٍ: فتنةِ النارِ، وفتنةِ القَبْرِ، وفتنةِ الغِنَى، وفتنةِ الفَقْرِ، وفتنةِ المَسيحِ الدَّجَّالِ.

وذُكِرَ فيه سُؤالُ تَطْهيرِ القلبِ، وتَنْقيَتِهِ منَ الذُّنُوبِ، والخَطايا.

وهذا كلُّهُ من سُؤالِ اللهِ صَلاحَ القلبِ، وحَياتَهُ؛ فإنَّ القلبَ الصالِحَ لا تَضُرُّهُ فتنةٌ في الدنيا، ولا في القَبْرِ، ولا في الآخرةِ، وإنَّما هو مَحْفُوظٌ بِحِفْظِ اللهِ.

كما لا تَضُرُّهُ الذُّنُوبُ، والخَطايا؛ لأَنَّهُ قلبٌ أَوَّابٌ مُنيبٌ.

وهذه فتنةُ المَسيحِ الدَّجَّالِ، التي قال عنها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واللهِ ما بينَ خَلْقِ آدَمَ**

---

(١) رواه البخاري (٦٣٦٨)، ومسلم (٥٨٩).

إلى قيامِ الساعةِ أَمْرٌ أَعْظَمُ منَ الدَّجَّالِ»[١]، حينَما تُعْرَضُ هذه الفتنةُ على العبدِ المؤمنِ، فيَقُولُ لِلدَّجَّالِ: أَشْهَدُ أنَّكَ الدَّجَّالُ، الذي حَدَّثَنا عَنْكَ رسولُ اللهِ ﷺ حديثَهُ، فيَقُولُ الدَّجَّالُ: أَرَأَيتُم إن قَتَلْتُ هذا، ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ، هَل تَشُكُّونَ في الأَمْرِ؟ فيَقُولُونَ: لا، فيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يُحْيِيهِ، فيَقُولُ حينَ يُحْيِيهِ: «**واللهِ ما كُنْتُ فيكَ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي اليَومَ**»[٢].

فالمؤمنُ في زَمَنِ الفِتَنِ مُسْتَبْصِرٌ، ذُو قلبٍ رَشيدٍ، لا تَضُرُّهُ الفِتَنُ، ولا يَزْدادُ بِها إلَّا إيمانًا، وتَسْليمًا.

وقولهُ: «اللهمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ من فتنةِ النارِ، وعَذابِ النارِ»:

قال الحافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فتنةِ النارِ: هيَ سُؤالُ الخَزَنَةِ على سَبيلِ التَّوبيخِ، وإليهِ الإشارَةُ بِقولِهِ تعالى: ﴿**كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ**﴾ [الملك: ٨]»[٣].

«وَعَذابِ النارِ»:

هو ما أَعَدَّهُ اللهُ منَ العَذابِ في النارِ لِلْكَفَرَةِ الفَجَرَةِ، والعُصاةِ الآثِمينَ، فَسَأَلَ اللهَ النَّجاةَ من هذا العَذابِ الشَّديدِ.

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «**اللهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ من عَذابِ النارِ**»: أَي: من أَن أَكُونَ من أَهلِ النارِ.

«وَفتنةِ النارِ»:

أَي: فتنةٍ تُؤَدِّي إلى النارِ؛ لِئَلَّا يَتَكَرَّرَ -يعني: الكَلامَ-، ويُحْتَمَلُ أَن يُرادَ بِفتنةِ النارِ: سُؤالُ الخَزَنَةِ على سَبيلِ التَّوبيخِ»[٤].

---

(١) رواه مسلم (٢٩٤٦)، وأحمد (١٦٢٥٥)، واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٧١٣٢)، ومسلم (٢٩٣٨).

(٣) فتح الباري (١١/ ١٧٧).

(٤) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٧٠٤).

وقولهُ: **«وَفتنةِ القَبْرِ، وعَذابِ القَبْرِ»:**

فتنةِ القَبْرِ: هيَ سُؤالُ المَلَكَينِ[١].

وقال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أيِ: التَّحيُّرِ في جَوابِ المَلَكَينِ»[٢].

وعَذابُ القَبْرِ حَقٌّ، ويَقَعُ على الرُّوحِ، والبَدَنِ، **قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العَذابُ، والنَّعيمُ، على النَّفْسِ والبَدَنِ جَميعًا، بِاتِّفاقِ أهلِ السُّنةِ والجَماعَةِ، تُنَعَّمُ النَّفْسُ، وتُعَذَّبُ مُنْفَرِدَةً عنِ البَدَنِ، وتُعَذَّبُ مُتَّصِلَةً بالبَدَنِ، والبَدَنُ مُتَّصِلٌ بِها، فَيكونُ النَّعيمُ، والعَذابُ، عليهِما في هذه الحالِ مُجْتَمِعَينِ، كما يكونُ لِلرُّوحِ مُنْفَرِدَةً عن البَدَنِ»[٣].

وقال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العَذابُ في القَبْرِ على الرُّوحِ في الأَصْلِ، ورُبَّما يَتَّصِلُ بالبَدَنِ»[٤].

«وَشَرِّ فتنةِ الغِنَى، وشَرِّ فتنةِ الفَقْرِ»:

قال النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اسْتِعاذَتُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فتنةِ الغِنَى، وفتنةِ الفَقْرِ؛ لأَنَّهُما حالَتانِ تُخْشَى الفتنةُ فيهِما، بالتَّسَخُّطِ، وقِلَّةِ الصَّبْرِ، والوُقُوعِ في حَرامٍ أَو شُبْهَةٍ لِلْحاجَةِ، ويُخافُ في الغِنَى منَ الأَشَرِ، والبَطَرِ، والبُخْلِ، بِحُقُوقِ المالِ، أَو إنْفاقِهِ في إسْرافٍ، وفي باطِلٍ، أَو في مَفاخِرَ»[٥].

---

(١) فتح الباري (١١/ ١٧٧).
(٢) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٧٠٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨٢).
(٤) مَجْمُوعُ فَتاوَى ورَسائِلِ العثيمين (٣/ ١٧٣).
(٥) شرح النووي على مسلم (١٧/ ٢٨).

مَسْأَلَةٌ:

لماذا قال: «وَشَرِّ فتنةِ الغِنَى، وشَرِّ فتنةِ الفَقْرِ» ولم يَقُلْ: «فتنةِ الغِنَى، وفتنةِ الفَقْرِ»؟

قال الحافِظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التَّقْييدُ في الغِنَى، والفَقْرِ، بالشَّرِّ لا بُدَّ منهُ؛ لأنَّ كلًّا منهُما فيه خَيرٌ باعتبارٍ، فالتَّقْييدُ في الاِسْتِعاذَةِ منهُ بالشَّرِّ، يُخْرِجُ ما فيه منَ الخيرِ، سَواءٌ قَلَّ، أَم كَثُرَ»[1].

وقال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفتنةُ إن فُسِّرَتِ بالمِحْنَةِ، والمُصيبَةِ، فَشَرُّها أَن لا يَصْبِرَ الرَّجُلُ على لَأْوائها، ويَجْزَعَ منها، وإن فُسِّرَت بالاِمْتِحانِ، والاِخْتِبارِ، فَشَرُّها أَن لا يَحْمَدَ في السَّرَّاءِ، ولا يَصْبِرَ في الضَّرَّاءِ»[2].

قولهُ: «اللهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ من شَرِّ فتنةِ المَسيحِ الدَّجَّالِ»:

وهيَ أَعْظَمُ فتنةٍ تَقَعُ في الأَرْضِ، من لَدُن آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، إلى قيامِ الساعَةِ.

والمَسيحُ الدَّجَّالُ: رَجُلٌ من بَني آدَمَ، مَمْسُوحُ العَينِ اليُمْنَى، كَأَنَّ عَينَهُ عِنَبَةٌ طافيَةٌ، وهذه أَبْرَزُ عَلاماتِهِ، مَكْتُوبٌ بينَ عَينَيهِ كافِرٌ، يَقْرَؤُهُ كلُّ مُؤْمِنٍ، كاتِبٍ، وغيرِ كاتِبٍ.

والدَّجَّالُ: هو المُمَوِّهُ الذي يَقْلِبُ الحَقائِقَ بِإِذْنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فتنةً لِلنَّاسِ، وابْتِلاءً لهم.

وما بَعَثَ اللهُ من نَبِيٍّ إلَّا وقد أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الدَّجَّالَ، ولَقَد أَنْذَرَهُ نُوحٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ، والنبيُّونَ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ من بَعْدِهِ.

---

(١) فتح الباري (١١/ ١٧٧).

(٢) شرح المشكاة (٦/ ١٩١٢).

ويَخْرُجُ في زَمَنِ اخْتِلافٍ منَ الناسِ، وفُرْقَةٍ.

وإسْراعُهُ في الأَرْضِ «كالغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ[١]، فَيَأْتي على القَومِ فَيَدْعُوهُم، فَيُؤْمِنُونَ به، ويَسْتَجيبُونَ له، فَيَأْمُرُ السَّماءَ فَتُمْطِرُ، والأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عليهِم سارِحَتُهُمْ[٢]، أَطْوَلَ ما كانَت ذُرًا[٣]، وأَسْبَغَهُ ضُروعًا[٤]، وأَمَدَّهُ خَواصِرَ، ثُمَّ يَأْتي القَومَ، فَيَدْعُوهُم فَيَرُدُّونَ عليهِ قَولَهُ، فَيَنْصَرِفُ عنهُم، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلينَ[٥]، ليس بِأَيديهِم شَيءٌ من أَمْوالِهِم، ويَمُرُّ بالخَرِبَةِ، فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُها كَيَعاسيبِ النَّحْلِ[٦]، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً مُمْتَلِئًا شَبابًا، فَيَضْرِبُهُ بالسَّيفِ، فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَينِ[٧]، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ، ويَتَهَلَّلُ وجْهُهُ، يَضْحَكُ، فَبينَما هو كذلك إذ بَعَثَ اللهُ المَسيحَ ابنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عندَ المَنارَةِ البَيضاءِ شَرْقيَّ دِمَشْقَ، واضِعًا كَفَّيهِ على أَجْنِحَةِ مَلَكَينِ، إذا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وإذا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ منهُ جُمانٌ كاللُّؤْلُؤِ[٨]، فلا يَحِلُّ لِكافِرٍ يَجِدُ ريحَ نَفَسِهِ إلَّا ماتَ، ونَفَسُهُ يَنْتَهي حَيثُ يَنْتَهي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ»[٩].

ضَبْطُ المسيحِ الدَّجّالِ:

رواهُ بعضُهُمْ: المَسيخُ -بِالخاءِ-، وقال بعضُهُمْ: المِسِّيحُ -بِكَسْرِ الميمِ وتَشْديدِ

---

(١) المراد بالغيث هنا: الغَيمُ؛ إطْلاقًا لِلسَّبَبِ على المُسَبِّبِ، أَي: يُسْرِعُ في الأَرْضِ إسْراعَ الغَيمِ.

(٢) ماشيتهم.

(٣) الذُّرَى: الأعالي والأسنمة، جَمْعُ ذُرْوَةٍ

(٤) أَي أَطْوَلَهُ؛ لِكثرةِ اللَّبَنِ، وكذا «أَمَدَّهُ خَواصِرَ»؛ لِكثرةِ امْتِلائِها منَ الشِّبَعِ.

(٥) المَحْلُ: الجَدْبُ، والقَحْطُ.

(٦) جَماعَة النَّحْلِ.

(٧) قِطعتَين.

(٨) الجُمانُ: هي حَبَّاتٌ منَ الفِضَّةِ، تُصْنَعُ على هَيئَةِ اللُّؤْلُؤِ الكِبارِ، والمُرادُ: يَتَحَدَّرُ منهُ الماءُ على هَيئَةِ اللّؤلؤِ في صفائه، فَسُمِّي الماءُ جُمانًا؛ لِشَبَهِهِ به في الصَّفاءِ. وينظر: شرح النووي على مسلم (١٨/ ٦٦-٦٧).

(٩) رواه مسلم (٢٩٣٧)، من حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

السِّينِ- وقيلَ: المِسيحُ -بِكَسْرِ الميمِ والسِّينِ-، والصَّوابُ: المَسيحُ، فهذا مَسيحُ الضَّلالَةِ، وعيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَسيحُ الهِدايَةِ.

عن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خَرَجْتُ إليكُم وقد بُيِّنَت لي لَيلَةُ القَدْرِ، ومَسيحُ الضَّلالَةِ... أَمَّا لَيلَةُ القَدْرِ: فالتَمِسُوها في العَشْرِ الأَواخِرِ وِتْرًا، وأَمَّا مَسيحُ الضَّلالَةِ: فإنَّهُ أَعْوَرُ العَينِ، أَجْلى الجَبْهَةِ، عَريضُ النَّحْرِ**»[1].

وقال السِّنْديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَسيحُ الضَّلالَةِ، أَيِ: الدَّجَّالُ الَّذي يَقْتُلُهُ مَسيحُ الهِدايَةِ عيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ»[2].

وقال الحافِظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن قالهُ بالخاءِ المُعْجَمَةِ صَحَّفَ، وحَكَى شَيخُنا مَجْدُ الدِّينِ الشِّيرازيُّ صاحِبُ القامُوسِ في اللُّغَةِ: أَنَّهُ اجْتَمَعَ له منَ الأَقْوالِ في سببِ تَسْميَةِ الدَّجَّالِ المَسيحِ خَمْسُونَ قَولًا، وبالَغَ القاضي ابنُ العربيِّ؛ فقال: ضَلَّ قَومٌ فَرَوَوهُ المَسيخَ بالخاءِ المُعْجَمَةِ، وشَدَّدَ بعضُهُمُ السِّينَ؛ ليُفَرِّقُوا بينَهُ وبينَ المَسيحِ عيسَى ابنِ مَرْيَمَ بِزَعْمِهِم، وقد فَرَّقَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَهُما بِقولِهِ في الدَّجَّالِ: «مَسيحُ الضَّلالَةِ»، فَدَلَّ على أنَّ عيسَى مَسيحُ الهُدَى، فَأَرادَ هَؤُلاءِ تَعْظيمَ عيسَى، فَحَرَّفُوا الحديثَ»[3].

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المَسيحُ ابنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، والمَسيحُ الدَّجَّالُ، لَفْظُهُما واحِدٌ عندَ أهلِ العِلْمِ، وأهلِ اللُّغَةِ، وقد كان بعضُ رُواةِ الحديثِ يَقُولُ في الدَّجَّالِ: المِسيحَ -بِكَسْرِ الميمِ والسِّينِ-، ومنهُمْ: مَن قال ذلك بالخاءِ، وذلك كلُّهُ عندَ أهلِ العِلْمِ خَطَأٌ»[4].

---

(١) رواه أحمد (٧٩٠٥)، وحسنه محققو المسند.
(٢) التعليق على مسند أحمد، هامش طبعة الرسالة (١٣/ ٢٨٥).
(٣) فتح الباري (١٣/ ٩٤).
(٤) التَّمْهيدُ (١٤/ ١٨٨).

قال في الحديثِ: «اللهُمَّ اغْسِل قلبي بِماءِ الثَّلْجِ، والبَرَدِ»:

وفي روايةٍ في الصَّحيحَينِ: «**اللهُمَّ اغْسِل خَطايايَ بِماءِ الثَّلْجِ، والبَرَدِ**»، وهُما بِمَعْنًى.

وقد كان النبيُّ ﷺ يَقُولُ بينَ التَّكْبيرِ، والقِراءَةِ في الصَّلاةِ: «**اللهُمَّ باعِد بيني وبينَ خَطايايَ، كما باعَدْتَ بينَ المَشْرِقِ، والمَغْرِبِ، اللهُمَّ نَقِّني منَ الخَطايا، كما يُنَقَّى الثَّوبُ الأَبْيَضُ منَ الدَّنَسِ، اللهُمَّ اغْسِل خَطايايَ بالماءِ، والثَّلْجِ، والبَرَدِ**»[١].

قال ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُهُ: «**اللهُمَّ اغْسِل خَطايايَ بالماءِ، والثَّلْجِ، والبَرَدِ**»، هيَ أَمْثالٌ، ولم يُرِد أَعْيانَ هذه المُسَمَّياتِ، وإنَّما أَرادَ التَّوكيدَ في التَّطْهيرِ.

والثَّلْجُ، والبَرَدُ: ماءانِ، لم تَمَسَّهُما الأيدي، ولم يُمَرَّس، ولم يُمْتَهَنْ».

ولَمَّا كانَتِ الذُّنُوبُ تُؤَثِّرُ في القلبِ دَنَسًا، وهو المَذْكُورُ في قولِهِ تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وتُوجِبُ لِلْقلبِ احْتِراقًا؛ طَلَبَ في هذا الدُّعاءِ المُباعَدَةَ بينَهُ وبينَها على أَقْصَى وُجُوهِ المُباعَدَةِ، والمُرادُ: المُباعَدَةُ من تَأْثيراتِها، وعُقُوباتِها الدُّنْيَوِيَّةِ، والأُخْرَوِيَّةِ.

ورُبَّما دَخَلَ فيه المُباعَدَةُ بينَ ما قُدِّرَ منها، ولم يَعْلَمْهُ بَعْدُ، فَطَلَبَ مُباعَدَتَهُ منهُ، على نَحْوِ قولِهِ: «**أَعُوذُ بِكَ من شَرِّ ما عَمِلْتُ، وما لم أَعْمَلْ**».

وطَلَبَ -أَيضًا- أَن يُنَقِّيَ قلبَهُ من دَنَسِها، كما يُنَقَّى الثَّوبُ الأَبْيَضُ منَ الدَّنَسِ.

وطَلَبَ -أَيضًا- إطْفاءَ حَرارَتِها، وحَريقِها لِلْقلبِ، بِأَعْظَمِ ما يُوجَدُ في الدنيا إنْقاءً وتَبْريدًا، وهو الماءُ، والثَّلْجُ، والبَرَدُ»[٢].

---

(١) رواه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٩٦٣).

(٢) فتح الباري لابن رَجَبٍ (٦/ ٣٧٣).

وقال **التُّورِبُشْتيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذَكَرَ أَنْواعَ المُطَهِّراتِ المُنَزَّلَةِ منَ السَّماءِ، التي لا يُمْكِنُ حُصُولُ الطَّهارَةِ الكامِلَةِ إلَّا بِأَحَدِها؛ تِبْيانًا لِأَنْواعِ المَغْفِرَةِ، التي لا مَخْلَصَ منَ الذُّنُوبِ إلَّا بها، أَي: طَهِّرْني منَ الخَطايا بِأَنْواعِ مَغْفِرَتِكَ، التي هيَ في تَمْحيصِ الذُّنُوبِ بِمَثابَةِ هذه الأَنْواعِ الثَّلاثةِ في إزالَةِ الأَرْجاسِ، والأَوزارِ، ورَفْعِ الجَنابَةِ، والأَحْداثِ».

وقيلَ: «خَصَّ الثَّلْجَ والبَرَدَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّهُما على خِلْقَتِهِما لم يُسْتَعْمَلا، ولم تَنَلْهُما الأَيدي، ولم تَخُضْهُما الأَرْجُلُ، كَسائِرِ المياهِ التي خالَطَتِ التُّرابَ، وجَرَت في الأَنْهارِ، وجُمِعَت في الحياضِ، فَهُما أَحَقُّ بِكمالِ الطَّهارَةِ».

وقال **ابنُ دَقيقِ العيدِ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَبَّرَ بها عن غايَةِ المَحْوِ؛ فإنَّ الثَّوبَ الذي يَتَكَرَّرُ عليهِ ثَلاثَةُ أَشْياءَ مُنَقِّيَةٍ، يكونُ في غايَةِ النَّقاءِ».

ويُحْتَمَلُ أَن يكونَ المُرادُ: أَن كلَّ واحِدٍ من هذه الأَشْياءِ مَجازٌ عن صِفَةٍ، يَقَعُ المَحْوُ بِها، كَقولِهِ تعالى: ﴿**وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ**﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال ميرَكُ[١]: «الأَقْرَبُ أَن يُقال: جَعَلَ الخَطايا بِمَنْزِلَةِ نارِ جَهَنَّمَ، فَعَبَّرَ عن إطْفاءِ حَرارَتِها بالغَسْلِ؛ تَأْكيدًا».

ويُحْتَمَلُ أَن يكونَ في الدَّعَواتِ الثَّلاثِ إشارَةٌ إلى الأَزْمِنَةِ الثَّلاثةِ، فالمُباعَدَةُ لِلْمُسْتَقْبَلِ، والغَسْلُ لِلْماضي، والتَّنْقيَةُ لِلْحالِ، وكان تَقْديمُ المُسْتَقْبَلِ؛ لِلاهْتِمامِ بِدَفْعِ ما سَيَأْتي، قبل دَفْعِ ما حَصَلَ.

ويُمْكِنُ أَن تَكُونَ المُباعَدَةُ فيما لم يَقَع مُطْلَقًا، والتَّنْقيَةُ في الحالِ، والاِسْتِقْبالِ، والغَسْلُ فيما وقَعَ مُطْلَقًا، وتَعَدُّدُ آلَةِ الغَسْلِ إشارَة إلى أَنْواعِ المَغْفِرَةِ المُتَعَلِّقَةِ بالذُّنُوبِ، ومَراتِبِها[٢].

---

(١) هو: الشيخ نسيمُ الدينِ محمدُ بنُ ميرَك شاه الشيرازي الهَرَوي الحنفي المحدِّثُ، من علماءِ القرنِ العاشرِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) انظر: فتح الباري (٢/ ٢٣٠)، مرقاة المفاتيح (٢/ ٦٧١).

فَقولهُ: **«اللهُمَّ اغْسِل قلبي بِماءِ الثَّلْجِ، والبَرَدِ»** هو كَقَولِه: **«اللهُمَّ اغْسِل خَطاياي بالماءِ، والثَّلْجِ، والبَرَدِ»**، فَدَلَّ ذلك على أنَّ الخَطايا تَعْلَقُ بالقلبِ، وتُؤَثِّرُ فيهِ، ويَحْتاجُ العبدُ إلى تَطْهيرِ قلبِهِ منها، أَبْلَغَ التَّطْهيرِ.

قولهُ: «وَنَقِّ قلبي مِنَ الخَطايا، كما نَقَّيتَ الثَّوبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ»:

قال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني: نَظِّفْهُ تَنْظيفًا كامِلًا منَ الخَطايا، كما يُنَقَّى الثَّوبُ الأَبْيَضُ منَ الوَسَخِ، وذَكَرَ الثَّوبَ الأَبْيَضَ؛ لأَنَّهُ هو الذي يَظْهَرُ فيه أَدْنَى دَنَسَةٍ، فإذا كان الثَّوبُ الأَبْيَضُ نَقِيًّا؛ فمعناهُ: أنَّهُ ليس به دَنَسٌ إطْلاقًا، بخلافِ الثَّوبِ الأَسْوَد، والأَحْمَر، والأَخْضَر، وما أَشْبَهَ ذلك؛ فإنَّهُ ليس كالأَبْيَض، تَبِينُ به الدَّنَسَةُ بَيانًا واضحًا»[1].

وقال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الدَّنَسِ»: أَي: الوَسَخِ، «وفيهِ إيماءٌ إلى أنَّ القلبَ -بمقتضى أَصْلِ الفِطْرَةِ- سَليمٌ، ونَظيفٌ، وأَبْيَضُ، وإنَّما يَتَسَوَّدُ بِارْتِكابِ الذُّنُوبِ، وبِالتَّخَلُّقِ بالعُيُوبِ»[2].

قولهُ: «وَباعِد بيني وبينَ خَطاياي، كما باعَدْتَ بينَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ»:

«المُرادُ بالمُباعَدَةِ: مَحْوُ ما حَصَلَ منها، والعِصْمَةُ عمَّا سَيَأْتي منها، وحَقيقَةُ المُباعَدَةِ: إنَّما هيَ في الزَّمانِ، والمَكانِ، ومَوقِعُ التَّشْبيهِ: أنَّ التِقاءَ المَشْرِقِ، والمَغْرِبِ، مُسْتَحيلٌ، فَكَأَنَّهُ أَرادَ أَن لا يَبْقَى لَها منهُ اقْتِرابٌ بالكلِّيَّةِ»[3].

وقال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَخْرَجَهُ مَخْرَجَ المُبالَغَةِ؛ لأنَّ المُفاعَلَةَ (باعِدْ) إذا لم تَكُن لِلْمُغالَبَةِ، فَهيَ لِلْمُبالَغَةِ.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٥٤١).
(٢) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٧٠٥).
(٣) فتح الباري (٢/ ٢٣٠).

وقيلَ: تُفيدُ البُعْدَ منَ الجانِبينِ، فكَأنَّهُ قيلَ: اللهُمَّ باعِد بيني وبينَ خَطاياي، وباعِد بينَ خَطاياي، وبيني.

والخَطايا: إمَّا أن يُرادَ بها اللاحِقَةُ، فمعناهُ: إذا قُدِّرَ لي ذَنْبٌ، فَباعِد بيني وبينَهُ، والمَقْصودُ ما سَيأتي، أَوِ السابِقَةُ، فمعناهُ: المَحْوُ، والغُفْرانُ، لِما حَصَلَ لي منها»[١].

قولهُ: «اللهُمَّ إنِّي أَعوذُ بِكَ منَ الكَسَلِ»:

«أَي: التَّثاقُلِ في الطاعَةِ مع الِاسْتِطاعَةِ، قال الطِّيبيُّ: «الكَسَلُ: التَّثاقُلُ عمَّا لا يَنْبَغي التَّثاقُلُ عنهُ، ويكونُ ذلك بِعَدَمِ انْبِعاثِ النَّفْسِ لِلْخَيرِ، مع ظُهُورِ الِاسْتِطاعَةِ»[٢].

قولهُ: «والمَأْثَمِ، والمَغْرَمِ»:

قال النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَعْناهُ: منَ الإثْمِ، والغُرْمِ، وهو الدَّينُ»[٣].

وقال الحافِظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المَأْثَمُ: ما يَقْتَضِي الإثْمَ، والمَغْرَمُ: ما يَقْتَضِي الغُرْمَ، وهو ما يَلْزَمُ الشَّخْصَ أَداؤُهُ، كالدَّينِ»[٤].

وقال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المَأْثَمُ: إمَّا مَصْدَرُ أَثِمَ الرَّجُلُ، أَو ما فيه الإثْمُ، أَو ما يُوجِبُ الإثْمَ، والمَغْرَمُ: هو كلُّ ما يَلْزَمُ الإنْسانَ أَداؤُهُ»[٥].

وفي الصحيحين، عن عائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَدْعُو في الصَّلاةِ: «**اللهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ من عَذابِ القَبْرِ، وأَعُوذُ بِكَ من فتنةِ المَسيحِ الدَّجَّالِ، وأَعُوذُ بِكَ من فتنةِ المَحْيا، وفتنةِ المَماتِ، اللهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ منَ المَأْثَمِ، والمَغْرَمِ**».

---

(١) مرقاة المفاتيح (٢/ ٦٧١).
(٢) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٦٥١)، شرح المشكاة (٦/ ١٨٧٢).
(٣) شرح النووي على مسلم (٥/ ٨٧).
(٤) فتح الباري (١١/ ١٧٧).
(٥) مرقاة المفاتيح (٢/ ٧٥٢).

فقال له قائِلٌ: ما أَكْثَرَ ما تَسْتَعيذُ منَ المَغْرَمِ؛ فقال: «**إنَّ الرَّجُلَ إذا غَرِمَ، حَدَّثَ فَكَذَبَ، ووَعَدَ فَأَخْلَفَ**»(١).

والمَقْصُودُ من إيرادِ هذا الحديثِ:

بَيانُ أَثَرِ الذُّنُوبِ والخَطايا على القلوبِ، وأنَّ المسلمَ بحاجَةٍ دائِمَةٍ إلى سُؤالِ اللهِ تعالى، أَن يُنَقِّيَ قلبَهُ منها، وأَن يُباعِدَ بينَهُ وبينَها، كما باعَدَ بينَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ.

وهذا يُبَيِّنُ شدّةَ النُّفْرَةِ التي يَجِبُ أَن تَكُونَ بينَ قلبِ المسلمِ، وبينَ مَعْصيَةِ اللهِ، وهيَ نُفْرَةُ المُباعَدَةِ، كما أنَّها نُفْرَةُ البُغْضِ، والكُرْهِ؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

فقال: «اغْسِلْ»، و«باعِدْ»، و«نَقِّ»، وقال تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ﴾، وهذا يَدُلُّ على أنَّ نَقاءَ القلبِ، وصَفاءَهُ، وجَلاءَهُ، وتَقْواهُ، واسْتِقامَتَهُ، إنَّما يكونُ بيَدِ اللهِ وحْدَهُ، مُقَلِّبِ القلوبِ؛ فهُو الذي يُبَغِّضُ إلينا المَعْصيَةَ، ويَغْسِلُ قلوبَنا من دَرَنِها، ووَسَخِها، وآثارِها، ويُنَقِّي قلوبَنا منها، ويُباعِدُ بينَنا وبينَها، ولَولا اللهُ لَما حَصَلَ شَيءٌ من ذلك، كما أنَّهُ لَولاهُ سُبْحانَهُ ما عَبَدْناهُ، ولا أَطَعْناهُ، كما قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والصَّحابَةُ مَعَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، يَومَ الخَنْدَقِ:

واللهِ لَولا اللهُ ما اهْتَدَينا * ولا تَصَدَّقْنا، ولا صَلَّينا**(٢).

فَلَولا اللهُ ما حَصَلَ البِرُّ، ولَولا اللهُ ما تَطَهَّرْنا منَ الإثْمِ.



(١) رواه البخاري (٨٣٢)، ومسلم (٥٨٩).

(٢) رواه البخاري (٤١٠٤)، ومسلم (١٨٠٣).



الحديثُ الرابعَ عشَرَ:

عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لا يُؤْمِنُ أَحَدُكم، حَتَّى يُحِبَّ لأَخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»**[١].

هذا الحديثُ عظيمُ الشأنِ، حتَّى قيلَ: إنَّه منَ الأحاديثِ الجامِعةِ، التي يكونُ عليها مدارُ الدِّينِ، **فقال أَبو داوُدَ السَّخْتيانيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأَحاديثُ التي عليها مَدارُ الإسلامِ أَرْبَعَةٌ: حديثُ: «**الحَلالُ بَيِّنٌ والحَرامُ بَيِّنٌ**»، وحديثُ: «**الأَعْمالُ بالنِّيَّةِ**»، وحديثُ: «**مِن حُسْنِ إِسْلامِ المرءِ تَركُهُ ما لا يعنيهُ**»، وحديثِ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدكُم حَتَّى يُحِبَّ لِأَخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»»[٢].

وهذا الأَصْلُ من أَجَلِّ المُعاملاتِ القَلبيةِ، ولا يَنتظِمُ إلَّا للقلبِ السّليمِ، **قال الشَّيخُ أَبو عَمْرِو بنُ الصَّلاحِ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَعْناهُ: لا يَكْمُلُ إيمانُ أَحَدِكُم حَتَّى يُحِبَّ لِأَخيهِ في الإسلامِ مِثْلَ ما يُحِبّ لِنَفْسِهِ.

والقيامُ بِذلك يَحْصُلُ بِأَن يُحِبَّ له حُصُولَ مِثْلِ ذلك، من جِهَةٍ لا يُزاحِمُهُ فيها، بِحَيثُ لا تنْقصُ النِّعْمَةُ على أَخيهِ شَيئًا منَ النِّعْمَةِ عليهِ، وذلك سَهلٌ على القلبِ السّليمِ، وإنَّما يَعْسُرُ على القلبِ الدَّغِلِ، عافانا اللهُ وإخْوانَنا أَجْمَعينَ»[٣].

---

(١) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

(٢) شرح النووي على مسلم (١١/ ٢٧).

(٣) المصدر السابق (٢/ ١٧).



وقال بَدرُ الدِّين العينيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المحبَّة -هَهُنا- هيَ: **مُجرَّد** تمنِّي الخَير لِأَخيهِ المُسلمِ، فلا يَعسُرُ ذلك إلاَّ على القَلبِ السّقيمِ، غيرِ المُسْتَقيم»[١].

وقولهُ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ»:

المقصودُ: نفيُ كمالِ الإيمانِ، لا نفيُ حقيقةِ الإيمانِ، يدلُّ على ذلك روايةُ ابنِ حبَّان: «**لا يَبْلُغُ عبدٌ حَقيقَةَ الإيمانِ، حَتَّى يُحِبَّ لِلنَّاسِ ما يُحِبُّ لنفسِهِ منَ الخَيرِ**»[٢].

قالَ الحافظُ ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الرِّوايَةُ تُبَيِّنُ معنى الرِّوايَةِ المُخَرَّجَةِ في الصَّحيحَينِ، وأنَّ المُرادَ بِنَفْيِ الإيمانِ نَفْيُ بُلُوغِ حَقيقَتِهِ، ونهايَتِهِ، فإنَّ الإيمانَ كثيرًا ما يُنْفَى؛ لِانْتِفاءِ بعضِ أَرْكانِهِ، وواجِباتِهِ، كَقولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَزْني الزاني حينَ يَزْني وهو مُؤْمِنٌ، ولا يَسْرِقُ السارِقُ حينَ يَسْرِقُ وهو مُؤْمِنٌ، ولا يَشْرَبُ الخَمْرَ حينَ يَشْرَبُها وهو مُؤْمِنٌ**»[٣]، وقولِهِ: «**لا يُؤْمِنُ مَن لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوائِقَهُ**[٤]»[٥].

وقال الحافِظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المُرادُ بالنَّفْيِ: كمالُ الإيمانِ، ونَفْيُ اسْمِ الشَّيء، على معنى نَفْيِ الكمالِ عنهُ، مُسْتَفيضٌ في كَلامهم، كَقولِهِمْ: «فُلان ليس بِإِنْسانٍ».

فإن قيلَ: فَيَلْزَم أَن يكون مَن حَصلَت له هذه الخَصْلَةُ مُؤْمِنًا كامِلًا، وإن لم يَأْتِ بِبَقيَّةِ الأَرْكانِ.

أُجيبَ بِأنَّ هذا وردَ مَورِدَ المُبالَغَةِ، أَو يُسْتَفادُ من قولِهِ «لِأَخيهِ المسلم» مُلاحَظَةُ بَقيَّةِ صِفاتِ المسلم، وقد صَرَّحَ ابنُ حِبَّان من رواية ابن أَبي عَديّ عن حُسَينٍ المُعَلِّمِ

---

(١) عمدة القاري (١/ ١٤١).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٢٣٥)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: « إسناده صحيح على شرط البخاري».

(٣) رواه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

(٤) رواه البخاري (٦٠١٦).

(٥) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٠٢).

بالمُرادِ، ولَفْظُهُ: «**لا يَبْلُغُ عبدٌ حَقيقَةَ الإيمانِ**»، ومعنى الحَقيقَةِ هُنا: الكمالُ، ضَرُورَة أنَّ مَن لم يَتَّصِف بِهذه الصِّفَةِ لا يكون كافِرًا، وبِهذا يَتِمّ اسْتِدْلالُ المُصَنِّفِ على أنَّهُ يَتَفاوَتُ، وأنَّ هذه الخَصْلَةَ من شُعَبِ الإيمانِ»[١].

وقد جاءَ في نصوصِ السُّنةِ، والآثارِ عنِ السَّلفِ، الحثُّ على هذِه الخصلَةِ العظيمَةِ من خصالِ الإيمانِ:

فَعن يَزيدَ بنِ أَسَدٍ القَسْريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتُحِبُّ الجَنَّةَ؟**»، قال: قُلْتُ: نَعَم، قال: «**فَأَحِبَّ لِأَخيكَ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ**»[٢].

وعن أَبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يا أَبا ذَرٍّ، إنِّي أَراكَ ضَعيفًا، وإنِّي أُحِبُّ لَكَ ما أُحِبُّ لِنَفْسي، لا تَأَمَّرَنَّ على اثْنَينِ، ولا تَوَلَّيَنَّ مالَ يَتيمٍ**»[٣].

وعن خَيثَمَةَ بنِ عبدِ الرحمنِ، قال: قال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ: «مَن أَحَبَّ أَن يُنْصِفَ الناسَ من نَفْسِهِ، فَلْيَأْتِ إلى الناسِ ما يُحِبُّ أَن يُؤْتَى إليهِ»[٤].

وعنِ ابنِ بُرَيدَةَ الأَسْلَميِّ، قال: شَتَمَ رَجُلٌ ابنَ عَبَّاسٍ، فقال ابنُ عَبَّاسٍ: «إنَّكَ لَتَشْتِمُني، وفِيَّ ثَلاثُ خِصالٍ:

إنِّي لَآتي على الآيةِ من كِتابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَوَدِدتُّ أَنَّ جَميعَ الناسِ يَعْلَمُونَ منها ما أَعْلَمُ منها.

وإنِّي لَأَسْمَعُ بالحاكمِ من حُكَّامِ المسلمينَ يَعْدِلُ في حُكْمِهِ، فَأَفْرَحُ به، ولَعَلِّي لا أُقاضي إليهِ أَبَدًا.

---

(١) فتح الباري (١/ ٥٧).

(٢) رواه أحمد (١٦٦٥٥)، والحاكمُ (٧٣١٣)، وصححه، ووافقهُ الذَّهبيُّ، وحسنه محققو المسندِ.

(٣) رواه مسلم (١٨٢٦).

(٤) شعب الإيمان (٧/ ٥٠٣).

وإنِّي لَأَسْمَعُ بالغَيْثِ قَد أَصابَ البَلَدَ من بِلادِ المسلمينَ، فَأَفْرَحُ، وما لي به من سائِمَةٍ»(١).

وكان المِسْوَرُ بنُ مَخرَمَةَ قَدِ احْتَكَرَ طَعامًا كثيرًا، فَرَأى سَحابًا في الخَريفِ، فَكَرِهَهُ، فقال: ألا أراني قَد كَرِهْتُ ما يَنْفَعُ المسلمينَ! فَآلَى أَن لا يَرْبَحَ فيه شَيئًا، فَأُخْبِرَ بِذلك عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال له عُمَرُ: «جَزاكَ اللهُ خَيرًا»(٢).

وقال فُضَيلُ بنُ عياضٍ رَحِمَهُ اللهُ: «بَلَغَني أنَّ عُمَرَ بنَ عبدِ العَزيزِ لَمَّا وليَ الخلافَةَ، دَعا سالِمَ بنَ عبدِ اللهِ، ومحمدَ بنَ كَعْبٍ القُرَظيَّ، ورَجاءَ بنَ حَيوَةَ، فقال لهمْ: إنِّي بُليتُ البَلاءَ، فَأَشيرُوا عَلَيَّ، فقال له رَجاءُ بنُ حَيوَةَ: إن أَردتَّ النَّجاةَ غَدًا من عَذابِ اللهِ، فَأَحِبَّ لِلْمسلمينَ ما تُحِبُّ لِنَفسِكَ، واكْرَه لهم ما تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ»(٣).

وعن عامِرٍ الشَّعْبيِّ، قال: أَمَّرَ عُمَرُ سَعيدَ بنَ عامِرٍ على جَيشٍ، فقال: «اللهُمَّ إنِّي لم أُسَلِّط سَعيدَ بنَ عامِرٍ على أَشْعارِهِم، ولا على أَبْشارِهِم، ولَكِن أَمَّرْتَهُ أَن يُجاهِدَ بهم عَدُوَّهُم، ويَعْدِلَ فيهِم، ويَقْسِمَ فَيأَهُم بينَهُمْ».

فقال سَعيدُ بنُ عامِرٍ لِعُمَرَ: «يا أَميرَ المؤمنينَ، اخْشَ اللهَ في الناسِ، ولا تَخْشَ الناسَ في اللهِ، وأَحِبَّ لِلْمسلمينَ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وأهلِ بَيتِكَ، واكْرَه لهم ما تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ، وأهلِ بَيتِكَ، والزَمِ الأَمْرَ ذا الحُجَّةِ، يُعِنْكَ اللهُ على أَمْرِكَ، ويَكْفِكَ ما أَهَمَّكَ...»(٤).

قال الحَليميُّ رَحِمَهُ اللهُ: «لا يَنْبَغي لِمسلمٍ أَن يَتَمَنَّى بِقلبِهِ لِأَخيهِ منَ الشَّرِّ ما يَكْرَهُ

---

(١) المعجم الكبير (١٠٦٢١)، معرفة الصحابة لأبي نُعَيم (١٢ / ١٤٧).

(٢) الزهد لأحمد (١١٤٠)، تاريخ دمشق (٥٨/ ١٦٦).

(٣) شعب الإيمان (٦ / ٣٦).

(٤) تاريخ دمشق (٢١ / ١٥٨).

لِنَفْسِهِ، أَو يَكْرَهَ له منَ الخَيرِ ما يَتمَنَّاهُ، ويُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ، وإذا عَرَضَت لِجَماعَةِ المسلمينَ بَليَّةٌ، فلا يَنْبَغي لِأَحَدٍ منهُم، أَن يَتَسَبَّبَ إلى الخَلاصِ، بِإيلامِ الآخَرينَ، والإغْراءِ بهِم، بَل يَنْظُر لهم كما يَنْظُرُ لِنَفْسِهِ، فإِن عَجَزَ نَظَرَ لِنَفْسِهِ من حَيثُ لا يَضُرُّهُم.

وكما لا يُحِبُّ أَحَدٌ لِإِحْدَى يَدَيهِ إلَّا ما يُحِبُّ لِلْأُخْرَى، ولا لِإِحْدَى عَينَيهِ، أَو رِجْلَيهِ، أَو أُذُنَيهِ، إلَّا ما يُحِبُّ لِلْأُخْرَى، فَكذلك يَنْبَغي له أَن لا يُحِبَّ لِأَخيهِ المسلمِ إلَّا ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ.

وإن كان في البِلادِ وباءٌ، أَو جَورُ سُلْطانٍ، أَو نَهْبٌ، أَو أَيُّ بَلاءٍ كانَ، فَذُكِرَ له أَنَّ أَخًا من إخْوانِهِ المسلمينَ بُلِيَ به، فقال: الحَمْدُ للهِ، فهذا على وجْهَينِ:

إن أَرادَ حَمْدَ اللهِ على أَن أَصابَ أَخاهُ البَلاءُ، فهذا خَطَأٌ، وجَهْلٌ.

وإن حَمِدَ اللهَ على أَن لم يُصِبْهُما مَعًا، فهذا صالِحٌ، كَرَجُلٍ يُصيبُ إحْدَى يَدَيهِ بَلاءٌ، فَيَحْمَدُ اللهَ على أَن لم يُصِبْهُما مَعًا، لَكِن سَلِمَت له إحْدَى يَدَيهِ؛ كما جاءَ عن عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيرِ: أَنَّهُ لَمَّا قُطِعَت رِجْلُهُ، وأُصيبَ في ولَدِهِ، قال: «اللهُمَّ كان لي بَنُونَ سَبْعَةٌ، فَأَخَذْتَ منهُم واحِدًا، وأَبْقَيتَ منهُم سِتَّةً، وكان لي أَطْرافٌ أَرْبَعَةٌ، فَأَخَذْتَ منها طَرَفًا، وأَبْقَيتَ لي ثَلاثةً، وايمُكَ لَئِن ابْتَلَيتَ لَقَد عافَيتَ، ولَئِن أَخَذْتَ لَقَد أَبْقَيتَ»[1].

وقوله: «حَتَّى يُحِبَّ لأَخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»:

يعني: منَ الخيرِ، كما في روايةِ ابنِ حبَّان المتقدمةِ، وكما رواهُ النَّسائيُّ وغيرُه، بِلَفْظِ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لِأَخيهِ، ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ منَ الخَيرِ**»[2]، فَزادَ: «**مِنَ الخَيرِ**»، وهيَ زِيادَةٌ صَحيحَةٌ.

---

(١) شعب الإيمان (٧/ ٥٠٥-٥٠٦).

(٢) رواه النَّسائي (٥٠١٧)، وأحمد (١٤٠٨٢)، وأَبو عوانَةَ (٩٢)، وصححه محققو المسند على شرط الشيخين.

قال الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعْلم أنَّ هذه الزِّيادَةَ: «**مِنَ الخَيرِ**» زيادةٌ هامَّةٌ، تُحَدِّدُ المعنى المُرادَ منَ الحديثِ بِدِقَّةٍ؛ إذ إنَّ كلمةَ «**الخَيرِ**» كلمةٌ جامِعَةٌ، تَعُمُّ الطاعاتِ، والمُباحاتِ الدُّنْيَويَّةَ، والأُخْرَويَّةَ، وتُخْرِجُ المَنْهيَّاتِ؛ لأنَّ اسْمَ الخَيرِ لا يَتَناوَلُها، كما هو واضحٌ»[١].

وكما يَجِبُ على المسلِمِ أن يحبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفسِه منَ الخيرِ، فكذلك يجبُ عليهِ أن يكرَهَ لَه ما يكرَهُ لنفسِهِ منَ الشرِّ؛ لأنَّ مقتضَى حبِّ الخيرِ كراهَةُ الشرِّ.

قال الكَرْمانيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَمِن الإيمان أَيضًا: أَن يُبْغِضَ لِأَخيهِ ما يُبْغضُ لِنَفْسِهِ من الشَّرِّ، ولم يَذْكُرْهُ؛ لأنَّ حُبَّ الشَّيءِ مُسْتَلْزِمٌ لِبُغْضِ نَقيضِهِ، فَتَرَكَ التَّنْصيصَ عليهِ اِكْتِفاءً»[٢].

وقال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يكونُ مُؤْمِنًا حَقًّا تامَّ الإيمانِ، إلَّا بِهذا الشَّرْطِ: أَن يُحِبَّ لِأَخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ منَ الخَيرِ، وما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ من تَرْكِ الشَّرِّ، يعني: ويَكْرَهُ لِأَخيهِ ما يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ، هذا هو المؤمنُ حَقًّا، وإذا كان الإنْسانُ يُعامِلُ إخْوانَهُ هذه المُعامَلَةَ؛ فإنَّهُ لا يُمْكِنُ أَن يَغِشَّهُم، أَو يَخُونَهُم، ولا يَكْذِب عليهِم، ولا يَعْتَدي عليهِم، كما أَنَّهُ لا يُحِبُّ أَن يُفْعَلَ به مِثْلُ ذلك.

وهذا الحديثُ يَدُلُّ على أنَّ مَن كَرِهَ لِأَخيهِ ما يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ، أَو أَحَبَّ لِأَخيهِ ما يَكْرَهُهُ لِنَفْسِهِ، فَلَيسَ بِمُؤْمِنٍ، **يعني**: ليس بِمُؤْمِنٍ كامِلِ الإيمانِ، ويَدُلُّ على أنَّ ذلك من كَبائِرِ الذُّنُوبِ، إذا أَحْبَبْتَ لِأَخيكَ ما تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ، أَو كَرِهْتَ له ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ»[٣].

---

(١) السلسلة الصحيحة (١ / ٧٢).

(٢) فتح الباري (١ / ٥٨).

(٣) شرح رياض الصالحين (ص ٢٧١).

قال الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَمِن كمالِ خُلُقِ المسلمِ: أَن يُحِبَّ لِأَخيهِ المسلمِ منَ الخَيرِ، مِثْلَما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، وكذلك أَن يُبْغِضَ لِأَخيهِ ما يُبْغِضُ لِنَفْسِهِ منَ الشَّرِّ، وهذا، وإن لم يَذْكُرْهُ في الحديثِ، فهُو من مَضْمُونِهِ»[1].

وفي هذا الحديثِ منَ الفوائدِ:

* أنَّ حبَّ الخيرِ للمسلمِ منَ الإيمانِ، وقد بوَّبَ له البُخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مِنَ الإيمانِ: أَن يُحِبَّ لِأَخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ».

* أن مقتضَى حبِّ الخيرِ للمسلمِ بُغْضُ الشرِّ لَه.

* أن التحلِّي بخصالِ الخيرِ منَ الإيمانِ.

* أن خصالَ الشرِّ تُضعِفُ الإيمانَ.

* أن حبَّ الخيرِ للمسلمِ من أسبابِ زيادةِ الإيمانِ في القلبِ.

* أن حبَّ وقوعِ المسلِمِ في الشرِّ من أسبابِ ضعفِ الإيمانِ.

* أنَّ الحبَّ والبغضَ من أجلِّ المعاملاتِ القلبيَّةِ.

* وجوبُ تطهيرِ القلبِ منَ الآفاتِ والعِللِ التي تُضعِفُ الإيمانَ فيهِ.



(١) السلسلة الصحيحة (١ / ٧٢).



الحديثُ الخامسَ عشَرَ:

عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ على شابٍّ وهو في المَوتِ، فقال: **«كَيفَ تَجِدُكَ؟»**، قال: واللّهِ يا رسولَ اللّهِ، إنِّي أَرْجُو اللّهَ، وإنِّي أخافُ ذُنُوبي، فقال رسولُ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا يَجْتَمِعانِ في قلبِ عبدٍ في مِثْلِ هذا المَوطِنِ، إلا أَعْطاهُ اللّهُ ما يَرْجُو، وآمَنَهُ مِمَّا يَخافُ»**[1].

وهذانِ مَقاما الخَوفِ والرّجاءِ، وهُما من أجَلِّ المَنازِلِ، وأنْفعِها للقلبِ.

قولُهُ: «دَخَلَ على شابٍّ وهو في المَوتِ»:

يعني: وهوَ يَحتضِرُ، وفي هذا بيانُ ما كان عليهِ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حُسنِ الصُّحبةِ، وجميلِ العِشرةِ؛ حَيثُ كان يتفقّدُ أصحابَهُ، ويسألُ عنهُم، ويَزُورُهم، ويَعودُ مَرضاهُم.

فلَمَّا دَخلَ النّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذا الشابّ، سَألَه عن حالِه، فقال: «**كَيفَ تَجِدُكَ؟**»:

---

(١) رواه الترمذي (٩٨٣)، وابنُ ماجه (٤٢٦١)، وقال الترمذي: «هذا حديثٌ غريبٌ، وقد روى بعضُهم هذا الحديثَ، عن ثابتٍ، عنِ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسَلًا»، وقال في العلل (ص١٤٢): «سألتُ محمدًا -يعني البخاري- عن هذا الحديثِ، فقال: إنَّما يُروى هذا الحديثُ عن ثابتٍ أنَّ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخلَ على شابٍّ». وكذلك رجح الإرسال أبو حاتم الرازي، كما في العلل لابنه (٥/ ٦٧)، والدارقطني أيضًا في العلل (١٢/ ٢٧)، وغيرهما. وحسنه المنذري، والهيتمي، والألباني، وغيرهم.

قال ابنُ المَلَكِ: «أَي: كَيفَ تَجِدُ قلبَكَ، أَو نَفْسَكَ، في التَّنْقالِ منَ الدنيا إلى الآخرةِ؟ أَراجيًا رَحْمَةَ اللهِ، أَو خائِفًا من غَضَبِ اللهِ؟»[١].

أو هو سُؤالٌ عن حالِه، على جِهَةِ العُمومِ، فأجابَهُ الشابُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على جهةِ الخُصوصِ، فقال: «**إنِّي أَرْجُو اللهَ، وإنِّي أَخافُ ذُنُوبي**»: أَي: أجدُني بينَ الرَّجاءِ، والخوفِ، فأرجُو اللهَ، وهوَ واسِعُ المغفِرَةِ، وأخافُ ذنوبي، وما قد يترتَّبُ عليها منَ العقوبَةِ.

عَلَّقَ الرجاءَ باللهِ، وهذا منَ الإيمانِ، بل لا يتمُّ الإيمانُ إلَّا به، **قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرَّجاءُ يَنْبَغي أَن يَتَعَلَّقَ بِاَللهِ، ولا يَتَعَلَّقَ بِمَخْلُوقٍ، ولا بِقُوَّةِ العبدِ، ولا عَمَلِهِ؛ فإنَّ تَعْليقَ الرَّجاءِ بِغيرِ اللهِ إشْراكٌ»[٢].

تعريفُ الخوفِ:

الخَوفُ: معنًى يقومُ في قلبِ المؤمنِ، يمنعُهُ منِ ارتكابِ ما حرَّمَ اللهُ عليه، ويذكِّرُه بالعقوبةِ العاجلةِ، والآجلَةِ.

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «سَمِعْتُ شَيخَ الإسلامِ ابنَ تَيميَّةَ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ يَقُولُ: «الخَوفُ المَحْمُودُ: ما حَجَزَكَ عن مَحارِمِ اللهِ»[٣].

وقال الغَزاليّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخوفُ هو الذي يكفُّ الجوارحَ عن المعاصي، ويقيِّدها بالطاعاتِ، وما لم يؤثر في الجوارحِ فهُو حديثُ نفْسٍ، وحركةُ خاطرٍ، لا يَستحقُّ أن يُسمَّى خَوفًا»[٤].

---

(١) مرقاة المفاتيح (٣/ ١١٦٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٦).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٥١١).

(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ١٥٧).

تعريفُ الرَّجاءِ:

الرَّجاءُ: هو الطَّمَعُ في فَضْلِ اللهِ، ورَحْمَتِهِ[١].

وقيلَ: هو الاِسْتِبْشارُ بِجُودِ وفَضْلِ الرَّبِّ تَبارَكَ وتَعالى[٢].

وهوَ من حُسْنِ الظنِّ باللهِ تعالى، فيطمَعُ العبدُ في قبولِ الطاعَةِ، والمسامحَةِ في المعصيَةِ، فيجدُّ في العملِ، ويجتهِدُ في تحقيقِ التوبَةِ.

ولذلك فإنَّ الرجاءَ لا يكونُ رجاءً صحيحًا محمودًا إلَّا بالعملِ الصالِحِ، **قال ابنُ القيمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفَرْقُ بينَ الرجاءِ، وبينَ التَّمَنِّي: أنَّ التَّمَنِّيَ يكونُ مع الكَسَلِ، ولا يَسْلُكُ بِصاحِبِهِ طَريقَ الجِدِّ، والاِجْتِهادِ، والرَّجاء يكونُ مع بَذْلِ الجُهْدِ، وحُسْنِ التَّوَكُّلِ.

فالأَوَّلُ: كَحالِ مَن يَتَمَنَّى أَن يكونَ له أَرْضٌ يَبْذُرُها، ويَأْخُذُ زَرْعَها.

والثاني: كَحالِ مَن يَشُقُّ أَرْضَهُ، ويَفْلَحُها، ويَبْذُرُها، ويَرْجُو طُلُوعَ الزَّرْعِ.

ولِهذا أَجْمَعوا على أنَّ الرَّجاءَ لا يَصِحُّ إلَّا مع العَمَلِ.

قال شاه الكَرْمانيُّ: «عَلامَةُ صِحَّةِ الرَّجاءِ: حُسْنُ الطاعَةِ»[٣].

وينبغي أن يكونَ المسلمُ في حالٍ منَ الاعتدالِ في الخوفِ، والرجاءِ، حتَّى لا يُخرجَه الإفراطُ في الخوفِ إلى القنوطِ من رحمةِ اللهِ، ولا يُخرجَه الإفراطُ في الرجاءِ إلى الأمنِ من مكرِ اللهِ.

---

(١) حلية الأولياء (١٠/ ١٠٩).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٦).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٣٧).

قال الشيخُ حافظ الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في ميميَّتِهِ:**

واقْنُت وبـين الرَّجا والخَـوفِ قُم أَبَدًا
تَخْشَـى الذُّنُوبَ وتَرْجُو عَفْوَ ذي الكَرَمِ
فالخَوفُ مـا أَورَثَ التَّقْوَى وحَثَّ عَلى
مَرْضـاةِ رَبِّي وهَجْـرِ الإثْـمِ والأَثِـمِ
كَـذا الرَّجـا ما على هـذا يَحُـثُّ لِتَصْـ
ـديقٍ بِمَوعُـودِ رَبِّي بالجَـزا العَظِـمِ
والخَـوفُ إن زادَ أَفْـضَى لِلقُنُـوطِ كما
يُفْـضي الرَّجـاءُ لأَمْـنِ المَكْـرِ والنِّقَمِ
فـلا تُفَـرِّط ولا تُفْـرِط وكُن وسَـطًا
وَمِثْـلَ مـا أَمَـرَ الرحمـنُ فاسْـتَقِمِ

وقولُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا يَجْتَمِعانِ في قلبِ عبدٍ في مِثْلِ هذا المَوطِنِ، إلا أَعْطاهُ اللّهُ ما يَرْجُو، وآمَنَهُ مِمَّا يَخافُ»:**

أي: لا يَجْتَمعُ الرَّجاءُ، والخَوفُ، في قلبِ عبدٍ من عِبادِ اللهِ في مِثْلِ هذا الوَقْتِ، وهو زَمانُ سَكَراتِ المَوتِ، إلَّا أَعْطاهُ اللهُ ما يَرْجُو منَ الرَّحْمَةِ، وآمَنَهُ مِمَّا يَخافُ منَ العُقُوبَةِ، بالعَفْوِ، والمَغْفِرَةِ[١].

والمقاماتُ التي ينبغي أن يكونَ عليها القلبُ في سَيرِهِ إلى اللهِ ثلاثةٌ: الحُبُّ، والخَوفُ، والرَّجاءُ، **قال ابنُ القيمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَقاماتُ الإيمانِ الثَّلاثةُ التي عليها بِناؤُهُ: الحُبُّ، والخَوفُ، والرَّجاءُ»[٢].

(١) مرقاة المفاتيح (٣/ ١١٦٣).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٦).

«وَقَد جمعَ اللهُ سُبْحانَهُ الثَّلاثةَ في قولِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧] وهذه الثَّلاثةُ هيَ قُطْبُ رَحَى العُبُوديَّةِ، وعليها دارَت رَحَى الأَعْمالِ»(١).

قال بعض السلفِ: «مَن عَبَدَ اللهَ بالحُبِّ وحْدَهُ، فهُو زِنْديقٌ، ومَن عَبَدَهُ بالرَّجاءِ وحْدَهُ، فهُو مُرْجِئٌ، ومَن عَبَدَهُ بالخَوفِ وحْدَهُ، فهُو حروريٌّ، ومَن عَبَدَهُ بالحُبِّ، والخَوفِ، والرَّجاءِ، فهُو مُؤْمِنٌ مُوَحِّدٌ»(٢).

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «القلبُ في سَيرِهِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِمَنْزِلَةِ الطائِرِ، فالمَحَبَّةُ رَأْسُهُ، والخَوفُ والرَّجاءُ جَناحاهُ، فَمَتَى سَلِمَ الرَّأْسُ، والجَناحانِ، فالطائِرُ جَيِّدُ الطَّيَرانِ، ومَتَى قُطِعَ الرَّأْسُ، ماتَ الطائِرُ، ومَتَى فُقِدَ الجَناحانِ، فهُو عُرْضَةٌ لِكلِّ صائِدٍ، وكاسِرٍ، ولَكِنَّ السلفَ اسْتَحَبُّوا أَن يَقْوَى في الصِّحَّةِ جَناحُ الخَوفِ على جَناحِ الرَّجاءِ، وعند الخُرُوجِ منَ الدنيا يَقْوَى جَناحُ الرَّجاءِ على جَناحِ الخَوفِ، هذه طَرِيقَةُ أَبِي سُلَيمانَ، وغيرِهِ، قال: «يَنْبَغي لِلْقلبِ أَن يكونَ الغالِبُ عليهِ الخَوفَ، فإن غَلَبَ عليهِ الرَّجاءُ فَسَدَ».

وقال غيرُهُ: «أَكْمَلُ الأَحْوالِ: اعْتِدالُ الرَّجاءِ والخَوفِ، وغَلَبَةُ الحُبِّ، فالمَحَبَّةُ هيَ المَرْكَبُ، والرَّجاءُ حادٍ، والخَوفُ سائِقٌ، واللهُ المُوَصِّلُ بِمَنِّهِ، وكَرَمِهِ»(٣).

وقال ابنُ عثيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: **«هلِ الأفضَلُ للإنسانِ أن يُغلِّبَ جانبَ الخوفِ، أو يغلّبَ جانبَ الرجاءِ؟**

اختُلِفَ في ذلك:

---

(١) المصدر السابق (٣/ ١٢٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٠٧).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٥١٣).



فقيلَ: ينبغي أن يُغلِّبَ جانبَ الخوفِ؛ ليحملَه ذلك على اجتنابِ المعصيَةِ، ثمَّ فعلِ الطاعَةِ.

وقيلَ: يُغلِّبُ جانبَ الرجاءِ؛ ليكونَ متفائلًا، والرسولُ ﷺ كان يُعجِبُه الفأْلُ.

وقيلَ: في فعلِ الطاعَةِ: يُغلِّبُ جانبَ الرجاءِ، فالذي مَنَّ عليهِ بفعلِ هذِه الطاعَةِ سيَمُنُّ عليهِ بالقبولِ؛ ولهذا قال بعضُ السَّلفِ: «إذا وفَّقكَ اللهُ للدعاءِ، فانتَظِرِ الإجابَةَ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]».

وفي فعلِ المعصيَةِ: يُغلِّبُ جانبَ الخوفِ؛ لأجلِ أن يمنعَه منها، إذا خافَ منَ العقوبَةِ تابَ، وهذا أقربُ شيءٍ.

وقيلَ: في حالِ المرضِ يُغلِّبُ جانبَ الرجاءِ، وفي حالِ الصحَّةِ يُغلِّبُ جانبَ الخوفِ، فهذِه أربعةُ أقوالٍ.

وقال الإمامُ أحمدُ: ينبغي أن يكونَ خوفُه ورجاؤُهُ واحدًا، فأيُّهما غلَبَ هلَكَ صاحبُهُ.

أي: يجعلُهُما كجناحَيِ الطائرِ، والجناحانِ للطائرِ إذا لم يكونا متساويَين سقَطَ»[1].

وقال الشَّيخُ أيضًا: «الإنسانُ ينبغي لَه أن يكونَ طبيبَ نفسِه، إذا رَأى من نفسِه أنَّه أَمِنَ من مكرِ اللهِ، وأنَّه مقيمٌ على معصيَةِ اللهِ، ومتمَنٍّ على اللهِ الأمانيَّ، فلْيعدِل عن هذِه الطريقِ، وليسلُك طريقَ الخوفِ.

وإذا رأى أنَّ فيه وسوسةً، وأنَّه يخافُ بلا مُوجِبٍ؛ فَلْيَعْدِل عن هذه الطريقِ، ولْيغلِّب جانبَ الرجاءِ، حتَّى يستويَ خوفُهُ، ورجاؤُهُ»[2].

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (١٠/ ٦٤٦).

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٣٩).

وقال السنديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُه: «**لا يَجْتَمِعانِ في قلبِ عبدٍ**» يَدُلُّ على أنَّهُ يَنْبَغي وُجُودُ الأَمْرَينِ على الدَّوامِ، حَتَّى في ذلك الوَقْتِ»(١).

فالحاصِلُ: أنَّه ينبغي أن يجتمِعَ الخوفُ والرجاءُ دائمًا في قلبِ المُسلمِ، فلا يَخلُو قلبُه من خوفِ اللهِ؛ بمؤاخذَتِه على ذنوبِهِ، كما لا يَخلُو منَ الرجاءِ فيهِ، وحُسنِ الظنِّ بِهِ سبحانَهُ: أن يقبلَ عملَه، ويغفرَ ذنبَه، ويقيلَ عثرتَه، ويعاملَه بما هو أهلُهُ عَزَّوَجَلَّ.

والخوفُ والرّجاءُ مُتلازمانِ، فَمن خافَ رَجا، ومَن رَجا خافَ، إلَّا أنّه ربَّما غَلَبَ جانبُ أحدِهما، فالخائفُ معَ خوفِه يرجُو أن يغفرَ اللهُ لهُ، والراجي معَ رجائِه يخافُ ألَّا يقبلَ اللهُ منهُ، **قال ابنُ القيّم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخَوفَ مُسْتَلْزِمٌ لِلرَّجاءِ، والرَّجاءُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْخَوفِ، فَكلُّ راجٍ خائِفٌ، وكلُّ خائِفٍ راجٍ، ولِأَجْلِ هذا حَسُنَ وُقُوعُ الرَّجاءِ في مَوضِعٍ يَحْسُنُ فيه وُقُوعُ الخَوفِ»(٢).

وفي هذا الحديثِ منَ الفوائِدِ:

* بيانُ ما كان عليهِ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حُسنِ الصُّحبةِ، بتفقُّدِ أحوالِ أصحابِهِ، والسؤالِ عنهُم، وزيارتِهِم في بُيوتِهِم.

* بيانُ فضلِ منزلةِ الخوفِ، ومنزلةِ الرجاءِ، وأنَّهُما من أجلِّ المقاماتِ، وأكرَمِ أحوالِ المسلِمِ.

* أنَّ مَقاماتِ الإيمانِ التي عليها بِناؤُهُ: الحُبُّ، والخَوفُ، والرَّجاءُ.

* أنَّ الخوفَ يتضمَّنُ الرجاءَ، كما أنَّ الرجاءَ يتضمَّنُ الخوفَ.

* اجتماعُ الخوفِ والرجاءِ في قلبِ المسلمِ، حتَّى في حالِ الاحتضارِ.

---

(١) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢/ ٥٦٦).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٥١).

* فيهِ شـاهدٌ لما رواهُ مسـلمٌ في صحيحِه عن جابرِ بنِ عبـدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سَمِعْتُ رسـولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قبل مَوتِهِ بِثَلاثةِ أَيَّامٍ، يَقُولُ: «**لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُم إلَّا وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ باللهِ** عَزَّ وَجَلَّ»[1].



(١) رواه مسلم (٢٨٧٧).

الحديثُ السادسَ عشَرَ:

عن أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«ادْعُوا اللّهَ وأَنْتُم مُوقِنُونَ بالإجابَةِ، واعْلَمُوا أنَّ اللّهَ لا يَسْتَجيبُ دُعاءً من قلبٍ غافِلٍ لاهٍ»**[١].

يبيِّنُ هذا الحديثُ أهميةَ حضورِ القلبِ، وحُسنِ الظنِّ بالربِّ تعالى، عندَ الدعاءِ، فيجمَعُ المُسلمُ شتاتَ قلبِه، ويستحضِرُ سَعةَ رحمَةِ ربِّه، ويعزمُ في المسألَةِ، ويُوقنُ بالإجابَةِ.

قولهُ: «ادْعُوا اللّهَ وأَنْتُم مُوقِنُونَ بالإجابَةِ»:

قال المناويُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «بِأَن تَكُونُوا على حال تستحقُّونَ فيها الإِجابَة، بخُلوصِ النِّيَّة، وحُضُور الجنانِ، وفعلِ الطاعاتِ بالأركانِ، وقوّةِ الرَّجاءِ»[٢].

وقال المباركفوريُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «قولهُ: «**وَأَنْتُم مُوقِنُونَ بالإجابَةِ**» أَي: والحالُ أَنَّكُم مُوقِنُونَ بِها، أَي: كُونُوا عندَ الدُّعاءِ على حالَةٍ تَسْتَحِقُّونَ بِها الإجابَةَ، من إتْيانِ المَعْرُوفِ، واجْتِنابِ المُنْكَرِ، ورِعايَةِ شُرُوطِ الدُّعاءِ، كَحُضُورِ القلبِ، وتَرَصُّدِ الأَزْمِنَةِ الشَّرِيفَةِ، والأَمْكِنَةِ المُنيفَةِ، واغْتِنامِ الأَحوالِ اللَّطِيفَةِ، كالسُّجُودِ، إلى غيرِ ذلك، حَتَّى تَكُونَ الإجابَةُ على قلوبِكُم أَغْلَبَ منَ الرَّدِّ»[٣].

(١) رواه الترمذي (٣٤٧٩)، والحاكمُ (١٨١٧)، وصححه الألباني.

(٢) التيسير (١/ ٥٤).

(٣) تحفة الأحوذي (٩/ ٣١٦).

وعلى هذا: فالحديثُ يدعُو إلى إخلاصِ العملِ للهِ، والاجتهادِ في الطاعَةِ، وحُسنِ الظنِّ باللهِ، وليسَ مجرَّدَ الرُّكونِ إلى التمنِّي، والرغبةِ في حصُولِ المرجوِّ، ووقوعِ المطلُوبِ.

وجاءَ عن بعضِ التابِعينَ أنَّهُ كان يَقُولُ: «الداعي بِلا عَمَلٍ، كالرامي بِلا وتَرٍ»[١].

قال أبو بكرٍ الكلاباذيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والرامي بِلا وتَرٍ مُتمَنٍّ لِلتَّرَمِّي، ولَيسَ بِرامٍ؛ إذ لا يُمْكِنُهُ الرَّمْيُ من غيرِ وتَرٍ، فَكَأَنَّهُ يَتَمَنَّى أَن يَرْميَ، فإن عَزَمَ على الرَّمْيِ وأَرادَهُ، أَعَدَّ الوَتَرَ ثُمَّ رَمَى، فَكذلك الداعي من غيرِ عَمَلٍ مُتَمَنٍّ بُلُوغَ ما يَدْعُو فيهِ، ولَيسَ بِمُريدٍ لِما يَدْعُو فيهِ، ولا عازِمٍ على الطَّلَبِ له، فإن صَحَّت إرادَتُهُ لِما يَدْعُو فيهِ، عَزَمَ على الطَّلَبِ له، وعَزيمَتُهُ عليهِ عَمَلٌ صالِحٌ، يُقَدَّمُ بينَ يَدَي دَعْوَتِهِ»[٢].

وبكلِّ حالٍ: فلا بُدَّ في الدّعاءِ من يقينِ القلبِ، وحضورِهِ، وحُسنِ الظنِّ باللهِ، وحُسنِ الرغبَةِ في وجهِه الكريمِ، فإنَّ هذا من أهمِّ أسبابِ حصُولِ الإجابَةِ، **قال ابنُ رجبٍ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الدُّعاءَ سببٌ مُقْتَضٍ لِلْإجابَةِ مع اسْتِكْمالِ شَرائِطِهِ، وانْتِفاءِ مَوانِعِهِ، وقد تَتَخَلَّفُ إجابَتُهُ؛ لِانْتِفاءِ بعضِ شُرُوطِهِ، أَو وُجُودِ بعضِ مَوانِعِهِ، ومن أَعْظَمِ شَرائِطِهِ: حُضُورُ القلبِ، ورَجاءُ الإجابَةِ منَ اللهِ تَعالى»[٣].

وقال النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مقصودُ الدعاءِ هو حضورُ القلبِ، والدلائلُ عليهِ أكثرُ من أن تُحصَرَ، والعلمُ بِهِ أوضحُ من أن يُذكَر»[٤].

وعن أَبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**إذا دَعا أَحَدُكُم فلا يَقُلْ:**

(١) التمهيد (١٠/ ٢٩٨).

(٢) بحر الفوائد (ص١٦١).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٠٢).

(٤) الأذكار (ص٣٩٩).

اللهُمَّ اغْفِر لي إن شِئْتَ، ولَكِن ليَعْزِمِ المَسْأَلَةَ، ولْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ؛ فإنَّ اللهَ لا يَتَعاظَمُهُ شَيءٌ أَعْطاهُ»[١].

وقد حثَّت نصوصُ الشَّرعِ على حُسنِ الظنِّ باللهِ:

فعن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ يَقُولُ: أَنا عندَ ظَنِّ عبدي بي، وأَنا مَعَهُ إذا دَعاني**»[٢].

وفي روايةٍ: «**أَنا عندَ ظَنِّ عبدي بي، إن ظَنَّ بي خَيرًا فَلَهُ، وإن ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ**»[٣].

قال أَبو العَبَّاسِ القُرْطُبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قيلَ: مَعْناهُ: ظَنُّ الإجابَةِ عندَ الدُّعاءِ، وظَنُّ القَبُولِ عندَ التَّوبَةِ، وظَنُّ المَغْفِرَةِ عندَ الاِسْتِغْفارِ، وظَنُّ قَبُولِ الأَعْمالِ عندَ فِعْلِها على شُرُوطِها؛ تَمَسُّكًا بِصادِقِ وعْدِهِ، وجَزيلِ فَضْلِه.

ويُؤَيِّدُهُ قولهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ادْعُوا اللهَ وأَنْتُم مُوقِنُونَ بالإجابَةِ»**.

وكذلك يَنْبَغي لِلتَّائِبِ، والمُسْتَغْفِرِ، ولِلْعامِلِ، أَن يَجْتَهِدَ في القِيامِ بِما عليهِ من ذلك، مُوقِنًا أَنَّ اللهَ تعالى يَقْبَلُ عَمَلَهُ، ويَغْفِرُ ذَنْبَهُ؛ فإنَّ اللهَ تعالى قَد وعَدَ بِقَبُولِ التَّوبَةِ الصادِقَةِ، والأَعْمالِ الصالِحَةِ.

فَأَمَّا لَو عَمِلَ هذه الأَعْمالَ، وهو يَعْتَقِدُ، أَو يَظُنُّ، أَنَّ اللهَ لا يَقْبَلُها، وأَنَّها لا تَنْفَعُهُ، فَذلك هو القُنُوطُ من رَحْمَةِ اللهِ، واليَأْسُ من رَوحِ اللهِ، وهو من أَعْظَمِ الكَبائِرِ، ومَن ماتَ على ذلك وصَلَ إلى ما ظَنَّ منهُ، كما قَد جاءَ في بعضِ أَلْفاظِ هذا الحديثِ: «**أَنا عندَ ظَنِّ عبدي بي، فَلْيَظُنَّ عبدي بي ما شاءَ**»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩)، واللفظ له.

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٥).

(٣) رواه أحمد (٩٠٧٦)، وصححه محققو المسند.

(٤) رواه أحمد (١٦٠١٦)، وصححه محققو المسند.

فَأَمَّا ظَنُّ الرَّحْمَةِ، والمَغْفِرَة، مع الإصْرارِ على المَعْصيَةِ: فَذلك مَحْضُ الجَهْلِ، والغِرَّةِ، وهو يَجُرُّهُ إلى مَذْهَبِ المُرْجِئَةِ.

والظَّنُّ: تَغْليبُ أَحَدِ المُجَوَّزَينِ بسببٍ يَقْتَضي التَّغْليبَ، فَلَو خَلا عن السَّبَبِ المُغَلِّبِ، لم يَكُن ظَنًّا، بَل غِرَّةً، وتَمَنِّيًا»[١].

وقال الصنعانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ادعُوا اللهَ وأنتُم موقِنُونَ بالإجابَةِ**»؛ لأنَّ الإيقانَ بها من حُسنِ الظنِّ بالربِّ تعالى، وقد ثبَتَ أنَّه عندَ حُسنِ ظنِّ عبدِهِ بِهِ»[٢].

وقولهُ: «واعْلَمُوا أنَّ اللّه لا يَسْتَجيبُ دُعاءً من قلبٍ غافِلٍ لاهٍ»:

فذَكَرَ سببين من أسبابِ تعطُّلِ الإجابةِ، وهما: الغفلةُ، واللهوُ.

والغفلَةُ تقتضي الإعراضَ عنِ اللهِ، واللهوُ يقتضي الاشتغالَ بغيرِ اللهِ، وكلاهُما مُقبَّحٌ مذمُومٌ.

قال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**قلبٍ غافِلٍ**» أَي: مُعْرِضٍ عنِ اللهِ، أَو عمَّا سَأَلَهُ.

«لاهٍ»:

مِنَ اللهْوِ، أَي: لاعَبٍ، أَو مُشْتَغِلٍ بِغيرِ اللهِ تَعالى»[٣].

وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الدُّعاءُ من أَقْوى الأسبابِ في دَفْعِ المَكْرُوهِ، وحُصُولِ المَطْلُوبِ، ولَكِن قَد يَتَخَلَّفُ أَثَرُهُ عنهُ؛ إمَّا لِضَعْفِهِ في نَفْسِهِ، وإمَّا لِضَعْفِ القلبِ، وعَدَمِ إقْبالِهِ على اللهِ، وإمَّا لِحُصُولِ المانِعِ منَ الإجابَةِ: من أَكْلِ الحَرامِ، والظُّلْمِ، ورَينِ الذُّنُوبِ على القلوبِ، واسْتيلاءِ الغَفْلَةِ، والشَّهْوَةِ، واللهْوِ، وغَلَبَتِها عليها، كما في قولِهِ

(١) المفهم (٢٢/ ٦٧).
(٢) التنوير (١/ ٤٧٢).
(٣) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٥٣١).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ادْعُوا اللهَ وأَنْتُم مُوقِنُونَ بالإجابَةِ، واعْلَمُوا أنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ دُعاءً من قلبٍ غافِلٍ لاهٍ»**، فهذا دَواءٌ نافِعٌ مُزيلٌ لِلدَّاءِ، ولَكِنَّ غَفْلَةَ القلبِ عنِ اللهِ تُبْطِلُ قُوَّتَهُ»[١].

وفي الحديثِ:

* الحثُّ على الدُّعاءِ، وسؤالِ اللهِ خيرَيِ الدنيا والآخرَةِ؛ فإنَّ الدعاءَ هو العبادةُ، ومَن لم يَدْعُ اللهَ يَغضَب علَيه.

* حُسنُ الظنِّ باللهِ في الدعاءِ، معَ الأخذِ بأسبابِ الإجابَةِ.

* الحَثّ على مَعرفةِ أسـبابِ الإجابةِ، من تقوَى اللهِ، والعملِ الصالحِ، والأمرِ بالمعـروفِ، والنَّهي عنِ المنكَرِ، وحُسـنِ الظنِّ باللهِ، ومحاربَـةِ الهوَى، والإلحاحِ في الدُّعاءِ، وتحرِّي الحلالِ، وغيرِ ذلك.

* ومَعرفة أسـبابِ عدمِ الإجابةِ، من تركِ العمَلِ، والوقوعِ في المعاصي، واتِّباعِ الهَوَى، وسوءِ الظنِّ باللهِ، وتركِ الدُّعاءِ، وأكلِ الحرامِ، وغيرِ ذلك.

* الإلحـاحُ عـلى اللهِ في الدعاءِ؛ فإنَّه من تعظيـمِ الرغبَةِ، قـال الحافظُ في قولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ»**: «أَي: يُبالِغ في ذلك، بِتَكْرارِ الدُّعاءِ، والإلْحاحِ فيهِ»[٢].

* حضورُ القلبِ عندَ المسألَةِ، والبُعدُ عنِ الغفلةِ، وأسبابِ حُصولِها.

* العزمُ في المسألَةِ، والجدُّ في الطَّلبِ، وعدمُ استعظامِ شيءٍ على اللهِ.

* الحذرُ ممَّا قد يعتري القلبَ من آفاتٍ مهلكَةٍ، كالغفلةِ، واللهوِ، وسوءِ الظنِّ باللهِ.



---

(١) الجواب الكافي (ص٩)، باختصار.

(٢) فتح الباري (١١/ ١٤٠).



الحديثُ السابعَ عشَرَ:

عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا يَجْتَمِعُ غُبارٌ في سَبيلِ اللّهِ، ودُخانُ جَهَنَّمَ، في جَوفِ عبدٍ أَبَدًا، ولا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ، والإيمانُ، في قلبِ عبدٍ أَبَدًا»**[١].

قولهُ: «لا يَجْتَمِعُ غُبارٌ في سَبيلِ اللّهِ، ودُخانُ جَهَنَّمَ، في جَوفِ عبدٍ أَبَدًا»:

وفي روايةٍ: «لا يَجْتَمِعُ غُبارٌ في سَبيلِ اللهِ، ودُخانُ جَهَنَّمَ، في مَنْخَرَي مسلمٍ أَبَدًا»[٢].

والمعنى: لا يَجْتَمِعُ غُبارٌ في سَبيلِ اللهِ، ودُخانُ جَهَنَّمَ، في خَرْقَي أَنْفِ مسلمٍ أَبدًا، أَي: في زَمانٍ منَ الأَزْمانِ.

أو: لا يَجْتَمِعُ غُبارٌ في سَبيلِ اللهِ، ودُخانُ جَهَنَّمَ، في جَوفِ عبدٍ أَبَدًا، أَي: حَيثُ دَخَلَ فيه الغُبارُ، فَيَمْتَنِعُ دُخُولُ الدُّخانِ عليهِ؛ لأنَّ الاِجْتِماعَ في حَيِّزِ الاِمْتِناعِ[٣].

قال السّنديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيهِ: أنَّ المسلمَ الحَقيقيَّ إذا جاهَدَ للهِ خالِصًا، لا يَدْخُلُ النارَ»[٤].

---

(١) رواه النَّسائي (٣١١٠)، وصححه الألباني.

(٢) رواه النَّسائي (٣١٠٧)، وصححه الألباني.

(٣) مرقاة المفاتيح (٦/ ٢٤٧٨).

(٤) حاشية السندي على ابن ماجه (٢/ ١٧٧).

وقولهُ: **«في سَبيلِ اللّهِ»**:

أي: لإعلاءِ كلمَةِ اللهِ، لا لحميَّةٍ، ولا لعصبيَّةٍ، ولا ليُذكَرَ، أو ليُرى مكانُهُ، ولا لغيرِ ذلك منَ المقاصِدِ الفاسدَةِ.

فعن أَبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسولَ اللهِ، ما القِتالُ في سَبيلِ اللهِ؟ فإنَّ أَحَدَنا يُقاتِلُ غَضَبًا، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً، فَرَفَعَ إليهِ رَأْسَهُ، فقال: «**مَن قاتَلَ لِتَكُونَ كلمةُ اللهِ هيَ العُلْيا، فهُو في سَبيلِ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ»[١].

وفي روايةٍ: جاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: الرَّجُلُ يُقاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، والرَّجُلُ يُقاتِلُ لِلذِّكْرِ، والرَّجُلُ يُقاتِلُ ليُرَى مَكانُهُ، فَمَن في سَبيلِ اللهِ؟ قال: «**مَن قاتَلَ لِتَكُونَ كلمةُ اللهِ هيَ العُلْيا فهُو في سَبيلِ اللهِ**»[٢].

وقولهُ: **«وَلا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ، والإيمانُ، في قلبِ عبدٍ أَبَدًا»**:

فالشّحُّ صفةٌ مَذمومةٌ، وآفةٌ مُستعصيةٌ، لا تجتمعُ والإيمانَ الكاملَ في قلبِ عبدٍ مُسلمٍ.

عن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**اتَّقُوا الظُّلْمَ، فإنَّ الظُّلْمَ ظُلُماتٌ يَومَ القيامَةِ، واتَّقُوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ مَن كان قَبْلَكُم، حَمَلَهُم على أَن سَفَكُوا دِماءَهُم، واسْتَحَلُّوا مَحارِمَهُمْ**»[٣].

فهذا يدلُّ على أنَّ الشحَّ صفةٌ ذميمةٌ، تنافي الإيمانَ الكاملَ، وتحمِلُ على سفكِ الدماءِ، وانتهاكِ المحارِمِ.

---

(١) رواه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤).

(٢) رواه البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٨).

وقد تعدَّدت عباراتُ العلماءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ في تعريفِ الشحِّ، والفرقِ بينَه وبينَ البُخلِ:

فقيل: الشُّحُّ أَشَدُّ البُخْلِ، وأَبْلَغُ في المَنْعِ منَ البُخْلِ، وقيلَ: هو البُخْلُ مع الحِرْصِ، وقيلَ: البُخْلُ في أَفْرادِ الأُمُورِ، والشُّحُّ عامٌّ، وقيلَ: البُخْلُ في أَفْرادِ الأُمُورِ، والشُّحُّ بالمالِ، والمَعْرُوفِ، وقيل: الشحُّ: الحرصُ على ما ليس عِنْدَهُ، والبُخْلُ بما عِنْدَهُ[1].

وقال أَبو سُلَيمان الخطابيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشُّحُّ أبلغُ منَ البُخْلِ، وإنَّما الشُّحُّ بِمَنْزِلَةِ الجِنْسِ، والبُخلُ بِمَنْزِلَةِ النَّوعِ، وأكْثرُ ما يُقالُ في البُخْلِ: إنَّه من أَفْرادِ الأُمُورِ، وخواصِّ الأَشْياءِ، والشحُّ عامٌّ، فهُو كالوصفِ اللازِمِ للإنْسانِ من قبلِ الطَّبْعِ، والجبلَّةِ، وقال بَعضُهُم: البُخْلُ: أَن يضنَّ بمالِه، والشحُّ: أَن يَبخلَ بمالِه ومعروفِه»[2].

وقال **ابنُ القيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «**الفَرقُ بينَ الشُّحِّ والبُخلِ**: أنَّ الشحَّ هوَ: شدَّةُ الحِرصِ على الشَّيءِ، والإحْفاءُ في طَلَبِهِ، والاستقصاءُ في تحصيلِه، وجشعُ النَّفسِ عليهِ، والبُخلُ: منعُ إنفاقِه بعدَ حصولِه، وحبُّه، وإمساكُه، فهوَ شحيحٌ قبلَ حصولِه، بخيلٌ بعدَ حصولِه، فالبُخلُ ثمرةُ الشحِّ، والشحُّ يدعُو إلى البخلِ، والشحُّ كامنٌ في النفسِ، فمَن بخلَ فقد أطاعَ شُحَّه، ومَن لم يبخَل فقد عصَى شُحَّه، ووُقي شرَّه، وذلك هو المُفلِحُ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]»[3].

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**اخْتُلِفَ في البُخْلِ والشُّحِّ**: هَل هُما بِمَعْنًى واحِدٍ، أَو بِمَعْنَيَينِ؟ فَقيلَ: البُخْلُ الِامْتِناعُ من إخْراجِ ما حَصَلَ عِنْدَكَ، والشُّحُّ: الحِرْصُ على تَحْصيلِ ما ليس عِنْدَكَ، وقيلَ: إنَّ الشُّحَّ هو البُخْلُ مع حِرْصٍ، وهو الصَّحيحُ؛ لِما رواهُ مسلمٌ عن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اتَّقُوا الظُّلْمَ، فإنَّ**

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٣٤).
(٢) كشف المشكل (٣/ ٦٩).
(٣) الوابل الصيب (ص٣٣).

الظُّلْمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامَةِ، واتَّقُوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ مَن كان قَبْلَكُم، حَمَلَهُم على أَن سَفَكُوا دِماءَهُم واسْتَحَلُّوا مَحارِمَهُمْ»[1].

ومعنَى قولِه: «لا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ، والإيمانُ، في قلبِ عبدٍ»:

أنَّ الشحَّ لا يجتمِعُ والإيمانَ الكاملَ في قلبِ عبدٍ أبدًا، فالشحُّ يُضعفُ الإيمانَ؛ لما يَجلبهُ على صاحبِه من حبِّ الدنيا، وعدمِ الثقةِ في الخَلَفِ منَ اللهِ، وعدمِ شُكرِ النعمَةِ، وعدمِ الرضا بالمقدُورِ.

قال أبو بكرٍ الكلاباذيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشُّحُّ أَشَدُّ البُخْلِ، فإنَّ البُخْلَ أكثرُ ما يُقالُ إنَّما يُقالُ في البَعْقَةِ، وإمْساكِها، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [محمد: ٣٨]، وقال في الشُّحِّ: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ [الأحزاب: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

فالشُّحُّ يُنْبِئُ عنِ الكَزازَةِ[2]، والإمْتِناعِ، والتَّأنِّي، وقِلَّةِ المُواناةِ، فهُو يكونُ في المالِ خاصَةً، وفي جَميعِ مَنافِعِ البَدَنِ عامَّةً، والإيمانُ هو التَّصْديقُ، ومنَ التَّصْديقِ: تَصْديقُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فيما تَكَفَّلَ به منَ الأَرْزاقِ، وفيما وعَدَ منَ الخَلَفِ على الإنْفاقِ، والثَّوابِ في العُقْبَى.

والبُخْلُ يكونُ من سُوءِ الظَّنِّ باللهِ تَعالى؛ لأنَّهُ يَخافُ عليهِ أَن لا يَخْلُفَ، ولم يُمْكِن تَحْقيقُ الثَّوابُ من قِبَلِه، فالبُخْلُ بالمالِ من سُوءِ الظَّنِّ باللهِ، وسُوءُ الظَّنِّ يُوهِنُ التَّصْديقَ، والإمْتِناعِ، وقِلَّة المُواناةِ، والتَّأَنِّي، قَد يكونُ فيما بينَ العبدِ، وأَوامِرِ اللهِ، وفُرُوضِهِ، وأَقْضيَتِهِ، وأَحْكامِهِ، وفيما بينَهُ وبينَ خَلْقِ اللهِ في تَرْكِ المُعاوَنَةِ لهم،

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٢٩٣).

(٢) الكَزازةُ: اليبس والانقباض. ورجل كَزٌّ: صلب، قليل الخير. العين (٥/ ٢٧٢)

والشَّفَقَةِ عليهم، والنُّصْحِ لهم، فالاِمْتِناعُ والتَّأنِّي عندَ الأَوامِرِ، يُوهِنُ التَّصْديقَ بِقبُولِها، وصُعُوبَة الاِنْتِقاءِ، وقِلَّةُ المُواناةِ يُوهِنُ التَّصْديقَ بالقَدَرِ، فَمَن صَدَّقَ بالقَدَرِ انْقادَ لِلْأَحْكامِ، ومَن كان مُمْتَنِعًا، قَليلَ المُعاوَنَةِ، تارِكًا لِلنُّصْحِ لِلْمُؤْمِنينَ، غيرَ مُشْفِقٍ عليهِم، فكَأَنَّهُ ليس منهُم، وقال النبيُّ ﷺ: «**المؤمنُونَ كالبُنْيانِ يَشُدُّ بعضُهُم بعضًا**»[1].

فالشُّحُّ من جَميعِ وُجُوهِهِ يُخالِفُ الإيمانَ، وحَقيقَتَهُ؛ فَلذلك قال ﷺ: «**لا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ والإيمانُ في قلبِ عبدٍ أَبَدًا**»، والمعنى في الإيمانِ: حَقيقَةُ الإيمانِ، الذي هو حَقُّهُ، ومُوجِبُهُ.

فَمَن تَحَقَّقَ في إيمانِهِ، وصَدَّقَ بِإيقانِهِ؛ سَهُلَ عليهِ تَرْكُ الدنيا، والعُزُوفُ عنها.

ومَن نَوَّرَ الإيمانُ قلبَهُ، وشَرَحَ اللهُ لِلْإِسْلامِ صَدْرَهُ؛ سَهُلَ عليهِ الإعْراضُ عنِ الدنيا.

ومَن عَكَفَ عليها، وبَخِلَ بِها، وسَكَنَ إليها، وشَحَّ عليها؛ لم يُخامِر حَقيقَةَ الإيمانِ قلبُهُ شُهُودًا.

وإن أَقَرَّ بِلِسانِهِ، ولم يَتطَوَّع على تَكْذيبِهِ عَقْدًا، فهُو مُؤْمِنٌ ضَعيفُ الإيمانِ.

وقولهُ ﷺ: «**لا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ والإيمانُ**» أَي: لا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ، وقُوَّةُ الإيمانِ في قلبِ عبدٍ أَبَدًا»[2].

وفي الحديثِ منَ الفوائِدِ:

* فضلُ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وأنَّه منجاةٌ من عذابِ اللهِ.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤٦)، ومسلم (٢٥٨٥)، ولفظه: «المؤمنُ لِلْمُؤْمِنِ كالبُنْيانِ، يَشُدُّ بعضُهُ بعضًا».

(٢) بحر الفوائد (ص١٨٧).

* الحِرصُ على سلامةِ القلبِ منَ الآفاتِ.

* الشحُّ يُضعِفُ الإيمانَ في القلبِ، وينافي كمالَ الإيمانِ.

* آفاتُ القلوبِ تمنَعُ أصحابَها من منازِلِ المقرَّبينَ.

* الحثُّ على ما يضادُّ الشحَّ منَ الجُودِ، وحبِّ الخيرِ للناسِ، والزُّهدِ في الدنيا.

* الجودُ، والكرمُ، وحبُّ الخيرِ للناسِ، يزيدُ منَ الإيمانِ في القلبِ.



الحديثُ الثامنَ عشَرَ:

عن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **«لا يَزالُ قلبُ الكَبيرِ شابًا في اثْنَتَينِ: في حُبِّ الدنيا، وطُولِ الأَمَلِ»**[١].

وفي روايةٍ لِمسلمٍ: **«قلبُ الشَّيخِ شابٌّ على حُبِّ اثْنَتَينِ: طُولُ الحَياةِ، وحُبُّ المالِ»**.

وفي روايةٍ: **«الشَّيخُ يَكْبَرُ، ويَضْعُفُ جِسْمُهُ، وقلبُهُ شابٌّ على حُبِّ اثْنَينِ: طُولِ العُمُرِ، والمالِ»**[٢].

وعن أنسٍ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَهْرَمُ ابنُ آدَمَ، وتَشِبُّ منهُ اثْنَتانِ: الحِرْصُ على المالِ، والحِرْصُ على العُمُرِ**»[٣].

قولهُ: «لاَ يَزالُ قلبُ الكَبيرِ شابًا في اثْنَتَينِ: في حُبِّ الدنيا، وطُولِ الأَمَلِ»:

قال المُناويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: كان وما زالَ قلبُ الشَّيخِ على حُبِّ اثنَين، فالمُرادُ: استمرارُه على ذلك، ودوامُه عليهِ، وأنَّ حبَّه لهُما لا ينقطِعُ بشيخوخَتِه»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦٤٢٠)، ومسلم (١٠٤٦).

(٢) رواه أحمد (٨٤٢٢)، وصححه محققو المسند.

(٣) رواه البخاري (٦٤٢١)، ومسلم (١٠٤٧).

(٤) فيض القدير (٤/ ١٨٦).



وقال القُرْطُبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في هذا الحديثِ: كَراهَةُ الحِرْصِ على طُولِ العُمُرِ، وكثرةِ المالِ، وأنَّ ذلك ليس بِمَحْمُودٍ».

وقال غيرُهُ: «الحِكْمَةُ في التَّخْصيصِ بِهَذَينِ الأَمْرَينِ: أنَّ أحبَّ الأَشْياءِ إلى ابنِ آدَمَ نَفْسُهُ، فهُو راغِبٌ في بَقائِها، فَأَحَبَّ لذلك طُولَ العُمُرِ، وأَحَبَّ المالَ؛ لأَنَّهُ من أَعْظَمِ الأسبابِ في دَوامِ الصِّحَّةِ التي يَنْشَأُ عنها -غالِبًا- طُولُ العُمُرِ، فكلَّما أَحَسَّ بِقُرْبِ نَفادِ ذلك اشْتَدَّ حُبُّهُ له، ورَغْبَتُهُ في دَوامِهِ»[١].

وقيلَ: وصَفَهُ بِكَونِهِ شابًّا؛ لِوُجُودِ هَذَينِ الأَمْرَينِ فيهِ، اللَّذَينِ هُما في الشَّبابِ أكثرُ، وبِهِم أَلْيَقُ؛ لِلرَّجاءِ في طُولِ أَعْمارِهِم، ودَوامِ اسْتِمْتاعِهِم، ولَذَّاتِهِم في الدنيا، وحُبُّ الدنيا هو كثرةُ المالِ، وطُولُ الأَمَلِ هو طُولُ الحَياةِ[٢].

وقولُه: **«حبُّ الدنيا»**:

وهوَ من أعظَمِ مفسِداتِ القلوبِ؛ لأنَّه لا يزالُ بالعبدِ، حتَّى يقدِّمَه على حبِّ اللهِ، فتستعبدَهُ الدنيا، وزخرُفُها، كما في البخاريِّ عن أَبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**تَعِسَ عبدُ الدِّينارِ، والدِّرْهَمِ، والقَطيفَةِ، والخَميصَةِ، إن أُعْطيَ رَضيَ، وإن لم يُعْطَ لم يَرْضَ**»[٣].

هذا معَ لزومِ الهمِّ، والتعبِ الدائِمِ، والحسرَةِ على ما يفوتُ منها.

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مُحِبُّ الدنيا لا ينفكُّ من ثلاثٍ: همٍّ لازمٍ، وتعبٍ دائمٍ، وحسرةٍ لا تنقضي، وذلك أنَّ محبَّها لا ينالُ منها شيئًا، إلَّا طمحَت نفسُهُ إلى ما فوقَه»[٤].

---

(١) فتح الباري (١١/ ٢٤١).

(٢) طرح التثريب (٤/ ٨٢).

(٣) رواه البخاري (٢٨٨٦).

(٤) إغاثة اللهفان (١/ ٣٧).

أمَّا طولُ الأملِ:

فهُوَ دوامُ الحرصِ على الدُّنيا، معَ الإعراضِ عنِ الآخرَةِ.

وقد صحَّ عن أَبي عبدِ الرحمنِ السُّلَميِّ، قال: خَطَبَ عَلِيُّ بنُ أَبي طالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالكُوفَةِ فقال: «يا أَيُّها الناسُ، إنَّ أَخْوَفَ ما أَخافُ عَلَيكُمْ: طُولُ الأَمَلِ، واتِّباعُ الهَوَى، فَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ: فَيُنْسي الآخرةَ، وأَمَّا اتِّباعُ الهَوَى: فَيُضِلُّ عنِ الحَقِّ، أَلا إنَّ الدنيا قَد ولَّت مُدْبِرَةً، والآخرة مُقْبِلَةٌ، ولِكلٍّ واحِدَةٍ منهُما بَنُونَ، فَكُونُوا من أَبْناءِ الآخرةِ، ولا تَكُونُوا من أَبْناءِ الدنيا، فإنَّ اليَومَ عَمَلٌ، ولا حِسابٌ، وغَدًا حِسابٌ ولا عَمَلٌ»[1].

قال الغزاليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**طولُ الأملِ له سببانِ:** أحدُهُما: الجَهلُ، والآخرُ: حبُّ الدنيا.

أمَّا حبُّ الدُّنيا: فهُوَ أنَّه إذا أنسَ بها، وبشهواتِها، ولذَّاتِها، وعلائقِها، ثقُلَ على قلبِه مفارقتُها، فامتنعَ قلبُه منَ الفِكرِ في الموتِ الذي هو سببُ مفارقَتِها، وكلُّ مَن كَرِهَ شيئًا، دفعَه عن نفسِه، والإنسانُ مشغوفٌ بالأمانيّ الباطلَةِ، فيمنِّي نفسَه أبدًا بما يُوافقُ مرادَه، وإنَّما يُوافقُ مرادَه البقاءُ في الدُّنيا، فلا يزالُ يتوهَّمُه ويقدِّرُه في نفسِه، ويقدِّرُ توابعَ البقاءِ، وما يحتاجُ إليهِ من مالٍ، وأهلٍ، ودارٍ، وأصدقاءَ، ودوابّ، وسائرِ أسبابِ الدُّنيا، فيصيرُ قلبُه عاكفًا على هذا الفِكْرِ، موقوفًا علَيه، فيَلهُو عن ذكرِ المَوتِ، فلا يقدِّرُ قربَه، فإن خطَرَ لَه في بعضِ الأحوالِ أمرُ الموتِ والحاجةُ إلى الاستعدادِ لَه سوَّفَ، ووعَدَ نفسَه، وقال: الأيامُ بينَ يَدَيكَ، إلى أن تكبُرَ، ثمَّ تتوبَ، وإذا كَبرَ فيقولُ: إلى أن تصيرَ شيخًا، فإذا صارَ شيخًا، قال: إلى أن تفرُغَ من بناءِ هذِه الدارِ، وعمارةِ هذِه الضَّيعةِ، أو ترجعَ من هذِه السفرَةِ، أو تَفرغَ من تدبيرِ هذا الولدِ، وجهازِهِ، وتدبيرِ مسكنٍ لَه، أو تفرغَ من قهرِ هذا العدُوِّ الذي يشمَتُ بكَ.

(١) رواه البيهقي في الشعب (١٠١٣٠).

فلا يَزالُ يُسَوِّفُ، ويُؤَخِّرُ، ولا يَخُوضُ في شُغُلٍ، إلَّا ويَتَعَلَّقُ بِإتْمامِ ذلك الشُّغُلِ عشَرَةُ أشغالٍ أُخَر، وهكَذا على التدريجِ، يُؤَخِّرُ يومًا بَعْدَ يومٍ، ويُفْضي به شُغُلٌ إلى شُغُلٍ، بَل إلى أَشْغالٍ، إلى أَن تختَطِفَه المَنيَّةُ في وقْتٍ لا يَحْتَسِبُهُ، فَتَطُول عندَ ذلك حَسْرَتُهُ.

وأمَّا الجَهلُ: فهُو أنّ الإنسانَ قد يُعوِّلُ على شَبابِهِ فيَستبعِدُ قُربَ المَوتِ مع الشّبابِ.

وقد يَستبعِدُ المَوتَ لِصحّتِهِ، ويَستبعدُ المَوت فَجْأَةً، ولا يَدْري أنَّ ذلك غيرُ بعيدٍ، وإن كان ذلك بَعيدًا، فالمرضُ فَجأةً غيرُ بَعيدٍ، وإذا مَرِضَ لَم يَكنِ الموتُ بعيدًا، ولو تَفكّرَ هذا الغافِلُ، وعلِمَ أنّ الموتَ ليسَ لَه وقتٌ مَخصوصٌ، من شَبابٍ وشَيبٍ وكُهُولَةٍ، ومن صَيفٍ وشِتاءٍ وخريفٍ وربيعٍ، من لَيلٍ ونهارٍ، لعَظُمَ اسْتشعارُهُ، واشْتَغَلَ بالاستعْدادِ له، ولكنَّ الجَهلَ بِهذِهِ الأمورِ، وحبَّ الدّنيا، دَعَواهُ إلى طُولِ الأمَلِ، وإلى الغَفلةِ عن تَقديرِ المَوتِ القَريبِ»[١].

وقال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِفتاحُ الاستعدادِ للآخرَةِ: قِصرُ الأملِ، ومِفتاحُ كلِّ خيرٍ: الرغبَةُ في اللهِ، والدارِ الآخرَةِ، ومِفتاحُ كلِّ شرٍّ: حبُّ الدُّنيا، وطولُ الأملِ»[٢].

وقد جاءَ عن غيرِ واحدٍ منَ المتقدِّمينَ: أنَّ حبَّ الدنيا رأسُ الخطايا، وأصلُها.

وإنَّما كان حبُّ الدنيا رأسَ الخطايا، ومفسدًا للدِّينِ، من وجوهٍ:

أحَدها: أنَّ حبَّها يقتضي تعظيمَها، وهيَ حقيرةٌ عندَ اللهِ، ومن أكبَرِ الذنوبِ: تعظيمُ ما حقَّرَ اللهُ.

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٥٦-٤٥٧).

(٢) حادي الأرواح (ص٦٩).

وثانيها: أنَّ اللهَ لعنَها، ومقَتَها، وأبغَضَها، إلَّا ما كان لَه فيها، ومَن أحبَّ ما لعَنَه اللهُ، ومقَتَه، وأبغَضَه، فقَد تعرَّضَ للفتنَةِ، ومَقتِه، وغضَبِه.

وثالثها: أنَّه إذا أحبَّها صيَّرَها غايَتَه، وتوسَّلَ إليها بالأعمالِ التي جعلَها اللهُ وسائِلَ إليه، وإلى الدارِ الآخرَةِ، فعَكسَ الأمرَ، وقلَبَ الحكمةَ، فانعكَسَ قلبُه، وانعكَسَ سَيرُه[1].

وفي الحديثِ:

* التحذيرُ من حبِّ الدُّنيا، وطولِ الأملِ فيها.
* الترغيبُ في الزهدِ في الدنيا، وعدمِ الرُّكونِ إليها.
* حبُّ الدُّنيا أصلُ البلايا، ورأسُ الخطايا.
* الترغيبُ في الآخرَةِ، والحثُّ على السَّعي لَها.
* الترهيبُ من فتنةِ المالِ؛ فإنَّها من أعظَمِ الفتنَةِ، وعن كَعْبِ بنِ عياضٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إنَّ لِكلِّ أُمَّةٍ فتنةً، وفتنةُ أُمَّتي المالُ**»[2].
* تحذيرُ الشبابِ من حبِّ الدُّنيا، وطولِ الأملِ؛ فإنَّه مَن شبَّ على شيءٍ، شابَ علَيه.



(١) عدة الصابرين (ص٢١٩-٢٢١).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٣٦)، وصححه، وصححه الألباني.



الحديثُ التاسعَ عشَرَ:

عن عبدِ اللّهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: **«نَضَّرَ اللّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقالتي، فَوَعاها، وحَفِظَها، وبَلَّغَها، فَرُبَّ حامِلِ فِقْهٍ إلى مَن هو أَفْقَهُ منهُ، ثَلاثٌ لا يُغِلُّ عليهِنَّ قلبُ مسلمٍ: إخْلاصُ العَمَلِ للّهِ، ومُناصَحَةُ أَئِمَّةِ المسلمينَ، ولُزُومُ جَماعَتِهِم، فإنَّ الدَّعْوَةَ تُحيطُ من ورائِهِمْ»**[١].

بدَأَ هذا الحديثُ بالحثِّ على سماعِ الحديثِ، ووعيِهِ، وحفظِهِ، وتبليغِهِ؛ لما في ذلك من نشرِ العلمِ، وحفظِ السُّنةِ.

قولهُ: «نَضَّرَ اللّهُ امْرَأً»:

قال ابنُ الأثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَضَرَهُ، ونَضَّرَهُ، وأَنْضَرَهُ: أَي نَعَّمَه، منَ النَّضارةِ، وهيَ في الأَصْلِ: حُسنُ الوَجْهِ، والبَرِيقُ، وإنَّما أَرادَ: حَسَّن خُلُقَه، وقدْرَه»[٢].

وقال الخطابيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «معناهُ: الدُّعاءُ لَه بالنَّضارةِ، وهيَ النعمةُ، والبهجةُ، يُقالُ بتخفيفِ الضادِ، وتثقيلِها، وأجودُهُما التخفيفُ»[٣].

وقال السّنديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المُرادُ: أَلْبَسَهُ اللهُ النَّضْرَةَ، وهيَ الحُسْنُ، وخُلُوصُ

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٨)، وصححه الألباني.

(٢) النهاية (٥/ ٧١).

(٣) معالم السنن (٤/ ١٨٧).



اللَّونِ، أَي: جَمَّلَهُ، وزَيَّنَهُ، وأَوصَلَهُ اللهُ إلى نَضْرَةِ الجَنَّةِ، أَي: نَعيمِها، ونَضارَتِها، قال ابنُ عُيَينَةَ: «ما من أَحَدٍ يَطْلُبُ الحديثَ إلَّا وفي وجْهِهِ نَضْرَةٌ لِهذا الحديثِ»[١].

قولهُ: «سَمِعَ مَقالتي، فَوَعاها، وحَفِظَها، وبَلَّغَها»:

أَي: سمِعَ حديثي، فحفِظَه، ودامَ على حِفظِه، فلم ينسَهُ، ثمَّ بلَّغَه الناسَ غَضًّا طَرِيًّا من غيرِ تَحْريفٍ، وتَغْييرٍ، من زيادَةٍ، ونُقْصانٍ، أَو من غيرِ تَغْييرٍ لِلَفْظِه، ولا مَعْناه[٢].

فدَعا النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمن سمِعَ كَلامَه، ووعاهُ، وبلَّغَه بالنضرَةِ، وهي البَهْجَةُ، ونضارةُ الوَجْهِ، وتحسينُه؛ وهذا يؤدِّي إلى انشراحِ الصَّدرِ، وطيبِ النفسِ، وحُسنِ الخُلُقِ.

«ولو لم يكن في فضلِ العلمِ إلَّا هذا وحدَه، لكفَى به شرفًا؛ فإن النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعا لِمَن سمِعَ كَلامَه، ووعاهُ، وحفظَه، وبلَّغَه، وهَذِه هيَ مَراتِبُ العلمِ، أوَّلُها وثانيها: سَماعُه، وعقلُه، فإذا سَمعَه وعاهُ بِقلبِه، أَي: عَقَلَه واسْتقرَّ في قلبِه، كما يسْتَقرُّ الشَّيءُ الذي يُوعى في وعائِه، ولا يخرجُ منهُ، وكذلك عقلُهُ هو بِمَنْزِلَة عقلِ البَعيرِ، والدابَّةِ، ونَحْوِها؛ حَتَّى لا تشردَ وتذهبَ؛ ولِهذا كان الوعيُ والعقلُ قدرًا زائِدًا على مُجَرّدِ إدْراكِ المَعْلُومِ.

المرتبَةُ الثالِثَةُ: تعاهدُهُ وحفظُهُ حَتَّى لا ينساهُ فَيذْهبَ.

المرتبَةُ الرابِعَةُ: تبليغُه وبثُّه في الأمَّة؛ ليحصُلَ به ثَمَرَتُه، ومقصودُه، وهو بثُّه في الأمَّة»[٣].

وفوقَ هذِه الدرجَةِ: الذينَ قامُوا بالدينِ عِلْمًا، وعملًا، ودعوةً.

---

(١) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١/ ١٠٢).

(٢) مرقاة المفاتيح (١/ ٣٠٦).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٧١).

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الناسُ بالنسبَةِ إلى الهُدَى والعِلْم ثلاثُ طبقاتٍ:

* **الطَّبقةُ الأولى**: ورثةُ الرسُلِ، وخلفاءُ الأنبياءِ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ، وهمُ الذينَ قامُوا بالدينِ علمًا، وعملًا، ودعوةً إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ورسولِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهؤلاءِ أتباعُ الرُّسُلِ صلواتُ اللهِ عليهِم وسلامُه حقًّا، وهم بمنزلةِ الطائفةِ الطيبةِ منَ الأرضِ التي زكَت فقبلَتِ الماءَ، فأنبتَتِ الكلأَ، والعُشبَ الكثيرَ، فزكَت في نفسِها، وزكا الناسُ بها.

* **الطَّبقةُ الثانيةُ**: هيَ التي حفظَتِ النُّصوصَ، وكان همُّها حفظَها، وضبطَها، فوردَها الناسُ، وتلقَّوها منهُم، فاستنبَطُوا منها، واستخرَجُوا كنوزَها، واتَّجروا فيها، وبذَرُوها في أرضٍ قابلةٍ للزَّرْعِ، والنباتِ، ووردها كلٌّ بحسَبِه: ﴿**قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ**﴾ [البقرة: ٦٠]، وهؤلاءِ همُ الذينَ قال فيهِمُ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نضَّرَ اللهُ امرءًا سمِعَ مقالتي فوعاها، ثمَّ أدَّاها كما سَمِعَها، فرُبَّ حامِلِ فقهٍ غير فقيهٍ، ورُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَن هو أفقَهُ منهُ**».

* **وأمَّا الطائفةُ الثالثةُ**: فهُم أشقَى الخلقِ الذينَ لم يقبَلُوا هُدَى اللهِ، ولم يرفَعُوا بهِ رأسًا، فلا حفظَ، ولا فَهْمَ، ولا روايةَ، ولا درايةَ، ولا رعايةَ.

فالطَّبقةُ الأولى: أهلُ روايةٍ، ودرايةٍ.

والطَّبقةُ الثانيةُ: أهلُ روايةٍ، ورعايةٍ، ولهم نصيبٌ منَ الدرايةِ، بل حظُّهُم منَ الروايةِ أوفَرُ.

والطَّبقةُ الثالثةُ: الأشقياءُ، لا روايةَ، ولا درايةَ، ولا رعايةَ، ﴿**إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**﴾ [الفرقان: ٤٤]»[1].

---

(١) الوابل (ص٥٨-٦٠)، باختصار.

قولهُ: «فَرُبَّ حامِلِ فِقْهٍ إلى مَن هو أَفْقَهُ منهُ»:

أَي: أعرفُ بمعاني ما يبلُغُه من مُبلِّغِه[١].

وقال المباركفوريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: فَرُبَّ حامِلِ فِقْهٍ قَد يكونُ فَقيهًا، ولا يكونُ أَفْقَهَ، فَيَحْفَظُهُ، ويُبَلِّغُهُ إلى مَن هو أفقهُ منه، فيستنبطُ منه مالا يَفْهَمُهُ الحامِلُ»[٢].

وفي روايةٍ: «**فَرُبَّ حامِلِ فِقْهٍ إلى مَن هو أَفْقَهُ منهُ، ورُبَّ حامِلِ فِقْهٍ ليس بِفَقيهٍ**»[٣].

قال المناويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بيَّن به أن راوي الحديث ليس الفِقْهُ من شَرطِه، إنَّما شَرطُه الحِفْظُ، وعلى الفَقيه التفهُّمُ، والتدبُّرُ»[٤].

وقال الخطابيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيهِ: دليلٌ على كراهَةِ اختصارِ الحديثِ لِمَن ليسَ بالمتناهي في الفقهِ؛ لأَنَّه إذا فعَلَ ذلك، فقد قطَعَ طريقَ الاستنباطِ، والاستدلالِ، لمعاني الكلامِ من طريقِ التفهُّمِ»[٥].

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي هذا دُعاءٌ منهُ لِمَن بَلَّغَ حديثَهُ، وإن لم يَكُن فَقيهًا، ودُعاءٌ لِمَن بَلَّغَهُ، وإن كان المُسْتَمِعُ أَفْقَهَ من المُبَلِّغ؛ لِما أُعطيَ المُبَلِّغُونَ من النَّضْرَةِ؛ ولِهذا قال سُفْيانُ بنُ عُيينَة: «لا تَجِدُ أَحَدًا من أهلِ الحديثِ إلَّا وفي وجْهِهِ نَضْرَةٌ؛ لِدَعْوَةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

ولم يَزَل أهلُ العِلْمِ في القَديمِ، والحديثِ، يُعَظِّمُونَ نَقَلَةَ الحديثِ، حَتَّى قال الشافِعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا رَأَيتُ رَجُلًا من أهلِ الحديثِ، فَكَأَنِّي رَأَيتُ رَجُلًا من أَصْحابِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

---

(١) التنوير (١٠/ ٥٠٤).

(٢) تحفة الأحوذي (٧/ ٣٤٨).

(٣) رواه أبوداود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وحسنه، من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني.

(٤) التيسير (٢/ ٤٦٠).

(٥) معالم السنن (٤/ ١٨٧).

وإنَّما قال الشافِعيُّ هذا؛ لأنَّهُم في مَقامِ الصَّحابَةِ من تَبْليغ حديثِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال الشافِعيُّ أَيضًا: «أهلُ الحديثِ حَفِظُوا، فَلَهُم عَلَينا الفَضْلُ؛ لأنَّهُم حَفِظُوا لَنا»(١).

قولهُ: «ثَلاثٌ لا يُغِلُّ عليهِنَّ قلبُ مسلمٍ»:

أَي: ثَلاثُ خِصالٍ «لا يغِلُّ»: بِفَتْحِ الياءِ وضَمِّها وبِكَسْرِ الغَينِ، فالأَوَّلُ منَ الغِلِّ: الحِقْدِ، والثاني منَ الإغْلالِ: الخيانَةِ، **والمعنى**: أنَّ المؤمنَ ما دامَ على هذه الخِصالِ الثَّلاثِ، فإنَّه لا يحمِلُ الغلَّ، فلا يحقدُ، ولا يخونُ، فَمَن تَمَسَّكَ بِها، طَهُرَ قلبُهُ منَ الغِلِّ، والفَسادِ(٢).

قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «أَي: لا يَبْقَى فيه غِلٌّ، ولا يَحْمِلُ الغِلَّ مع هذه الثَّلاثةِ؛ بَل تَنْفي عنهُ غِلَّهُ، وتُنَقِّيهِ منهُ، وتُخْرِجُهُ عنهُ، فإنَّ القلبَ يَغِلُّ على الشِّرْكِ أَعْظَمَ غِلٍّ، وكذلك يَغِلُّ على الغِشِّ، وعلى خُرُوجِهِ عن جَماعَةِ المسلمينَ بالبِدْعَةِ، والضَّلالَةِ.

فَهذه الثَّلاثةُ تَمْلَؤُهُ غِلًّا، ودَغَلًا، ودَواءُ هذا الغِلِّ، واسْتِخْراجُ أَخْلاطِهِ: بِتَجْريدِ الإخْلاصِ، والنُّصْحِ، ومُتابَعَةِ السُّنةِ»(٣).

فأوَّلُ هذِه الخصالِ الثلاثِ التي تنقِّي قلبَ المسلمِ، وتطهِّرُه منَ الحقدِ، والخيانَةِ، والفسادِ، والشرِّ:

«إخْلاصُ العَمَلِ للّهِ»:

وهو تجريدُهُ قصدًا لوجهِ اللهِ، فلا يشوبُهُ ما يشوبُ الأعمالَ منَ الرياءِ،

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١١).

(٢) مرقاة المفاتيح (١/ ٣٠٦)، حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١/ ١٠٣).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٩٠).

والسُّمعةِ، وطلبِ الجاهِ، والمالِ، والرياسةِ، وغيرِ ذلك منَ الآفاتِ التي تقدَحُ في الإخلاصِ.

والإخلاصُ هو طريقُ التخلُّصِ من آفاتِ القلوبِ كلِّها، فمَن أخلَصَ الوجهَ للهِ، وقصَدَ بعملِه رضاهُ، طهرَ قلبُه، وزكا، وقبلَ اللهُ منهُ عملَه، وأثابَه عليهِ.

وعن أَبي أُمامَةَ الباهِليِّ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ من العَمَلِ إلَّا ما كان لَهُ خالِصًا، وابْتُغيَ به وجْهُهُ**»[١].

ولا يُقبلُ عملُ عاملٍ إلا بِشرطينِ: أن يكونَ خالصًا للهِ، وأن يكونَ على السُّنّة، ومَن هُديَ قلبُه للإخلاصِ، وطلبِ العلمِ للعمَلِ، هُديَ قلبُه للسُّنةِ، **قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ** رَحِمَهُٱللَّهُ: «فَمَعَنا أَصْلانِ عَظيمانِ: أَحَدُهُما: أَن لا نَعْبُدَ إلَّا اللهَ، والثاني: أَن لا نَعْبُدَهُ إلَّا بِما شَرَعَ، لا نَعْبُدُهُ بِعِبادَةٍ مُبْتَدَعَةٍ، وهذانِ الأَصْلانِ هُما تَحْقيقُ شَهادَةِ أَن لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال الفُضَيل بنُ عياضٍ: «أَخْلَصُهُ وأَصْوَبُهُ» قالُوا: يا أَبا عَليٍّ ما أَخلَصُهُ، وأَصْوَبُهُ؟ قال: «إنَّ العَمَلَ إذا كان خالِصًا، ولم يَكُن صَوابًا، لم يُقبَل، وإذا كان صَوابًا ولم يَكُن خالِصًا، لم يُقْبَل، حَتَّى يكونَ خالِصًا صَوابًا، والخالِصُ أَن يكونَ للهِ، والصَّوابُ أَن يكونَ على السُّنةِ، وذلك تَحْقيقُ قَوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]»[٢].

وقال ابنُ القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ: «الأَعْمالُ أَرْبَعَةٌ: واحِدٌ مَقْبُولٌ، وثَلاثةٌ مَرْدُودَةٌ، فالمَقْبُولُ: ما كان للهِ خالِصًا، ولِلسُّنَّةِ مُوافِقًا، والمَرْدُودُ: ما فُقِدَ منهُ الوَصْفانِ، أَو أَحَدُهُما، وذلك أَنَّ العَمَلَ المَقْبُولَ هو ما أَحَبَّهُ اللهُ، ورَضيَهُ، وهو سُبْحانَهُ إنَّما يُحِبُّ ما أَمَرَ

---

(١) رواه النسائي (٣١٤٠)، وصححه الألباني.

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٣٣٣).

به، وما عُمِلَ لِوَجْهِهِ، وما عَدا ذلك من الأَعْمالِ، فإنَّهُ لا يُحِبُّها، بَل يَمْقُتُها، ويَمْقُتُ أهلَها، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]»[١].

وقولهُ: «وَمُناصَحَةُ أئِمَّةِ المسلمينَ»:

وهذا من أكرَمِ ما يَتّصفُ بِهِ قلبُ المُسلمِ، وهوَ من حُبِّ الخَيرِ لِلمُسلمينَ: أئمّتِهم، وعامّتِهم، وهُو من كمالِ الإيمانِ.

وعن تَميمٍ الداريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**الدِّينُ النَّصيحَةُ**» قُلْنا: لِمَنْ؟ قال: «**للهِ، ولِكِتابِهِ، ولِرسولِهِ، ولِأَئِمَّةِ المسلمينَ، وعامَّتِهِمْ**»[٢].

قال ابنُ الأثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «النَّصيحَةُ: كلمةٌ يُعَبَّرُ بها عن جُمْلَةٍ، هيَ إرادَةُ الخَيرِ لِلْمَنْصُوحِ له، ولَيسَ يُمكنُ أَن يُعَبَّرَ هذا المعنى بكلمةٍ واحِدَةٍ تَجْمَعُ مَعْناهُ غيرها.

وأَصْلُ النُّصْحِ في اللُّغَةِ: الخُلوصُ، يُقالُ: نَصَحْتُهُ، ونَصَحْتُ له»[٣].

ورجلٌ ناصحُ الجيبِ، أي: نقيُّ القلبِ، لا غشَّ فيهِ، قال الأصمعيُّ: «الناصِحُ الخالصُ منَ العسلِ، وغيرِه»، وكلُّ شيءٍ خَلصَ فقَد نَصحَ[٤].

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «النَّصيحَةُ لا تُجامِعُ الغِلَّ؛ إذ هيَ ضِدُّهُ، فَمَنْ نَصَحَ الأَئِمَّةَ، والأُمَّةَ؛ فَقَد بَرِيءَ منَ الغِلِّ»[٥].

وقولهُ: «وَلُزومُ جَماعَتِهِمْ»:

وهذا ممَّا ينتفي بِهِ الغلُّ والغشُّ والحقدُ منَ القلُوبِ؛ لأنَّ مَن لزِمَ جماعَةَ

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٢٤).

(٢) رواه مسلم (٥٥).

(٣) النهاية (٥/ ٦٣).

(٤) الصحاح (١/ ٤١١)، المحكم (٣/ ١٥٧).

(٥) مفتاح دار السعادة (١/ ٧٢).

المسلمينَ، ونصَحَ لهم، ولأئمَّتِهِم، أحبَّ لهمُ الخيرَ، وكرِهَ لهُمُ الشرَّ؛ لأنَّه يُحِبُّ الخيرَ لنفسِهِ، ويكرَهُ الشرَّ لنفسِهِ، فإذا لزمَهُم كان منهُم، فأحبَّ لهم ما أحبَّ لنفسِهِ منَ الخيرِ، وكرِهَ لهُم ما كرِهَ لنفسِهِ منَ الشرِّ، فأيُّ غلٍّ وأيُّ غشٍّ يجتمِعُ في قلبِهِ معَ هذا؟

وعن حُذَيفَةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان الناسُ يَسْأَلُونَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنِ الخَيرِ، وكُنْتُ أَسْأَلُهُ عنِ الشَّرِّ؛ مَخافَةَ أَن يُدْرِكَني، فَقُلْتُ يا رسولَ اللهِ إنَّا كُنَّا في جاهِلِيَّةٍ، وشَرٍّ، فَجاءَنا اللهُ بِهذا الخَيرِ، فَهَل بَعْدَ هذا الخَيرِ من شَرٍّ؟ قال: «**نَعَمْ**»، قُلْتُ: وهَل بَعْدَ ذلك الشَّرِّ من خَيرٍ؟ قال: «**نَعَم، وفيهِ دَخَنٌ**»، قُلْتُ: وما دَخَنُهُ؟ قال: «**قَومٌ يَهْدُونَ بِغيرِ هَدْيي، تَعْرِفُ منهُم، وتُنْكِرُ**»، قُلْتُ: فَهَل بَعْدَ ذلك الخَيرِ من شَرٍّ؟ قال: «**نَعَم، دُعاةٌ إلى أَبْوابِ جَهَنَّمَ، مَن أَجابَهُم إليها، قَذَفُوهُ فيها**»، قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، صِفْهُم لَنا؟ فقال: «**هُم من جِلْدَتِنا، ويَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنا**»، قُلْتُ: فَما تَأْمُرُني إن أَدْرَكَني ذلك؟ قال: «**تَلْزَمُ جَماعَةَ المسلمينَ، وإمامَهُمْ**»، قُلْتُ: فإن لم يَكُن لهم جَماعَةٌ، ولاَ إمامٌ؟ قال «**فاعْتَزِل تِلْكَ الفِرَقَ كلَّها، ولو أَن تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوتُ وأَنْتَ على ذلك**»[1].

«وَهذا بخلافِ مَنِ انْحازَ عنهُم، واشْتَغَلَ بالطَّعْنِ عليهِم، والعَيبِ، والذَّمِّ لهم، كَفِعْلِ الرافِضَةِ، والخَوارِجِ، والمُعْتَزِلَةِ، وغيرِهِم، فإنَّ قلوبَهُم مُمْتَلِئَةٌ غِلًّا، وغِشًّا؛ ولِهذا تَجِدُ الرافِضَةَ أَبْعَدَ الناسِ منَ الإخْلاصِ، وأَغَشَّهُم لِلأَئِمَّةِ، والأُمَّةِ، وأَشَدَّهُم بُعْدًا عن جَماعَةِ المسلمينَ.

فَهَؤُلاءِ أَشَدُّ الناسِ غِلًّا، وغِشًّا، بِشَهادَةِ الرَّسُولِ والأُمَّةِ عليهِم، وشَهادَتِهِم على أَنْفُسِهِم بِذلك، فإنَّهُم لا يكونُونَ قَطُّ إلَّا أَعْوانًا وظَهْرًا على أهلِ الإسلامِ، فَأَيُّ عَدُوٍّ

(١) رواه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

قامَ لِلْمسلمينَ كانُوا أَعْوانَ ذلك العَدُوِّ، وبِطانَتَهُ، وهذا أَمْرٌ قَد شاهَدَتْهُ الأُمَّةُ منهُم، ومَن لم يُشاهِد فقَد سَمِعَ منهُ ما يُصِمُّ الآذانَ، ويُشْجي القلوبَ»[١].

وقال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «**لُزُومُ جَماعَتِهِمْ**»، أَي: مُوافَقَةُ المسلمينَ في الاِعْتِقادِ، والعَمَلِ الصالِحِ، من صَلاةِ الجُمُعَةِ، والجَماعَةِ، وغيرِ ذلك»[٢].

وقولهُ: «فإنَّ الدَّعْوَةَ تُحيطُ من ورائِهِمْ»:

المعنى: أنَّ دَعْوَةَ المسلمينَ قَد أَحاطَت بهم، فَتَحْرُسُهُم عن كَيدِ الشَّيطانِ، وعنِ الضَّلالَةِ.

وفيهِ: تَنْبيهٌ على أنَّ مَن خَرَجَ من جَماعَتِهِم، لم يَنَل بَرَكَتَهُم، وبَرَكَةَ دُعائِهِمْ؛ لأَنَّهُ خارِجٌ عمَّا أَحاطَت بهم من ورائِهِمْ[٣].

وقد ذكَرَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ هذا الحديثَ، وحديثَ: «**إنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُم ثَلاثًا: أَن تَعْبُدُوهُ، ولا تُشرِكُوا به شَيئًا، وأَن تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَميعًا، ولا تَفَرَّقُوا، وأَن تَناصَحُوا مَن ولَّاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ**»[٤]، ثمَّ قال:

«فَقَد جمعَ في هذه الأَحاديثِ بينَ الخِصالِ الثَّلاثِ: إخْلاصِ العَمَلِ للهِ، ومُناصَحَةِ أُولي الأَمْرِ، ولُزُومِ جَماعَةِ المسلمينَ، وهذه الثَّلاثُ تَجْمَعُ أُصُولَ الدِّينِ، وقَواعِدَهُ، وتَجْمَعُ الحُقُوقَ التي للهِ، ولِعِبادِهِ، وتَنْتَظِمُ مَصالِحَ الدنيا، والآخرةِ، وبَيانُ ذلك:

أنَّ الحُقُوقَ قِسْمانِ: حَقٌّ للهِ، وحَقٌّ لِعِبادِهِ، فَحَقُّ اللهِ أَن نَعْبُدَهُ، ولا نُشْرِكَ به شَيئًا، كما جاءَ لَفْظُهُ في أَحَدِ الحديثَينِ؛ وهذا معنى إخْلاصِ العَمَلِ للهِ، كما جاءَ في الحديثِ الآخَرِ.

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٧٣).

(٢) مرقاة المفاتيح (١/ ٣٠٧).

(٣) المصدر السابق.

(٤) رواه مسلم (١٧١٥)، وأحمد (٨٧٩٩)، واللفظ له.

وحُقُوقُ العِبادِ قِسْمانِ: خاصٌّ، وعامٌّ، أَمَّا الخاصُّ: فَمِثْلُ بِرِّ كلِّ إنْسانٍ والِدَيهِ، وحَقِّ زَوجَتِهِ، وجارِهِ، فَهذه من فُرُوعِ الدِّينِ؛ لأنَّ المُكَلَّفَ قَد يَخْلُو عن وُجُوبِها عليهِ؛ ولأنَّ مَصْلَحَتَها خاصَّةٌ فَرْدِيَّةٌ.

وأَمَّا الحُقُوقُ العامَّةُ: فالناسُ نَوعانِ: رُعاةٌ، ورَعيَّةٌ، فَحُقُوقُ الرُّعاةِ مُناصَحَتُهُم، وحُقُوقُ الرَّعيَّةِ لُزُومُ جَماعَتِهِمْ؛ فإنَّ مَصْلَحَتَهُم لا تَتِمُّ إلَّا بِاجْتِماعِهِم، وهُم لا يَجْتَمِعُونَ على ضَلالَةٍ، بَل مَصْلَحَةُ دينِهِم ودُنْياهُم في اجْتِماعِهِم، واعْتِصامِهِم بِحَبْلِ اللهِ جَميعًا، فَهذه الخِصالُ تَجْمَعُ أُصولَ الدِّينِ.

وقد جاءت مُفَسَّرَةً في الحديثِ الذي رواهُ مسلمٌ عن تَميمٍ الداريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**الدِّينُ النَّصيحَةُ**» قُلْنا: لِمَنْ؟ قال: «**للهِ، ولِكِتابِهِ، ولِرسولِهِ، ولِأَئِمَّةِ المسلمينَ، وعامَّتِهِمْ**».

فالنَّصيحَةُ للهِ، ولِكِتابِهِ، ولِرسولِهِ، تَدْخُلُ في حَقِّ اللهِ، وعِبادَتِهِ وحْدَهُ لا شَريكَ له، والنَّصيحَةُ لِأَئِمَّةِ المسلمينَ، وعامَّتِهِم، هيَ مُناصَحَةُ وُلاةِ الأَمْرِ، ولُزُومُ جَماعَتِهِم، فإنَّ لُزُومَ جَماعَتِهِم هيَ نَصيحَتُهُم العامَّةُ، وأَمَّا النَّصيحَةُ الخاصَّةُ لِكلِّ واحِدٍ منهُم بِعَينِهِ، فَهذه يُمْكِنُ بعضُها، ويَتَعَذَّرُ اسْتيعابُها على سَبيلِ التَّعْيينِ»[1].

وفي هذا الحديثِ منَ الفَوائِدِ:

* فضلُ طلبِ الحديثِ، وسماعِهِ، وتبليغِهِ.
* الحثُّ على الأمانَةِ، والدقَّةِ في روايتِهِ، ونقلِه.
* الحثُّ على تعلُّمِ الحديثِ، وما يتضمَّنُه من آدابٍ، وأحكامٍ.

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٨).

* قبولُ خبرِ الواحِدِ الثقةِ.

* تفاضُلُ الناسِ بحسَبِ عِلمِهم، وعَملِهم، فمنهُم: مَن يحفَظُ الحديثَ، ويؤدِّيهِ، دونَ أن يفقَهَــه، ومنهم: مَن يحفظُهُ، ويؤدِّيه إلى مَن هو أفقَهُ منه، ومنهم: مَن يحفظُهُ، ويؤدِّيه ويفقَهُهُ فِقهًا، عِلمًا وعَملًا، وهُم أهلُ العلمِ الراسخُونَ.

* حرصُ الشريعَةِ على طهارَةِ القلوبِ، وصفائِها، وحفظِها منَ الآفاتِ، والعِللِ.

* فضلُ إخلاصِ العملِ للهِ، وبيانُ أنَّه طريقُ التخلُّصِ من آفاتِ القلُوبِ كلِّها.

* الإخلاصُ وصفاءُ القلبِ أصلُ سعادَةِ الدارَينِ.

* فضلُ النَّصيحةِ لعمومِ المسلمينَ، ووُلاةِ أمورِهم.

* وجوبُ لُزومِ جماعَةِ المسلمينَ، وعَدم الخرُوجِ علَيها.





الحديث العشرون:

عن عبدِ اللّهِ بن عَمْرٍو، قال: كان رسولُ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقولُ: **«اللهُمَّ إنِّي أَعوذُ بِكَ من قلبٍ لا يَخْشَعُ، ومن دُعاءٍ لا يُسْمَعُ، ومن نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، ومن عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، أَعوذُ بِكَ من هَؤُلاءِ الأَرْبَعِ»**[١].

بَدَأ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقَلبِ؛ لأنّه مَتَى صَلَحَ القلبُ؛ صَلَحَت سائِرُ الجَوارِحِ؛ ولِهذا اسْتَعاذَ من داءٍ يُصيبُه، فَيَضيعُ صَلاحُ العبدِ مَعَهُ، وهُو: تَرْكُ الخُشُوعِ للهِ تعالى.

فقولُهُ: «اللهُمَّ إنِّي أَعوذُ بِكَ من قلبٍ لا يَخْشَعُ»:

وهوَ القلبُ القاسي المَريضُ، الذي لا يَخشَعُ عندَ ذِكْرِ اللهِ، وسماعِ كلامِهِ، ولا يتخلَّلُه الوَعظُ، وهوَ بخلافِ القلبِ المطمئِنِّ بِذِكْرِ اللهِ.

قال الشَّوكانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «استعاذَ منَ القلبِ الذي لا يَخشَعُ؛ لأَنَّهُ يكونُ حينَئِذٍ قاسيًا، لا تُؤثرُ فيه موعظةٌ، ولا نصيحةٌ، ولا يَرغَبُ في ترغيبٍ، ولا يَرهبُ من ترهيبٍ»[٢].

وعن أَبي الدَّرْداءِ أَنَّهُ قال: «تَعَوَّذُوا باللهِ من خُشُوعِ النِّفاقِ» قيلَ: يا أَبا الدَّرْداءِ وما خُشُوعُ النِّفاقِ؟ قال: «أَن تَرَى الجَسَدَ خاشِعًا، والقلب ليس بِخاشِعٍ»[٣].

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٨٢) وصححه، وصححه الألباني، وعند مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيدِ بنِ أَرقمٍ نحوه، أطول منه.

(٢) تحفة الذاكرين (ص٤٢٠).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٢٤٣).

وقال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما ضُربَ عبدٌ بعقوبةٍ أعظَمَ من قسوَةِ القلبِ، والبُعدِ عنِ اللهِ، وأبعدُ القلوبِ منَ اللهِ القلبُ القاسي، وكما أَن البدنَ إذا مَرِضَ لم ينفَع فيه الطَّعامُ، والشرابُ، فَكذلك القلبُ إذا مرضَ بالشهواتِ، لم تنجَع فيه المواعظُ، ومَن أَرادَ صفاءَ قلبِه، فليؤْثِرِ اللهَ على شَهْوَتِه، فالقلوبُ المُتَعَلِّقَةُ بالشهواتِ محجوبَةٌ عنِ اللهِ بِقدرِ تعلُّقِها بها، والقلوبُ آنيةُ اللهِ في أرضِه، فأحبُّها إليهِ أرقُّها، وأصلَبُها.

وإذا غُذِّيَ القلبُ بالتذكُّرِ، وسُقيَ بالتفكُّرِ، ونُقِّيَ منَ الدَّغلِ، أُلِهم الحِكْمَةَ، وخرابُ القلبِ منَ الأَمْنِ، والغفلةِ، وعمارتُهُ منَ الخشيَةِ، والذكْرِ.

والقلبُ يمرَضُ كما يمرَضُ البدنُ، وشفاؤُهُ في التَّوبَةِ، والحميَّةِ، ويصدَأُ كما تصدَأُ المِرْآةُ، وجلاؤُهُ بالذكرِ، ويُعرَّى كما يُعرَّى الجِسْمُ، وزينتُهُ التَّقْوَى، ويجوعُ، ويظمأُ، كما يجوعُ البدنُ، وطَعامُه، وشَرابُه، المعرفَةُ، والمحبَّةُ، والتوكُّلُ، والإنابَةُ»[(١)].

«والخُشُوعُ: قيامُ القلبِ بينَ يَدَيِ الرَّبِّ بالخُضُوعِ، والذُّلِّ، والجَمْعيَّة عليهِ»[(٢)].

فإذا خشَعَ القلبُ، خشعَتِ الجوارحُ، واستكانَت لطاعَةِ اللهِ؛ فإنَّ صلاحَها مرتهَنٌ بصلاحِه كما تقدَّم.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَجْمَعوا على أنَّ الخُشُوعَ محَلُّهُ القلبُ، وثَمَرَتُهُ على الجَوارِحِ، وهيَ تُظْهِرُهُ، ورَأَى بعضُهُم رَجُلًا خاشِعَ المَنْكِبينِ، والبَدَنِ، فقال: «يا فُلانُ، الخُشُوعُ هاهُنا»، وأَشارَ إلى صَدْرِه، «لا هاهُنا»، وأَشارَ إلى مَنْكِبَيهِ.

وقال الفُضَيلُ بنُ عياضٍ: «كان يُكْرَهُ أَن يُريَ الرَّجُلُ منَ الخُشُوعِ أَكْثَرَ مِمَّا في قلبِهِ».

---

(١) الفوائد (ص٩٧)، باختصار.

(٢) مدارج السالكين (١/ ٥١٦).

وقال حُذَيفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَوَّلُ ما تَفْقِدُونَ من دينِكُمُ الخُشُوعُ، وآخِرُ ما تَفْقِدُونَ من دينِكُمُ الصَّلاةُ، ورُبَّ مُصَلٍّ لا خَيرَ فيهِ، ويُوشِكُ أَن تَدْخُلَ مَسْجِدَ الجَماعَةِ، فلا تَرَى فيهِم خاشِعًا».

وقال سَهْلٌ: «مَن خَشَعَ قلبُهُ، لم يَقْرَب منهُ الشَّيطانُ»[١].

وقولهُ: «وَمِن دُعاءٍ لا يُسْمَعُ»:

«أَي: لا يُسْتَجابُ»[٢].

وعندَ مسلمٍ، من حديثِ زَيدِ بنِ أَرْقَمَ، قال: كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «... **اللهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ من عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، ومن قلبٍ لا يَخْشَعُ، ومن نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، ومن دَعْوَةٍ لا يُسْتَجابُ لَهَا**»[٣].

فاستعاذَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بربِّه من دعاءٍ لا يُجابُ، ولا يُقبَلُ.

وهذا يتضمَّنُ الاستعاذةَ باللهِ من أسبابِ عدَمِ استجابَةِ الدُّعاءِ، كأكلِ الحرامِ، والإثمِ، والبَغْيِ، وغفلةِ القلبِ، ولهوِهِ عنِ الذِّكرِ، والطاعةِ، وغيرِ ذلك منَ الأسبابِ.

واللهُ تعالى يحبُّ دُعاءَهُ، ويحبُّ الإلحاحَ فيهِ، ويستجيبُ لِمَن دعاهُ، إذا أخذَ بأسبابِ الإجابَةِ، فإن لم يستَجِب لَه، أعرَضَ عنهُ، ولا يُعرِضُ اللهُ تعالى عمَّن يُقبِلُ عليهِ، كما قال تعالى في الحديثِ القدسيِّ: «**وَإن تَقَرَّبَ منِّي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إليهِ ذِراعًا، وإن تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِراعًا، تَقَرَّبْتُ منهُ باعًا، وإن أَتاني يَمْشي أَتيتُهُ هَرْوَلَةً**»[٤].

---

(١) المصدر السابق (١/ ٥١٧)، باختصار.

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٢٠٨).

(٣) رواه مسلم (٢٧٢٢).

(٤) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

فتضمَّنت هذِه الاستعاذةُ أيضًا: الاستعاذةَ من إعراضِ اللهِ عن عبدِهِ.

فتعسًا لعبدٍ يُقبِلُ على ربِّه بالدُّعاءِ في ظاهرِ الحالِ، وهوَ مُعرضٌ عنهُ في جُملةِ الأحوالِ.

وقولهُ: **«وَمِن نَفْسٍ لا تَشْبَعُ»:**

«بِما آتاها اللهُ، ولا تَقْنَعُ بِما رَزَقَها اللهُ، ولا تَفْتُرُ عن جَمْعِ المالِ؛ لِما فيها من شِدَّةِ الحِرْصِ»[١].

وقال السيوطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هُوَ استعاذةٌ منَ الحِرْصِ، والطمعِ، والشرَهِ، وتعلُّقِ النَّفسِ بالآمالِ البَعيدَةِ»[٢].

وقال السنديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: حَريصَةٌ على الدنيا لا تَشْبَعُ منها، وأَمَّا الحِرْصُ على العَمَلِ، والخَيرِ: فَمَحْمُودٌ مَطْلُوبٌ، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]»[٣].

وعن أنسٍ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْهُومانِ لا يَشْبَعانِ: مَنْهُومٌ في عِلْمٍ لا يَشْبَعُ، ومَنْهُومٌ في دُنْيا لا يَشْبَعُ**»[٤].

فمنهومُ الدُّنيا هو الذي استعاذَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حالِه؛ لأَنَّه حريصٌ علَيها، منشغلٌ في تحصيلِ مالِها، وجاهِها.

قولهُ: **«وَمِن عِلْمٍ لا يَنْفَعُ»:**

قال الطيبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: علمٍ لا يهذِّبُ أخلاقَه الباطنةَ، فيَسري منها إلى الأفعالِ الظاهرَةِ، ويفوزُ بها إلى الثوابِ الآجلِ»[٥].

---

(١) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٧٠٦).

(٢) شرح السيوطي على مسلم (٦/ ٧١).

(٣) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١/ ١١٠).

(٤) رواه الحاكم (٣١٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٢٤).

(٥) شرح المشكاة (٦/ ١٩١٥).

وقال الحافظُ ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا كالسِّحرِ، وغيرِهِ، منَ العلومِ المضرَّةِ في الدِّينِ، أو الدُّنيا»[١].

وقال المناويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هُوَ ما لا يَصْحَبهُ عملٌ، أَو ما لم يُؤذن في تعلُّمِه شرعًا، أَو ما لا يُهذِّبُ الأَخْلاقَ»[٢].

وقال الشوكانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «استعاذَ من علمٍ لا ينفعُ؛ لأَنَّهُ يكونُ وبالًا على صاحبِهِ، وحجَّةً عليهِ»[٣].

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الكلامُ بلا علمٍ ذمَّهُ اللهُ في كتابِه، وما لا فائدةَ فيه هو من بابِ ما لا يعني الإنسانَ، ولا يفيدُه، ومن بابِ العلمِ الذي لا ينفَعُ، وقدِ استعاذَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من علمٍ لا ينفعُ.

ولهذا يقالُ: العلمُ ما قامَ عليهِ الدليلُ، والنافعُ منه ما جاءَ بِهِ الرَّسولُ»[٤].

والحاصِلُ: أنَّ العلمَ الذي لا ينفَعُ قسمانِ:

الأولُ: علمٌ لا ينفعُ في ذاتِه، وقد يضرُّ أعظمَ الضررِ، كعلمِ الكلامِ، والسِّحرِ، والتنجيمِ.

الثاني: علمٌ ينفعُ في ذاتِه، ولكِن لا ينتفعُ بِهِ صاحبُه؛ إمَّا لتركِه العملَ بهِ، أو العملِ بخلافِه، أو لابتغائِه بِهِ غيرَ وجهِ اللهِ، إذا كان منَ العلومِ الشرعيَّةِ.

---

(١) فيض القدير (٤/ ١٠٨).

(٢) التيسير (١/ ٢٠٧).

(٣) تحفة الذاكرين (ص٤٢٠).

(٤) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٣٢٩).

قولهُ: «أَعُوذُ بِكَ من هَؤُلاءِ الأَرْبَعِ»:

قال الطيبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أنَّ في كلٍّ منَ القرائنِ ما يُشعِرُ بأنَّ وجودَه مبنيٌّ على غايتِهِ، وأنَّ الغرضَ منه تلكَ الغايةُ، وذلك أنَّ تحصيلَ العلمِ إنَّما هو للانتفاعِ بِه، فإذا لم ينتفِع بهِ، لا يخلصُ منه كفافًا، بل يكونُ وبالًا؛ ولذلك استعاذَ منهُ، وأنَّ القلبَ إنَّما خُلِقَ؛ لأن يتخشَّعَ لبارئِه، وينشرِحَ لذلك الصَّدرُ، ويُقذفَ النورُ فيهِ، فإذا لم يكُن كذلك كان قاسيًا، فيجبُ أن يُستعاذَ منه، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وأنَّ النفسَ إنَّما يُعتدُّ بها إذا تجافَت عن دارِ الغُرورِ، وأنابَت إلى دارِ الخُلودِ، والنفسُ إذا كانت منهومةً لا تشبَعُ، حريصةً على الدنيا، كانَت أعدَى عدوٍّ المَرءِ، فأولُ شيءٍ يُستعاذُ منه هيَ، وعدمُ استجابَةِ الدعاءِ دليلٌ على أنَّ الداعيَ لم ينتفِع بعلمِهِ، ولم يخشَع قلبُهُ، ولم تشبَع نفسُهُ»(١).

وقال السنديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي استعاذتِه صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّم من هَذِه الأُمُور إظْهارٌ للعبوديةِ، وإعظامٌ للربِّ تباركَ وتعالى، وأَن العبدَ يَنْبَغي له مُلازمَةُ الخَوفِ، ودوامُ الافتقارِ إلى جنابِه تعالى، وفيهِ حثٌّ للْأمَّةِ على ذلك، وتَعْليمٌ لهم»(٢).

وقال المناويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قلتَ: قد عُلِمَ من صدرِ الكلامِ الاستعاذَةُ ممَّا ذُكِرَ، فما فائدةُ قولِه: «**أعوذُ بِكَ من هؤُلاءِ الأَرْبَعِ**»؟

قلتُ: أفادَ بِهِ التنبيهَ على توكيدِ هذا الحُكمِ، وتقويَتَه»(٣).



(١) شرح المشكاة (٦/ ١٩١٥).
(٢) حاشية السندي على سنن النسائي (٨/ ٢٥٥).
(٣) فيض القدير (٢/ ١٠٨).

الحديثُ الحادي والعشرونَ:

عن أبي بَرْزَةَ الأسْلَميِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يا مَعْشَرَ مَن آمَنَ بِلِسانِه، ولم يَدْخُلِ الإيمانُ قلبَهُ، لا تَغْتابُوا المسلمينَ، ولا تَتَّبِعُوا عَوراتِهِمْ؛ فإنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوراتِهِم، يَتَّبِعِ اللّهُ عَورَتَهُ، ومَن يَتَّبِعِ اللّهُ عَورَتَهُ، يَفْضَحْهُ في بَيتِهِ»**[١].

هذا زجرٌ وترهيبٌ لِمَن يغتابُ المسلمينَ، ويتتبَّعُ عوراتِهِم، وتهديدٌ ووعيدٌ لهم بالفَضْحِ، وهتكِ السّترِ، ولو كانُوا في أسترِ مكانٍ لهم.

فقولُهُ: «يا مَعْشَرَ مَن آمَنَ بِلِسانِه، ولم يَدْخُلِ الإيمانُ قلبَهُ»:

هذا يدلُّ على أنَّ مَن يفعلُ مثلَ هذِه الأفعالِ عندَهُ نقصٌ في الإيمانِ، أو نفاقٌ؛ لأنَّ قولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٤] فُسِّرَ بتفسيرَين: فمنهُم مَن قال: إنَّ المقصودَ بهِم أناسٌ منافقونَ، وهذا هو الذي مشَى عليهِ البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، ومنهُم مَن قال: إنَّ المقصودَ بِهِم ليسُوا منافقينَ، وإنَّما هُم مؤمنونَ ناقِصُو الإيمانِ، فعندَهُم ضعفٌ في الإيمانِ، وليسُوا منَ المنافقينَ، أي: إنَّهُم لم يتمكَّنِ الإيمانُ في قلوبِهِم[٢].

قال المباركفوريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيهِ: تَنْبيهٌ على أنَّ غيبَةَ المسلمِ من شِعارِ المُنافِقِ، لا المؤمنِ»[٣].

---

(١) رواه أبوداود (٤٨٨٠)، وأحمد (١٩٧٧٦)، وصححه محققو المُسنَد.

(٢) شرح سنن أبي داود للشيخ عبد المحسن العباد (١٥ /٥٥٥) بترقيم الشاملة.

(٣) عون المعبود (١٣ /١٥٣).



وقال بعضُ السلفِ: «أَدْرَكْتُ قَومًا لم يَكُن لهم عُيُوبٌ، فَذَكَرُوا عُيُوبَ الناسِ، فَذَكَرَ الناسُ لهم عُيُوبًا، وأَدْرَكْتُ أَقْوامًا كانَت لهم عُيُوبٌ، فَكَفُّوا عن عُيُوبِ الناسِ، فَنُسيَت عُيُوبُهُمْ»[١].

قولهُ: «لا تَغْتابُوا المسلمينَ»:

بعدما ناداهُم بوصفِهِم القاصِرِ، المتخلِّفِ عن وصفِ أهلِ الإيمانِ، الذينَ أسلمُوا للهِ ظاهرًا، وباطنًا، ونحَّاهُم عنهُم، نهاهُم عن غيبةِ المسلمينَ، وهو ذِكرُهُم بما يكرَهُونَ ممَّا يُعابونَ بِه، على وجهِ المذمَّةِ، لا بطريقِ النُّصحِ، والإرشادِ.

وفي الحديثِ: عن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَتَدْرُونَ ما الغيبَةُ؟**»، قالُوا: اللهُ ورسولُهُ أَعْلَمُ، قال: «**ذِكْرُكَ أَخاكَ بِما يَكْرَهُ**»، قيلَ: أَفرَأَيتَ إن كان في أَخي ما أَقُولُ؟ قال: «**إن كان فيه ما تَقُولُ فَقَد اغْتَبْتَهُ، وإن لم يَكُن فيه فَقَد بَهَتَّهُ**»[٢].

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الغِيبَةُ -بِكَسْرِ الغَينِ-: أَن تَذْكُرَ أَخاكَ بِما يَكْرَهُ في الغَيبَةِ -بالفَتْحِ-، بِشَرْطِ أَن يكونَ مَوجُودًا فيهِ، وإلَّا فهُو بُهْتانٌ»[٣].

والغيبةُ محرَّمةٌ بإجماعِ المسلمينَ، وذهبَ غيرُ واحدٍ من أهلِ العلمِ إلى أنَّها من كبائِرِ الذُّنوبِ، **قال ابنُ حجرٍ الهيتميُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذي دَلَّت عليهِ الدَّلائِلُ الكثيرَةُ الصَّحيحَةُ الظاهِرَةُ: أنَّها كَبيرَةٌ، لَكِنَّها تَختَلِفُ عِظَمًا، وضِدَّهُ، بِحَسَبِ اخْتِلافِ مَفْسَدَتِها، وظَهَرَ أَيضًا: أنَّها الداءُ العُضالُ، والسُّمُّ الذي في الأَلْسُنِ أَحْلى من الزُّلالِ، وقد جَعَلَها مَن أُوتيَ جَوامِعَ الكَلِمِ عَديلَةَ غَصْبِ المالِ، وقَتْلِ النَّفْسِ بِقولِهِ: «**كلُّ المسلمِ على المسلمِ حَرامٌ: دَمُهُ، ومالُهُ، وعِرْضُهُ**»[٤].

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٩١).

(٢) رواه مسلم (٤٦٩٠).

(٣) مرقاة المفاتيح (٧/ ٣٠٢٥).

(٤) رواه مسلم (٢٥٦٤).

والغَضْبُ والقَتْلُ كَبيرَتانِ إجْماعًا، فَكَذا ثَلْمُ العِرْضِ»[١].

والغيبةُ من أعظمِ الآفاتِ التي تُفسِدُ المُجتمعاتِ، وتَدلُّ على العَوراتِ، وتجرُّ الكثيرَ منَ الوَيلاتِ؛ ولذا فهيَ منَ المَساوئِ العظيمَةِ، والخِصالِ الذميمَةِ، التي يجبُ على المسلِمِ أن يتطهَّرَ منها، ويبتعِدَ عنها، وعن أهلِها.

فالمسلمُ أخُو المسلمِ، لا يظلِمُه، ولا يُسلِمُه، وإنَّ من أعظَمِ الظُّلمِ: أن يعيبَه، ويتنقَّصَه، ويتعرَّضَ لعرضِهِ، ويُشينَه بينَ الناسِ، بدلًا من أن يَسترَهُ، وينصَحَه، ويدعُوَ لَه.

ثُمَّ قال: «وَلا تَتَّبِعُوا عَوراتِهِمْ»:

أَي: لا تَجَسَّسُوا عَوراتِهم فيما تَجْهَلُونَها، ولا تَكْشِفُوها فَيما تَعْرِفُونَها[٢].

وأصلُ العَورَةِ: النَّقْصُ، والعَيبُ، والقُبحُ[٣].

وقال الجوهريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العَورَةُ: سوءةُ الإنسانِ، وكلُّ ما يُسْتحيا منه»[٤].

فيأتي هؤلاءِ ويتتبَّعونَ عوراتِ المسلمينَ، ابتغاءَ كشفِها من بعدِ سترِها، لِفضحِهم، من بعدِ أن ستَرَهُم ربُّهم، ولم يُظْهِر للناسِ عُوارَهُم؛ عسَى أن يتوبُوا، ويُحسِنُوا.

قال الغزاليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التَّجَسُّسُ، والتَّتَبُّعُ: ثَمَرَةُ سُوءِ الظَّنِّ بالمسلمِ، والقلبُ لا يَقْنَعُ بالظَّنِّ، ويَطْلُبُ التَّحْقيقَ، فَيُؤَدِّي إلى هَتْكِ السِّتْرِ»[٥].

---

(١) الزواجر (٢/ ٢٢).

(٢) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣١٥٧).

(٣) تحرير ألفاظ التنبيه (ص٥٥).

(٤) الصحاح (٢/ ٧٥٩).

(٥) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣١٥٧).

فينشرونَ الفسادَ في الأمَّةِ، ويُشيعونَ الفاحشةَ في الناسِ، ويسعَونَ في قطيعةِ الرحِمِ، والهَجْرِ، وسُوءِ الظنِّ، ويلتمِسُونَ المعايِبَ لذلك، فما أشدَّ خطَرَهم على المجتمعِ المسلمِ.

والواجبُ: حفظُ حرمةِ المسلمِ، فدَمُه، ومالُه، وعرضُه حرامٌ، ويُسلكُ إليهِ سبُلُ النُّصحِ، والدعوةِ، وحبِّ الخيرِ لَه، وبُغضِ الشرِّ له، ثمَّ ينشغلُ المسلمُ بحالِه، وينظرُ في عيوبِ نفسِه، فإنَّ في هذا كفايةً، ومشغلةً عنِ النظرِ في عيوبِ الآخرينَ، وتتبُّعِ عوراتِهم، وزلَّاتِهم.

وعن نافعٍ، قال: نَظَرَ ابنُ عُمَرَ يومًا إلى البيتِ، أو إلى الكَعْبَةِ، فقال: «ما أَعْظَمَكِ، وأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، والمؤمنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عندَ اللهِ منْكِ»[١].

وقال ابنُ عَونٍ: «أُحِبُّ لَكُم يا مَعْشَرَ إِخْواني ثَلاثًا: هذا القرآنَ تَتْلُونَهُ آناءَ اللَّيلِ، والنَّهارِ، ولُزُومَ الجَماعَةِ، والكَفَّ عن أَعْراضِ المسلمينَ»[٢].

وأَنْشَدَ بعضُهُمْ:

لا تَلْتَمِس من مَساوي الناسِ ما سَتَرُوا
فَيَكْشِفَ اللهُ سِتْرًا من مَساويكا

واذْكُر مَحاسِنَ ما فيهِم إذا ذُكِرُوا
وَلا تَعِب أَحَدًا منهُم بِما فيكا

واسْتَغْنِ بِاللهِ عن كلٍّ فإنَّ به
غِنًى لِكلٍّ وثِق بِاللهِ يَكْفيكا[٣]

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٣٢)، وحسَّنه، وصححه الألباني.

(٢) حلية الأولياء (٣/ ٤١).

(٣) غذاء الألباب (١/ ٢٦٥).

وقولهُ: «فإنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوراتِهِم، يَتَّبِع اللّهُ عَورَتَهُ، ومَن يَتَّبِعِ اللّهُ عَورَتَهُ، يَفْضَحْهُ في بَيتِهِ»:

في هذا وعيدٌ شديدٌ لهذِهِ الفئةِ منَ الناسِ، الذينَ يتتبعونَ عوراتِ المُسلِمينَ، ويغتابُونَهُم، ويبغُونَ لهم العنتَ، والحَرَجَ: أنَّه مَن يفعل ذلك منهُم، فإنَّ اللهَ تعالى يعاملُهُ بما هو أهلُهُ، فيكشِفُ عورَتَه، ويُظهر زلَّتَه، ويُبرزُ معايبَه، ويفضَحُه في الناسِ، ولو كان في قَعرِ بيتِهِ.

وهذا أصلٌ محفوظٌ: أنَّ الجزاءَ من جنسِ العملِ.

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولذلك كان الجَزاءُ مُماثِلًا لِلْعَمَلِ من جِنْسِهِ في الخَيرِ، والشَّرِّ:

فَمَن سَتَرَ مسلمًا، سَتَرَهُ اللهُ، ومَن يَسَّرَ على مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عليهِ في الدنيا، والآخرةِ، ومَن نَفَّسَ عن مُؤْمِنٍ كُرْبَةً من كُرَبِ الدنيا، نَفَّسَ اللهُ عنهُ كُرْبَةً من كُرَبِ يومِ القيامَةِ، ومَن أَقال نادِمًا، أَقالهُ اللهُ عَثْرَتَهُ يومَ القيامَةِ، ومَن تَتَبَّعَ عَورَةَ أَخيهِ، تَتَبَّعَ اللهُ عَورَتَهُ، ومَن ضارَّ مسلمًا، ضارَّ اللهُ به، ومَن شاقَّ، شاقَّ اللهُ عليهِ، ومَن خَذَلَ مسلمًا في مَوضِعٍ يُحِبُّ نُصْرَتُهُ فيهِ؛ خَذَلَهُ اللهُ في مَوضِعٍ يُحِبُّ نُصْرَتُهُ فيهِ، ومَن سَمَحَ، سَمَحَ اللهُ له، والراحِمُونَ يَرْحَمُهُم الرحمنُ، وإنَّما يَرْحَمُ اللهُ من عِبادِهِ الرُّحَماءَ، ومَن أَنْفَقَ، أَنْفَقَ عليهِ، ومَن أَوعَى، أَوعَى عليهِ، ومَن عَفا عن حَقِّهِ، عَفا اللهُ له عن حَقِّهِ، ومَن تَجاوَزَ، تَجاوَزَ اللهُ عنهُ، ومَن اسْتَقْصَى، اسْتَقْصَى اللهُ عليهِ.

فهذا شَرْعُ اللهِ، وقدَرُهُ، ووَحْيُهُ، وثَوابُهُ، وعقابُهُ، كلُّهُ قائِمٌ بِهذا الأَصْلِ، وهو إلْحاقُ النَّظيرِ بالنَّظيرِ، واعْتِبارُ المِثْلِ بالمِثْلِ»[1].

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٥٠).

وفي هذا الحديثِ منَ الفوائِدِ:

* مخاطبَةُ أهلِ النفاقِ، والرَّيبِ، والمفسدينَ من ضعفةِ الإيمانِ، بما يكشِفُ حالَهُم، ويُظهرُهُم للناسِ.

* أنَّ ضعفَ الإيمانِ في القلبِ قد يفرِّقُ بينَ صاحبِهِ وبينَ المسلمينَ، ويُنحِّيهِ عن جماعَتِهم.

* أنَّ ضعفَ الإيمانِ في القلبِ يؤدِّي إلى فسادِ الخُلُقِ، وسوءِ العِشرَةِ، وإذاعةِ الشرِّ.

* أنَّ ضعفَ الإيمانِ يُعرِّضُ صاحبَه للمذمَّةِ بينَ الناسِ.

* في الحديثِ شاهدٌ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

* أنَّ الجزاءَ من جنسِ العمَلِ.

* أنَّ مَن يبغي الشرَّ بالناسِ، والفسادَ في الأرضِ، مذمومٌ ظاهرًا، وباطنًا.

* أنَّ صاحبَ القلبِ السليمِ النقيِّ العامرِ بالإيمانِ، يسلَمُ الناسُ من شرِّه.

* أنَّ أهلَ الإيمانِ يسترونَ المعايبَ، ولا يكشفونَ القبائِحَ، ويسعَونَ في الناسِ بالنصيحَةِ، والموعظةِ الحسنَةِ.

* أنَّ المؤمنَ كامِلَ الإيمانِ يحبُّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسِه، ويكرَه لَه ما يكرَهُ لنفسِه.



الحديثُ الثاني والعشرونَ:

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: كانَت يَمينُ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«لا، ومُقلِّبِ القلوبِ»**[١].

وفي لفظٍ: أكثرُ ما كان النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَحْلِفُ: **«لاَ، ومُقَلِّبِ القلوبِ»**[٢].

وفي لفظٍ آخرَ: كانَت يَمينُ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ التي يَحْلِفُ عليها: **«لا، ومُقَلِّبِ القلوبِ»**[٣].

وفي لفظٍ آخرَ: كانَت أكثرُ أَيمانِ رسولِ اللّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«لا، ومُصَرِّفِ القلوبِ»**[٤].

في هذا الحديثِ: جوازُ الحَلِفِ بصفاتِ اللهِ؛ وذلك لأنَّ الصفةَ تابعَةٌ للموصُوفِ، فليسَ هو منَ الحَلِفِ بغيرِ اللهِ.

قال ابنُ عبدِ البَرِّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «الحَلِفُ بِصِفاتِ اللهِ تعالى جائِزٌ، تَجِبُ فيها الكَفَّارَةُ؛ لأنَّها منهُ، تعالى ذِكْرُهُ»[٥].

ثمَّ ذكَرَ هذا الحديثَ.

(١) رواه البخاري (٦٦٢٨).

(٢) رواه البخاري (٧٣٩١).

(٣) رواه الإمام أحمد (٤٧٨٨)، وصححه محققو المسند على شرط الشيخين.

(٤) رواه ابنُ ماجه (٢٠٩٢)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه.

(٥) الاستذكارُ (٥/ ٢٠٦).



وقال البيهقيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بابُ ما جاءَ في الحَلِفِ بِصِفاتِ اللهِ تعالى، كالعِزَّةِ، والقُدْرَةِ، والجَلالِ، والكِبْرياءِ، والعَظَمَةِ، والكَلامِ، والسَّمْعِ، ونَحْوِ ذلك»(١).

ثمَّ روى عن أَبي عياضٍ، قال: سَأَلْتُ ابنَ عُمَرَ، أَو سُئِلَ ابنُ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وأَنا أَسْمَعُ، عنِ الخَمْرِ؟ فقال: «لا، وسَمْعِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لا يَحِلُّ بيعُها، ولا ابْتياعُها».

وقال أبو العبَّاسِ القُرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقولُهُ: **«مَن كان حالِفًا فليَحْلِف باللهِ»**، لا يُفهَمُ منه قَصْرُ اليَمينِ الجائِزَةِ على الحَلِفِ بهذا الاسمِ فقَط، بَل حُكْمُ جميعِ أسماءِ اللهِ تعالى حُكْمُ هذا الاسمِ.

فلو قال: والعزيزِ، والعليمِ، والقادِرِ، والسَّميعِ، والبصيرِ، لكانَت يمينًا جائزةً، وهذا متَّفقٌ عليهِ.

وكذلك الحُكمُ في الحَلِفِ بصفاتِ اللهِ تعالى، كقولِهِ: وعزَّةِ اللهِ، وعلمِهِ، وقدرَتِه، وما أشبَهَ ذلك، ممَّا يَتَمَحَّضُ فيه الصفةُ للهِ، ولا ينبَغي أن يُختَلَفَ في هذا النَّوعِ، أنَّها أيمانٌ، كالقِسْمِ الأوَّلِ»(٢).

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَمَعْلُومٌ أنَّ مَن حَلَفَ بِصِفاتِهِ كالحَلِفِ به، كما لَو قال: وعِزَّةِ اللهِ تعالى، أَو: لَعَمْرُ اللهِ، أَو: والقرآنِ العَظيمِ، فإِنَّهُ قَد ثَبَتَ جَوازُ الحَلِفِ بالصِّفاتِ ونَحْوِها، عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والصَّحابَةِ»(٣).

وقولُهُ: **«لا، ومُقلِّبِ القلوبِ»:**

قال الحافِظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولهُ: «لا»: نَفيٌ لِلْكَلامِ السابِقِ، و«مُقَلِّبِ القلوبِ»: هو

---

(١) السنن الكبرى (١٠/ ٧٢).

(٢) المفهِمُ (١٥/ ٦٩).

(٣) الفتاوى الكُبْرى (٤/ ١٣٠).

المُقْسَمُ به، والمُرادُ بِتَقْليبِ القلوبِ: تَقْليبُ أَعْراضِها، وأَحْوالِها، لا تَقْليبَ ذاتِ القلبِ.

وفي الحديثِ دَلالَةٌ على أنَّ أَعْمالَ القلبِ منَ الإراداتِ، والدَّواعي، وسائِرِ الأَعْراضِ، بِخَلْقِ اللهِ تعالى.

وفيهِ حُجَّةٌ لِمَن أَوجَبَ الكَفَّارَةَ على مَن حَلَفَ بصفةٍ من صِفاتِ اللهِ فَحَنِثَ، ولا نِزاعَ في أَصْلِ ذلك.

قال الراغِبُ: «تَقْليبُ اللهِ القلوبَ، والأَبْصارَ: صَرْفُها عن رَأْيٍ إلى رَأْيٍ، والتَّقَلُّبُ: التَّصَرُّفُ، قال تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ [النحل: ٤٦]»، قال: «وسُمِّيَ قلبُ الإنْسانِ؛ لِكثرةِ تَقَلُّبِهِ».

وقال القاضي أَبو بَكْرِ بنُ العربيِّ: «القلبُ جُزْءٌ منَ البَدَنِ، خَلَقَهُ اللهُ، وجَعَلَهُ لِلإنْسانِ مَحَلَّ العِلْمِ، والكَلامِ، وغير ذلك منَ الصِّفاتِ الباطِنَةِ، وجَعَلَ ظاهِرَ البَدَنِ مَحَلَّ التَّصَرُّفاتِ الفِعْليَّةِ، والقَوليَّةِ، ووَكَّلَ به مَلَكًا يَأْمُرُ بالخَيرِ، وشَيطانًا يَأْمُرُ بالشَّرِّ، فالعَقْلُ بِنُورِهِ يهديهِ، والهَوَى بِظُلْمَتِهِ يُغْويهِ، والقَضاءُ والقَدَرُ مُسَيطِرٌ على الكلِّ، والقلبُ يَتَقَلَّبُ بينَ الخَواطِرِ الحسنَةِ، والسَّيِّئَةِ، واللَّمَّة منَ المَلَكِ تارَةً، ومنَ الشَّيطانِ أُخْرَى، والمَحْفُوظُ مَن حَفِظَهُ اللهُ تَعالى»[1].



(١) فتح الباري (١١/ ٥٢٧).



الحديث الثالث والعشرون:

عن عَمْرِو بنِ تَغْلِبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتيَ بمالٍ -أو سَبْيٍ- فَقَسَمَهُ، فَأَعْطى رجالًا، وتَرَكَ رجالًا، فَبَلَغَهُ أنَّ الذينَ تَرَكَ عَتَبُوا، فَحَمِدَ اللّهَ، ثُمَّ أَثْنَى عليه، ثُمَّ قال: **«أَمَّا بَعْدُ: فَوَ اللّهِ إنِّي لأُعْطي الرَّجُلَ، وأَدَعُ الرَّجُلَ، والذي أَدَعُ أَحَبُّ إليَّ منَ الذي أُعْطي، ولَكِن أُعْطي أَقْوامًا؛ لِما أَرَى في قلوبِهِم منَ الجَزَعِ، والهَلَعِ، وأَكِلُ أَقْوامًا إلى ما جَعَلَ اللّهُ في قلوبِهِم منَ الغِنَى، والخَيرِ، فيهِم عَمْرُو بنُ تَغْلِبَ».**

فقال عَمْرٌو: فَواللهِ ما أُحِبُّ أنَّ لي بكلمةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُمْرَ النَّعَمِ[(١)].

في هذا الحديثِ: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتيَ بمالٍ، أو سَبْيٍ، وفي روايةِ الإسْماعيليِّ: «أُتيَ بمالٍ منَ البَحْرَينِ»[(٢)]، فقَسَمَهُ بيَن الناسِ، فَأَعْطَى أَقْوامًا، ومَنَعَ آخَرينَ، فَوَجَدَ الذينَ مُنِعُوا في أَنْفُسِهِم كَراهيَةً لذلك، فَخَطَبَ فيهِمُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبَيَّنَ -لَهُم، ولِغيرِهِمْ- أنَّ عَطيَّةَ الدنيا لا تَعْني زيادَةَ فَضْلٍ، وأَجْرٍ، وأنَّ مَنْعَها لا يعني نُزُولَ المَكانَةِ، والقَدْرِ، بَل إنَّهُ يُعْطي أَقْوامًا؛ خَشْيَةً عليهِم من أن يَرْتَدُّوا إلى الكفرِ، ويَمْنَعُ آخَرينَ لِما في قلوبِهِم منَ الغِنَى، والخَيرِ.

وقد صَحَّ عنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّهُ قال: «إنَّ اللهَ يُعْطي الدنيا مَن يُحِبُّ، ومَن لا يُحِبُّ، ولا يُعْطي الإيمانَ إلَّا مَن يُحِبُّ، فإذا أَحَبَّ اللهُ عبدًا أَعْطاهُ الإيمانَ»[(٣)].

(١) رواه البخاري (٩٢٣).
(٢) عمدة القاري (٦/ ٢٢٥).
(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١٠٥).



وقولُهُ: «أَمَّا بَعْدُ»:

أَي: أَمَّا بَعْد حَمْدِ الله، والثَّناءِ عليهِ، قال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَمَّا بَعْدُ: كلمةٌ يَسْتَعْمِلُها الخَطيبُ؛ لِلْفَصْلِ بينَ ما كان فيه من حَمْدٍ، وثَناءٍ، والِانْتِقالِ إلى ما يُريدُ التَّكَلُّمَ فيهِ»[١].

وقولُهُ: «فَوَ اللّهِ إنِّي لأُعْطي الرَّجُلَ، وأَدَعُ الرَّجُلَ، والذي أَدَعُ أَحَبُّ إليَّ مِنَ الذي أُعْطي»:

أَقْسَمَ لِلتَّأْكيدِ على كَلامِهِ، وبَيانِ أَنَّهُ قَد يَمْنَعُ الرَّجُلَ منَ العَطاءِ؛ لِمَحَبَّتِهِ له، لا لِنَقْصِ قَدْرِهِ عِنْدَهُ، أَو إرادَةِ حِرْمانِهِ.

وقولُهُ: «وَلَكِن أُعْطي أَقْوامًا لِما أَرَى في قلوبِهِم مِنَ الجَزَعِ، والهَلَعِ»:

بَيَّنَ -أَوَّلًا- أنَّ المَنْعَ كان لِلْمَحَبَّةِ، ثُمَّ بَيَّنَ أنَّ العَطاءَ قَد يكونُ لِمَرَضٍ في القلبِ؛ وذلك لِما اشْتَمَلَت عليهِ قلوبُهُم من حُبِّ الدنيا، والتَّعَلُّقِ بها.

والجَزَعُ ضِدُّ الصَّبْرِ: وهو شِدَّةُ القَلَقِ منَ المُصيبَةِ، والهَلَعُ: شِدَّةُ الجَزَعِ[٢].

وقال العَينيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الجَزَعُ: ضِدُّ الصَّبْرِ، يُقالُ: جَزَعَ جَزَعًا وجزُوعًا، فهُو جَزِعٌ وجازِعٌ، وقال يَعْقُوبُ: الجَزَعُ: الفَزِعُ، والهَلَعُ: هو أَفْحَشُ الفَزَعِ»[٣].

والعربُ تَقُولُ: رَجُلٌ هَلِعٌ، وهالِعٌ، وهَلُوعٌ، وهِلْواعٌ، وهِلْواعةٌ: جَزُوعٌ حَريصٌ.

وقال الفَرّاءُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الهَلُوعُ: الضَّجُورُ، وصِفَتُهُ كما قال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠-٢١]، فَهذه صِفَتُهُ».

وقيلَ: الهَلُوعُ: الذي يَفْزَعُ ويَجْزَعُ منَ الشَّرِّ.

---

(١) فيض القدير (٢/ ١٧٢).

(٢) كشف المشكل (٤/ ١٧٠).

(٣) عمدة القاري (٦/ ٢٢٥).

قال أَبو العَبَّاسِ المُبَرِّدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رجلٌ هَلُوعٌ: إذا كان لا يَصْبِرُ على خيرٍ، ولا شَرٍّ، حَتَّى يَفْعَلَ في كلِّ واحِدٍ منهُما غيرَ الحَقِّ»[١].

وقال ابنُ كَيسانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «خَلَقَ اللهُ الإنْسانَ يُحِبُّ ما يَسُرُّهُ، ويُرْضيهِ، ويَهْرُبُ مِمَّا يَكْرَهُهُ ويسْخطُ، ثُمَّ تَعَبَّدَهُ اللهُ بِإنْفاقِ ما يُحِبُّ، والصَّبْرِ على ما يَكْرَهُ»[٢].

وهذا الحديثُ ذَكَرَهُ البُخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في عِدَّةِ أَبْوابٍ من صَحيحِهِ، منها: «بابُ قَولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ هَلُوعًا: ضَجُورًا»[٣].

قال أَبو الحسنِ بنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال المُهَلَّبُ: معنى هذا البابِ: إثْباتُ خَلْقِ اللهِ لِلْإنْسانِ، بِأَخْلاقِهِ التي خَلَقَهُ عليها منَ الهَلَعِ، والمَنْعِ، والإعْطاءِ، والصَّبْرِ على الشِّدَّةِ، واحْتِسابِهِ ذلك على اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وفَسَّرَ ﴿هَلُوعًا﴾ بِقَولِ مَن قال: ضَجُورًا؛ لأنَّ الإنْسانَ إذا مَسَّهُ الشَّرُّ ضَجِرَ به، ولم يَصْبِرِ مُحْتَسِبًا، ويَلْزَمُ مَن آمَنَ بالقَدَرِ خَيرِهِ، وشَرِّهِ، وعَلِمَ أنَّ الذي أَصابَهُ لم يَكُن ليُخْطِئَهُ، وما أَخْطَأَهُ لم يَكُن ليُصيبَهُ: الصَّبْرُ على كلِّ شِدَّةٍ تَنْزِلُ به، أَلا تَرَى أنَّ اللهَ تعالى قَدِ اسْتَثْنَى المُصَلِّينَ الذينَ هُم على صَلاتِهِم دائِمُونَ، لا يَضْجَرُونَ بِتَكَرُّرِها عليهِم، ولا يَمَلُّونَ؛ لأنَّهُم مُحْتَسِبُونَ لَها، ومُكْتَسِبُونَ بِها التِّجارَةَ الرابِحَةَ في الدنيا، والآخرةِ؟

وكذلك لا يَمْنَعُونَ حُقُوقَ اللهِ في أَمْوالِهِم، فَعَرَّفَكَ بِما خَلَقَ اللهُ عليهِ أهلَ الجَنَّةِ من حُسْنِ الأَخْلاقِ، وما اسْتَثْنَى به العارِفينَ المُحْتَسِبينَ، بالصَّبْرِ على الصَّلاةِ، والصَّدَقَةِ.

---

(١) لسان العرب (٨/ ٣٧٥).

(٢) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٩٠).

(٣) صحيح البخاري (٩/ ١٥٦).

فَقَد أَفْهَمَكَ أنَّ مَنِ ادَّعَى لِنَفْسِهِ قُدْرَةً، وحَولًا، بالإمْساكِ، والشُّحِّ، والضَّجَرِ، منَ الإمْلاقِ، والفَقْرِ، وقِلَّةِ الصَّبْرِ، لِقَدَرِ اللهِ الجاري عليهِ بِما سَبَقَ في عِلمِهِ، ليس بِقادِرٍ، ولا عابِدٍ للهِ، على حَقيقَةِ ما يَلْزَمُهُ، فَمَنِ ادَّعَى أنَّ له قُدْرَةً على نَفْعِ نَفْسِهِ، أَو دَفْعِ الضُّرِّ عنها؛ فَقَدِ ادَّعَى أنَّ فيه صِفَةَ الإلَهيَّةِ منَ القُدْرَةِ»[1].

قال: «وَأَكِلُ أَقْوامًا إلى ما جَعَلَ اللهُ في قلوبِهِم منَ الغِنَى، والخَيرِ»:

أَي: أَتْرُكُهُم مع ما وهَبَ اللهُ لهم من غِنَى النَّفْسِ، فصَبَرُوا، وتَعَفَّفُوا عنِ الطَّمَعِ، والشَّرَهِ[2].

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «العَطاءُ ليس هو على حَسَبِ الفَضائِلِ في الدِّينِ؛ فَقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنِّي لَأُعْطي الرَّجُلَ، وغيرُهُ أَحَبُّ إليَّ منهُ؛ مَخافَةَ أَن يَكُبَّهُ اللهُ في النارِ**»[3].

ومَعْناهُ: إنِّي أُعْطي ناسًا مُؤَلَّفَةً، في إيمانِهِم ضَعْفٌ، لَو لم أُعْطِهِم كَفَرُوا، فَيَكُبَّهُمُ اللهُ في النارِ، وأَتْرُكُ أَقْوامًا هُم أَحَبُّ إليَّ منَ الذينَ أَعْطَيتُهُم، ولا أَتْرُكُهُمُ احْتِقارًا لهم، ولا لِنَقْصِ دينِهِم، ولا إهْمالًا لِجانِبِهِم، بَل أَكِلُهُم إلى ما جَعَلَ اللهُ في قلوبِهِم منَ النُّورِ، والإيمانِ التامِّ، وأَثِقُ بِأَنَّهُم لا يَتَزَلْزَلُ إيمانُهُمْ؛ لِكمالِهِ»[4].

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «أخبرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ العَطاءَ ليس لِمُجَرَّدِ الإيمانِ، وقال: بَل أُعْطي، وأَمْنَعُ، والذي أَتْرُكُ أَحَبُّ إليَّ منَ الذي أُعْطيهِ؛ لأنَّ الذي أُعْطيهِ لَو لم أُعْطِهِ لَكَفَرَ، فَأُعْطيهِ لِأَحْفَظَ عليهِ إيمانَهُ، ولا أُدْخِلهُ في زُمْرَةِ مَن يَعْبُدُ اللهَ على حَرْفٍ، والذي أَمْنَعُهُ مَعَهُ منَ اليَقينِ، والإيمانِ، ما يُغْنيهِ عنِ الدنيا، وهو أَحَبُّ

(١) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٥٣٥).
(٢) كشف المشكل (٤/ ١٧٠).
(٣) رواه البخاري (٢٧)، ومسلم (١٥٠).
(٤) شرح النووي على مسلم (٧/ ١٤٨).

إليَّ، وعِنْدي أَفْضَلُ، وهو يَعْتَصِمُ بِحَبْلِ اللهِ ورسولِهِ، ويَعْتاضُ بِنَصيبِهِ منَ الدِّينِ عن نَصيبِهِ منَ الدنيا، كما اعْتاضَ به أَبو بَكْرٍ وغيرُهُ، وكما اعْتاضَتِ الأَنْصارُ حينَ ذَهَبَ الطُّلَقاءُ وأهلُ نَجْدٍ بالشاةِ، والبَعيرِ، وانْطَلَقُوا هُم بِرسولِ اللهِ ﷺ»[١].

يُشيرُ إلى ما ثَبَتَ عن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ ناسًا منَ الأَنْصارِ قالُوا لِرسولِ اللهِ ﷺ، حينَ أَفاءَ اللهُ على رسولِهِ ﷺ من أَمْوالِ هَوازِنَ ما أَفاءَ، فَطَفِقَ يُعْطي رِجالًا من قُرَيشٍ المِائَةَ منَ الإبِلِ، فقالُوا: يَغْفِرُ اللهُ لِرسولِ اللهِ ﷺ، يُعْطي قُرَيشًا ويَدَعُنا، وسُيُوفُنا تَقْطُرُ من دِمائِهم! قال أنسٌ: فَحُدِّثَ رسولُ اللهِ ﷺ بِمَقالَتِهِم، فَأَرْسَلَ إلى الأَنْصارِ، فَجمعَهُم في قُبَّةٍ من أَدَمٍ، ولم يَدْعُ مَعَهُم أَحَدًا غيرَهُم، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جاءَهُم رسولُ اللهِ ﷺ، فقال: «**ما كان حديثٌ بَلَغَني عَنْكُمْ؟**»، قال له فُقَهاؤُهُمْ: أَمَّا ذَوُو آرائِنا يا رسولَ اللهِ، فَلم يَقُولُوا شَيئًا، وأَمَّا أُناسٌ منَّا حديثَةٌ أَسْنانُهُم، فقالُوا: يَغْفِرُ اللهُ لِرسولِ اللهِ ﷺ، يُعْطي قُرَيشًا، ويَتْرُكُ الأَنْصارَ، وسُيُوفُنا تَقْطُرُ من دِمائِهِم، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنِّي أُعْطي رِجالًا حديثٌ عَهْدُهُم بِكُفْرٍ، أَما تَرْضَونَ أَن يَذْهَبَ الناسُ بالأَمْوالِ، وتَرْجِعُوا إلى رِحالِكُم بِرسولِ اللهِ ﷺ؟! فَواللهِ ما تَنْقَلِبُونَ به خَيرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ به**»، قالُوا: بَلى يا رسولَ اللهِ، قَد رَضينا[٢].

فَكان عَطاءُ المالِ من رسولِ اللهِ ﷺ لِطائِفَةٍ؛ خَشْيَةَ أَن يَكْفُرُوا، وكان المَنْعُ منهُ للأَنْصارِ؛ شَهادةً لهم بالإيمانِ؛ ولِيَرْجِعُوا بِأَعْظَمِ عَطاءٍ وأَكْرَمِهِ يَرْجِعُ به الغانِمُ: بِرسولِ اللهِ ﷺ.

وقال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللهُ **-أَيضًا-**: «لم يَكُنِ النبيُّ ﷺ يُعْطي أَبا بَكْرٍ شَيئًا منَ الدنيا، يَخُصُّهُ به، بَل كان في المَغازي كَواحِدٍ منَ الناسِ، بَل يَأْخُذُ من مالِهِ ما

(١) الصارِمُ المَسْلُولُ (ص١٩٢).

(٢) رواه البخاري (٣١٤٧)، ومسلم (١٠٥٩)

يُنْفِقُهُ على المسلمينَ، وقدِ اسْتَعْمَلَهُ النبيُّ ﷺ، وما عُرِفَ أنَّهُ أَعْطاهُ عِمالَةً، وكان يُعْطي المُؤَلَّفَةَ قلوبُهُم منَ الطُّلَقاءِ، وأهلِ نَجْدٍ، والسابِقُونَ الأَوَّلُونَ منَ المُهاجِرينَ، والأَنْصارِ، لا يُعْطيهِم، كما فَعَلَ في غَنائِمِ حُنَينٍ، وغيرِها»[١].

فقال عَمْرُو بنُ تَغْلِبَ -راوي الحديثِ- بعدما سَمِعَ النبيَّ ﷺ يَقُولُ هذا الكَلامَ، ويَقُولُ في آخِرِهِ: «**فيهِم عَمْرُو بنُ تَغْلِبَ**»، قال عَمْرٌو: «فَواللهِ ما أُحِبُّ أنَّ لي بكلمةِ رسولِ اللهِ ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ».

مَن منَّا يَعْرِفُ عَمْرَو بنَ تَغْلِبَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو صَحابيٌّ كَريمٌ، من صَحْبِ رسولِ اللهِ الكِرامِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُم؟

رُبَّما كان كثيرٌ منَّا لم يَسْمَعْ عنهُ شيئًا، بل لم يطرُق سَمْعَهُ اسْمُهُ من قَبْلُ، مع أنَّهُ بِهذه المَكانَةِ العاليَةِ منَ الإيمانِ، وهذه المَنْزِلَةِ من رسولِ اللهِ ﷺ.

لا بُدَّ أن يكونَ لَدَينا هَمٌّ وإرادَةٌ لِمَعْرِفَةِ أَصْحابِ النبيِّ ﷺ، ومَعْرِفَةِ قَدْرِهِم في الإسلامِ؛ لِنُحِبَّهُم، ونُجِلَّهُم، ونُواليَهم، ونَتَأَسَّى بهم.

قال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللهُ: «هذه المَنْزِلَةُ -التي شَهِدَ لهم بِها النبيُّ ﷺ- أَفْضَلُ منَ العَطاءِ الذي هو عَرَضُ الدنيا، أَلا تَرَى أنَّ عَمْرَو بنَ تَغْلِبَ اغْتَبَطَ بِذلك، وقال: ما أُحِبُّ أنَّ لي بِذلك حُمْرَ النَّعَمِ؟»[٢].

ومِن فَوائِدِ الحديثِ:

* أنَّ أَرْزاقَ العِبادِ لَيسَت منَ اللهِ تعالى على قَدْرِ الِاسْتِحْقاقِ بالدَّرَجَةِ، والرِّفْعَةِ عِنْدَهُ، ولا عندَ السُّلْطانِ في الدنيا، وإنَّما هيَ على وجْهِ المَصْلَحَةِ والسِّياسَةِ لِنُفُوسِ

(١) منهاجُ السُّنةِ النَّبَويةِ (٧/ ٣٨١).

(٢) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٥٣٦).

العِبادِ الأَمَّارَةِ بالسُّوءِ، أَلا تَرى أَنَّهُ ﷺ كان يُعْطي أَقْوامًا؛ ليُداوي ما بِقلوبِهِم من جَزَعٍ؟ وكذلك المَنْعُ، هو على وجْهِ الثِّقَةِ بِتَمَيُّزِهِ بِما قَسَمَ اللهُ له؛ لِمَنْعِهِ ﷺ أهلَ البَصائِرِ، واليَقينِ.

* **وفيهِ منَ الفِقْهِ**: أنَّ البَشَرَ فاضِلَهُم، ومَفْضُولَهُم، قَد جُبِلُوا على حُبِّ العَطاءِ، وبُغْضِ المَنْعِ، والإسْراعِ إلى إنْكارِ ذلك، قبل الفِكْرَةِ في عاقِبَتِهِ، إلَّا مَن شاءَ اللهُ.

* **وفيهِ**: أنَّ المَنْعَ قَد لا يكونُ مَذْمُومًا، ويكونُ أَفْضَلَ لِلْمَمْنُوعِ، كما قال تعالى: ﴿**وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ**﴾ [البقرة: ٢١٦]؛ ولِقولِهِ ﷺ: «**وَأَكِلُ أَقْوامًا إلى ما جَعَلَ اللهُ في قلوبِهِم منَ الغِنَى، والخَيرِ**».

* **وفيهِ**: اسْتِئْلافُ مَن يُخْشَى جَزَعُهُ، أَو يُرْجَى بسببِ إعْطائِهِ طاعَةُ مَن يَتَّبِعُهُ.

* **وفيهِ**: الاِعْتِذارُ إلى مَن ظَنَّ ظَنًّا، والأَمْرُ بخلافِهِ[1].



(١) شرح صحيح البخاري لابن بَطَّالٍ (١٠/ ٥٣٥)، فتح الباري (١٣/ ٥١١).



الحديثُ الرابعُ والعشرون:

عن عبدِ اللّهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّهُ سَمِعَ رسولَ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقولُ: **«إنَّ قلوبَ بَني آدَمَ كلَّها بينَ إصْبَعَينِ من أَصابِعِ الرحمنِ، كَقلبٍ واحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيثُ يَشاءُ».**

ثُمَّ قالَ رسولُ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«اللهُمَّ مُصَرِّفَ القلوبِ: صَرِّفْ قلوبَنا على طاعَتِكَ»**[١].

«فقلوبُ العِبادِ ونَواصيهم بيَدِهِ سبحانَهُ، وما من قلبٍ إلَّا وهو بينَ إصْبَعَينِ من أَصابعِ الرحمنِ، إن شاءَ أَن يُقيمَهُ أَقامَهُ، وإن شاءَ أَن يُزيغَهُ أَزاغَهُ»[٢].

وفي هذا الحديثِ: إثباتُ صفَةِ الأصابعِ للهِ تعالى.

والأَصابعُ: صفةٌ فعليَّةٌ خبريَّةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وَجَلَّ بالسُّنة الصّحيحَةِ.

قال ابنُ خُزيمةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بابُ إثْباتِ الأَصابعِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ»[٣].

وقال الآجريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بابُ الإيمانِ بِأنَّ قلوبَ الخَلائِقِ بينَ إصْبَعَينِ من أَصابعِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ، بِلا كَيفٍ»[٤].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٩٨).

(٣) التوحيد (١/ ١٨٧).

(٤) الشريعةُ (٣/ ١١٥٦).



وقال البغويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والإصْبَعُ المَذْكُورَةُ في الحديثِ صِفَةٌ من صِفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وكذلك كلُّ ما جاءَ به الكِتابُ، أَوِ السُّنةُ، من هذا القَبيلِ في صِفاتِ اللهِ سُبْحانَهُ وتعالى، كالنَّفْسِ، والوَجْهِ، والعَينِ، واليَدِ، والرِّجْلِ، والإتْيانِ، والمَجيءِ، والنُّزُولِ إلى السَّماءِ الدنيا، والاِسْتِواءِ على العَرْشِ، والضَّحِكِ، والفَرَحِ»[1].

وقال ابنُ قُتيبةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ هذا الحديثَ صَحيحٌ، وإنَّ الذي ذَهَبُوا إليهِ في تَأْويلِ الأُصْبعِ بالنِّعمِ لا يُشْبِهُ الحديثَ؛ لأَنَّهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال في دُعائِهِ: «**يا مُقَلِّبَ القلوبِ، ثَبِّت قلبي على دينِكَ**».

فقالت له إحْدَى أَزواجه: «أَو تخاف -يا رسولَ اللهِ- على نَفْسِكَ؟».

فقال: «**إنَّ قلبَ المؤمنِ، بينَ أُصْبُعَينِ من أَصابعِ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ».

فإن كان القلبُ عِنْدَهُم بينَ نِعْمَتَينِ من نِعَمِ اللهِ تعالى، فهُو مَحْفُوظٌ بِتَينكَ النِّعْمَتَينِ، فَلِأَيِّ شَيءٍ دَعا بالتَّثْبيتِ؟ ولِمَ احْتَجَّ على المَرْأَةِ التي قالت له: «أَتَخافُ على نَفْسِكَ؟» بِما يُؤَكِّدُ قَولَها، وكان يَنْبَغي أَن لا يَخافَ، إذا كان القلبُ مَحْرُوسًا بِنِعْمَتَينِ؟

فإن قال لَنا: ما الأصبعُ عنْدك هَهُنا؟

قُلْنا: هو مِثْلُ قولِهِ في الحديثِ الآخَرِ: «يَحْمِلُ الأَرْضَ على أُصْبُعٍ»، وكَذا على أُصْبُعَينِ.

ولا يجوزُ أَن تكونَ الأصبعُ -هَهُنا- نِعْمَةً.

وكَقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

(١) شرح السنة (١/ ١٦٨).

ولا نَقُولُ: أُصْبُعٌ كَأَصابِعِنا، ولا يَدٌ كَأَيدينا، ولا قَبْضَةٌ كَقَبَضاتِنا؛ لأنَّ كلَّ شَيءٍ منهُ -عَزَّوَجَلَّ- لا يُشبهُ شَيئًا منَّا»[١].

وقال ابنُ عثيمينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد أخذَ السَّلفُ أهلُ السُّنةِ بظاهِرِ الحديثِ، وقالُوا: إنَّ للهِ تعالى أصابعَ حقيقةً، نثبتُها له كما أثبَتَها لَه رسولُهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا يلزَمُ من كونِ قلوبِ بَني آدَمَ بينَ إصبعَينِ منها أن تكونَ مماسَّةً لها، حتَّى يقال: إنَّ الحديثَ مُوهِمٌ للحلُولِ، فيجبُ صَرفُهُ عن ظاهِرِهِ، فهذا السَّحابُ مسخَّرٌ بينَ السَّماءِ، والأرضِ، وهوَ لا يمسُّ السَّماءَ، ولا الأرضَ، ويقالُ: بدر بينَ مكَّةَ، والمدينةِ، معَ تباعُدِ ما بينَها وبينَهُما.

فقلوبُ بني آدمَ كلُّها بينَ إصبعَينَ من أصابعِ الرَّحمنِ حقيقةً، ولا يلزَمُ من ذلك مماسَّةٌ، ولا حُلُولٌ»[٢].

وقال أَحْمَدُ بنُ نَصْرٍ: سَأَلْتُ سُفْيانَ بنَ عُيَينَةَ، وأَنا في مَنْزِلِهِ بَعْدَ العَتَمَةِ، فَجَعَلْتُ أَلِحُّ عليهِ في المَسْأَلَةِ، فقال: «دَعْني أَتَنَفَّسُ»، فَقُلْتُ: كَيفَ حديثُ عبدِ اللهِ، عنِ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ يَحْمِلُ السَّمَواتِ على أُصْبُعٍ، والأَرضينَ على أُصْبُعٍ**»، وحديثُ: «**إنَّ قلوبَ العِبادِ بينَ أُصْبُعَينِ من أَصابِعِ الرحمنِ**»، وحديثُ: «**إنَّ اللهَ يَعْجَبُ، أَو يَضْحَكُ، مِمَّن يَذْكُرُهُ في الأَسْواقِ**»؟ فقال سُفْيانُ: «هيَ كما جاءت، نُقِرُّ بِها، ونُحَدِّثُ بِها بِلا كَيفٍ».

وقال أَحْمَدُ الدَّورَقيُّ: سَمِعت وكيعًا يَقُول: «نسلِّمُ هَذِه الأَحاديث كما جاءت، ولا نقُولُ: كَيفَ كَذا؟ ولا: لم كَذا؟ يعني: مثل حديثِ: «**يحملُ السَّمَواتِ على أصْبعٍ**»، و«**قلبُ ابنِ آدمَ بينَ أُصْبُعَينِ من أَصابعِ الرحمنِ**»[٣].

---

(١) تأويل مختلف الحديث (ص٣٠٢-٣٠٣).

(٢) القواعد المُثلى (ص٥١).

(٣) العلو للعلي الغفار (ص١٥٦-١٥٨).

«فسُبحانَ مقلِّبِ القلُوبِ، ومُودِعِها ما يشاءُ من أسرارِ الغُيوبِ، الذي يَحولُ بينَ المَرءِ، وقلبِهِ، ويعلَمُ ما ينطَوي عليهِ من طاعتِهِ، ودينِهِ، مُصرِّفِ القلوبِ كيفَ أرادَ، وحَيثُ أرادَ، أَوحَى إلى قلُوبِ الأولياءِ: أن أقبِلي إليَّ، فبادَرت، وقامَت بينَ يَدَي ربِّ العالَمينَ، وكَرِهَ عَزَّوَجَلَّ انبعاثَ آخرينَ، فثبَّطَهُم، وقيلَ: اقعُدُوا معَ القاعِدينَ»(١).

وقولهُ: «كَقلبٍ واحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيثُ يَشاءُ»:

يعني: أنَّهُ تعالى مُتَصَرِّفٌ في قلوبِ عِبادِهِ، وغيرِها، كَيفَ شاءَ، لا يَمْتَنِعُ منها شَيءٌ، ولا يَفُوتُهُ ما أَرادَهُ، فيُقَلِّبُها تارَةً من فُجُورِها إلى تَقْواها، وتارَةً من تَقْواها إلى فُجُورِها.

وقال القاضي: «نَسَبَ تَقْليبَ القلوبِ إليهِ تَعالى؛ إشْعارًا بِأَنَّهُ تعالى تَوَلَّى بِذاتِهِ أَمْرَ قلوبِهِم، ولم يَكِلْهُ إلى أَحَدٍ من مَلائِكَتِهِ، وخَصَّ الرحمنَ بالذِّكْرِ؛ إيذانًا بِأنَّ ذلك التَّوَلِّيَ مَحْضُ رَحْمَتِهِ؛ كَيلا يَطَّلِعَ أَحَدٌ غيرُهُ على سَرائِرِهِم، ولا يَكْتُبَ عليهِم ما في ضَمائِرِهِمْ»(٢).

وقولهُ: «كَقلبٍ واحِدٍ»:

بالوَصْفِ، يعني: كما أنَّ أَحَدَكُم يَقْدِرُ على شَيءٍ واحِدٍ، فاللهُ تعالى يَقْدِرُ على جَميعِ الأَشْياءِ دفْعَةً واحِدَةً، لا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عن شَأْنٍ، ونَظيرُهُ قولهُ تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

«يُصَرِّفُهُ»:

بالتَّشْديدِ، أَي: يُقَلِّبُ القلبَ الواحِدَ، أَو جِنْسَ القلبِ.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص٤١٣).

(٢) شرح المشكاة للطيبي (٢/ ٥٤٤)، مرقاة المفاتيح (١/ ١٦٢).

«كَيفَ يَشاءُ»:

حالٌ، على تَأْويلِ: هَيِّنًا سَهْلًا، لا يَمْنَعُهُ مانِعٌ.

أَو مَصْدَرٌ، أَي: تَقْليبًا سَريعًا سَهْلًا[١].

ثُمَّ قال رسولُ اللهِ ﷺ: «اللهُمَّ مُصَرِّفَ القلوبِ: صَرِّف قلوبَنا على طاعَتِكَ»:

قال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد يَتبادرُ إلى الذِّهنِ أنّ الأولى أن يُقال: «إلى طاعَتِكَ»، لكنّ قولَه: «**على طاعَتِكَ**» أبلَغُ، يعني: قلب القَلبِ على الطاعةِ، فلا يَتقلَّبُ على مَعصيَةِ اللهِ؛ لأنّ القلبَ إذا تَقلّبَ على الطاعةِ صارَ يَنتَقلُ من طاعَةٍ إلى أخْرَى، من صَلاةٍ إلى ذِكرٍ، إلى صَدقةٍ، إلى صيامٍ، إلى عِلمٍ، إلى غيرِ ذلك من طاعةِ اللهِ»[٢].

وفي الحديثِ: تعليمُ الأمَّةِ الافتقارَ إلى اللهِ، وإلى هدايَتِهِ، وتثبيتِهِ؛ إذ لولا اللهُ ما اهتَدَى مَخلوقٌ، ولَولا اللهُ ما ثبتَ قلبٌ بعدَ هدايتِهِ، فاللهُ يَهدي مَن يشاءُ، ويُضِلُّ مَن يشاءُ، ويثبِّتُ على الهُدَى مَن يشاءُ، ويُزيغُ قلوبَ مَن يشاءُ من عبادِهِ، وهوَ الحكيمُ الخَبيرُ.

فائدةٌ:

في «الإصْبَع» عَشرُ لُغاتٍ.

قال الفَيرُوزآبادي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإصْبَعُ، مُثَلَّثَةَ الهَمْزَةِ، ومع كلِّ حركةٍ تُثَلَّثُ الباءُ، تِسْعُ لُغاتٍ، والعاشرُ: أُصْبوعٌ، بالضم، وقد تُذَكَّرُ، والجمعُ: أَصابِعُ، وأَصابيعُ»[٣].

---

(١) مرقاة المفاتيح (١/ ١٦٢).

(٢) شرح رياض الصالحين (٦/ ٢٢).

(٣) القاموس المحيط (ص٧٣٦).

وقال النّوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في الإصْبَعِ عَشرُ لُغاتٍ: كسرُ الهمزَةِ، وضمُّها، وفتحُها، مع فتحِ الباءِ، وضمِّها، وكسرِها، والعاشرةُ: أُصْبوعٌ، وأفصحُهنّ: كسرُ الهمزَةِ، مع فتحِ الباءِ»[1].



(١) تحرير ألفاظ التنبيه (ص٥٤).

الحديثُ الخامسُ والعشرونَ:

عن أَبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«إنَّما سُمِّيَ القلبُ من تَقَلُّبِه، إنَّما مَثَلُ القلبِ كَمَثَلِ ريشَةٍ مُعَلَّقَةٍ في أَصْلِ شَجَرَةٍ، تُقَلِّبُها الرِّيحُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ»**[1].

هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لِقلبِ ابنِ آدَمَ، يُبَيِّنُ فيه تَقَلُّبَ القلبِ، وعَدَمَ اجْتِماعِهِ؛ لِما يَرِدُ عليهِ منَ الوارِداتِ، فهُو عُرْضَةٌ لِكلِّ خاطِرَةٍ، تَمْلَؤُهُ شَوارِدُ الفِكْرِ، ووارِداتُ الأَهْواءِ، فَمَثَّلَهُ بِريشَةٍ خَفيفَةٍ، لا وزْنَ لَها، ولا ثِقَلَ، عَلِقَت بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، في أَرْضٍ فَلاةٍ، أَي: مَفازَةٍ خالِيَةٍ منَ النَّباتِ، وتَخْصيصُ الفَلاةِ؛ لأَنَّ التَّقْليبَ فيها أَشَدُّ منَ العُمْرانِ.

قَولُه: **«تُقَلِّبُها الرِّيحُ»**، وفي روايةٍ: **«تُقَلِّبُها الرِّياحُ»:**

فَجمعَ الرِّياحَ؛ لِلدَّلالَةِ على ظُهُورِ التَّقْليبِ؛ إذ لَو اسْتَمَرَّ الرِّيحُ على جانِبٍ واحِدٍ، لم يَظْهَرِ التَّقَلُّبُ.

فإن قيلَ: فَما وجْهُ الإفْرادِ في الرِّوايَةِ الأُخْرَى: «**تُقَلِّبُها الرِّيحُ**»؟ قيلَ: الرِّيحُ هُنا اسْمُ جِنْسٍ، فَهيَ جَمْعٌ في المعنى، كَقَولِ عَنْتَرَةَ:

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (١٩٦٦١)، والبزار في مسنده (٣٠٣٧)، والبيهقي في الشُّعَبِ (٧٣٧)، والبَغْوي في تفسيرِهِ (١/ ٤١٤)، وابنُ أَبي عاصِمٍ في السُّنةِ (٢٢٧). ورواه ابنُ ماجه (٨٨)، ولفظُهُ: «مَثَلُ القلبِ مَثَلُ الرِّيشةِ تُقَلِّبُها الرياحُ بفَلاةٍ»، وحسنه الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (ص٩٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٦٥).

فيها اثْنَتـــانِ وأَرْبَعُــونَ حَلُوبَةً   سُودًا كَخافيَةِ الغُرابِ الأَسْحَمِ

فَأَفْرَدَ «خافيَةً»، ولم يَقُلْ: «خَوافي» على الجَمْعِ، والخَوافي جَمْعُ خافيَةٍ: أَواخِرُ ريشِ الجَناحِ مِمَّا يَلي الظَّهْرَ.

«ظَهْرًا لِبَطْنٍ»:

أَي: وبَطْنًا لِظَهْرٍ، يعني كلَّ ساعَةٍ تُقَلِّبُها على صِفَةٍ، فَكَذا القلبُ يَنْقَلِبُ ساعَةً منَ الخَيرِ إلى الشَّرِّ، وبِالعَكْسِ؛ ولِهذا الِاخْتِلافِ، والِانْقِلابِ، يُسَمَّى القلبُ قلبًا.

والقلبُ: مَصْدَرٌ، من قَلَبْتُ الشَّيءَ، أَي: رَدَدْتُهُ على بَدْئِهِ، وقَلَبْتُ الإناءَ: قَلَبْتُهُ على وجْهِهِ، وقَلَبْتُ الرَّجُلَ عن رَأْيِهِ، وعن طَرِيقِهِ: إذا صَرَفْتُهُ عنهُ، ثُمَّ نُقِلَ، وسُمِّي به هذا العُضْوُ الشَّريفُ؛ لِسُرْعَةِ الخَواطِرِ فيهِ، وتَرَدُّدِها عليهِ، كما قيلَ:

وَما سُمِّيَ الإنْســانُ إلَّا لِنَسْيِهِ   ولا القلــبُ إلَّا أنَّــهُ يَتَقَلَّــبُ

ومَقْصُودُ الحديثِ: أَن يَعْلَمَ العبدُ حَقيقَةَ القلبِ، وأَنَّهُ كثيرُ التَّقَلُّبِ، والأَهْواءِ، فَيَثْبُتَ عندَ تَقَلُّبِ قلبِهِ، ويَنْظُرَ إلى هُمُومِهِ بِنُورِ العِلْمِ، فَما كان خيرًا أَمْسَكَ القلبَ عليهِ، وما كان شَرًّا أَمْسَكَهُ عنهُ(١).

قالُوا: والقلوبُ في الثَّباتِ على الخَيرِ، والشَّرِّ، والتَّرَدُّدِ بينَهُما، ثَلاثَةٌ:

قلبٌ عُمِّرَ بالتَّقْوى، وطَهُرَ عن خَبائِثِ الأَخْلاقِ، تَنْقَدِحُ فيه خَواطِرُ الخَيرِ، فَيَنْصَرِفُ إلى التَّفَكُّرِ فيما خَطَرَ له، ويَعْمَلُ به، وهذا هو القلبُ المُطْمَئِنُّ، المُرادُ بِقولِهِ تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

---

(١) انظر: عمدة القاري (١/ ٢٩٨)، مرقاة المفاتيح (١/ ١٧٨)، فيض القدير (٣/ ٢)، (٥/ ٥٠٩).

القلبُ الثاني: القلبُ المَخْذُولُ المَشْحُونُ بالهَوَى، المُدَنَّسُ بالأَخْلاقِ المَذْمُومَةِ، والخَبائِثِ، المَفْتُوحُ فيه أَبْوابُ الشَّياطينِ، المَسْدُودُ عنهُ أَبْوابُ الخَيرِ، ومَبْدَأُ الشَّرِّ فيهِ: أَن يَنْقَدِحَ فيه خاطِرٌ منَ الهَوَى، ويَهْجِسَ فيهِ، فَيأْنَسَ به، فَيَنْشَرِحَ الصَّدْرُ بالهَوَى، وتَنْبَسِطَ فيه ظُلُماتُهُ؛ لِانْحِباسِ الجُنْدِ عن مُدافعَتِهِ، فَيقْوَى سُلْطانُ الشَّيطانِ؛ لِاتِّساعِ مَكانِهِ، فَيُقْبِلُ عليهِ بالتَّزْيينِ، والغُرُورِ، والأَمانِيِّ، ويُوحي بِذلك زُخْرُفًا منَ القَولِ غُرُورًا، فَيَضْعفُ سُلْطانُ الإِيمانِ بالوَعْدِ، والوَعيدِ، ويَخْبُو نُورُ اليَقينِ لِخَوفِ الآخرةِ، وإلى مِثْلِ هذا القلبِ الإشارَةُ بِقولِهِ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤].

القلبُ الثالِثُ: قلبٌ تَبْدُو فيه خَواطِرُ الهَوَى، فَتَدْعُوهُ إلى الشَّرِّ، فَيَلْحَقُهُ خاطِرُ الإيمانِ، فَيَدْعُوهُ إلى الخَيرِ، فيكونُ القلبُ بينَ الخاطِرَينِ، فَتارَةً إلى هذا، وتارَةً إلى هذا، وهذا هو التَّقَلُّبُ ظَهْرًا لِبطْنٍ[1].

وقال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «فَمَنِ اسْتَقَرَّ في قلبِهِ ذِكْرُ الدارِ الآخِرةِ، وجَزائِها، وذِكْرُ المَعْصيَةِ، والتَّوَعُّدِ عليها، وعَدَم الوُثُوقِ بِإتْيانِهِ بالتَّوبَةِ النَّصُوحِ؛ هاجَ في قلبِهِ منَ الخَوفِ ما لا يَمْلِكُهُ، ولا يُفارِقُهُ حَتَّى يَنْجُوَ.

وأَمَّا إن كان مُسْتَقيمًا مع اللهِ: فَخَوفُهُ يكونُ مع جَرَيانِ الأَنْفاسِ؛ لِعِلْمِهِ بِأَنَّ اللهَ مُقَلِّبُ القلوبِ، وما من قلبٍ إلَّا وهو بينَ إِصْبَعَينِ من أَصابعِ الرحمنِ عَزَّ وَجَلَّ، فإن شاءَ أَن يُقيمَهُ أَقامَهُ، وإن شاءَ أَن يُزيغَهُ أَزاغَهُ، ومِثْلُ القلبِ في سُرْعَةِ تَقَلُّبِهِ كَريشَةٍ مُلْقاةٍ بِأَرْضِ فَلاةٍ، تُقَلِّبُها الرِّياحُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ.

ويَكْفي في هذا قولهُ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٣/ ٤٦).

[الأنفال: ٢٤]، فَأَيُّ قَرارٍ لِمَن هذه حالُهُ؟ ومَن أَحَقُّ بالخَوفِ منهُ؟ بَل خَوفُهُ لازِمٌ له في كلِّ حالٍ، وإن تَوارَى عنهُ بِغَلَبَةِ حالَةٍ أُخْرَى عليهِ، فالخَوفُ حَشْوُ قلبِهِ»[1].

فالقلبُ في أَصْلِ وضْعِهِ، وخِلْقَتِهِ، مُتَقَلِّبٌ لا يَثْبُتُ، فإذا أُشْرِبَ منَ الإيمانِ وغُذِّيَ به ثَبَتَ؛ لأنَّ الإيمانَ يَتَّصِفُ بالثُّبُوتِ، والاِسْتِقْرارِ، بخلافِ الكفرِ، والشِّرْكِ، والنِّفاقِ؛ فإنَّ هذا كلَّهُ يَتَّصِفُ بالتَّذَبْذُبِ، والشَّكِّ، والحَيرَةِ، قال تعالى عنِ المؤمنينَ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال عنِ الكافِرينَ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبِۭ﴾ [سبأ: ٥٤].

وقال عنِ المُنافِقينَ: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٣].

وتَأَمَّل ثَباتَ قلوبِ المؤمنينَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال: ١١].

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةٗ فَٱثْبُتُواْ﴾ [الأنفال: ٤٥].

﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢].

---

(١) طريق الهجرتين (ص٢٨٣).

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النحل: ١٠٢].

﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]

وكان من دُعاءِ أهلِ الإيمانِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

وكان رسولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَن يَقُولَ: «**يا مُقَلِّبَ القلوبِ، ثَبِّت قلبي على دينِكَ**»(١).

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخَفيفُ لا يَثْبُتُ؛ بَل يَطيشُ، وصاحِبُ اليَقينِ ثابِتٌ، يُقالُ: أَيقَنَ إذا كان مُسْتَقِرًّا، واليَقينُ: اسْتِقْرارُ الإيمانِ في القلبِ عِلْمًا، وعَمَلًا؛ فَقَد يكونُ عِلْمُ العبدِ جيِّدًا، لَكِنَّ نَفْسَهُ لا تَصْبِرُ على المَصائِبِ؛ بَل تَطيشُ.

قال الحسن البَصْريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا شِئْتَ أَن تَرَى بَصيرًا لا صَبْرَ له رَأَيتَهُ، وإذا شِئْتَ أَن تَرَى صابِرًا لا بَصيرَةَ له رَأَيتَهُ، فإذا رَأَيتَ بَصيرًا صابِرًا فَذاكَ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]»(٢).

ونَتَعَلَّمُ من هذا الحديثِ:

* السّعْي في ثَباتِ القلوبِ على الإيمانِ، بتقْوَى اللهِ، والعَمَلِ الصالِحِ.

---

(١) رواه الترمذي (٢١٤٠)، وحَسَّنَهُ.

(٢) المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ١٩٧).

* مُدافَعَة الخَواطِرِ السَّـيِّئَةِ؛ لِئَلَّا تَسْـتَحْكِمَ، كما قال ابـنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «دافِعِ الخَطْرَةَ، فإن لم تَفعَل، صارَت فِكْرَةً، فَدافِعِ الفِكْرَةَ، فإن لم تَفْعَل، صارَت شَـهْوَةً، فَحارِبْها، فإن لم تَفْعَل، صارَت عَزيمَةً، وهِمَّـةً، فإن لم تُدافِعْها، صارَت فِعْلًا، فإن لم تَتَدارَكْهُ بِضِدِّهِ، صارَ عادَةً، فَيَصْعُبُ عَلَيكَ الِانْتِقالُ عنها»[1].

* حِمايَة القلـوبِ منَ الوُقُـوعِ في التَّذَبْذُبِ، والحَـيرَةِ، والـتَّرَدُّدِ، بالبُعدِ عنِ الشُّبهاتِ.

* كثـرة ذِكرِ اللهِ، فَتطمئِنّ القلوبُ، وتَأْنَسُ بِذلك، فلا يَبْقَى لَها مع الذِّكْرِ حاجَةٌ تَطْلُبُ قَضاءَها، فَتَبْقَى قارَّةً.

* شِدَّة حاجَةِ الإنْسانِ إلى رَبِّهِ، مُقَلِّبِ القلوبِ، «فَأَكْمَلُ الخلقِ أَكْمَلُهُم عُبُودِيَّةً، وأَعْظَمُهُم شُـهُودًا لِفَقْرِهِ، وضَرُورَتِهِ، وحاجَتِهِ إلى رَبِّهِ، وعَدَمِ اسْـتِغْنائِهِ عنهُ طَرْفَةَ عَينٍ»[2].

وفي معنى هذا الحديثِ:



(١) الفوائد (ص ٣١).

(٢) طريق الهجرتين (ص: ١٠).

الحديثُ السادسُ والعشرونَ:

عنِ المِقْدادِ بنِ الأَسْوَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رسولَ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **«لَقلبُ ابنِ آدَمَ أَشَدُّ انْقِلابًا مِنَ القِدْرِ، إذا اجْتَمَعَت غَلْيًا»**.

وفي لَفْظٍ: **«لَقلبُ ابنِ آدَمَ أَسْرَعُ تَقَلُّبًا مِنَ القِدْرِ، إذا اسْتَجْمَعَت غَلَيانًا»**[١].

ومعنى الحديثِ: أنَّ القلبَ كاسْمِهِ، يَتَقَلَّبُ تَقَلُّبًا شَديدًا، كَتَقَلُّبِ ما في القِدْرِ إذا اسْتَحْكَمَ غَلَيانُها.

قال المُناويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنَّ التَّطارُدَ لا يَزالُ فيه بينَ جُنْدَي المَلائِكَةِ، والشَّياطينِ، فَكلٌّ منهُما يُقَلِّبُهُ إلى مَرامِهِ، ويُلْفِتُهُ إلى جِهَتِهِ، فهُو مَحَلُّ المَعْرَكَةِ دائِمًا، إلى أَن يَقَعَ الفَتْحُ لِأَحَدِ الحِزْبينِ، فَيَسْكُنَ سُكُونًا تامًّا»[٢].

وكلُّ ما يَنْبَني على اضْطِرابِ القلبِ، وهَيَجانِهِ، لا اسْتِقْرارَ له.

قال أَبو حامِدٍ الغَزاليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «القلوبُ أَشَدُّ تَغَيُّرًا منَ القِدْرِ في غَلَيانِها، وهيَ

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٣٨١٦)، والطبراني في المعجم الكبير (٥٩٨)، والحاكم في المستدرك (٣١٤٢)، وابنُ أبي عاصمٍ في السُّنةِ (٢٢٦)، وقال الهَيْثَمي في مجمع الزَّوائِدِ (٧/ ٢١١): «رواه الطبراني بِأَسانيدَ، ورِجالُ أَحَدِها ثِقاتٌ»، وحسنه محققو المسند، وصححه الألباني في الصحيحةِ (١٧٧٢).

(٢) فيض القدير (٥/ ٢٨١).

مُتَرَدِّدَةٌ بينَ الإقْبالِ، والإعْراضِ، فَكلُّ ما يُبْنَى على قلوبِ الخلقِ، يُضاهي ما يُبْنَى على أَمْواجِ البَحْرِ، فإنَّهُ لا ثَباتَ له»(١).

وقد أَفادَ هذا الحديثُ: أنَّ القلبَ هَمَّامٌ فاعِلٌ، عامِلٌ كاسِبٌ.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلُّ آدَميٍّ حارِثٌ، وهَمَّامٌ، أَي: عامِلٌ كاسِبٌ، وهو هَمَّامٌ، أَي: يَهِمُّ، ويُريدُ، فهُو مُتَحَرِّكٌ بالإرادَةِ، وقد جاءَ في الحديثِ: «**مَثَلُ القلبِ مَثَلُ ريشَةٍ مُلْقاةٍ بِأَرْضِ فَلاةٍ**»، و«**لَلْقلبُ أَشَدُّ تَقَلُّبًا من القِدْرِ إذا اسْتجْمعَت غَلَيانًا**».

فَلَمَّا كانَت الإرادَةُ، والعَمَلُ، من لَوازِمِ ذاتِها(٢)، فإذا هَداها اللهُ، عَلَّمَها ما يَنْفَعُها، وما يَضُرُّها، فَأَرادَت ما يَنْفَعُها، وتَرَكَت ما يَضُرُّها»(٣).

وقال: «وَإذا كان كذلك: فَعَدَمُ إحْساسِهِ وحَرَكَتِهِ مُمْتَنِعٌ، فإن لم يَكُن إحْساسُهُ وحَرَكَتُهُ من الحسناتِ المَأْمُورِ بِها، أَوِ المُباحاتِ، وإلَّا كان من السَّيِّئاتِ المَنْهيِّ عنها»(٤).

فإذا كان القلبُ يَتَقَلَّبُ تَقَلُّبًا شَديدًا، وهو هَمَّامٌ بالفِعْلِ، حارِثٌ فَعَّالٌ، كان صاحِبُهُ على خَطَرٍ عَظيمٍ، إذا لم يَخْطِمْهُ بِخُطَمِ الشَّرْعِ، ويَزُمَّهُ بِأَزِمَّتِها، ويَضْبِطِ حَرَكاتِهِ، وأَفْعالَهُ، وإراداتِهِ، على أَحْكامِ الشَّريعَةِ، وآدابِها.

فإذا اسْتقرّت أَحْوالُ القلبِ على الطاعةِ، وانْشغَلَ بالعبادَةِ، ودافَعَ الأَهْواءَ، وردَّ الشُّبُهاتِ، وانْتصَرَ على الشّهواتِ: ثَبتَ على الإيمانِ، وحينَئِذٍ يَحيا صاحبُه حَياةً طيّبةً،

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٨٨).
(٢) أي: النّفس.
(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٩٥).
(٤) المصدر السابق (٢٠/ ١٢٣).

كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا وعْدٌ منَ اللهِ تعالى لِمَن عَمِلَ صالِحًا -وهو العَمَلُ المُتابِعُ لكتابِ اللهِ تعالى، وسُنَّةِ نبيِّهِ- من ذَكَرٍ أَو أُنْثَى، من بَني آدَمَ، وقلبُهُ مُؤْمِنٌ باللهِ ورسولِهِ، وأنَّ هذا العَمَلَ المَأْمُورَ به مَشْرُوعٌ من عِنْدِ اللهِ: بِأَن يُحْيِيَهُ اللهُ حياةً طَيِّبَةً في الدنيا، وأَن يَجْزِيَهُ بِأَحْسَنِ ما عَمِلَهُ في الدارِ الآخرةِ.

والحَياةُ الطَّيِّبَةُ تَشْمَلُ وُجُوهَ الراحَةِ، من أَيِّ جِهَةٍ كانَتْ»(١).



(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٠١).



الحديثُ السابعُ والعشرونَ:

عن أَبي ثَعْلَبَةَ الخُشَنيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قُلْتُ: يا رسولَ اللّهِ، أَخْبِرْني بما يَحِلُّ لي، ويَحْرُمُ عَلَيَّ، قال: فَصَعَّدَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصَوَّبَ فيَّ النَّظَرَ، فقال: **«البِرُّ: ما سَكَنَت إليهِ النَّفْسُ، واطْمَأنَّ إليهِ القلبُ، والإثْمُ: ما لم تَسْكُن إليهِ النَّفْسُ، ولم يَطْمَئِنَّ إليهِ القلبُ، وإن أَفْتاكَ المُفْتُونَ»**[(١)].

ويَشْهَدُ له حديثُ وابِصَةَ بنِ مَعْبَدٍ الأَسَديِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**البِرُّ: ما اطْمَأَنَّت إليهِ النَّفْسُ، واطْمَأنَّ إليهِ القلبُ، والإثْمُ: ما حاكَ في النَّفْسِ، وتَرَدَّدَ في الصَّدْرِ، وإن أَفْتاكَ الناسُ ما أَفْتوكَ**»[(٢)].

قال الحافِظُ ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رُوِيَ هذا الحديثُ عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وبعضُ طُرُقِهِ جَيِّدَةٌ»[(٣)].

وروى مسلمٌ، عنِ النَّوَّاسِ بنِ سِمْعانَ الأَنْصاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَأَلْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنِ البِرِّ، والإثْمِ؛ فقال: «**البِرُّ: حُسْنُ الخُلُقِ، والإثْمُ: ما حاكَ في صَدْرِكَ، وكَرِهْتَ أَن يَطَّلِعَ عليهِ الناسُ**»[(٤)].

---

(١) رواه أحمد (١٧٧٤٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ٢١٩)، وقال الحافظ ابنُ رجبٍ في جامع العلوم والحكم (٢/ ٩٥): «إسناده جَيِّدٌ»، وصححه محققو المسند، وصححه الألباني.

(٢) رواه أحمد (١٨٠٠٦)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ١٤٨)، وأبويعلى (١٥٨٦).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٩٥)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٣٥١)، وكذا حَسَّنَهُ الألباني في صحيح الترغيب (١٧٣٤).

(٤) صحيح مسلم (٢٥٥٣).

وقال اللهُ تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فَجاءَ البِرُّ على عِدَّةِ مَعانٍ:

المعنى الأَوَّلُ: باعتبارِ مُعامَلَةِ الخلقِ بالإحْسانِ إليهم: «**البِرُّ: حُسْنُ الخُلُقِ**»، ورُبَّما خُصَّ بالإحْسانِ إلى الوالِدَينِ، فيقالُ: بِرُّ الوالِدَينِ، ويُطْلَقُ كثيرًا على الإحْسانِ إلى الخلقِ عُمُومًا.

وكان ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقُولُ: «البِرُّ شَيءٌ هَيِّنٌ: وجْهٌ طَلِيقٌ، وكَلامٌ لَيِّنٌ»[١].

والمعنى الثاني: أَن يُرادَ به فِعْلُ جَميعِ الطاعاتِ الظاهِرَةِ، والباطِنَةِ، كَقولِهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال مُجاهِدٌ: «البِرُّ: ما ثَبَتَ في القلوبِ من طاعَةِ اللهِ»[٢].

فالبِرُّ بِهذا المعنى يَدْخُلُ فيه جَميعُ الطاعاتِ الباطِنَةِ، كالإيمانِ باللهِ، ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، والطاعاتِ الظاهِرَةِ، كَإِنْفاقِ الأَمْوالِ فيما يُحِبُّهُ اللهُ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، والوَفاءِ بالعَهْدِ، والصَّبْرِ على الأَقْدارِ، ونَحْوِ ذلك.

وقد يكونُ جَوابُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديثِ النَّوَّاسِ شامِلًا لِهذه الخِصالِ كلِّها؛ لأَنَّ حُسْنَ الخُلُقِ قَد يُرادُ به التَّخَلُّقُ بِأَخْلاقِ الشَّريعَةِ، والتَّأَدُّبُ بِآدابِ اللهِ، التي أَدَّبَ بِها عِبادَهُ في كِتابِهِ، كما قال تعالى لِرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

---

(١) رواه البيهقي في الشُّعَب (٧٧٠٢).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٣٣٧).

عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقالت عائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**كان خُلُقُه** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **القرآنَ**»[1]، **يعني**: أَنَّهُ يَتَأَدَّبُ بِآدابِهِ، فَيَفْعَلُ أَوامِرَهُ، ويَجْتَنِبُ نَواهيَه، فَصارَ العَمَلُ بالقرآنِ له خُلُقًا، كالجِبِلَّةِ، والطَّبيعَةِ، لا يُفارِقُهُ، وهذا أَحْسَنُ الأَخْلاقِ، وأَشْرَفُها، وأَجْمَلُها.

والمعنى الثالِثُ: أَنَّهُ ما اطْمَأَنَّ إليهِ القلبُ، واطْمَأَنَّت إليهِ النَّفْسُ.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ اللهَ فَطَرَ عِبادَهُ على مَعْرِفَةِ الحَقِّ، والسُّكُونِ إليهِ، وقَبُولِهِ، ورَكَّزَ في الطِّباعِ مَحَبَّةَ ذلك، والنُّفُورَ عن ضِدِّهِ.

ولِهذا سَمَّى اللهُ ما أَمَرَ به مَعْرُوفًا، وما نَهى عنهُ مُنْكَرًا، وأخبرَ أنَّ قلوبَ المؤمنينَ تَطْمَئِنُّ بِذِكْرِهِ، فالقلبُ الذي دَخَلَهُ نُورُ الإيمانِ، وانْشَرَحَ به، وانْفَسَحَ، يَسْكُنُ لِلْحَقِّ، ويَطْمَئِنُّ به، ويَقْبَلُهُ، ويَنْفُرُ عنِ الباطِلِ، ويَكْرَهُهُ، ولا يَقْبَلُهُ.

ومِن هذا المعنى: قَولُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يكونُ في آخِرِ الزَّمانِ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، يَأْتُونَكُم منَ الأَحاديثِ بِما لم تَسْمَعُوا أَنْتُم، ولا آباؤُكُم، فَإيَّاكُم وإيَّاهُم، لا يُضِلُّونَكُم، ولا يَفْتِنُونَكُمْ**»[2].

يعني: أَنَّهُم يَأْتُونَ بِما تَسْتَنْكِرُهُ قلوبُ المؤمنينَ، ولا تَعْرِفُهُ، وفي قولِهِ: «**أَنْتُم ولا آباؤُكُمْ**» إشارَةٌ إلى أنَّ ما اسْتَقَرَّت مَعْرِفَتُهُ عندَ المؤمنينَ مع تَقادُمِ العَهْدِ، وتَطاوُلِ الزَّمانِ، فهُو الحَقُّ، وأنَّ ما أُحْدِثَ بَعْدَ ذلك مِمَّا يُسْتَنْكَرُ، فلا خَيرَ فيهِ.

فَدَلَّ حديثُ وابِصَةَ، وما في مَعْناهُ، على الرُّجُوعِ إلى القلوبِ عندَ الِاشْتِباهِ، فَما إليهِ سَكَنَ القلبُ، وانْشَرَحَ إليهِ الصَّدْرُ، فهُو البِرُّ، والحَلالُ، وما كان خلافَ ذلك، فهُو الإثْمُ، والحَرامُ.

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

(٢) رواه مسلم (٧).

وقولهُ في حديثِ النَّوَّاسِ: «**الإثْمُ: ما حاكَ في الصَّدْرِ، وكَرِهْتَ أَن يَطَّلِعَ عليهِ الناسُ**»، إشارَةٌ إلى أنَّ الإثْمَ ما أَثَّرَ في الصَّدْرِ: حَرَجًا، وضيقًا، وقَلَقًا، واضْطِرابًا، فَلم يَنْشَرِح له الصَّدْرُ، ومع هذا، فهُو عندَ الناسِ مُسْتَنْكَرٌ، بِحَيثُ يُنْكِرُونَهُ عندَ اطِّلاعِهِم عليهِ، وهذا أَعْلى مَراتِبِ مَعْرِفَةِ الإثْمِ عندَ الِاشْتِباهِ، وهو ما اسْتَنْكَرَهُ الناسُ على فاعِلِهِ، وغيرِ فاعِلِهِ.

ومِن هذا المعنى: قَولُ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما رَآهُ المسلمُونَ حَسَنًا؛ فهُو عندَ اللهِ حَسَنٌ، وما رَأَوهُ سَيِّئًا؛ فَهوُ عندَ اللهِ سَيِّءٌ»(١).

وقولهُ في حديثِ وابِصَةَ، وأَبي ثَعْلَبَةَ: «**وَإن أَفْتاكَ المُفْتُونَ**» **يعني:** أنَّ ما حاكَ في صَدْرِ الإنْسانِ، فهُو إثْمٌ، وإن أَفْتاهُ غيرُهُ بِأَنَّهُ ليس بِإثْمٍ، فَهذه مَرْتَبَةٌ ثانيَةٌ، وهو أَن يكونَ الشَّيءُ مُسْتَنْكَرًا عندَ فاعِلِهِ دُونَ غيرِهِ، وقد جَعَلَهُ أَيضًا إثْمًا، وهذا إنَّما يكونُ إذا كان صاحِبُهُ مِمَّن شُرِحَ صَدْرُهُ بالإيمانِ، وكان المُفْتي يُفْتي له بِمُجَرَّدِ ظَنٍّ، أَو مَيلٍ إلى هَوًى، من غيرِ دَليلٍ شَرْعيٍّ، فَأَمَّا ما كان مع المُفْتي به دَليلٌ شَرْعيٌّ: فالواجِبُ على المُسْتَفْتي الرُّجُوعُ إليهِ، وإن لم يَنْشَرِح له صَدْرُهُ.

وقد كان النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أَحْيانًا- يَأْمُرُ أَصْحابَهُ بِما لا تَنْشَرِحُ به صُدُورُ بعضِهِم، فَيَمْتَنِعُونَ من فِعْلِهِ، فَيَغْضَبُ من ذلك، كما أَمَرَهُم بِفَسْخِ الحَجِّ إلى العُمْرَةِ، فَكَرِهَهُ مَن كَرِهَهُ منهُم، وكما أَمَرَهُم بِنَحْرِ هَدْيِهِم، والتَّحَلُّلِ من عُمْرَةِ الحُدَيبيَةِ، فَكَرِهُوهُ، وكَرِهُوا مُقاضاتَهُ لِقُرَيشٍ، على أَن يَرْجِعَ من عامِهِ، وعلى أنَّ مَن أَتاهُ منهُم يَرُدُّهُ إليهم.

وفي الجُمْلَةِ: فَما ورَدَ النَّصُّ به، فَلَيسَ لِلْمُؤْمِنِ إلَّا طاعَةُ اللهِ، ورسولِهِ، كما قال

---

(١) رواه أحمد (٣٦٠٠)، وإسناده حسن.

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ويَنْبَغي أَن يتَلَقَّى ذلك بِانْشِراحِ الصَّدْرِ، والرِّضا؛ فإنَّ ما شَرَعَهُ اللهُ، ورسولُهُ، يَجِبُ الإيمانُ، والرِّضا به، والتَّسْليمُ له، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وأَمَّا ما ليس فيه نَصٌّ منَ اللهِ، ورسولِهِ، ولا عَمَّن يُقْتَدَى بِقولِهِ منَ الصَّحابَةِ، وسَلَفِ الأُمَّةِ، فإذا وقَعَ في نَفْسِ المؤمنِ المُطْمَئِنِّ قلبُهُ بالإيمانِ، المُنْشَرِحِ صَدْرُهُ بِنُورِ المعرفةِ، واليَقينِ، منهُ شَيءٌ، وحَكَّ في صَدْرِهِ؛ لِشُبْهَةٍ مَوجُودَةٍ، ولم يَجِد مَن يُفْتي فيه بالرُّخْصَةِ، إلاَّ مَن يُخْبِرُ عن رَأْيِهِ، وهو مِمَّن لا يُوثَقُ بِعِلْمِهِ، وبِدينِهِ، بَل هو مَعْرُوفٌ بِاتِّباعِ الهَوَى: فَهُنا يَرْجِعُ المؤمنُ إلى ما حَكَّ في صَدْرِهِ، وإن أَفْتاهُ هَؤُلاءِ المُفْتُونَ[١].

وقال **المُناويُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«والإِثْمُ: ما لم تَسْكُن إليهِ النَّفْسُ، ولم يَطْمَئِنَّ إليهِ القلبُ»**؛ لأَنَّهُ -تَعالى- فَطَرَ عِبادَهُ على المَيلِ إلى الحَقِّ، والسُّكُونِ إليهِ، ورَكَّزَ في طَبْعِهِم حُبَّهُ.

«وَإِن أَفْتاكَ المُفْتُونَ»:

أَي: جَعَلُوا لَكَ رُخْصَةً، والكَلامُ في أَنْفُسٍ رَبَضَت وتَمَرَّنَت، حَتَّى صَفَت، وتَحَلَّت بالإيمانِ، والعَمَلِ الصالِحِ»[٢].

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/ ٩٧-١٠٣).

(٢) التيسير (١/ ٤٣٩) بتصرف يسير.

وقال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَمَّا الإثْمُ: فهُو أنَّ الإنْسانَ يَتَرَدَّدُ في الشَّيءِ، ويَشُكُّ فيهِ، ولا تَرْتاحُ له نَفْسُهُ، وهذا فيمَن نَفْسُهُ مُطْمَئِنَّةٌ، راضيَةٌ بِشَرْعِ اللهِ.

وأَمَّا أهلُ الفُسُوقِ، والفُجُورِ: فإنَّهُم لا يَتَرَدَّدُونَ في الآثامِ، تَجِدُ الإنْسانَ منهُم يَفْعَلُ المَعْصيَةَ مُنْشَرِحًا بِها صَدْرُهُ -والعياذُ باللهِ- لا يُبالي بِذلك، لَكِنَّ صاحِبَ الخَيرِ، الذي وُفِّقَ لِلْبِرِّ، هو الذي يَتَرَدَّدُ الشَّيءُ في نَفْسِهِ، ولا تَطْمَئِنُّ إليهِ، ويَحيكُ في صَدْرِهِ، فهذا هو الإثْمُ.

ومَوقِفُ الإنْسانِ من هذا: أَن يَدَعَهُ، وأَن يَتْرُكَهُ إلى شَيءٍ تَطْمَئِنُّ إليهِ نَفْسُهُ، ولا يكون في صَدْرِهِ حَرَجٌ منهُ، وهذا هو الوَرَعُ؛ ولِهذا قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِن أَفْتاكَ الناسُ وأَفْتَوكَ**» حَتَّى لَو أَفْتاكَ مُفْتٍ بِأنَّ هذا جائِزٌ، ولَكِنَّ نَفْسَكَ لم تَطْمِئِن، ولم تَنْشَرِح إليهِ، فَدَعْهُ، فإنَّ هذا منَ الخَيرِ، والبِرِّ.

إلَّا إذا عَلِمْتَ أنَّ في نَفْسِكَ مَرَضًا منَ الوَسْواسِ، والشَّكِّ، والتَّرَدُّدِ، فيما أَحَلَّ اللهُ، فلا تَلْتَفِت لِهذا، والنبيُّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إنَّما يُخاطِبُ الناسَ أَو يَتَكَلَّمُ على الوَجْهِ الذي ليس فيه أَمْراضٌ، أَي: ليس في قلبِ صاحِبِهِ مَرَضٌ، فإنَّ البِرَّ: هو ما اطْمَأَنَّت إليهِ نَفْسُهُ، والإثْمَ: ما حاكَ في صَدْرِهِ، وكَرِهَ أَن يَطَّلِعَ عليهِ الناسُ»[(١)].

وروى الطَّبَرانيُّ بِسَنَدٍ صَحيحٍ، عنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «إنَّ الإثْمَ حَوازُّ القلوبِ، فَما حَزَّ في قلبِ أَحَدِكُم شَيءٌ، فَلْيَدَعْهُ»[(٢)].

وفي روايةٍ: «إيَّاكُم وحَزائِزَ القلوبِ، وما حَزَّ في قلبِكَ من شَيءٍ، فَدَعْهُ»[(٣)].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٤٩٨).

(٢) المعجم الكبير (٨٧٤٨).

(٣) رواه أبونُعَيمٍ في الحليةِ (١/ ١٣٥).

قال ابنُ الأثيرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حَوازُّ القلوبِ: هيَ الأُمُورُ التي تَحُزُّ فيها، أَي: تؤثِّر كما يُؤَثِّرُ الحَزُّ في الشَّيءِ، وهو ما يَخْطُرُ فيها من أَن تَكُونَ مَعاصي؛ لِفَقْدِ الطُّمَأْنينَةِ إليها، وهيَ بِتَشْديدِ الزاي: جَمْعُ حازٍّ»[1].

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في الحديثِ الصَّحيحِ: «**وَما يَزالُ عبدي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ، حَتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ التي يَبْطِشُ بِها، ورِجْلَهُ التي يَمْشي بِها**»[2].

ومَن كان تَوفيقُ اللهِ له كذلك؛ فَكَيفَ لا يكونُ ذا بَصيرَةٍ نافِذَةٍ، ونَفْسٍ فَعَّالَةٍ؟ وإذا كان الإِثْمُ، والبِرُّ، في صُدُورِ الخلقِ، له تَرَدُّدٌ، وجَوَلانٌ، فَكَيفَ حالُ مَنِ اللهُ سَمْعُهُ، وبَصَرُهُ، وهو في قلبِهِ؟ وقد قال ابنُ مسعودٍ: «الإِثْمُ حَوازُّ القلوبِ»، وقد قَدَّمْنا أَنَّ الكَذِبَ ريبَةٌ، والصِّدْقَ طُمَأْنينَةٌ، فالحديثُ الصِّدْقُ تَطْمَئِنُّ إليهِ النَّفْسُ، ويَطْمَئِنُّ إليهِ القلبُ.

وأَيضًا: فإنَّ اللهَ فَطَرَ عِبادَهُ على الحَقِّ، فإذا لم تسْتَحِلَّ الفِطْرَة، شاهَدَتِ الأَشْياءَ على ما هيَ عليهِ؛ فَأَنْكَرَت مُنْكَرَها، وعرفَت مَعْرُوفَها.

فإذا كانَتِ الفِطْرَةُ مُسْتَقيمَةً على الحَقيقَةِ، مُنَوَّرَةً بِنُورِ القرآنِ؛ تَجَلَّت لَها الأَشْياءُ على ما هيَ عليهِ، وانْتَفَت عنها ظُلُماتُ الجَهالاتِ، فَرَأَتِ الأُمُورَ عيانًا مع غَيبِها عن غيرِها.

وإذا كان القلبُ مَعْمُورًا بالتَّقْوى، انْجَلَت له الأُمُورُ، وانْكَشَفَت، بخلافِ القلبِ الخَرابِ المُظْلِمِ؛ قال حُذَيفَةُ بنُ اليَمانِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ في قلبِ المؤمنِ سِراجًا يُزْهِرُ»،

(١) النهاية (١/ ٣٧٧).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).

وفي الحديثِ الصَّحيحِ: «**إنَّ الدَّجَّالَ مَكْتُوبٌ بينَ عَينَيهِ كافِرٌ، يَقْرَؤُهُ كلُّ مُؤْمِنٍ، كاتِبٍ، وغيرِ كاتِبٍ**»[1].

فَدَلَّ على أنَّ المؤمنَ يَتبَيَّنُ له ما لا يَتبَيَّنُ لِغيرِهِ، ولا سيَّما في الفِتَنِ»[2].

والمَقْصُودُ من وراءِ ذلك:

أنَّ القلبَ إذا عُمِّرَ بالتَّقْوَى، والعَمَلِ الصالِحِ، اسْتَنارَ بِنُورِ الإيمانِ؛ فَرَأَى المَعْرُوفَ مَعْرُوفًا، والمُنْكَرَ مُنْكَرًا؛ فَيَطْمَئِنُّ إلى البِرِّ، وفِعْلِهِ، ويَحُزُّ فيه الإثْمُ، فَيَكْرَهُ الإقْدامَ عليهِ.

وهذا من فَضْلِ اللهِ على عبدِهِ المؤمنِ: أَن جَعَلَ له واعِظًا من قلبِهِ، يُعَرِّفُهُ الخَيرَ، والبِرَّ، ويَحُضُّهُ عليهِ، ويُعَرِّفُهُ الإثْمَ، والمُنْكَرَ، ويَنْهاهُ عنهُ، فَيُقْدِمُ على الخَيرِ بِنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ، ويُحجِمُ عنِ الإثْمِ، ويكرهُهُ.



(١) رواه مسلم (٢٩٣٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٣-٤٥).

الحديثُ الثامنُ والعشرونَ:

عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: كان النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُكْثِرُ أن يَقُولَ: **«يا مُقَلِّبَ القلوبِ، ثَبِّت قلبي على دينِكَ».**

قال أنسٌ: فَقُلْنا: يا رسولَ اللّهِ، آمَنَّا بِكَ وبِما جِئْتَ به، فَهَل تَخافُ عَلَينا؟!

قال: فقال: **«نَعَم، إنَّ القلوبَ بينَ أُصْبُعَينِ من أَصابِعِ اللّهِ** عَزَّوَجَلَّ، **يُقَلِّبُها»**[1].

قولهُ: كان النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَن يَقُولَ: **«يا مُقَلِّبَ القلوبِ، ثَبِّت قلبي على دينِكَ».**

فإكثارُ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من هذا الدُّعاءِ يدُلُّ على أهميتِهِ، وعظيمِ ما يتضمَّنُه من معاني الأُلُوهيَّةِ، والرُّبوبيةِ، وتمامِ الفَقرِ، والحاجَةِ إلى اللهِ، ومَعرفةُ هذا من توحيدِ اللهِ، والإيمانِ به.

وقولُهُ: «مُقَلِّبَ القلوبِ»

أي: مصرِّفَها من حالٍ إلى حالٍ -كما تقدَّم-، فلا تنصرفُ عنِ المعصيَةِ إلى الطاعةِ، ولا تستقيمُ على الصراطِ، إلَّا بهدايَةِ اللهِ، وعصمَتِه سبحانَهُ.

وإذا لم تثبت القلُوبُ على الإيمانِ باللهِ، وطاعتِهِ، وعبادتِهِ، أصيبَت بالعَمَهِ، وورثتِ الريبةَ، والحَيرةَ، والتردُّدَ، ولم تنعَم بنورِ الإيمانِ، قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَنَدۡعُواْ

(١) رواه أحمد (١٢١٠٧)، والترمذي (٢١٤٠)، وصححه الألباني.

مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ﴾ [الأنعام: ٧١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَـٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِى طُغۡيَـٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِى رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

ولذلك فإنَّ أهلَ الإيمانِ يسألُونَ اللهَ دائمًا الهدايَةَ إلى صِراطِهِ المُستقيمِ، فيلزَمُونَ طاعتَهُ، وعبادَتَه، ويفعلُونَ ما أمَرَ اللهُ بهِ، ويجتنبونَ ما نَهى اللهُ عنهُ، وبذلك تتمُّ عليهِم نعمةُ اللهِ، ويكرِمُهُم بفضلِهِ في الدُّنيا، والآخرةِ، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَـٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٦-٧٠].

وقال سبحانَه: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَـٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وهذا لا يُصيبُهُ عبدٌ، إلَّا بفضلِ اللهِ، ورحمتِهِ.

«ثَبِّت قلبي على دينِكَ»:

يسألُ اللهَ الثَّباتَ على الدِّينِ، المتضمِّنَ الاسْتعاذَةَ بهِ منَ الزَّيغِ، والضَّلالةِ، ويلجأُ إليهِ لُجُوءَ الضَّرورةِ التي لا بُدَّ لَه منها، وربَّما ذاقَ العبدُ صُنوفَ القَهرِ منَ العبيدِ، فعاذَ بالقهَّارِ الفعَّالِ لما يُريدُ، الذي يُصرِّفُ تِلكَ القلوبَ كيفَ يشاءُ، وحينئذٍ تنكشِفُ له حقيقةُ نفسِهِ، وما هيَ عليهِ منَ الفاقَةِ، والقلَّةِ، والذلَّةِ.

«فَمِن تَمامِ إحْسانِ الرَّبِّ إلى عبدِهِ، وتَعْريفِهِ قَدْرَ نِعْمَتِهِ: أَن أَراهُ في الأَعْيانِ ما كان حاكِمًا عليهِ، قاهِرًا له، فَحينَئِذٍ يَسْتَغيثُ العبدُ بِرَبِّهِ، ووَلِيِّهِ، ومالِكِ أَمْرِهِ كلِّهِ: يا مُقَلِّبَ القلوبِ ثَبِّت قلبي على دينِكَ، يا مُصَرِّفَ القلوبِ صَرِّف قلبي على طاعَتِكَ.

وأَيضًا: فإنَّهُ يُزيلُ من قلبِهِ آفَةَ الرُّكُونِ إلى نَفْسِهِ، أَو عَمَلِهِ، أَو حالِهِ، فلا يَرْكَنُ العبدُ إلى شَيءٍ سِوَى اللهِ أَلْبَتَّةَ، ومَتَى وجَدَ قلبَهُ رُكُونًا إلى غيرِهِ، فَلْيَعْلم أَنَّهُ قد أُحيلَ على مُفْلِسٍ، بَل مُعْدَمٍ، وأَنَّهُ قَد فُتِحَ له البابُ مَكْرًا، فَلْيَحْذَر وُلُوجَهُ»[1].

وعَن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِفاطِمَةَ: «**ما يَمْنَعُكِ أَن تَسْمَعي ما أُوصيكِ به: أَن تَقُولي إذا أَصْبَحْتِ، وإذا أَمْسَيتِ: يا حَيُّ يا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغيثُ، أَصْلِح لي شَأْني كلَّهُ، ولا تَكِلْني إلى نَفْسي طَرَفَةَ عَينٍ**»[2].

فلا يَستغني عبدٌ عن ربِّهِ، وكلَّما كان العبدُ أكملَ إيمانًا، كلَّما كان أشدَّ حاجَةً إلى اللهِ، وفقرًا، ومَن يسأَلُ اللهَ كلَّما أصبحَ، وكلَّما أمسَى، أَلَّا يَكِلَهُ إلى نفسِه طرفَ عَينٍ، لا شَكَّ أنَّه من أفقرِ خَلقِ اللهِ إليهِ.

قال أنسُ: فَقُلْنا: يا رسولَ اللّهِ، آمَنَّا بِكَ، وبِما جِئْتَ به، فَهَل تَخافُ عَلَينا؟!

فإذا كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي غَفرَ اللهُ لَه ما تقدَّمَ من ذنبِهِ، وما تأَخَّرَ، يُكثِرُ من هذا الدُّعاءِ، فما أشدَّ حاجةِ كلِّ مَن سواهُ إليهِ.

ورأَى أنسٌ وغيرُه منَ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أنَّ إكثارَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا الدُّعاءِ، يتضمَّنُ الخَوفَ من تقلُّبِ القلُوبِ، وانصرافِها عنِ الطاعةِ إلى العِصيانِ،

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٧٩).

(٢) رواه النسائيُّ في الكبرى (١٠٣٣٠)، والحاكمُ في المستدرَك (٢٠٠٠)، وحسنه الألباني في الصحيحةِ (٢٢٧).

وانتكاسِها من بَعدِ رُشدِها، فسألُوا رسولَ اللهِ ﷺ: هلَ تخافُ علَينا، وقد آمنَّا بكَ، وبما جِئتَ به؟

فهَل بعدَ ثُبوتِ الإيمانِ ولُزومِه قلوبَ المؤمنينَ، وقيامِهِم بهِ، ما يوجِبُ الخوفَ من ضعفِهِ، أو زوالِهِ بالكُليَّةِ؟

فأجابَهُم النبيُّ ﷺ بقولِهِ:

«نَعَم، إنَّ القلوبَ بينَ أُصْبُعَينِ من أَصابِعِ اللّهِ عَزَّوَجَلَّ، يُقَلِّبُها».

فليسَت هدايةُ القلُوبِ، وثُبوتُها على الإيمانِ، من شأنِ أصحابِها، وإنَّما أمرُها بيدِ اللهِ، فمَن شاءَ هداهُ، ومَن شاءَ أضلَّهُ، ومَن شاءَ ثبَّتَه، ومَن شاءَ أَرْكَسَه.

وعنِ النَّوَّاسِ بنِ سَمْعانَ الكِلابيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**ما من قلبٍ إلَّا وهو بينَ أُصْبُعَينِ من أَصابِعِ رَبِّ العالَمِينَ، إن شاءَ أَن يُقيمَهُ أَقامَهُ، وإن شاءَ أَن يُزيغَهُ أَزاغَهُ**»، وكان يَقُولُ: «**يا مُقَلِّبَ القلوبِ ثَبِّت قلوبَنا على دينِكَ**»[1].

فحريٌّ بكلِّ مُسلمٍ أن يلزَمَ هذا الدُّعاءَ، ويُكثِرَ منَ اللهجِ به، ويَلزمَ ما تضمَّنه من تمامِ الفقرِ، والحاجةِ إلى ربِّهِ، ولزومِ طاعتِهِ، فإنَّ مَن لزمَ طاعةَ اللهِ، هداهُ اللهُ، وثبَّتَ قَلبَه.



(١) رواه الإمام أحمد (١٧٦٣٠)، وابنُ ماجه (١٩٩)، وصححه محققو المسند على شرط الشيخين.

الحديثُ التاسعُ والعشرون:

عن أَبي الدَّرْداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أَتى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ يَشْتَكي قَساوَةَ قلبِهِ، فقال له رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَتُحِبُّ أَن يَلينَ قلبُكَ؟»**، فقال: نَعَم، قال: **«ارْحَمِ اليَتيمَ، وامْسَح رَأْسَهُ، وأَطْعِمْهُ من طَعامِكَ؛ فإنَّ ذلك يُلينُ قلبَكَ، وتَقْدِرُ على حاجَتِكَ»**[١].

وهذا كان حالَ الصّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لا يَجِدُ أحدُهم شَيئًا في نَفسِه يَخافُ منهُ على دينِه، أو يُبتلى بِأمرٍ، إلَّا هَرَعَ إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَحكي لَه أمْرَه، ويشكُو لَه حالَه.

كما في حديثِ أَبي هريرةَ، قال: جاءَ ناسٌ من أَصْحابِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلُوهُ: إنَّا نَجِدُ في أَنْفُسِنا ما يَتَعاظَمُ أَحَدُنا أَن يَتَكَلَّمَ به، قال: «**وَقَد وجَدْتُمُوهُ؟**» قالُوا: نَعَم، قال: «**ذاكَ صَريحُ الإيمانِ**»[٢].

وعن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاءَ رَجُلٌ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: هَلَكْتُ، فقال: «**وَما ذاكَ؟**» ، قال: وقَعْتُ بِأهلي في رَمَضانَ ... » الحديث[٣].

---

(١) رواه أَبو نُعَيم في الحِلْيَةِ (١/ ٢١٤)، ومَعْمَرُ بنُ راشدٍ في جامعِهِ (٢٠٠٢٩)، وحسنه الألباني في الصحيحةِ (٨٥٤). ولهُ شاهدٌ رواه أحمد (٧٥٧٦)، والبيهقي (٧٠٩٤)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رجلًا شكا إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قسوةَ قلبهِ؛ فقال له: «إنْ أردْتَ أنْ يلينَ قلبكَ، فأطعِمِ المسكينَ، وامسحْ رأسَ اليتيم».

(٢) رواه مسلم (١٣٢).

(٣) رواه البخاري (٢٦٠٠)، ومسلم (١١١١).



فهذا رَجلٌ جاءَ يَشكوُ للنّبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما يَجدُه في قلبِه من قَسوَةٍ.

والقَسْوَةُ في القلبِ: ذَهابُ اللِّين والرَّحْمَةِ والخُشُوعِ منهُ، وقَسا قلبُه: غَلُظَ، واشْتَدَّ، وأَقْساه الذنبُ، ويُقالُ: الذَّنْبُ مَقْساةٌ لِلْقلبِ، والقَسْوَةُ: الصَّلابَةُ في كلِّ شَيءٍ، وأَصْلُ هذه المادَّةِ يَدُلُّ على شِدَّةٍ، وصَلابَةٍ[١].

وقال القُرْطُبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «القَسْوَةُ: الصَّلابَةُ، والشِّدَّةُ، واليُبْسُ، وقَسْوَةُ القلوبِ: عِبارَةٌ عن خُلُوِّها منَ الإنابَةِ والإِذْعانِ لِآياتِ اللهِ تَعالى»[٢].

ولا أَشَدَّ على العبدِ من قَسْوَةِ قلبِه:

قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما ضُرِبَ عبدٌ بِعُقُوبَةٍ أَعْظَمَ من قَسْوَةِ القلبِ، والبُعْدِ عنِ اللهِ، وقد خُلِقَتِ النارُ؛ لِإذابَةِ القلوبِ القاسيَةِ، وأَبْعَدُ القلوبِ منَ اللهِ القلبُ القاسي، وإذا قَسَى القلبُ، قَحَطَتِ العَينُ»[٣].

وقد جمعَ اللهُ تعالى بينَ الضَّلالِ، وقَسْوَةِ القلبِ، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقَسْوَةُ القلوبِ من صِفاتِ اليَهُودِ:

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَسْوَةُ القلوبِ من ثَمَراتِ المَعاصي، وقد وصَفَ اللهُ سُبْحانَهُ بِها اليَهُودَ في غيرِ مَوضِعٍ؛ فقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]»[٤].

---

(١) تهذيب اللغة (٩/ ١٨٠)، لسان العرب (١٥/ ١٨١)، مقاييسُ اللغةِ (٥/ ٨٧).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٤٦٢).

(٣) الفوائد (ص٩٧).

(٤) اقتضاء الصراطِ المستقيم (١/ ٢٩٠).

«وَلِهذا نَهى اللهُ المؤمنينَ عن مِثْلِ حالِهِم، فقال: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]»(١).

فقال رسولُ اللهِ ﷺ لِهذا الرَّجُلِ لَمَّا جاءَهُ يَشْكُو قَسْوَةَ قلبِهِ: «أَتُحِبُّ أن يَلينَ قلبُكَ؟»:

قولُهُ: «أَتُحِبُّ»:

اسْتِفْهامٌ فيه معنى الشَّرْطِ، أَي: إن أَحْبَبْتَ -أَيُّها الرَّجُلُ الذي شَكَى إلينا قَسْوَةَ قلبِهِ- أَن يَلينَ قلبُكَ، فافْعَل ما نَأْمُرُكَ به.

«أَن يَلينَ قلبُكَ»:

أَي: يَتَرَطَّبَ، ويَتَسَهَّلَ، وتَزُولَ عنهُ قَساوَتُهُ.

«وَتُدْرِكَ حاجَتَكَ»:

أَي: تَظفَرَ بمطلُوبِكَ.

فقال الرجلُ: نَعَم، يا رسولَ اللهِ.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «ارْحَمِ اليَتيمَ»:

أَي: إن أَرَدْتَ أَن يَلينَ قلبُكَ، وتَذْهَبَ قَساوَتُهُ، فارْحَمِ اليَتيمَ.

واليَتيمُ: الصَّغيرُ الفاقِدُ الأَبِ منَ الإنْسانِ قبل البلوغِ، فإذا بَلَغَ زالَ عنهُ اسْمُ اليُتْمِ، والفاقِدُ الأُمِّ منَ الحَيَوانِ قبل اسْتِغْنائِهِ عنها، وكلُّ فردٍ يعِزُّ نظيرُهُ، يقالُ: بيتٌ منَ الشِّعْرِ يَتيمٌ، أَي: مُفْرَدٌ، لا نَظيرَ له.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٠٤).

وقال ابنُ السِّكِّيتِ: «اليُتْمُ في الناسِ من قِبَلِ الأَبِ، وفي البَهائِمِ من قِبَلِ الأُمِّ، ولا يُقالُ لِمَن فَقَدَ الأُمَّ من الناسِ: يَتيمٌ، ولَكِن مُنْقَطِعٌ».

وقال ابنُ خالَوَيهِ: «يَنْبَغي أن يكونَ اليُتْمُ في الطَّيرِ من قِبَلِ الأَبِ، والأُمِّ؛ لأَنَّهُما كِلَيهِما يَزُقَّانِ فِراخَهُما».

وقال ابنُ بَرِّي: «اليَتيمُ: الذي يَموتُ أَبوهُ، والعَجِيُّ: الذي تَموتُ أُمُّهُ، واللَّطيمُ: الذي يَموتُ أَبَواهُ».

والجَمْعُ: أَيتامٌ، ويَتامى، ويَتَمَةٌ، ويَتائِمُ[١].

«ارْحَمِ اليَتيمَ»:

وذلك بِأَن تَعْطِفَ عليهِ، وتَحْنُوَ حُنُوًّا يَقْتَضي التَّفَضُّلَ، والإحْسانَ، بِمَزيدِ الشَّفَقَةِ، والتَّلَطُّفِ به.

«وامْسَحْ رَأْسَهُ»:

تَلَطُّفًا وإيناسًا، **قال الطِّيبيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «كِنايَة عنِ الشّفقةِ، والتّلطّفِ إليهِ»[٢].

وقال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «لِتَتَذَكَّرَ المَوتَ؛ فإنَّ القَسْوَةَ مَنْشَؤُها الغَفْلَةُ»[٣].

فَيَحْصُلُ بِمَسْحِ رَأْسِ اليَتيمِ سببانِ لِلينِ القلبِ:

أَوَّلُهما: رَحْمَتُهُ، والتَّلَطُّفُ به.

ثانيهما: أَن يَتَذَكَّرَ به المَوتَ؛ بِتَذَكُّرِ مَوتِ أَبيهِ، وتَرْكِهِ وراءَهُ مُنْفَرِدًا، لا أَبَ له، ولا عائِلَ له.

---

(١) لسان العرب (١٢/ ٦٤٥)، تاج العروس (٣٤/ ١٣٤)، المعجم الوسيط (٢/ ١٠٦٣).

(٢) شرح المشكاة (١٠/ ٣١٨٧).

(٣) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣١٣٠).

«وَأَطْعِمْهُ من طَعامِكَ»:

أَي: مِمَّا تَمْلِكُهُ منَ الطَّعامِ، أَو: لا تُؤْثِر نَفْسَكَ عليهِ بِنَفيسِ الطَّعامِ، وتَطْعَمُهُ دُونَهُ، بَل أَطْعِمْهُ مِمَّا تَأْكُلُ منهُ.

«فإنَّ ذلك يُلينُ قلبَكَ»:

فَتَذْهَبُ قَساوَتُهُ التي تَشْتَكي منها، ومَن ذَهَبَت قَساوَةُ قلبِهِ، لانَ قلبُهُ، وانْفَسَحَ، وانْشَرَحَ، وأَصْغَى لِلنُّصْحِ، واسْتَمَعَ لِلذِّكْرِ، واطْمَأَنَّ به.

«وَتَقْدِرُ على حاجَتِكَ»:

أَي: فإنَّكَ إن أَحْسَنْتَ إليهِ، وفَعَلْتَ ما ذُكِرَ، يَحْصُلُ لَكَ لينُ القلبِ، وتَظْفَرُ بالبُغْيَةِ.

وفي هذا الحديثِ: حَثٌّ على الإحْسانِ إلى اليَتيمِ، ومُعامَلَتِهِ بِمَزيدِ الرِّعايَةِ، والعِنايَةِ، وإكْرامِهِ للهِ تعالى خالِصًا.

قال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا عامٌّ في كلِّ يَتيمٍ، سَواءٌ كان عِنْدَهُ، أَو لَم يكُن».

وفيهِ: أنَّ مَسْحَ رَأْسِهِ سببٌ مُخَلِّصٌ من قَسْوَةِ القلبِ، المُبْعِدَةِ عنِ الرَّبِّ؛ فإنَّ أَبْعَدَ القلوبِ منَ اللهِ القلبُ القاسي، وهذا مُقَيَّدٌ بِأَن لا يَمْسَحَهُ إلَّا للهِ؛ لأَنَّهُ قَد يَقَعُ مَسْحُهُ لِريبَةٍ، كَأَمْرَدٍ جَميلٍ، يُريدُ مُؤانَسَتَهُ بِذلك.

وفيهِ: أنَّ مَنِ ابْتُلِيَ بِداءٍ منَ الأَخْلاقِ الذَّميمَةِ، يكونُ تَدارُكُهُ بِما يُضادُّهُ منَ الدَّواءِ؛ فالتَّكَبُّرُ يُداوَى بالتَّواضُعِ، والبُخْلُ بالسَّماحَةِ، وقَسْوَةُ القلبِ بالتَّعَطُّفِ، والرِّقَّةِ[١].



---

(١) شرح المشكاة (١٠/ ٣١٨٧)، فيض القدير (١/ ١٠٨)، التيسير (١/ ٢٢).



الحديث الثلاثون:

عن عياض بن حِمارٍ المُجاشِعيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال ذاتَ يَومٍ في خُطْبَتِهِ: **«... أهلُ الجَنَّةِ ثَلاثةٌ: ذُو سُلْطانٍ مُقْسِطٌ، مُتَصَدِّقٌ، مُوَفَّقٌ، ورَجُلٌ رَحيمٌ، رَقيقُ القلبِ لِكلِّ ذي قُرْبَى، ومسلمٍ، وعَفيفٌ، مُتَعَفِّفٌ، ذُو عيالٍ...»**[١].

قولهُ: «أهلُ الجَنَّةِ ثَلاثةٌ»:

«أَي: ثَلاثةُ أَجْناسٍ منَ الأَشْخاصِ»[٢].

وقولهُ: «ذُو سُلْطانٍ»:

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: حُكْمٍ، قال الطِّيبيُّ: «أَي سُلْطانٍ؛ لأَنَّهُ ذُو قَهْرٍ، وغَلَبَةٍ، منَ السَّلاطَةِ، وهيَ التَّمَكُّنُ منَ القَهْرِ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ﴾ [النساء: ٩٠]، ومنهُ: سُمِّيَ السُّلطانُ»، وقيلَ: ذُو حُجَّةٍ؛ لأَنَّهُ يُقامُ الحُجَجُ به»[٣].

وقال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «السُّلطانُ: يَعُمُّ السُّلطَةَ العُلْيا، وما دونها»[٤].

وقولهُ: «مُقْسِطٌ»:

«أَي: عادِلٌ، يُقالُ: أَقْسَطَ فهُو مُقْسِطٌ: إذا عَدَلَ، وقَسَطَ فهُو قاسِطٌ: إذا جارَ»[٥].

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥) –واللفظ له–، وأحمد في مسنده (١٧٤٨٤)، وابنُ حِبَّان في صحيحهِ (٧٤٥٣).

(٢) مرقاة المفاتيح (٧/ ٣١٠٦).

(٣) المصدر السابق.

(٤) شرح رياض الصالحين (٣/ ٦٤٨).

(٥) مرقاة المفاتيح (٧/ ٣١٠٦).

وقال **أَبو مَنْصُورٍ الأَزْهَريُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «**القِسْطُ** -بِكَسْرِ القافِ-: العَدْلُ، والفِعْلُ منهُ أَقْسَطَ، بالأَلِفِ.

والقَسْطُ -بِفَتْحِ القافِ-: الجَورُ، يُقالُ منهُ: قَسَطَ، يَقْسِطُ، قَسْطًا، وقُسُوطًا»[١].

وقال **الزَّبيديُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «في العَدْلِ لُغَتانِ: قَسَطَ، وأَقْسَطَ، وفي الجَورِ لُغَةٌ واحِدَةٌ: قَسَطَ بِغيرِ أَلِفٍ، ومنهُ: قولهُ تعالى: ﴿**وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا**﴾ [الجن: ١٥]، قال الفَرَّاءُ: «هُمُ الجائِرُونَ الكُفَّارُ»[٢].

وقولُهُ: «مُتَصَدِّقٌ»:

«أَي: مُحْسِنٌ إلى الناسِ»[٣]، وهو المُعْطي الصَّدَقاتِ[٤].

وقولُهُ: «مُوَفَّقٌ»:

قال **القُرْطُبيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «المُوَفَّقُ: المُسَدَّدُ لِفِعْلِ الخَيراتِ»[٥].

وقال **القاري** رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيِ: الذي هُيِّئَ له أسبابُ الخَيرِ، وفُتِحَ له أَبْوابُ البِرِّ»[٦].

وقال **ابنُ عُثَيمينَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: مُهْتَدٍ لِما فيه التَّوفيقُ، والصَّلاحُ، وقد هُدِيَ إلى ما فيه الخَيرُ، فهذا من أَصْحابِ الجَنَّةِ»[٧].

فهذا هو الصِّنْفُ الأَوَّلُ: المُقْسِطُونَ مِمَّن لهم سُلْطانٌ، ووِلايَةٌ، على الناسِ -أَيَّ

---

(١) تهذيب اللغة (٨/ ٢٩٨).
(٢) تاج العروس (٢٠/ ٢٧).
(٣) مرقاة المفاتيح (٧/ ٣١٠٦).
(٤) التذكرة (ص٨٠٦).
(٥) المصدر السابق (ص٨٠٧).
(٦) مرقاة المفاتيح (٧/ ٣١٠٦).
(٧) شرح رياض الصالحين (٣/ ٦٤٨-٦٤٩).

وِلايَةٍ-، فَهُم يَعْدِلُونَ بينَ الناسِ، ويُحْسِنُونَ إليهم، ويَتَصَدَّقُونَ عليهِم، بخلافِ مَن يَجُورُ، ويَظْلِمُ الناسَ، ويُسيءُ إليهم.

وفي الصَّحيحَينِ، عن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ، يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ: الإمامُ العادِلُ...**» الحديثَ[1].

فَذَكَرَ الإمامَ العادِلَ أَوَّلَ السَّبْعَةِ الذينَ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يومَ القيامَةِ.

وفي هذا الحديثِ ذَكَرَ أَوَّلَ هَؤُلاءِ الثَّلاثةِ من أهلِ الجَنَّةِ: «**ذُو سُلْطانٍ مُقْسِطٌ**»؛ فَبانَ أنَّ العَدْلَ بينَ الناسِ من أَجَلِّ الأَعْمالِ، وأَزْكاها عندَ اللهِ، فيَنْفَعُ صاحِبَهُ يومَ القيامَةِ، فَيُظِلُّهُ اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ، والمُرادُ: يومَ القيامَةِ، إذا قامَ الناسُ لِرَبِّ العالَمِينَ، ودَنَت منهُمُ الشَّمْسُ، واشْتَدَّ عليهِم حَرُّها، وأَخَذَهُمُ العَرَقُ، ثُمَّ يُدْخِلُهُ اللهُ الجَنَّةَ في أَوَّلِ الداخِلينَ، بِرَحْمَتِهِ، وفَضْلِهِ.

وقولُهُ: «وَرَجُلٌ رَحيمٌ، رَقيقُ القلبِ، لِكلِّ ذي قُرْبَى، ومسلمٍ»:

وهذا هو الصِّنْفُ الثاني من أهلِ الجَنَّةِ:

«رَجُلٌ رَحيمٌ»:

أَي: على الصَّغيرِ، والكَبيرِ.

«رَقيقُ القلبِ لِكلِّ ذي قُرْبَى»: خُصُوصًا.

«وَمسلمٍ» أَي: لِكلِّ مسلمٍ عُمُومًا.

قال الطِّيبيُّ: «أَي: يَرِقُّ قلبُهُ، ويَرْحَمُ، لِكلِّ مَن بينِهِ وبينَهُ لُحْمَةُ القَرابَةِ، أَو صِلَةُ الإسلامِ»[2].

---

(١) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) شرح المِشكاة (١٠/ ٣١٧٩).

قال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والظاهِرُ: أَن يُرادَ بالرَّحيمِ صيغَةٌ فِعْليَّةٌ، يَظْهَرُ وجُودُها في الخارِجِ، وبِالرَّقيقِ صِفَةٌ قلبيَّةٌ، سَواءٌ ظَهَرَ أَثَرُها، أَم لا.

والثاني أَظْهَرُ، فَيكونُ باعتبارِ القُوَّةِ، والأَوَّلُ باعتبارِ الفِعْلِ.

ويُمْكِنُ أَن تَتَعَلَّقَ رَحْمَةُ الرَّحيمِ إلى المعنى الأَعَمِّ، منَ الإنْسانِ، والحَيَوانِ، فَيكونُ الثاني أَخَصَّ.

والحاصِلُ: أنَّ التَّأْسيسَ أَولى منَ التَّأْكيدِ»[١].

وقال ابنُ عَلَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**«ورَجُلٌ رَحيمٌ»**: منَ الرَّحْمَةِ، وهيَ مَيلٌ نَفْسانيٌّ إلى جانِبِ المَرْحُومِ.

«رَقيقُ القلبِ»: مِنَ الرِّقَّةِ، خلاف الغِلَظِ، والعُنْفِ، أَي: إنَّهُ لِصَفاءِ قلبِهِ، ورَحْمَتِهِ، اللَّتَينِ قامَتا به، خالٍ عنِ الغِلَظِ والعُنْفِ على الخَلائِقِ، بَل يَحْنُو عليهِم، ويُشْفِقُ في أَحْوالِهِمْ»[٢].

وقال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**«رَجُلٌ رَحيمٌ»**: يَرْحَمُ عِبادَ اللهِ، يَرْحَمُ الفُقَراءَ، يَرْحَمُ العَجَزَةَ، يَرْحَمُ الصِّغارَ، يَرْحَمُ كلَّ مَن يَسْتَحِقُّ الرَّحْمَةَ.

«رَقيقُ القلبِ»: لَيسَ قلبُهُ قاسيًا.

«لِكلِّ ذي قُرْبَى، ومسلمٍ»: وأَمَّا لِلْكُفَّارِ: فإِنَّهُ غَليظٌ عليهِم.

هذا أَيضًا من أهلِ الجَنَّةِ، أَن يكونَ هذا الإنْسانُ رَقيقَ القلبِ، يعني فيه لينٌ، وفيهِ شَفَقَةٌ على كلِّ ذي قُرْبَى، ومسلمٍ»[٣].

---

(١) مرقاة المفاتيح (٧/ ٣١٠٦).

(٢) دليل الفالحين (٥/ ١٢٥).

(٣) شرح رياض الصالحين (٣/ ٦٤٩).

وقال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا يُدْخِلُهُ الجَنَّةَ رَحْمَتُهُ لِلْخَلْقِ، ورِقَّةُ قلبِهِ، فَيُحْسِنُ إليهم، ولا يَظْلِمُهُمْ»[١].

والمَقْصُودُ: أنَّ هذا الصِّنْفَ من أهلِ الجَنَّةِ يَتَّصِفُ بالرَّحْمَةِ، ورِقَّةِ القلبِ:

على جِهَةِ العُمُومِ: لِكلِّ مَن يَسْتَحِقُّ الرَّحْمَةَ.

وعلى جِهَةِ الخُصُوصِ: لِكلِّ ذي قُرْبَى، ومسلمٍ.

وهذه الرَّحْمَةُ، والرِّقَّةُ، من صِفاتِ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

فعن مالِكِ بنِ الحُوَيرِثِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «**كان رسولُ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **رَحيمًا رَقيقًا**»[٢].

هذا لَفْظُ مسلمٍ، ولَفْظُ البُخاريِّ: «**وَكان رَحيمًا رَفيقًا**».

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَيِّنَ المُؤْنَةِ، لَيِّنَ الخُلُقِ، كَريمَ الطَّبْعِ، جَميلَ المُعاشَرَةِ، طَلْقَ الوَجْهِ، بَسَّامًا، مُتَواضِعًا من غيرِ ذِلَّةٍ، جَوادًا من غيرِ سَرَفٍ، رَقيقَ القلبِ، رَحيمًا بِكلِّ مسلمٍ، خافِضَ الجَناحِ لِلْمُؤْمنينَ، لَيِّنَ الجانِبِ لهمْ»[٣].

أمَّا أهلُ الكفرِ الذينَ يُحادُّونَ اللهَ، ورسولَهُ:

فَقَد قال اللهُ تعالى لِنَبيِّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَأْنِهِمْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ٧٣].

وقال لِعبادِهِ المؤمنينَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾ [التوبة: ١٢٣].

---

(١) كشف المشكل (٤/ ٢٤٤).

(٢) رواه البخاري (٦٢٨)، ومسلم (٦٧٤).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٣١٣).

وقولهُ: «وَعَفيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عيالٍ»:

هذا هو الصِّنْفُ الثالِثُ من أهلِ الجَنَّةِ.

قال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**العَفيفُ**: الذي يَكُفُّ يَدَهُ عمَّا لا يَحِلُّ له»[١].

«مُتَعَفِّفٌ»:

أي: عن سُؤالِ الناسِ.

قال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وَعَفيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عيالٍ**»: بالرَّفْعِ على أنَّهُ الثالِثُ منَ الثَّلاثةِ، أي: مُجْتَنِبٌ عمَّا لا يَحِلُّ، ومُتَعَفِّفٌ: أي: عنِ السُّؤالِ، مُتَوَكِّلٌ على المَلِكِ المُتَعالِ، في أَمْرِهِ، وأَمْرِ عيالِهِ، مع فَرْضِ وجُودِهِم، فإنَّهُ أَصْعَبُ؛ ولِهذا قال:

«ذُو عيالٍ»:

أي: لا يَحْمِلُهُ حُبُّ العيالِ، ولا خَوفُ رِزْقِهِم، على تَرْكِ التَّوَكُّلِ، بِارْتِكابِ سُؤالِ الخلقِ، وتَحْصيلِ المالِ الحَرامِ، والاِشْتِغالِ بهم عن العِلْمِ، والعَمَلِ، مِمَّا يَجِبُ عليهِ.

ويُحْتَمَلُ أنَّهُ أَشارَ بالعَفيفِ إلى ما في نَفْسِهِ منَ القُوَّةِ المانِعَةِ عنِ الفَواحِشِ، وبِالمُتَعَفِّفِ إلى إبْرازِ ذلك بالفِعْلِ، واسْتِعْمالِ تِلْكَ القُوَّةِ؛ لِإظْهارِ العِفَّةِ عن نَفْسِهِ»[٢].

وقال ابنُ عَلَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**«عَفيفٌ»**: بالطَّبْعِ عنِ السُّؤالِ، بِحَسَبِ أَصْلِ طَبْعِهِ.

«مُتَعَفِّفٌ»: مُبالِغٌ في ذلك بالاِكْتِسابِ، فَفيهِ إيماءٌ إلى أنَّ الأَخْلاقَ غَريزِيَّةٌ باعتبارِ أَصْلِها، وإنَّما تَزْكُو وتَنْمُو بالمُزاوَلَةِ.

«ذُو عيالٍ»:أي: إنَّهُ لِكمالِ يَقينِهِ، ووُثُوقِهِ بِمَولاهُ، لِتَضَمُّنِهِ بِأَرْزاقِ العِبادِ، فَضْلًا منهُ، لا يَسْأَلُ أَحَدًا»[٣].

---

(١) كشف المشكل (٤/ ٢٤٥).

(٢) مرقاة المفاتيح (٧/ ٣١٠٦-٣١٠٧).

(٣) دليل الفالحين (٥/ ١٢٥).

وقال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**رَجُلٌ عَفيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عيالٍ**»: يعني أنَّهُ فَقيرٌ، ولَكِنَّهُ مُتَعَفِّفٌ، لا يَسْأَلُ الناسَ شَيئًا، يَحْسَبُهُ الجاهِلُ غَنيًّا منَ التَّعَفُّفِ، وهو مع فَقْرِهِ عِنْدَهُ عائِلَةٌ، فَتَجِدُهُ صابِرًا مُحْتَسِبًا، يَكِدُّ على نَفْسِهِ؛ فهذا من أهلِ الجَنَّةِ»(١).

والشاهِدُ من هذا الحديثِ:

* أنَّ الرَّحْمَةَ، ورِقَّةَ القلبِ، والإحْسانَ إلى الناسِ، من أسبابِ دُخُولِ الجَنَّةِ.

* وأنَّ من أَصْنافِ أهلِ الجَنَّةِ: أهــلَ الرَّحْمَةِ، والرِّقَّةِ؛ كما قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّما يَرْحَمُ اللهُ من عِبادِهِ الرُّحَماءَ**»(٢).



(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٦٤٩).

(٢) رواه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).



الحديثُ الحادي والثلاثونَ:

عن أنس بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا يَسْتَقيمُ إيمانُ عبدٍ، حَتَّى يَسْتَقيمَ قلبُهُ، ولا يَسْتَقيمُ قلبُهُ، حَتَّى يَسْتَقيمَ لِسانُهُ»**[1].

وقوله: **«لا يَسْتَقيمُ إيمانُ عبدٍ، حَتَّى يَسْتَقيمَ قلبُهُ»:**

المرادُ باستقامَةِ الإيمانِ: استقامَةُ الجوارِحِ على طاعةِ اللهِ، وهذا لا يكونُ إلا باستقامَةِ القلبِ، فإنَّه -كما أسلَفْنا- المَلِكُ، والأعضاءُ جنودُهُ، فإذا استقامَ المَلِكُ، استقامَت جنودُهُ، وإذا انحرَفَ انحرَفَت جنودُهُ.

وتكونُ استقامَةُ القلبِ: بمحبَّةِ اللهِ ورسولِهِ، وحُبِّ ما يُحِبُّ اللهُ ورسولُهُ، وبُغْضِ ما يُبغِضُ اللهُ ورسولُهُ، وتَعلُّقِ القلبِ باللهِ؛ رجاءً، وخوفًا، وتوكُّلًا، وإنابةً، وعبوديةً.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**استقامَةُ القلبِ بشيئَينِ:**

أحدِهما: أن تكونَ محبَّةُ اللهِ تعالى تتقدَّمُ عندَه على جميعِ المَحابِّ، فإذا تعارَضَ حُبُّ اللهِ تعالى، وحبّ غيرِه، سبقَ حبُّ اللهِ تعالى حبَّ ما سواهُ، فترتّبَ على ذلك مُقتضاهُ.

(١) رواه أحمد (١٣٠٤٨)، وصححه الألباني.

ما أسهَلَ هذا بالدَّعوَى، وما أصعَبَه بالفِعلِ، فعندَ الامتحانِ يُكرَمُ المَرءُ أو يُهانُ.

وما أكثَرَ ما يقدِّمُ العبدُ ما يُحبُّه هوَ ويهواهُ، على ما يُحبُّه اللهُ تعالى.

وسُنَّةُ اللهِ تعالى فيمَن هذا شأنُهُ أن يُنكِّدَ علَيهِ محابَّهُ، ويُنغِّصَها علَيهِ، ولا ينالَ شيئًا منها إلَّا بنكدٍ، وتنغيصٍ، جزاءً لَه على إيثارِ هواهُ، وهوَى مَن يعظِّمُه منَ الخَلقِ، أو يُحبُّه على محبَّةِ اللهِ تعالى.

وقد قَضَى اللهُ تعالى قضاءً لا يُردُّ، ولا يُدفعُ: أنَّ مَن أحبَّ شيئًا سواهُ، عذِّبَ بهِ ولا بُدَّ، وأنَّ مَن خافَ غيرَهُ، سُلِّطَ عليهِ، وأنَّ مَنِ اشتغلَ بشيءٍ غيرِه، كان شؤمًا عليهِ، ومَن آثرَ غيرَه عليهِ، لم يُبارَكْ فيهِ، ومَن أرضَى غيرَه بسخطِهِ، أسخَطَه علَيهِ ولا بُدَّ.

الأمرُ الثاني الذي يستقيمُ بِهِ القلبُ: تعظيمُ الأمرِ، والنَّهيِ، وهو ناشئٌ عن تعظيمِ الآمِرِ الناهي، فإنَّ اللهَ تعالى ذمَّ مَن لا يعظِّمُ أمرَهُ، ونهيَهُ»[(١)].

وقال الحافظُ ابنُ رجبٍ الحنبليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أَصْلُ الِاسْتِقامَةِ**: اسْتِقامَةُ القلبِ على التَّوحيدِ، كما فَسَّرَ أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وغيرُهُ، قَولَهُ: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ**﴾ [الأحقاف: ١٣] بِأنَّهُم لم يَلْتَفِتُوا إلى غيرِه، فَمَتَى اسْتَقامَ القلبُ على مَعْرِفَةِ اللهِ، وعلى خَشْيَتِهِ، وإجْلالِهِ، ومَهابَتِهِ، ومحَبَّتِهِ، وإرادَتِهِ، ورَجائِهِ، ودُعائِهِ، والتَّوَكُّلِ عليهِ، والإعْراضِ عمَّا سِواهُ، اسْتَقامَتِ الجَوارِحُ كلُّها على طاعَتِهِ، فإنَّ القلبَ هو مَلِكُ الأَعْضاءِ، وهيَ جُنُودُهُ، فإذا اسْتَقامَ المَلِكُ، اسْتَقامَت جُنُودُهُ، ورَعاياهُ، وكذلك فُسِّرَ قولهُ تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا**﴾ [الروم: ٣٠] بِإخْلاصِ القَصْدِ للهِ، وإرادَتِهِ وحْدَهُ لا شَريكَ له»[(٢)].

---

(١) الوابل الصيب (ص٨).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٥١١).

قولهُ: «وَلا يَسْتَقيمُ قلبُهُ، حَتَّى يَسْتَقيمَ لِسانُهُ»:

عن سُفْيانَ بنِ عبدِ اللهِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قلتُ يا رسولَ اللهِ، أَخْبِرْني بِأَمْرٍ في الإسلامِ لا أَسْأَلُ عنهُ أَحَدًا بَعْدَكَ، قال: «**قُلْ: آمَنْتُ باللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ**»، قال: يا رسولَ اللهِ، فَأَيَّ شَيءٍ أَتَّقي؟ قال: فَأَشارَ بيَدِهِ إلى لِسانِهِ[١].

قال الحافظُ ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَعْظَمُ ما يُراعَى اسْتِقامَتُهُ بَعْدَ القلبِ منَ الجَوارِحِ: اللِّسانُ، فإنَّهُ تُرْجُمانُ القلبِ، والمُعَبِّرُ عنهُ؛ ولِهذا لَمَّا أَمَرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالِاسْتِقامَةِ، وصَّاهُ بَعْدَ ذلك بِحِفْظِ لِسانِهِ»[٢].

وعن أَبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا أَصْبَحَ ابنُ آدَمَ فإنَّ الأَعْضاءَ كلَّها تُكَفِّرُ اللِّسانَ**[٣]**، فَتَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فينا، فإنَّما نَحْنُ بِكَ، فإنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنا، وإنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنا**»[٤].

فإن قيلَ: كيفَ التَّوفيقُ بينَ هذا الحديثِ، وبينَ ما تقدَّمَ من كونِ استقامَةِ الأعضاءِ مُرتهنةً باستقامةِ القلبِ؛ لأنَّه أميرُها، وصَلاحها مُرتهنٌ بصلاحِهِ؟

قيلَ: هذا الحديثُ لا يُخالِفُ ما تقدَّمَ؛ لأنَّه يجعلُ استقامَةَ اللسانِ دليلًا على استقامَةِ القلبِ، كما جعلَ استقامةَ القلبِ دليلًا على استقامَةِ الإيمانِ.

قال يَحْيَى بنُ مُعاذٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «القلوبُ كالقُدُورِ في الصُّدُورِ، تَغْلي بِما فيها، ومَغارِفُها أَلْسِنَتُها، فانْتَظِرِ الرَّجُلَ حَتَّى يَتَكَلَّمَ، فإنَّ لِسانَهُ يَغْتَرِفُ لَكَ ما في قلبِهِ، من بينِ حُلْوٍ، وحامِضٍ، وعَذْبٍ، وأُجاجٍ، يُخْبِرُكَ عن طَعْمِ قلبِهِ اغْتِرافُ لِسانِهِ»[٥].

(١) رواه مسلم (٣٨)، وأحمد (١٥٤١٧)، واللفظ له.
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٥١١).
(٣) أي: تتذلَّلُ وتتواضعُ وتخضعُ له.
(٤) رواه الترمذي (٢٤٠٧)، وحسنه الألباني.
(٥) حلية الأولياء (١٠/ ٦٣).

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَي: كما تَطْعَمُ بِلِسانِكَ طَعْمَ ما في القُدُورِ منَ الطَّعامِ، فَتُدْرِكُ العِلْمَ بِحَقيقَتِهِ، كذلك تَطْعَمُ ما في قلبِ الرَّجُلِ من لِسانِهِ، فَتَذُوقُ ما في قلبِهِ من لِسانِهِ، كما تَذُوقُ ما في القِدْرِ بِلِسانِكَ»[1].

فالقلبُ إذا ذاقَ طعمَ الإيمانِ، تكلَّمَ اللسانُ بكلامِ أهلِ الإيمانِ، وانشَغَلَ بالذِّكرِ، وتلاوَةِ القُرآنِ، وإذا ضَعفَ الإيمانُ في القلبِ، وانشغَلَ بالهَوَى، انشَغَلَ اللسانُ بالباطِلِ.

فإذا وجدتَ الرَّجلَ يَلهَجُ بالذِّكرِ، وينشغِلُ بالتلاوةِ، علمتَ طهارَةَ قلبِهِ بما أوضحَهُ لسانُهُ، وإذا وجَدتهُ ينشغِلُ باللهوِ، ويُدَنْدِنُ بالغناءِ، علمْتَ انحرافَ قلبِهِ بما أوضَحَهُ لسانُهُ.



(١) الجواب الكافي (ص١٥٩).

الحديثُ الثاني والثلاثونَ:

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعو، يَقولُ: **«ربِّ أَعِنِّي ولا تُعِن عَلَيَّ، وانْصُرْني ولا تَنْصر عَلَيَّ، وامْكُر لي ولا تَمْكُر عَلَيَّ، واهْدِني ويَسِّرِ الهُدَى لي، وانْصُرْني على مَن بَغى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْني لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْواعًا، لَكَ مُخْبِتًا، إليكَ أَوَّاهًا مُنيبًا، رَبِّ تَقَبَّل تَوبَتي، واغْسِل حَوبَتي، وأَجِب دَعْوَتي، وثَبِّت حُجَّتي، وسَدِّد لِساني، واهْدِ قلبي، واسْلُل سَخيمَةَ قلبي»**[1].

وهذا الدّعاءُ من أجْمعِ الدُّعاءِ، وأشْمَلِهِ، وفيه سؤالُ كثيرٍ ممّا يكونُ به حياةُ القلبِ، منَ الهِدايةِ، والإِخْباتِ، والخوفِ، والإنابةِ، والتّوبةِ، والمَغفرةِ، والسّدادِ، وغيرِ ذلكَ.

قولهُ: «رَبِّ أَعِنِّي»:

أَي: وفِّقْني لِذِكْرِكَ، وشُكْرِكَ، وحُسْنِ عِبادَتِكَ.

وقيلَ: أَعِنِّي على الأَعْداءِ، وانْصُرْني عليهِم.

وقولهُ: «وَلا تُعِن عَلَيَّ»:

أَي: لا تُغَلِّب عَلَيَّ مَن يَمْنَعُني من طاعَتِكَ، من شَياطينِ الإنْسِ، والجِنِّ.

---

(١) رواه أبوداود (١٥١٠)، والترمذي (٣٥٥١)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابنُ ماجه (٣٨٣٠)، وابنُ حبَّان (٩٤٧)، والحاكمُ (١٩١٠)، وصححه، وصححه ابن القيم في الوابل الصيّب (ص١٤٧)، وكذا صححه الألباني في صحيح أَبي داود. وزاد ابن ماجه: «قال أبوالحسن الطنافسي: قلتُ لوكيعٍ: أقولهُ في قنوتِ الوترِ؟ قال: نعمْ».

وقيلَ: لا تُعِن عَلَيَّ الأَعْداءَ، فَيَقْهَرُوني، ويَمْنَعُوني من طاعَتِكَ.

وقولهُ: **«وانْصُرْني ولا تَنْصُر عَلَيَّ»**:

أَي: أَغْلِبْني على الكُفَّارِ، ولا تُغْلِبْهُم عَلَيَّ، أَوِ انْصُرْني على نَفْسي؛ فإنَّها أَعْدَى أَعْدائي، ولا تَنْصُرِ النَّفْسَ الأَمَّارَةَ عَلَيَّ، بِأَن أَتَّبعَ الهَوَى، وأَتْرُكَ الهُدَى.

وقولهُ: **«وامْكُر لي ولا تَمْكُر عَلَيَّ»**:

قال الطِّيبيُّ: «المَكْرُ: الخِداعُ، وهو منَ اللهِ إيقاعُ بَلائِهِ بِأَعْدائِهِ، من حَيثُ لا يَشْعُرُونَ.

وقيلَ: هو اسْتِدْراجُ العبدِ بالطاعَةِ، فَيَتَوَهَّمُ أنَّها مَقْبُولَةٌ، وهيَ مَرْدُودَةٌ».

وقال ابنُ المَلَكِ: «المَكْرُ: الحيلَةُ والفِكْرُ في دَفْعِ عَدُوٍّ، بِحَيثُ لا يَشْعُرُ به العَدُوُّ».

فالمعنى: اللهُمَّ اهْدِني إلى طَريقِ دَفْعِ أَعْدائي عَنِّي، ولا تَهْدِ عَدُوِّي إلى طَريقِ دَفْعِهِ إيَّايَ عن نَفْسِهِ[1].

فأَلْحِقِ اللّهمّ مَكْرَكَ بِأَعْدائي، لا بي.

وقال الشَّيخُ صالِحُ الفَوزانُ حَفِظَهُ اللهُ: «مَكْرُ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى هُوَ: إيصالُ العُقُوبَةِ إلى مَن يَسْتَحِقُّها من حَيثُ لا يَشْعُرُ، وهو عَدْلٌ منهُ سُبْحانَهُ وتعالى، وجَزاءٌ يُحْمَدُ عليهِ.

أَمَّا المَكْرُ منَ المَخْلُوقينَ: فهُو مَذْمُومٌ؛ لأَنَّهُ بِغيرِ حَقٍّ.

والمَكْرُ منَ اللهِ نَظيرُ الاِسْتِهْزاءِ: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

---

(١) شرح المشكاة (٦/ ١٩٢٥)، مرقاة المفاتيح (٥/ ١٧٢٣).

[البقرة: ١٥]، ونَظيرُ السُّخْريَةِ: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]، ونَظيرُ الكَيدِ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦]، ونَظيرُ النِّسْيانِ، في مِثْلِ قولِهِ: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

فَهذه أُمُورٌ تُنْسَبُ إلى اللهِ جَلَّ وعَلا؛ لأنَّها من بابِ المُقابَلَةِ، والجَزاءِ، فَهيَ عَدْلٌ منهُ سُبْحانَهُ وتَعالى؛ حَيثُ إنَّهُ يُنزلُها فيمَن يَسْتَحِقُّها، فَهيَ عَدْلٌ منهُ سُبْحانَهُ، بخلافِ هذه الصِّفاتِ منَ المَخْلُوقينَ، فإنَّها مَذْمُومَةٌ؛ لأنَّها في غيرِ محَلِّها، ولأنَّها ظُلْمٌ لِلْمَخْلُوقينَ»(١).

وقال الشَّيخُ عبدُ الرحمنِ بنُ ناصِرٍ البَرَّاك حفظه الله: «المَكْرُ، والكَيدُ: هو تَدْبيرٌ خَفيٌّ، يَتَضَمَّنُ إيصالَ الضَّرَرِ من حَيثُ يُظَنُّ النَّفْعُ.

فالذي يُريدُ أَن يَمْكُرَ يُظْهِرُ المَحَبَّةَ، ويُظْهِرُ الإحْسانَ، وهو يَتَّخِذُ ذلك وسيلَةً لِلْإيقاعِ بِخَصْمِهِ، وعَدُوِّهِ.

والمَكْرُ منَ الناسِ، منهُ المَحْمُودُ، والمَذْمُومُ، فإذا كان على وجْهِ العَدْلِ، فهُو محْمُودٌ، وإذا كان على وجْهِ الظُّلْمِ، والعُدْوانِ، فهُو مَذْمُومٌ.

أَمَّا المَكْرُ منَ اللهِ: فهُو كلُّهُ محْمُودٌ، وعَدْلٌ، وحِكْمَةٌ، فهُو يَمْكُرُ بالكافِرينَ مَكْرًا حَقيقيًّا، ويُدَبِّرُ تَدْبيرًا خَفيًّا، يُوصِلُ به العقابَ من حَيثُ يُظَنُّ الإنْعامُ»(٢).

وعنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «الكَبائِرُ: الإشْراكُ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ، والأَمْنُ من مَكْرِ اللهِ، والقُنُوطُ من رَحْمَةِ اللهِ، واليَأْسُ من رَوحِ اللهِ»(٣).

---

(١) إعانة المستفيد (٢/ ٧٠).

(٢) شرح العقيدة الواسطية (ص١٠٢) بترقيم الشاملة.

(٣) رواه البيهقي في الشُّعَبِ (٢/ ٣٤١)، وابنُ المنذر في تفسيرِهِ (٢/ ٦٦٧)، وهو صحيح عنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وسُئِلَ ثابتٌ البُنانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عنِ الإسْتِدْراجِ، فقال: «مَكْرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالعِبادِ المُضَيِّعينَ»[١].

وعن أَبي رافِعٍ، قال: «إنَّ إقامَةَ العبدِ على الذَّنْبِ يطْبَعُ على قلبِهِ، ويُكْتَبُ منَ الغافِلينَ، ومنَ الأَمْنِ لِمَكْرِ اللهِ: إقامَةُ العبدِ على الذَّنْبِ، يَتَمَنَّى على اللهِ المَغْفِرَةَ»[٢].

وقال الفُضَيلُ بنُ عياضٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يكونُ شُغُلَكَ في نَفْسِكَ، ولا يكونُ شُغُلَكَ في غيرِكَ، فَمَن كان شُغُلُهُ في غيرِهِ، فَقَد مُكِرَ به».

وقال الراغِبُ الأَصْفَهانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَكْرُ اللهُ قَد يكونُ تارَةً فِعْلًا يُقْصَدُ به مَصْلَحَةٌ، ويكونُ تارَةً جَزاءَ المَكْرِ، ويكونُ تارَةً بِأَن لا يُقَبِّحَ مَكْرَهُم في أَعْيُنِهِم، وذاكَ بِانْقِطاعِ التَّوفيقِ عنهُم، وتَزْيينِ ذلك في أَعْيُنِهِم، ويكونُ تارَةً بِإِعْطائِهِم ما يُريدُونَ من دُنْياهُم، فإذا أَعْطاهُم واسْتَعْمَلُوهُ على غيرِ ما يُحِبُّ، فَكَأَنَّهُ مَكَرَ بهم، واسْتَدْرَجَهُم من حَيثُ لا يَعْلَمُونَ، وهذا من معنى قولِهِ تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠]»[٣].

وقال الحافِظُ الذَّهَبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلُّ مَن لم يَخْشَ أَن يكونَ في النارِ، فهُو مَغْرُورٌ، قَد أَمِنَ مَكْرَ اللهِ به»[٤].

وقد أَطَلْنا النَّفَسَ في الكَلامِ عن هذه الصِّفَةِ العَظيمَةِ من صِفاتِ الرَّبِّ تَعالى؛ ليكونَ المسلمُ على حَذَرٍ، أَن يُمْكَرَ به من حَيثُ لا يَشْعُرُ.

ومِن جُمْلَةِ ما يَعْمَلُهُ العبدُ؛ حَذَرًا من أَن يُمْكَرَ به: أَن يَدْعُوَ بِهذا الدُّعاءِ الجامِعِ النافِعِ.

---

(١) الليلة والصفات للبيهقي (٢/ ٤٤٣).

(٢) التوبة لابن أبي الدنيا (ص٦٥).

(٣) تفسير الراغب الأصفهانيّ (٢/ ٥٨٨).

(٤) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٨٦).

وقولهُ: «واهْدِني»:

أَي: دُلَّني على الطاعَةِ؛ لِأَقُومَ بِها، وعلى عُيُوبِ نَفْسي؛ لِأُصْلِحَ من عَيبِ نَفْسي.

وقولهُ: «وَيَسِّرِ الهُدَى لي»:

أَي: وسَهِّلِ اتِّباعَ الهِدايَةِ أَو طُرُقَ الدَّلالَةِ لي؛ حَتَّى لا أَسْتَثْقِلَ الطاعَةَ، ولا أَشْتَغِلَ عنِ العِبادَةِ، ولا أَفْعَلَ ما لا يُرْضيكَ.

وقولهُ: «وانْصُرْني على مَن بَغَى عَلَيَّ»:

أَي: بالخُصُوصِ على مَن ظَلَمَني، وتَعَدَّى عَلَيَّ، وهو تَخْصيصٌ لِقولِهِ: (**وانْصُرْني**) في الأَوَّلِ.

وقد كان من دُعاءِ النبيِّ ﷺ: «**اللهُمَّ مَتِّعْني بِسَمْعي، وبَصَري، واجْعَلْهُما الوارِثَ منِّي، وانْصُرْني على مَن يَظْلِمُني، وخُذ منهُ بِثأْري**»[١].

وقولهُ: «رَبِّ اجْعَلْني لَكَ شَكَّارًا»:

قُدِّمَ المُتَعَلّقُ؛ لِلاهْتِمامِ، والاِخْتِصاصِ، أَو لِتَحْقيقِ مَقامِ الإِخْلاصِ[٢].

يعني: قال: «اجْعَلْني لَكَ شَكَّارًا» ولم يقل: «اجْعَلْني شَكَّارًا لَكَ»؛ فكَأَنَّهُ يَقُولُ: اجْعَلْني بِكلِّيَّتي، وجَمْعِيَّتي، وجَميعِ عَمَلي، لَكَ وحْدَكَ.

وقولهُ: «شَكَّارًا»:

أَي: كثيرَ الشُّكْرِ، ودائِمَهُ، على النَّعْماءِ، والآلاءِ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٠٦)، وهو حديثٌ صحيح، له طرقٌ متعدِّدةٌ.

(٢) ينظَر: مرقاة المفاتيح (٥/ ١٧٢٣).

قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَصْلُ الشُّكْرِ في وضْعِ اللِّسانِ: ظُهُورُ أَثَرِ الغِذاءِ في أَبْدانِ الحَيَوانِ، ظُهُورًا بَيِّنًا، يُقالُ: شَكِرَتِ الدابَّةُ تَشْكَرُ شَكَرًا، على وزْنِ سَمِنَت تَسْمَنُ: إذا ظَهَرَ عليها أَثَرُ العَلَفِ، ودابَّةٌ شَكُورٌ: إذا ظَهَرَ عليها منَ السِّمَنِ، فَوقَ ما تَأْكُلُ وتُعْطَى منَ العَلَفِ.

وكذلك حَقيقَتُهُ في العُبُوديَّةِ، وهُو: ظُهُورُ أَثَرِ نِعْمَةِ اللهِ على لِسانِ عبدِهِ؛ ثَناءً، واعْتِرافًا، وعلى قلبِهِ: شُهُودًا، ومَحَبَّةً، وعلى جَوارِحِهِ: انْقيادًا وطاعَةً.

والشُّكْرُ مَبْنِيٌّ على خَمْسِ قَواعِدَ: خُضُوعُ الشاكِرِ لِلْمَشْكُورِ، وحُبُّهُ له، واعْتِرافُهُ بِنِعْمَتِهِ، وثَناؤُهُ عليهِ بِها، وأَن لا يَسْتَعْمِلَها فيما يَكْرَهُ.

فَهذه الخَمْسُ هيَ أَساسُ الشُّكْرِ، وبِناؤُهُ عليها، فَمَتَى عدِمَ منها واحِدَة، اخْتَلَّ من قَواعِدِ الشُّكْرِ قاعِدَةٌ»[١].

وقولهُ: «لَكَ ذَكَّارًا»:

في الأَوقاتِ، والآناءِ، وذِكْرُ اللهِ يكونُ بالقلبِ، واللِّسانِ، والجَوارِحِ، وأَعْظَمُهُ، وأَفْضَلُهُ: ما كان بهم جَميعًا؛ فَيَنْشَغِلُ البَدَنُ كلُّهُ بِذِكْرِ اللهِ، ويَطْمَئِنُّ به.

وقال بعضُ أهلِ العِلْمِ: «الذِّكْرُ على سَبْعَةِ أَنْحاءٍ: فَذِكْرُ العَينَينِ بالبُكاءِ، وذِكْرُ الأُذُنَينِ بالإصْغاءِ، وذِكْرُ اللِّسانِ بالثَّناءِ، وذِكْرُ اليَدَينِ بالعَطاءِ، وذِكْرُ البَدَنِ بالوَفاءِ، وذِكْرُ القلبِ بالخَوفِ، والرَّجاءِ، وذِكْرُ الرُّوحِ بالتَّسْليمِ، والرِّضاءِ»[٢].

وقولهُ: «لَكَ رَهَّابًا»:

أَي: خائِفًا كثيرَ الخوفِ في السَّرَّاءِ، والضَّرَّاءِ.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٣٤).

(٢) فتح الباري (١١/ ٢٠٩).

وقولهُ: «لَكَ مِطْواعًا»:

مِفْعالٌ لِلْمُبالَغَةِ، أَي: كثير الطَّوعِ، وهو الاِنْقيادُ، والطاعَةُ، وفي روايةِ: «مُطيعًا إليكَ»[١] أي: مُنْقادًا.

وقولهُ: «لَكَ مُخْبِتًا»:

أَي: خاضِعًا، خاشِعًا، مُتَواضِعًا، منَ الخَبْتِ، وهو المطمئنُّ منَ الأَرْضِ، يُقالُ: أَخْبَتَ الرَّجُلُ إذا نَزَلَ الخَبْتَ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ الخَبْتُ اسْتِعْمالَ اللِّينِ، والتَّواضُعِ، قال تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هودٌ: ٢٣] أَي اطْمَأَنُّوا إلى ذِكْرِهِ، أَو سَكَنَت نُفُوسُهُم إلى أَمْرِهِ، وأُقيمَ اللامُ مَقامَ إلى؛ لِتُفيدَ الاِخْتِصاصَ، والإِخْلاصَ، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥][٢].

وقال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هودٌ: ٢٣]: «عُدِّي بـ «إلى»؛ تَضْمينًا لِمعنى الطُّمَأْنينَةِ، والإنابَةِ، والسُّكُونِ إلى اللهِ»[٣].

فَتارَةً يُعَدّى باللامِ: «لَكَ مُخْبِتًا»؛ لِيُفيدَ إخْلاصَ العامِلِ، وتارَةً يُعَدَّى بِإلى: ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ لِيُفيدَ معنى الطُّمَأْنينَةِ، والإنابَةِ إلى اللهِ.

فإذا أَخْلَصَ العامِلُ، وحَصَلَ العَمَلُ على التَّمامِ، كان القَبُولُ، والرِّضا منَ اللهِ تعالى.

وقال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَفْظُ الإخْباتِ يَتَعَدَّى بإلى وباللامِ، فإذا قُلْنا: أَخْبَتَ فُلانٌ إلى كَذا، فمعناهُ: اطْمَأَنَّ إليهِ، وإذا قُلْنا: أَخْبَتَ له، فمعناهُ: خَشَعَ له»[٤].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٥٠).

(٢) مرقاة المفاتيح (٥/ ١٧٢٣)، عون المعبود (٤/ ٢٦٣).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٦).

(٤) تفسير الرازي (١٧/ ٣٣٥).

وقولهُ: «إليكَ أَوَّاهًا»:

أَي: مُتَضَرِّعًا، فَعَّالٌ لِلْمُبالَغَةِ، من أَوَّهَ تَأْويهًا وتَأَوَّهَ تَأَوُّهًا، إذا قال: أَوَّه، وهو صَوتُ الحَزينِ، أَيِ: اجْعَلْني حَزينًا، ومُتَفَجِّعًا على التَّفْريطِ، أَو هو قَولُ النادِمِ من مَعْصيَتِهِ، المُقَصِّرِ في طاعَتِهِ.

وقيلَ: الأَوَّاهُ البَكَّاءُ.

وقولهُ: «مُنيبًا»:

أَي راجِعًا إليكَ، مُقْبِلًا عَلَيكَ، خاضِعًا لَكَ.

وقال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الإنابَةُ إنابَتانِ:**

إنابَةٌ لِرُبُوبيَّتِهِ، وهيَ إنابَةُ المَخْلُوقاتِ كلِّها، يَشْتَرِكُ فيها المؤمنُ، والكافِرُ، والبَرُّ، والفاجِرُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]، فهذا عامٌّ في حَقِّ كلِّ داعٍ أَصابَهُ ضُرٌّ، كما هو الواقِعُ، وهذه الإنابَةُ لا تَسْتَلْزِمُ الإسلامَ، بَل تُجامِعُ الشِّرْكَ، والكفرَ.

والإنابَةُ الثانيَةُ: إنابَةُ أَوليائِهِ، وهيَ إنابَةٌ لِإلَهيَّتِهِ، إنابَةَ عُبُوديَّةٍ، ومَحَبَّةٍ.

وهيَ تَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ: مَحَبَّتَهُ، والخُضُوعَ له، والإقْبالَ عليهِ، والإعْراضَ عمَّا سِواهُ، فلا يَسْتَحِقُّ اسْمَ المُنيبِ إلَّا مَنِ اجْتَمَعَت فيه هذه الأَرْبَعُ، وتَفْسيرُ السلفِ لِهذه اللَّفْظَةِ يَدُورُ على ذلك.

وفي اللَّفْظَةِ معنى الإسْراعِ، والرُّجُوعِ، والتَّقَدُّمِ، والمُنيبُ إلى اللهِ: المُسْرِعُ إلى مَرْضاتِهِ، الراجِعُ إليهِ كلَّ وقْتٍ، المُتَقَدِّمُ إلى مَحابِّهِ»[١].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٣٣).

وقال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَإنَّما اكْتُفيَ في قولِهِ: «**إليكَ أَوَّاهًا مُنيبًا**» بِصِلَةٍ واحِدَةٍ؛ لِكَونِ الإنابَةِ لازِمَةً لِلتَّأَوُّهِ، ورَديفًا له، فَكَأَنَّهُ شَيءٌ واحِدٌ، ومنهُ: قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]»[١].

وقولهُ: «رَبِّ تَقَبَّل توبَتي»:

بِجَعْلِها صَحيحَةً بِشَرائِطِها، واسْتِجْماعِ آدابِها؛ فإنَّها لا تَتَخَلَّفُ عن حَيِّزِ القَبُولِ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥].

وقيلَ: «أن تَكُونَ نَصُوحًا، فلا أَنْكُثُها أَبَدًا».

وقولهُ: «واغْسِل حَوبَتي»:

بِفَتْحِ الحاءِ وضَمِّها، أَيِ: امْحُ ذَنْبي، والحُوبُ، والحابُ: الإثْمُ، سُمِّيَ بِذلك؛ لِكَونِهِ مَزْجُورًا عنهُ، إذِ الحُوبُ في الأَصْلِ: لِزَجْرِ الإبِلِ.

وقولهُ: «وَأَجِب دَعْوَتي»:

أَي: دُعائي.

وقولهُ: «وَثَبِّت حُجَّتي»:

أَي: على أَعْدائِكَ في الدنيا، والعُقْبَى، أو ثَبِّت قَولي، وتَصْديقي في الدنيا، وعند جَوابِ المَلَكَينِ.

وقولهُ: «واهْدِ قلبي»:

أَي: إلى مَعْرِفَةِ رَبِّي، وطاعَتِهِ.

---

(١) شرح المشكاة (٦/ ١٩٢٦).

وقولهُ: «وَسَدِّد لِساني»:

أي: صَوِّب وقَوِّم لِساني؛ حَتَّى لا يَنْطِقَ إلَّا بالصِّدْقِ، ولا يَتكَلَّمَ إلَّا بالحَقِّ.

وقال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَسْديدُ اللِّسانِ: جَعْلُهُ ناطِقًا بالسَّدادِ منَ القَولِ»[١].

وقولهُ: «واسْلُل سَخيمَةَ قلبي»:

عادَ، فَذَكرَ القَلبَ، فَسألَهُ -أولًا- هِدايةَ قلبِه، ثُمّ سَألَهُ تَطهيرَه من الآفاتِ.

و«سَخيمَةَ قلبي»، أَي: غِشَّهُ، وغِلَّهُ، وحِقْدَهُ، وحَسَدَهُ، ونَحْوَ ذلك؛ مِمَّا يَنْشَأُ منَ الصَّدْرِ، ويَسْكُنُ في القلبِ، من مَساوِئِ الأَخْلاقِ.

قيلَ: السَّخيمَةُ: الضِّغْنُ، والحِقْدُ، منَ السُّخْمَةِ، وهو السَّوادُ، ومنهُ: سُخامُ القِدْرِ.

وقيلَ: السَّخيمَةُ: الضَّغينَةُ، وإضافَتُها إلى القلبِ؛ لأنَّ مَبْدَأَها القُوَّةُ الغَضَبيَّةُ التي في القلبِ.

وسَلُّها: إخْراجُها، وتَنْقيَةُ القلبِ منها، من سَلَّ السَّيفَ: إذا أَخْرَجَهُ منَ الغِمْدِ[٢].

والمقصود منَ الحديثِ:

بيانُ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَدْعُو رَبَّهُ أَن يهديَ قلبَهُ، ويَسْلُلَ سَخيمَتَهُ منهُ، فَيَخْشَعَ لِرَبِّهِ، ويُنيبَ إليهِ، ويَذْكُرَهُ، ويَشْكُرَهُ، ولا يَكْفُرَهُ.

وقد سَأَلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في هذا الدُّعاءِ أَن يُعينَهُ، ولا يُعينَ عليهِ، وأَن

---

(١) شفاء العليل (ص٥٦).

(٢) يُنظَر: شرح المشكاة (٦/ ١٩٢٦)، مرقاة المفاتيح (٥/ ١٧٢٣-١٧٢٤)، غذاء الألباب (١/ ١٢٦)، شرح أبي داود للعيني (٥/ ٤٢١)، حاشية السندي على ابن ماجه (٢/ ٤٢٩)، عون المعبود (٤/ ٢٦٣).

يَنْصُرَهُ، ولا يَنْصُرَ عليهِ، وأَن يَمْكُرَ له، ولا يَمْكُرَ عليهِ، وأَن يهديَهُ، ويُيَسِّرَ الهُدَى له، وأَن يَجْعَلَهُ شَكَّارًا، ذَكَّارًا، رَهَّابًا، مِطْواعًا، مُخْبِتًا، أَوَّاهًا، مُنيبًا، وأَن يَقْبَلَ اللهُ تَوبَتَهُ، ويَغْسِلَ حَوبَتَهُ، ويُجيبَ دَعْوَتَهُ، ويُثَبِّتَ حُجَّتَهُ، ويُسَدِّدَ لِسانَهُ، ويهديَ قلبَهُ، ويَسْلُلَ سَخيمَتَهُ.

فَجمعَ في هذا الدُّعاءِ خَيرَيِ الدنيا، والآخرةِ، **قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا الحديثُ من أَجْمَعِ الأَدْعيَةِ بِخَيرِ الدنيا، والآخرةِ»[١].

وقَول ابنِ عَبَّاسٍ: «كان النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو بِهذا الدُّعاءِ»، يُفيدُ أَنَّهُ كان يُكثِر من الدّعاءِ به.

قال ابنُ النَّجَّارِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلَفْظُ «كانَ» لِدَوامِ الفِعْلِ، وتَكْرارِهِ، فَتُفيدُ «كانَ» تَكَرُّرَهُ، أَي: تكَرُّرَ الفِعْلِ منهُ»[٢].

وقال الزَّرْكَشيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال القاضي أَبو بَكْرٍ: قَولُ الراوي: كان يَفْعَلُ كَذا، يُفيدُ في عُرْفِ اللُّغَةِ: تَكْثيرَ الفِعْلِ، وتَكْريرَهُ»[٣].



(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٦).

(٢) مختصر التحرير (٣/ ٢١٥).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٢٣٥).



الحديثُ الثالثُ والثلاثونَ:

عن عبدِ اللّهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَن كان في قلبِه مِثْقالُ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ من كِبْرٍ، ولا يَدْخُلُ النارَ مَن كان في قلبِه مِثْقالُ خَرْدَلَةٍ من إيمانٍ»**[١].

وقال التِّرْمِذيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **عَقِبَ رِوايَتِهِ**: «قال بعضُ أهلِ العِلْمِ في تَفْسيرِ هذا الحديثِ: إنَّما مَعْناهُ: لا يُخَلَّدُ في النارِ».

وقال الشَّوكانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحديثُ يَدُلُّ على أنَّ الكِبْرَ مانِعٌ من دُخُولِ الجَنَّةِ، وإن بَلَغَ في القِلَّةِ إلى الغايَةِ»[٢].

وقال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المِثْقالُ: مِفْعالٌ، منَ الثِّقَلِ، ومِثْقالُ الشَّيءِ: زِنَةُ الشَّيءِ، يُقالُ: هذا على مِثْقالِ هذا، أَي: على وزْنِهِ، وقَرَأْتُ على شَيخِنا أَبي مَنْصُورٍ اللُّغَويِّ، فقال: «يَظُنُّ الناسُ أنَّ المِثْقال وزْنُ دينارٍ لا غيرَ، ولَيسَ كما يَظُنُّونَ، مِثْقالُ كلِّ شَيءٍ وزْنُهُ، وإن كان وزْنَ أَلْفٍ»[٣].

والخَرْدَلُ: نَباتٌ عُشْبيٌّ، يَنْبُتُ في الحُقُولِ، وعلى حَواشي الطُّرُقِ، تُسْتَعْمَلُ

---

(١) رواه مسلم (٩١)، وأبوداود (٤٠٩١) -واللفظ له-، والترمذي (١٩٩٩)، وابنُ ماجه (٥٩)، وأحمد (٣٧٨٩).

(٢) نيل الأوطار (٢/ ١٢٩).

(٣) كشف المشكل (١/ ٣٢١).



بُزُورُهُ في الطِّبِّ، ومنهُ: بُزُورٌ يُتبَّلُ بها الطَّعامُ، الواحِدَةُ خَرْدَلَةٌ، ويُضْرَبُ به المَثَلُ في الصِّغَرِ، فيقالُ: ما عِنْدي خَرْدَلَةٌ من كَذا[1].

وقال المُناويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخَرْدَلُ: أَصْغَرُ الحُبُوبِ قَدْرًا»[2].

فَعلى ذلك: ما تَأْويلُ قولِهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَن كان في قلبِهِ مِثْقالُ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ من كِبْرٍ**»؟

قال النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**اخْتُلِفَ في تَأْويلِهِ؛** فَذَكَرَ الخَطَّابيُّ فيه وجْهَينِ:

أَحَدُهُما: أنَّ المُرادَ: التَّكَبُّرُ عنِ الإيمانِ، فَصاحِبُهُ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَصْلًا إذا ماتَ عليهِ.

والثاني: أنَّهُ لا يكونُ في قلبِهِ كِبْرٌ حالَ دُخُولِهِ الجَنَّةَ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ**﴾ [الأعراف: ٤٣].

وهذانِ التَّأْويلانِ فيهما بُعْدٌ؛ فإنَّ هذا الحديثَ ورَدَ في سياقِ النَّهْيِ عنِ الكِبْرِ المَعْرُوفِ، وهو الاِرْتِفاعُ على الناسِ، واحْتِقارُهُم، ودَفْعُ الحَقِّ؛ فلا يَنْبَغي أَن يُحْمَلَ على هَذَينِ التَّأْويلَينِ المُخْرِجَينِ له عنِ المَطْلُوبِ، بَلِ الظاهِرُ ما اخْتارَهُ القاضي عياضٌ، وغيرُهُ منَ المُحَقِّقينَ: أَنَّهُ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ دُونَ مُجازاةٍ، إن جازاهُ.

وقيلَ: هذا جَزاؤُهُ لَو جازاهُ، وقد يَتَكَرَّمُ بِأَنَّهُ لا يُجازيهِ، بَل لا بُدَّ أَن يَدْخُلَ كلُّ المُوَحِّدينَ الجَنَّةَ، إمَّا أَوَّلًا، وإمَّا ثانيًا، بَعْدَ تَعْذيبِ بعضِ أَصْحابِ الكَبائِرِ، الذينَ ماتُوا مُصِرِّينَ عليها.

وقيلَ: لا يَدْخُلُها مع المُتَّقينَ أَوَّلَ وهْلَةٍ.

---

(١) المعجم الوسيط (١/ ٢٢٥).

(٢) فيض القدير (٢/ ٣٦٠).

وأمَّا قولهُ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«لا يَدْخُلُ النارَ مَن في قلبِهِ مِثْقالُ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ من إيمانٍ»**، فالمُرادُ به: دُخُولُ الكُفَّارِ، وهو دُخُولُ الخُلُودِ»[1].

وقال ابنُ قُتَيبَةَ رَحِمَهُٱللَّهُ: «هذا الكَلامُ خَرَجَ مخرَجَ الحُكْمِ، يُريدُ: ليس حُكْم مَن كان في قلبِهِ مِثْقالُ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ من إيمانٍ، أَن يَدْخُلَ النارَ، ولا مَن كان في قلبِهِ مِثْقالُ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ من كِبْرٍ، أَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ؛ لأَنَّ الكِبْرياءَ للهِ تعالى، ولا تكُونُ لِغيرِهِ.

فإذا نازَعَها اللهَ تعالى، لم يَكُن حُكْمُهُ أَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ، واللهُ تعالى يَفْعَلُ بَعْدَ ذلك ما يَشاءُ.

ومِثْلُ هذا منَ الكَلامِ قَولُكَ -في دارٍ رَأَيتَها صَغيرَةً-: «لا يَنْزِلُ في هَذه الدارِ أَميرٌ»، تُريدُ: حُكْمُها، وحُكْمُ أَمْثالِها، أَن لا يَنْزِلَها الأُمَراءُ، وقد يَجُوزُ أَن يَنزِلُوها.

وقولُكَ: «هذا بَلَدٌ لا يَنزِلُهُ حُرٌّ»، تُريدُ: ليس حُكْمُهُ أَن يَنزِلَهُ الأَحْرارُ، وقد يَجُوزُ أَن يَنْزِلُوهُ.

وكذلك قولهُ تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣]، أَي: حُكْمُهُ أَن يَجْزِيَهُ بِذلك، واللهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ، وهو على حديثِ أنسِ بنِ مالِكٍ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«مَن وعَدَهُ اللهُ على عَمَلٍ ثوابًا؛ فهُو مُنْجِزُهُ لَهُ، ومَن وعَدَهُ على عَمَلٍ عقابًا؛ فهُو فيه بالخيار»**[2]»[3].

وقال شيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُٱللَّهُ: «الكِبْرُ المُبايِنُ لِلْإيمانِ لا يَدْخُلُ صاحِبُهُ الجَنَّةَ، كما في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

---

(١) شرح النووي على مسلم (٢/ ٩١).

(٢) رواه أبويعلى (٣٣١٦)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٤٦٣).

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص١٨٤) بتصرف يسير.

ومِن هذا: كِبْرُ إبْليسَ، وكِبْرُ فِرْعَونَ، وغيرِهما، ممَّن كان كِبْرُهُ مُنافيًا لِلْإيمانِ، وكذلك كِبْرُ اليَهُودِ، والذينَ أخبرَ اللهُ عنهُم بِقولِهِ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

والكِبْرُ كلُّهُ مُباينٌ لِلْإيمانِ الواجِبِ، فَمَن في قلبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ، لا يَفْعَلُ ما أَوجَبَ اللهُ عليهِ، ويَتْرُكُ ما حَرَّمَ عليهِ، بَل كِبْرُهُ يُوجِبُ له جَحْدَ الحَقِّ، واحْتِقارَ الخلقِ.

فَمَن في قلبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ من هذا، يُوجِبُ له أَن يَجْحَدَ الحَقَّ، الذي يَجِبُ عليهِ أَن يُقِرَّ به، وأَن يَحْتَقِرَ الناسَ، فَيكون ظالِمًا لهم، مُعْتَديًا عليهِم، فَمَن كان مُضَيِّعًا لِلْحَقِّ الواجِبِ، ظالِمًا لِلْخَلْقِ، لم يَكُن من أهلِ الجَنَّةِ، ولا مُسْتَحِقًّا لَهَا، بَل يكونُ من أهلِ الوَعيدِ.

فَقولُهُ: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ**» مُتَضَمِّنٌ لِكَونِهِ ليس من أهلِها، ولا مُسْتَحِقًّا لَهَا، لَكِن إن تابَ، أَو كانَت له حَسَناتٌ ماحيَةٌ لِذَنْبِهِ، أَو ابْتَلاهُ اللهُ بِمَصائِبَ كَفَّرَ بها خَطاياهُ، ونَحْو ذلك، زالَت ثَمَرَةُ هذا الكِبْرِ المانِعِ له من الجَنَّةِ، فَيَدْخُلُها، أَو غَفَرَ اللهُ له بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، فلا يَدْخُلُها ومَعَهُ شَيءٌ من الكِبْرِ؛ ولِهذا قال مَن قال في هذا الحديثِ، وغيرِهِ: إنَّ المَنْفيَّ هو الدُّخُولُ المُطْلَقُ الذي لا يكونُ مَعَهُ عَذابٌ، لا الدُّخُولُ المُقَيَّدُ الذي يَحْصُلُ لِمَن دَخَلَ النارَ، ثُمَّ دَخَلَ الجَنَّةَ؛ فإنَّهُ إذا أُطْلِقَ في الحديثِ: فُلانٌ في الجَنَّةِ، أَو: فُلانٌ من أهلِ الجَنَّةِ، كان المَفْهُومُ أَنَّهُ يَدْخُلُ الجَنَّةَ، ولا يَدْخُلُ النارَ.

فإذا تَبَيَّنَ هذا، كان مَعْناهُ: أَنَّ مَن كان في قلبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ، ليس هو من أهلِ الجَنَّةِ، ولا يَدْخُلُها بِلا عَذابٍ، بَل هو مُسْتَحِقٌّ لِلْعَذابِ لِكِبْرِهِ، كما يَسْتَحِقُّها غيرُهُ من أهلِ الكَبائِرِ، ولَكِن قَد يُعَذَّبُ في النارِ ما شاءَ اللهُ، فإنَّهُ لا يَخْلُدُ في النارِ أَحَدٌ من أهلِ التَّوحيدِ.

وهذا كَقولِهِ: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قاطِعُ رَحِمٍ**»[١]، وقولِهِ: «**لا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحابُّوا، أَلا أَدُلُّكُم على شَيءٍ إذا فَعَلْتُمُوهُ تَحابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بينكُمْ**»[٢].

وأَمْثالِ هذا من أَحاديثِ الوَعيدِ.

وعلى هذا: فالحديثُ عامٌّ في الكُفَّارِ، وفي المسلمينَ»[٣].

وقال السِّنْديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَعَلَّ المُرادَ: لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَوَّلًا، والمُرادُ بالثاني: لا يُخَلَّدُ في النارِ.

وقيلَ: المُرادُ بالكِبْرِ: التَّرَفُّعُ، والتَّأَبِّي، عن قَبُولِ الحَقِّ، والإيمانِ، فَيكونُ كُفْرًا؛ فَلذلك قُوبِلَ بالإيمان.

أَوِ المُرادُ: أَنَّ مَن يَدْخُلُ الجَنَّةَ، يَخْرُجُ من قلبِهِ الكِبْرُ حينَئِذٍ؛ كَقولِهِ تعالى: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ**﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقيلَ: يُحْتَمَلُ أَنَّهُ مُبالَغَةٌ في التَّثَبُّتِ على الإيمانِ، والتَّشْديدِ على الكِبْرِ»[٤].

وقال الشَّيخُ ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**معنى الحديثِ:** أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخْبِرُ أَنَّهُ «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَن في قلبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ**»، وهذا النَّفْيُ لِدُخولِ الجَنَّةِ على نَوعَينِ:

فإن كان هذا الكِبْرُ مُقْتَضيًا لِكُفْرِهِ، وخُرُوجِهِ عنِ الإسلامِ، كما لَو تَكَبَّرَ عن

---

(١) رواه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦).

(٢) رواه مسلم (٥٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٧٧-٦٧٩).

(٤) حاشية السندي على ابنِ ماجه (١/ ٣٠).

شَريعَةِ اللهِ، ورَدَّها، أَو رَدَّ بعضَها، فإنَّ هذا النَّفْيَ نَفْيٌ لِلدُّخُولِ بالكلِّيَّةِ؛ لأنَّ الكافِرَ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَبَدًا، ومَأْواهُ النارُ، خالِدًا فيها مُخَلَّدًا.

أَمَّا إذا كان الكِبْرُ تَكَبُّرًا على الخلقِ، وعَدَم الخُضُوعِ لما يَجِبُ عليهِ نَحْوَهُم، بِدُونِ رَدٍّ لِشَريعَةِ اللهِ، ولَكِن طُغْيانًا، وإثْمًا: فإنَّ نَفْيَ الدُّخُولِ هُنا نَفْيٌ لِلدُّخُولِ الكامِلِ، أَي: أَنَّهُ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ دُخُولًا كامِلًا، حَتَّى يُعاقَبَ على ما أَضاعَ من حُقُوقِ الناسِ، ويُحاسَبَ عليهِ؛ لأنَّ حُقُوقَ الناسِ لا بُدَّ أَن تُسْتَوفَى كامِلَةً»[1].

والخُلاصَةُ:

أنَّ الكِبْرَ من آفاتِ القلوبِ الماحِقَةِ:

* فإن كان تكَبُّرًا عنِ الطاعَةِ، والعِبادَةِ؛ بِجَحْدِ الحَقِّ، وعَدَمِ اتِّباعِهِ: خُلِّدَ صاحِبُهُ في النارِ.

* وإن كان تَكَبُّرًا على الخلقِ بِاحْتِقارِهِم، والتَّرَفُّعِ عليهِمْ: فَصاحِبُهُ لا يَسْتَحِقُّ دُخُولَ الجَنَّةِ لِأَوَّلِ وهْلَةٍ، مع الداخِلينَ منَ البَرَرَةِ المُتَّقينَ، ولَكِنَّهُ يَسْتَحِقُّ العقابَ، ودُخُولَ النارِ، فهذا جَزاؤُهُ إن جازاهُ اللهُ، ثُمَّ اللهُ تعالى فيه بَعْدُ بالخيارِ: إن شاءَ جازاهُ بِما يَسْتَحِقُّهُ، فَيَدْخُلُ النارَ حينًا مع عُصاةِ المُوَحِّدينَ، ثُمَّ يَخْرُجُ منها، ويَدْخُلُ الجَنَّةَ، وإن شاءَ عَفا عنهُ، وغَفَرَ له، ولم يُعَذِّبْهُ في النارِ.

أَمَّا مَن كان في قلبِهِ مِثْقالُ خَرْدَلَةٍ من إيمانٍ: فإنَّهُ لا يَدْخُلُ النارَ دُخُولَ الكافِرينَ على التَّأْبيدِ، فإن دَخَلَها بِذُنُوبِهِ، خَرَجَ منها يَومًا منَ الدَّهْرِ بإيمانِهِ، وإن كان على زِنَةِ حَبَّةِ الخَرْدَلِ؛ كما روى البُخاريُّ، عن أَبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ

(١) فتاوى نور على الدرب (٦/ ٢) بترقيم الشاملة.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**يَدْخُلُ أهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وأهلُ النارِ النارَ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تعالى: أَخْرِجُوا منَ النارِ مَن كان في قلبِهِ مِثْقالُ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ من إيمانٍ**»(١).

وعن أَبِي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن قال: لا إلَهَ إلَّا اللهُ، نَفَعَتْهُ يَومًا من دَهْرِهِ، أَصابَهُ قبل ذلك ما أَصابَهُ**»(٢).

فتبين بهذا الحديثِ أنَّ قلبَ ابنِ آدمَ مستودعٌ عظيمُ الشأنِ:

إنِ اسْتُودِعَ الإيمانَ -ولو كَمِثْقالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ- دَخَلَ صاحِبُهُ الجَنَّةَ يَومًا منَ الدَّهْرِ، وإن أَصابَهُ قبل ذلك ما أَصابَهُ.

وإنِ اسْتُودِعَ الكِبْرَ -ولو كَمِثْقالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ- كان جَزاؤُهُ الذي يَسْتَحِقُّهُ الحِرْمانَ من دُخُولِ الجَنَّةِ مع الداخِلينَ لأوّل وهلةٍ، مع ما قَد يُصيبُهُ بسببِ كِبْرِهِ من عَذابِ اللهِ.

فإن كان كِبْرُهُ كِبْرَ جُحُودٍ، ودَفْعٍ لِلْحَقِّ، خُلِّدَ صاحِبُهُ في النارِ.



---

(١) رواه البخاري (٢٢).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٦٣٩٦)، والبيهقي في الشُّعَبِ (٩٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٣٤).



الحديثُ الرابعُ والثلاثونَ:

عنِ الأَغَرِّ المُزَنيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وَكانَت له صُحْبَةٌ- أنَّ رسولَ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: **«إنَّهُ لَيُغانُ على قلبي، وإنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللّهَ في اليَومِ مِائَةَ مَرَّةٍ»**[(١)].

وهذا من تمامِ عبوديَّتِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لتتمَّ له جُملةُ المَراقي النبويَّةِ، وكمالاتِ المعارِفِ الربانيَّةِ، فإنَّه كان ربَّما فتَرَ عنِ الذِّكرِ الذي من شأنِهِ أن يُداومَ علَيه؛ لِعلَّةٍ عارضةٍ، فيستدركُ ذلك بكثرةِ الاستغفارِ.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهُو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِكمالِ عُبُوديَّتِهِ للهِ، وكمالِ مَحبَّتِهِ له، وافْتِقارِهِ إليهِ، وكمالِ تَوبَتِهِ، واسْتِغْفارِهِ: صارَ أَفْضَلَ الخلقِ عندَ اللهِ ، فإنَّ الخيرَ كلَّهُ من اللهِ، ولَيسَ لِلْمَخْلُوقِ من نَفْسِهِ شَيءٌ، بَل هو فَقيرٌ من كلِّ وجْهٍ، واَللهُ غَنيٌّ عنهُ من كلِّ وجْهٍ، مُحْسِنٌ إليهِ من كلِّ وجْهٍ، فَكلَّما ازْدادَ العبدُ تَواضُعًا، وعُبُوديَّةً، ازْدادَ إلى اللهِ قُرْبًا، ورِفْعَةً، ومن ذلك: تَوبَتُهُ، واسْتِغْفارُهُ»[(٢)].

وقد اختلفَت عباراتُ العلماءِ في تفسيرِ «الغينِ» المذكُورِ:

فقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال عياضٌ: المُرادُ بالغَينِ: فَتَراتٌ عنِ الذِّكْرِ الذي شَأْنُهُ أن يُداوِمَ عليهِ، فإذا فَتَرَ عنهُ لِأَمْرٍ ما، عَدَّ ذلك ذَنْبًا فاسْتَغْفَرَ عنهُ، وقيلَ: هو شَيءٌ يَعْتَري القلبَ مِمَّا يَقَعُ من حديثِ النَّفْسِ.

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٥٧).



وقيلَ: هو السَّكينَةُ التي تَغْشَى قلبَهُ، والاِسْتِغْفارُ لِإظْهارِ العُبُوديَّةِ للهِ، والشُّكْرِ لِما أَولاهُ.

وقيلَ: هيَ حالَةُ خَشْيَةٍ، وإعْظامٍ، والاِسْتِغْفارُ شُكْرُها»[١].

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الغَينُ: حِجابٌ رَقيقٌ، أَرَقُّ من الغَيمِ، فَأخبرَ أنَّهُ يَسْتَغْفِرُ اللهَ اسْتِغْفارًا، يُزيلُ الغَينَ عن القلبِ، فلا يَصيرُ نُكْتَةً سَوداءَ، كما أنَّ النُّكْتَةَ السَّوداءَ إذا أُزيلَت لا تَصيرُ رَينًا»[٢].

وقال ابنُ المَلَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قيلَ: لَمَّا كان أَتَمَّ القلوبِ صَفاءً، وأَكْثَرَها ضياءً، وكان لم يَكُن له بُدٌّ منَ النُّزُولِ إلى الرُّخَصِ، والاِلتِفاتِ إلى حُظُوظِ النَّفْسِ، من مُعاشَرَةِ الأَزْواجِ، والأَكْلِ، والشُّرْبِ، والنَّومِ، ونَحْوِها، وكان إذا أَعْطَى شَيئًا نَفْسَهُ، أَسْرَعَ كُدُورَتُهُ إلى القلبِ؛ لِكمالِ رِقَّتِهِ، وفَرْطِ نُورانيَّتِهِ، فَكان إذا أَحَسَّ لِشَيءٍ من ذلك، يَلُومُ نَفْسَهُ بِتَرْكِ كمالِ الحُضُورِ، ويَعُدُّهُ تَقْصيرًا، ويَسْتَغْفِرُ منهُ»[٣].

وقال ابنُ الأثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَرادَ: ما يَغْشاه منَ السَّهْوِ الذي لا يَخْلو منهُ البَشَر؛ لأنَّ قلبَهُ -أَبَدًا- كان مَشْغولًا باللهِ تعالى، فإن عَرَض له -وَقْتًا ما- عارِضٌ بشريٌّ يَشْغله، من أُمُورِ الأُمَّةِ، والمِلَّةِ، ومَصالِحِهما، عَدَّ ذلك ذَنْبًا، وتَقْصيرًا، فَيَفْزَعُ إلى الاسْتغفارِ»[٤].

وقال أبو العبَّاسِ الفيوميُّ: «في حديثٍ: «وَإِنَّهُ لَيُغانُ على قلبي» كِنايَةً عن الاِشْتِغالِ عن المُراقَبَةِ بالمَصالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فإنَّها وإن كانَت مُهِمَّةً، فَهيَ في مُقابَلَةِ الأُمُورِ الأُخْرَوِيَّةِ، كاللهْوِ عندَ أهلِ المُراقَبَةِ»[٥].

---

(١) فتح الباري (١١/ ١٠١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٨٣).

(٣) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٦١٠).

(٤) النهاية (٣/ ٤٠٣).

(٥) المصباح المنير (٢/ ٤٦٠).

قولُهُ: «وَإنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ في اليَومِ مِائَةَ مَرَّةٍ»:

وفي لفظٍ: «**يا أَيُّها الناسُ تُوبُوا إلى اللهِ، فإنِّي أَتُوبُ في اليَومِ إليهِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»[١].

وعنِ ابنِ عُمَرَ، قال: إن كُنَّا لَنَعُدُّ لِرسولِ اللهِ ﷺ في المَجْلِسِ الواحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: «**رَبِّ اغْفِر لي، وتُب عَلَيَّ، إنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحيمُ**»[٢].

وعَن أبي هريرةَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**واللهِ إنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إليهِ في اليَومِ، أَكْثَرَ من سَبْعينَ مَرَّةً**»[٣].

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَيَحْتَمِلُ أَن يُريدَ المُبالَغَةَ، ويَحْتَمِلُ أَن يُريدَ العَدَدَ بِعَينِهِ، وقولهُ: «أَكْثَرَ» مُبْهَمٌ، فَيَحْتَمِلُ أَن يُفَسَّرَ بِحديثِ ابن عُمَرَ المَذْكُورِ، وأَنَّهُ يَبْلُغُ المِائَةَ»[٤].

فإن قيلَ: ما وجهُ استغفارِ النبيِّ ﷺ، وقد غَفَرَ اللهُ لهُ ما تقدَّم من ذنبِهِ، وما تأخَّرَ؟

قيلَ: للعلماءِ في ذلك أقوالٌ:

فقال ابنُ حبَّان البُسْتيُّ الحافِظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان اسْتِغْفارُ رسولِ اللهِ ﷺ؛ لِتَقْصيرِهِ في الطاعاتِ التي وظَّفَها على نَفْسِهِ؛ لأَنَّهُ ﷺ كان من أَخْلاقِهِ إذا عَمِلَ خَيرًا، أَن يُثْبِتَهُ فَيَدُومَ عليهِ، فَرُبَّما اشْتَغَلَ في بعضِ الأَوقاتِ عن ذلك الخَيرِ، الذي كان يُواظِبُ عليهِ بِخَيرٍ آخَرَ، مِثْلُ اشْتِغالِهِ بِوَفْدِ بَني تَميم، والقِسْمَةِ فيهم عنِ الرَّكْعَتَينِ اللَّتَينِ كان يُصَلِّيهما بَعْدَ الظُّهْرِ، فَلَمَّا صَلَّى العَصْرَ أَعادَهُما، فكان اسْتِغْفارُهُ ﷺ لِلتَّقْصيرِ في خَيرٍ اشْتَغَلَ عنهُ بِخَيرٍ ثانٍ، على حَسَبِ ما وصَفْنا»[٥].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢).

(٢) رواه أبوداود (١٥١٦)، وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٦٣٠٧).

(٤) فتح الباري (١١/ ١٠١).

(٥) صحيح ابن حبان (٣/ ٢٠٩).

وقال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هَفَواتُ الطِّباعِ البَشَرِيَّةِ لا يَسْلَمُ منها أَحَدٌ، والأَنْبياءُ -وَإِن عُصِمُوا منَ الكَبائِرِ- فَلم يُعْصَمُوا منَ الصَّغائِرِ»[١].

وقيل: إنَّ اسْتِغْفارَهُ تَشْريعٌ لِأُمَّتِهِ، أَو من ذُنُوبِ الأُمَّةِ، فهُو كالشَّفاعَةِ لهم.

وقال الغَزاليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ دائِمَ التَّرَقِّي، فإذا ارْتَقَى إلى حالٍ، رَأَى ما قَبْلَها دُونَها، فاسْتَغْفَرَ منَ الحالَةِ السابِقَةِ».

وقال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأَنْبياءُ أَشَدُّ الناسِ اجْتِهادًا في العِبادَةِ؛ لِما أَعْطاهُمُ اللهُ تعالى منَ المعرفةِ، فَهُم دائِبُونَ في شُكْرِهِ، مُعْتَرِفُونَ له بالتَّقْصيرِ».

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ومُحَصَّلُ جَوابِهِ**: أنَّ الاِسْتِغْفارَ منَ التَّقْصيرِ في أَداءِ الحَقِّ الذي يَجِبُ للهِ تعالى.

ويَحْتَمِلُ أَن يكونَ لِاشْتِغالِهِ بالأُمُورِ المُباحَةِ، من أَكْلٍ، أَو شُرْبٍ، أَو جِماعٍ، أَو نَومٍ، أَو راحَةٍ، أَو لِمُخاطَبَةِ الناسِ، والنَّظَرِ في مَصالِحِهِم، ومُحارَبَةِ عَدُوِّهِم تارَةً، ومُداراتِهِ أُخْرَى، وتَأْليفِ المُؤَلَّفَةِ، وغيرِ ذلك مِمَّا يَحْجُبُهُ عنِ الاِشْتِغالِ بِذِكْرِ اللهِ، والتَّضَرُّعِ إليهِ، ومُراقَبَتِهِ، فيَرَى ذلك ذَنْبًا بالنِّسْبَةِ إلى المَقامِ العَلِيِّ»[٢].



(١) كشف المشكل (٣/ ٥٢٢).

(٢) فتح الباري (١١/ ١٠١-١٠٢)

الحديثُ الخامسُ والثلاثونَ:

عن ثَوبانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لَمَّا نَزَلَ في الفِضَّةِ والذَّهَبِ ما نَزَلَ، قالُوا: فَأَيَّ المالِ نَتَّخِذُ؟ قال عُمَرُ: أنا أَعْلَمُ ذلك لَكُم، قال: فَأَوضَعَ على بَعيرٍ فَأدْرَكَهُ، وأنا في أثَرِهِ، فقال: يا رسولَ اللّهِ، أيَّ المالِ نَتَّخِذُ؟ قال: **«ليَتَّخِذ أَحَدُكُم قلبًا شاكِرًا، ولِسانًا ذاكِرًا، وزَوجَةً تُعينُهُ على أَمْرِ الآخرةِ»**[1].

قولهُ: «لَمَّا نَزَلَ في الفِضَّةِ والذَّهَبِ ما نَزَلَ»:

يعني قولَهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [التوبة: ٣٤]، كما بيَّنتهُ روايةُ الترمذيِّ.

فتوعَّدَ اللهُ بالعذابِ الأليمِ الذينَ يكنِزونَ أموالَهُم، ويُمسكونَها على أنفُسِهِم، ولا يُنْفِقُونَها في طرُقِ الخيرِ الموصِّلةِ إلى اللهِ، وهذا هو الكنزُ المحرَّمُ، أن يمسكَها عنِ النفقةِ الواجبَةِ، كأن يمنعَ منها الزَّكاةَ، أو النفقاتِ الواجبةَ للزَّوجاتِ، أو الأقارِبِ، أو النفقةَ في سبيلِ اللهِ، إذا وجبَتْ[2].

والكَنْزُ: هو المالُ الذي لا تُؤَدَّى منهُ الزَّكاةُ، فما أُدِّي زكاتُه فَلَيسَ بِكَنْزٍ.

وهذا هو المرويُّ عنِ ابنِ عبَّاسٍ، وابنِ عمَرَ، وجابرٍ، وأبي هريرةَ، وغيرِهِم، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهوَ قولُ جُمهورِ العلماءِ[3].

---

(١) رواه أحمد (٢٢٤٣٧)، والترمذي (٣٠٩٤)، وابنُ ماجه (١٨٥٦)، وحسنه محققو المسند.

(٢) تفسير السعدي (ص٣٣٦).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٣٨)، شرح مسلم للنووي (٧/ ٧٧).

قولهُ: «قالُوا: فَأَيَّ المالِ نَتَّخِذُ؟»:

وعندَ الترمذيِّ: «**لَو عَلِمْنا أَيُّ المالِ خَيرٌ فَنَتَّخِذَهُ؟**»

لما أُرهبُوا مِن اكتنازِ الأموالِ، وعدمِ إنفاقِها في سبيلِ اللهِ، سألُوا عمَّا ينفعُهُم في الآخرَةِ، وينجيهِم من عذابِ اللهِ.

«قال عُمَرُ: أَنا أَعْلَمُ ذلك لَكُم، قال: فَأَوضَعَ على بَعيرٍ فَأَدْرَكَهُ، وأَنا في أَثَرِه»:

«فَأَوضَعَ على بَعيرٍ»:

أَي: أَسْرَعَ عليهِ.

«يُقالُ: وضَعَ البَعيرُ يَضَعُ وضْعاً، وأَوضَعَهُ راكِبُه إيضاعاً، إذا حَمله على سُرْعَة السَّيرِ»[1].

«فقال: يا رسولَ اللهِ، أَيَّ المالِ نَتَّخِذُ؟

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لِيَتَّخِذ أَحَدُكُم قلبًا شاكِرًا، ولِسانًا ذاكِرًا، وزَوجَةً تُعينُهُ على أَمْرِ الآخرةِ».**

في روايةِ الترمذيِّ: فقال: «**أَفْضَلُهُ لِسانٌ ذاكِرٌ، وقلبٌ شاكِرٌ، وزَوجَةٌ مُؤْمِنَةٌ تُعينُهُ على إيمانِهِ**».

قال السِّنديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَعَدَّ المَذْكُوراتِ منَ المالِ؛ لِمُشارَكَتِها لِلْمالِ، أَي: في مَيلِ قلبِ المؤمنِ إليها، وأَنَّها أُمُورٌ مَطْلُوبَةٌ عِنْدَهُ، ثُمَّ عَدَّها من أَصْلِ الأَمْوالِ؛ لأَنَّ نَفْعَها باقٍ، ونَفْعَ سائِرِ الأَمْوالِ زائِلٌ.

---

(١) النهاية (٥/ ١٩٦).

وبِالجُمْلَةِ: فالجَوابُ من أُسْلُوبِ الحَكيمِ[١]؛ لِلتَّنْبيهِ على أنَّ هَمَّ المؤمنِ يَنْبَغي أَن يَتَعَلَّقَ بالآخرةِ، فَيَسْأَل عمّا يَنْفَعُهُ، وأنَّ أَموالَ الدنيا كلَّها لا تَخْلُو عن شَرٍّ»[٢].

وقولُهُ: **«ليَتَّخِذ أَحَدُكم قلبًا شاكِرًا»:**

تقدّمَ أنّ أَصْلَ الشُّكْرِ في وضعِ اللِّسانِ: ظُهُورُ أَثَرِ الغِذاءِ في أَبْدانِ الحَيَوانِ، ظُهُورًا بَيِّنًا، يُقالُ: شَكِرَتِ الدابَّةُ تَشْكَرُ شَكَرًا: إذا ظَهَرَ عليها أَثَرُ العَلَفِ، ودابَّةٌ شَكُورٌ: إذا ظَهَرَ عليها منَ السِّمَنِ فَوقَ ما تَأْكُلُ، وتُعْطَى منَ العَلَفِ.

وكذلك حَقيقَتُهُ في العُبُوديَّةِ، وهو ظُهُورُ أَثَرِ نِعْمَةِ اللهِ على لِسانِ عبدِهِ: ثَناءً، واعْتِرافًا، وعلى قلبِهِ: شُهُودًا، ومَحَبَّةً، وعلى جَوارِحِهِ: انْقيادًا، وطاعَةً.

والشُّكْرُ مَبْنيٌّ على خَمْسِ قَواعِدَ: خُضُوعُ الشاكِرِ لِلْمَشْكُورِ، وحُبُّهُ له، واعْتِرافُهُ بِنِعْمَتِهِ، وثَناؤُهُ عليهِ بِها، وأَن لا يَسْتَعْمِلَها فيما يَكْرَهُ[٣].

وشُكرُ القلبِ يكونُ بعدَّةِ أمورٍ، منها:

* أن يعتقِدَ العبدُ أنَّ هذِه النعمَةَ التي حصلَت لَه، إنَّما هيَ من فضلِ اللهِ علَيه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

* أن يحجزَهُ الإقرارُ للمُنعمِ بالنعمةِ عنِ البَغْيِ، والحَسدِ.

* أن يزدادَ بها القلبُ حبًّا للهِ، فيزدادَ عبوديةً، وطاعةً.

---

(١) أسلوب الحَكيم: هُوَ-لُغَة-: كل كَلَام مُحكم، واصْطِلاحًا: هُوَ: إمَّا تلقي المُخاطب بِغَير ما يترقب، بسبب حمل كَلَام المُخاطب على خلاف ما أَرادَهُ؛ تَنْبيها على أنه الأولى بالقَصْدِ والإرادة، وإمَّا تلقي السائِل بِغَير ما يتطلب؛ تَنْبيها على أَن الأولى له والأهم، إنَّما هو السُّؤال عمَّا أُجيب عَنهُ. الكليات للكفوي (ص١١١).

(٢) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١/ ٥٧١).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٢٣٤).

* أن يحفظَها عنِ الهَوَى.

* أن يكونَ دائِمَ التعرُّفِ على ما يَجِبُ علَيه من شكرِها.

ولَمَّا كان القلبُ هو سيِّدَ الأعضاءِ، وأميرَها، كان شكرُهُ أساسَ شكرِ سائرِ الأعضاءِ؛ لأنَّه بصلاحِهِ تصلُحُ، وبفسادِهِ تفسَدُ، كما تقدَّم تقريرُهُ، وبيانُهُ.

وقولُه: «وَلِسانًا ذاكِرًا»:

أَي: منشغِلًا بذِكرِ اللهِ، وهذا من أعظَمِ ما يكنِزُهُ المَرءُ، ويدَّخرُهُ ليوم معادِهِ؛ فعن أَبي الدَّرْداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلا أُنَبِّئُكُم بِخَيرِ أَعْمالِكُم، وأَزْكاها عندَ مَليكِكُم، وأَرْفَعِها في دَرَجاتِكُم، وخَيرٌ لَكُم من إنْفاقِ الذَّهَبِ، والوَرِقِ، وخَيرٌ لَكُم من أَن تَلْقَوا عَدُوَّكُم، فَتَضْرِبُوا أَعْناقَهُم، ويَضْرِبُوا أَعْناقَكُمْ؟**» قالُوا: بَلى، قال: «**ذِكْرُ اللهِ تَعالى**»[1].

والشُّكرُ والذكرُ يقومُ عليهِما الدينُ كلُّه.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «مبْنَى الدِّينِ على قاعدتَين: الذِّكرِ، والشُّكْرِ، قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُعاذ: «**واللهِ إنِّي لَأُحِبُّكَ، أُوصيكَ يا مُعاذُ لا تَدَعَنَّ في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ تَقُولُ: اللهُمَّ أَعِنِّي على ذِكْرِكَ، وشُكْرِكَ، وحُسْنِ عِبادَتِكَ**»[2].

ولَيسَ المُرادُ بالذكْرِ مُجَرَّدَ الذِّكرِ باللِّسانِ، بلِ الذِّكْرُ القلبيُّ، واللسانيُّ، وذِكرُه يتَضَمَّنُ ذِكرَ أَسْمائِهِ، وصِفاته، وذكرَ أمرِه، ونَهْيِهِ، وذكرَه بِكَلامِهِ، وذلك يسْتَلْزِمُ مَعْرِفَتَه، والإيمانَ به، وبصفاتِ كمالِه، ونعوتِ جَلالِه، والثناءَ عليهِ بأنواعِ المَدْحِ،

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، وأحمد (٣٧٩٠)، وصححه الألباني.

(٢) رواه أبوداود (١٥٢٢)، وصححه الألباني.

وذلك لا يتمُّ إلَّا بتوحيدِهِ، فَذكرُهُ الحَقيقيُّ يَسْتَلْزِمُ ذلك كلَّه ، ويستلزمُ ذكرَ نِعَمِه، وآلائِه، وإحسانِهِ إلى خلقِهِ.

وأمَّا الشُّكْرُ: فهُو القيامُ بِطاعَتِهِ، والتقرُّبُ إليهِ بأنواعِ محابِّه، ظاهرًا، وباطنًا.

وهذانِ الأَمْرانِ هما جماعُ الدِّينِ، فَذِكْرُه مُسْتَلْزِمٌ لمعرفتِهِ، وشكرُه مُتَضَمِّنٌ لطاعتِه، وهذانِ هما الغايَةُ التي خُلِقَ لأَجلها الجِنُّ، والإنْسُ، والسَّمواتُ، والأَرْضُ، ووُضِعَ لأَجلها الثَّوابُ، والعقابُ، وأُنزلَ الكُتبُ، وأُرْسِلَ الرُّسُلُ، وهي الحقُّ الذي به خُلقَتِ السَّماواتُ، والأَرْضُ، وما بينهما، وضدُّها هو الباطِلُ والعبثُ الذي يتعالى ويتقدَّسُ عَنهُ، وهو ظنُّ أعدائِه به، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [ص: ٢٧].

فغايَةُ الخلقِ، والأَمرِ: أَن يُذكرَ، وأَن يُشْكرَ، يُذكر فلا يُنسَى، ويُشكَر فلا يُكفَر، وهو سُبْحانَهُ ذاكرٌ لَمن ذكَرَه، شاكرٌ لَمن شكَرَه، فَذِكْرُه سببٌ لذِكْرِه، وشُكرُه سببٌ لزيادَتِه من فَضلِه، فالذِّكرُ للقلبِ واللِّسانِ، والشُّكْرُ للقلبِ محبَّةٌ، وإنابةٌ، وللسانِ ثناءٌ، وحمدٌ، وللجوارحِ طاعَةٌ، وخدمةٌ»[١].

وقولهُ: «وَزَوجَةً تُعينُهُ على أَمْرِ الآخرةِ»:

وفي الترمذيِّ: «وَزَوجَةٌ مُؤْمِنَةٌ تُعينُهُ على إيمانِهِ».

فإنَّها خيرُ المتاعِ، وأكرَمُ الصَّحبِ، وآنسُ رفيقٍ، وأعزُّ حبيبٍ، تُعينُه على الطاعَةِ، وتُشاركُه في تربيةِ أولادِه، وتحفَظُ عليهِ مالَه، وتصونُه عنِ الحرامِ، وتُؤنسُه إذا استَوحشَ منَ الخلقِ، وتقومُ على خدمتِهِ ورعايتِهِ إذا مَرِضَ، وهيَ محلُّ سرِّهِ، ومستقرُّ أمنِهِ، وأمانِهِ.

---

(١) الفوائد (ص١٢٨-١٢٩).

عن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قامَ منَ اللَّيلِ فَصَلَّى، وأَيقَظَ امْرَأَتَهُ، فإن أَبَت، نَضَحَ في وجْهِها الماءَ.**

رَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قامَت منَ اللَّيلِ فَصلَّت، وأَيقَظَت زَوجَها، فإن أَبَى، نَضَحَت في وجْهِهِ الماءَ»[1].

وعن عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالتْ: قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أَطْعَمَتِ المَرْأَةُ من بَيتِ زَوجِها غيرَ مُفْسِدَةٍ، كان لَها أَجْرُها، ولَهُ مِثْلُهُ، ولِلْخازِنِ مِثْلُ ذلك، لَهُ بِما اكْتَسَبَ، ولَها بِما أَنْفَقَتْ**»[2].

وعن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سُئِلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ النِّساءِ خَيرٌ؟ قال: «**الذي تَسُرُّهُ إذا نَظَرَ، وتُطيعُهُ إذا أَمَرَ، ولا تُخالِفُهُ فيما يَكْرَهُ في نَفْسِها، ومالِهِ**»[3].

وعن سعد بن أَبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَرْبَعٌ منَ السَّعادَةِ: المَرْأَةُ الصالِحَةُ، والمَسْكَنُ الواسِعُ، والجارُ الصالِحُ، والمَرْكَبُ الهَنيءُ.**

وأَرْبَعٌ منَ الشَّقاوَةِ: الجارُ السُّوءُ، والمَرْأَةُ السُّوءُ، والمَسكنُ الضيِّقُ، والمَرْكبُ السُّوءُ»[4].

فتلكَ المرأةُ الصالحَةُ من خيرِ ما يَكْنِزُ المرءُ، وهيَ من تمامِ سعادتِهِ: إذا نَظَرَ إليها سَرَّتْهُ، وإذا أَمَرَها أَطاعَتْهُ، وإذا غابَ عنها حَفِظَتْهُ، تعينُهُ على أمرِ دينِهِ، وتشارِكُه أمرَ دنياهُ، في حلوِهِ، ومُرِّه، وتشكُرُ فلا تَكفرُ، وتَصبرُ فلا تَضْجَرُ.

---

(١) رواه أبوداود (١٣٠٨)، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري (١٤٤٠).

(٣) رواه أحمد (٧٤٢١)، وقال محققو المسند: «إسناده قويٌّ».

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه (٤٠٣٢)، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط على شرط البخاري.

والمقصودُ أنَّ خيرَما يكنِزُ المُسلمُ لآخرَتِه، ويعدُّه لمَعادِه:

* قلبٌ شـــاكِرٌ، يتعرَّفُ على نعمةِ ربِّه، ويؤدِّي شُـــكرَها، وتتبعُهُ في ذلك سائرُ الجوارِحِ.

* ولسانٌ ذاكِرٌ، يَلهجُ بذِكْرِ اللهِ، فيحيا قلبُه؛ فإنَّ الذِّكْرَ حياةُ القلبِ.

* وزوجةٌ صالحةٌ تُعينُه على أمرِ دينِه، وتشاركُهُ أمرَ دنياهُ.







الحديثُ السادسُ والثلاثونَ:

عن شَكَلِ بنِ حُمَيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: أَتَيتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يا رسولَ اللّهِ، عَلِّمْني تَعوُّذًا أَتَعوَّذُ به، قال: فَأَخَذَ بِكَفِّي، فقال: **«قُل: اللهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ من شَرِّ سَمْعي، ومن شَرِّ بَصَري، ومن شَرِّ لِساني، ومن شَرِّ قلبي، ومن شَرِّ مَنيِّي» -يعني: فَرْجَهُ-** [١].

قولهُ: «يا رسولَ اللّهِ، عَلِّمْني تَعَوُّذًا»:

وفي رواية: «عَلِّمْني تَعْويذًا»[٢].

قال القاري رَحِمَهُ اللهُ: «أَي: ما يُتَعَوَّذُ به، قال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ اللهُ: العَوذُ، والمَعاذُ، والتَّعْويذُ: بِمعنى»[٣].

والتعوُّذُ: الالتجاءُ، والاعتصامُ، يقالُ: عاذَ به يَعُوذُ عَوذًا وعِياذًا ومَعاذًا: لاذَ به، ولجأَ إليه، واعْتَصَمَ[٤].

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «لفظُ «عاذَ» وما تصرَّفَ منها، يدلُّ على التحرُّزِ، والتحصُّنِ، والنجاةِ، وحقيقةُ معناها: الهُروبُ من شيءٍ تخافُهُ، إلى مَن يعصمُكَ منه؛ ولهذا يسمَّى المُستعاذُ بِهِ: مَعاذًا، كما يسمَّى مَلجأً»[٥].

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٩٢)، وأبوداود (١٥٥١)، وصححه الألباني.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٧٢٢٥)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ١٦٩).

(٣) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٧١٢).

(٤) النهاية (٣/ ٣١٨)، لسان العرب (٣/ ٤٩٨).

(٥) بدائع الفوائد (٢/ ٢٠٠).



«أَتَعَوَّذُ به»:

أَي: أتحصَّنُ بهِ، من وقوعِ الشرِّ، وحُصولِ السُّوءِ.

قال: «فَأَخَذَ بِكَفِّي»:

وهذا منَ المؤانسَةِ، ومزيدِ الاهتمامِ.

قال المباركفوريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان أَخْذُهُ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَفَّهُ؛ لِمَزيدِ الاِعْتِناءِ والاِهْتِمامِ بالتَّعْليمِ»[1].

فقال: «قُل: اللهُمَّ إنِّي أَعوذُ بِكَ»:

الاستعاذةُ باللهِ من توحيدِه، والإيمانِ بهِ سبحانَه؛ إذ لا يأتي بالحسناتِ، ويدفَعُ السيِّئاتِ، إلَّا اللهُ، ولا يمنُّ بالخيرِ، ويكشفُ الضرَّ، إلا اللهُ، فلا يُستعاذُ إلَّا باللهِ:

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المُستعاذُ بِهِ هو اللهُ وحدَه، ربُّ الفلَقِ، وربُّ الناسِ، مَلِكُ الناسِ، إلهُ الناسِ، الذي لا ينبغي الاستعاذةُ إلا به، ولا يُستعاذُ بأحدٍ من خلقِهِ، بل هو الذي يُعيذُ المُستعيذينَ، ويَعصِمُهُم، ويمنَعُهُم من شرِّ ما استعاذُوا من شرِّهِ، وقد أخبرَ اللهُ تعالى في كتابِه عمَّنِ استعاذَ بخلقِه، أنَّ استعاذَتَه زادَتْه طُغيانًا، ورهَقًا؛ فقال -حكايةً عن مؤمني الجنِّ-: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]»[2].

ويُستعاذَ -أيضًا- بأسماءِ اللهِ، وصفاتِهِ:

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّما يُسْتَعاذُ بالخالِقِ تعالى، وأَسْمائِهِ، وصِفاتِهِ؛

---

(١) تحفة الأحوذي (٩/ ٣٢٦).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٢٠٣).

ولِهذا احْتَجَّ السلفُ -كَأَحْمَدَ، وغيرِهِ- على أنَّ كَلامَ اللهِ غيرُ مَخْلُوقٍ -فيما احْتَجُّوا به- بِقَولِ النبيِّ ﷺ: «**أَعُوذُ بِكَلِماتِ اللهِ التامَّاتِ**»، قالُوا: فَقَد اسْتَعاذَ بِها، ولا يُسْتَعاذُ بِمَخْلُوقٍ»[١].

فقال: «قُل: اللهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ من شَرِّ سَمْعِي»:

قال العينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «شرُّ السَّمعِ: أن يستمعَ إلى ما لا يَجوزُ سماعُهُ»[٢].

وشرُّ السَّمعِ المُستعاذُ منه كثيرٌ، منه: سماعُ الغناءِ، والموسيقَى، وهذا السَّماعُ يُنبِتُ النفاقَ في القلبِ، كما يُنبِتُ الماءُ البَقْلَ، ومنهُ: سماعُ الباطلِ معَ عدمِ إنكارِهِ، كمَن يستمِعُ إلى الطاعنينَ في الدِّينِ، من أهلِ الكفرِ، والرَّيبِ، والنفاقِ، دونَ أن ينكِرَ هذا الباطِلَ، ويَرُدَّ على أهلِه.

وكذلك سماعُ الغيبةِ، وفُحشِ القولِ، والكذِبِ، والهَزلِ بالباطِلِ، والاستهزاءِ بالخلقِ، والتجسُّسِ، ونحوِ ذلك، فهذا كلُّه يُستعاذُ باللهِ منهُ.

وقد جعلَ النبيُّ ﷺ استماعَ الأُذُنَين إلى الكلامِ المحرَّمِ الباطِلِ من كلامِ الفُحشِ، وغيرِه، من زنا الأذُنَين، فقال: «**والأُذُنانِ زِناهُما الِاسْتِماعُ**»[٣].

قولهُ: «وَمِن شَرِّ بَصَرِي»:

استعاذَ من شرِّ بصرِهِ، وهوَ النَّظرُ المُحرَّم، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**زِنا العَينَينِ النَّظَرُ**»[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٣٣٦).

(٢) شرح أبي داود (٥/ ٤٦١).

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٧).

(٤) رواه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

وفي روايةٍ: «**العَينُ تَزْني، والقلبُ يَزْني، فَزِنا العَينِ النَّظَرُ، وزِنا القلبِ التَّمَنِّي**»[١].

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فَزِنا العَينِ النَّظَرُ**»: أَي: إلى ما لا يَحِلُّ لِلنَّاظِرِ»[٢].

ومَن حفِظَ بصرَهُ، حفظَ اللهُ عليهِ بصيرَتَه، وأنارَ قلبَه.

قال عَمْرُو بنُ نُجيدٍ: كان شاهُ الكَرْمانيُّ حادَّ الفِراسَةِ، لا يُخْطِئُ، ويَقُولُ: «مَن غَضَّ بَصَرَهُ عنِ المَحارِمِ، وأَمْسَكَ نَفْسَهُ عنِ الشَّهَواتِ، وعَمَّرَ باطِنَهُ بالمُراقَبَةِ، وظاهِرَهُ بِاتِّباعِ السُّنةِ، وتَعَوَّدَ أَكْلَ الحَلالِ: لم تُخْطِئ فِراسَتُهُ»[٣].

وممَّا يُنهَى عَنهُ منَ النَّظرِ: النَّظرُ في كتُبِ أهلِ الإلحادِ، وأهلِ البِدعَةِ من أهلِ الكلامِ وغيرِهِم، ممَّن ليسَ من أهلِ العِلمِ والتقوَى؛ لأنَّ هذِه الكتبَ تحتوي على الباطِلِ الذي تحفُّه الشُّبهاتُ، والنفوسُ ضعيفةٌ، والشُّبهاتُ خطَّافةٌ.

وكذلك النظرُ في كتُبِ السِّحرِ، والشَّعوذةِ، والمؤلَّفاتِ الفاسدَةِ في العِشقِ، والغرامِ، ونحوِ ذلك ممَّا يجلبُ الفتنَ على القلبِ.

قال الذهبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ -بعدَ أن ذكَرَ بعضَ كتبِ أهلِ الضَّلالِ-: «فالحِذارَ الحِذارَ من هذه الكُتُبِ، واهرُبُوا بدينكُم من شبهِ الأوائلِ، وإلا وقعتُم في الحَيرَةِ، فَمَن رام النَّجاةَ والفوزَ، فلْيَلْزمِ العُبُوديَّةَ، وليُدْمِنِ الاسْتغاثَةَ باللهِ، وليبتهِل إلى مَولاَهُ في الثَّباتِ على الإسْلاَمِ»[٤].

ومِن هذا الابتهالِ إلى اللهِ في الثَّباتِ: الاستعاذةُ بهِ سبحانَهُ من شرورِ هذِه الأعضاءِ الكاسبَةِ، وسؤالُهُ خيرَها، وخيرَ ما تَجلبُهُ على صاحبِها.

---

(١) رواه أحمد (٨٣٥٦).

(٢) فتح الباري (١١/ ٥٠٤).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٤٥٤).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٧٠).

قولهُ: «وَمِن شَرِّ لِساني»:

وشرُّ اللسانِ من أعظمِ الشرِّ، ويكفي لبيانِ ذلك قولُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَهَل يَكُبُّ الناسَ على وُجُوهِهِم، -أو على مَناخِرِهِم- يَومَ القيامَةِ إلَّا حَصائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»[1].

ومَن حفِظَ لسانَه، حفِظَ دينَه، ومَن ضيَّعَ لسانَه، تعرَّضَ للفتنَةِ، وانجرَّ للحرامِ.

قال النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أنَّه ينبغي لكلِّ مكلَّفٍ أن يَحفظَ لسانَهُ عن جميعِ الكلامِ، إلا كلامًا تظهَرُ المصلَحَةُ فيهِ، ومتَى استوَى الكَلامُ وتركُهُ في المصلحةِ، فالسنَّةُ الإمساكُ عنْهُ؛ لأنَّهُ قد ينجَرُّ الكلامُ المباحُ إلى حرامٍ، أو مكروهٍ، بل هذا كثيرٌ، أو غالبٌ في العادةِ، والسلامةُ لا يعدلُها شيءٌ»[2].

وقال أبو الحسَنِ الماورديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعْلم أنَّ لِلْكَلامِ شُرُوطًا لا يَسْلَمُ المُتكَلِّمُ من الزَّلَلِ إلَّا بِها، ولا يَعْرَى من النَّقْصِ إلَّا بَعْدَ أَن يَسْتَوفيَها، وهيَ أَرْبَعَةٌ:

فالشَّرْطُ الأَوَّلُ: أَن يكونَ الكَلامُ لِداعٍ يَدْعُو إليهِ، إمَّا في اجْتِلابِ نَفْعٍ، أَو دَفْعِ ضَرَرٍ.

والشَّرْطُ الثاني: أَن يَأْتِيَ به في مَوضِعِهِ، ويَتَوَخَّى به إصابَةَ فُرْصَتِهِ.

والشَّرْطُ الثالِثُ: أَن يَقْتَصِرَ منهُ على قَدْرِ حاجَتِهِ.

والشَّرْطُ الرابِعُ: أَن يَتَخَيَّرَ اللَّفْظَ الذي يَتَكَلَّمُ به.

فَهذه أَرْبَعَةُ شُرُوطٍ، مَتَى أَخَلَّ المُتَكَلِّمُ بِشَرْطٍ منها، فَقَد أَوهَنَ فَضيلَةَ باقيها»[3].

---

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦)، وصححه الألباني.

(٢) الأذكار (ص٣٣٢).

(٣) أدب الدنيا والدين (ص٢٧٥).

ومِن شرورِ اللسانِ، وآفاتُه المُستعاذُ باللهِ منها: الوُقوعُ في الغيبَةِ، والنميمةِ، والكذِبِ، والبهتانِ، والسبِّ، والبذاءِ، والخوضِ في الباطلِ، والكلامِ فيما لا يعني، والكلامِ في عشقِ الصورِ، والتغزُّلِ في الأجنبيَّاتِ، وإنشادِ الأشعارِ في ذلك، فإنَّ هذا من زنا اللسانِ، وهوَ من دواعي زنا الفَرْجِ.

ويندرجُ تحتَ آفاتِ اللسانِ، وشرورِه: عدمُ إنكارِ المُنكرِ، وتركُ ردِّ الباطلِ، وتركُ الردِّ على أهلِه، وكشفِ عُوارِهِم، لِمَن قدَرَ على ذلك.

ومِن أعظمِ شرورِ اللسانِ: الاعتراضُ على الشَّرعِ، وردُّ نصوصِه، وتأويلُها على غيرِ وجهِها، ونُصرةُ الباطِلِ، والدِّفاعُ عنه، والتّنظيرُ لَه، ونُصرةُ المذاهِبِ الفلسفيَّةِ، والنظرياتِ الإلحاديَّةِ، والنزعاتِ الجاهليَّةِ، ممَّا ينتشرُ أمرُه، وتعظُمُ المُصيبةُ بهِ؛ بسببِ هؤلاءِ المروِّجينَ للباطلِ، المدافعينَ عنهُ.

قولُهُ: «وَمِن شَرِّ قلبي»:

وشرُّ القلبِ أعظَمُ الشرِّ؛ لأنَّه بفسادِهِ يفسَدُ كلُّ شيءٍ، فاستعاذَ باللهِ مقلبِّ القلوبِ من شرِّ قلبِه، حتَّى يقيمَه على الحقِّ، ولا يزيغَه.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمَّا كان القلبُ لهذِه الأعضاءِ كالمَلِكِ المتصرِّفِ في الجنودِ، الذي تَصدُرُ كلُّها عن أمرِهِ، ويَستعملُها فيما شاءَ، فكلُّها تحتَ عبوديَّتِه، وقهرِهِ، وتكتسِبُ منهُ الاستقامَةَ، والزَّيغَ، وتتبعُهُ فيما يعقدُهُ منَ العزمِ، أو يحلُّه، قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كلُّهُ**».

فهوَ ملِكُها، وهيَ المنفِّذةُ لما يأمرُها به، ولا يستقيمُ لها شيءٌ من أعمالِها، حتَّى تصدرَ عن قصدِهِ، ونيَّتِه، وهو المسؤولُ عنها كلِّها، كان الاهتمامُ بتصحيحِهِ، وتسديدِه، أَولى ما اعتمدَ عليهِ السالكُونَ، والنظرُ في أمراضِهِ، وعلاجِها، أهمَّ ما تنسَّكَ به الناسكُونَ.

ولَمَّا علمَ عدوُّ اللهِ إبليسُ أنَّ المدارَ على القلبِ، والاعتمادَ عليهِ، أجلَبَ عليهِ بالوَساوسِ، وأقبَلَ بوجوهِ الشهواتِ إليهِ، وزيَّنَ له منَ الأقوالِ، والأعمالِ، ما يصدُّهُ عنِ الطريقِ، وأمدَّه من أسبابِ الغَيِّ بما يقطَعُه عن أسبابِ التوفيقِ، ونَصَبَ له منَ المصايِدِ، والحبائِلِ، ما إن سَلِمَ منَ الوقوعِ فيها، لم يسلم من أن يحصلَ لَه بها التعويقُ، فلا نجاةَ من مصائِدِه، ومكائِدِه، إلَّا بدوامِ الاستعانةِ باللهِ تعالى، والتعرُّضِ لأسبابِ مرضاتِه، والتجاءِ القلبِ إليهِ، وإقبالِهِ عليهِ في حركاتِهِ، وسكناتِهِ، والتحقُّقِ بذلِّ العبوديةِ، الذي هو أَولى ما تلبَّسَ بهِ الإنسانُ؛ ليحصُلَ لَه الدخولُ في ضمانِ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]، فهذِهِ الإضافةُ هيَ القاطعةُ بينَ العبدِ، وبينَ الشياطينِ، وحصولُها يسبِّبُ تحقيقَ مقامِ العبوديَّةِ لربِّ العالَمِينَ»[١].

وقولهُ: «وَمِن شَرِّ مَنِيِّي» -يعني: فَرْجَهُ-:

وقولُه: «يعني: فَرْجَهُ»: تَفْسيرٌ من بعضِ الرُّواةِ ، وهو سَعْدُ بنُ أَوسٍ، وعندَ البخاريِّ في الأدَبِ المُفرَدِ: «قال وكيعٌ: مَنِيِّي: يعني الزِّنا، والفُجُورَ»[٢].

وقيلَ: «**وَمِن شَرِّ مَنِيِّي**» هو جَمْعُ المَنيَّةِ أَي: من شَرِّ المَوتِ، أَي: قَبْض رُوحِهِ على عَمَلٍ قَبيحٍ[٣].

ولَعَلَّ الأَوَّلَ أَظْهَرُ، وقد قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**العَينانِ زِناهُما النَّظَرُ، والأُذُنانِ زِناهُما الاِسْتِماعُ، واللِّسانُ زِناهُ الكَلامُ، واليَدُ زِناها البَطْشُ، والرِّجْلُ زِناها الخُطا، والقلبُ يَهْوَى، ويَتَمَنَّى، ويُصَدِّقُ ذلك الفَرْجُ ويُكَذِّبُهُ**»[٤].

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٥-٦).

(٢) الأدب المفرد (٦٦٣).

(٣) عون المعبود (٤/ ٢٨٦).

(٤) رواه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧)، واللفظ له.

قال ابنُ علَّان رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَمِن شَرِّ مَنيِّي**»: بأن أُوقعَه في غيرِ محَلِّه، أو يُوقعني في مُقدّماتِ الزّنا منَ النّظرِ، واللّمسِ، والمَشيِ، والعَزمِ، وأمْثالِ ذلك»[١].

وعن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ، عن رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن يَضْمَن لي ما بينَ لَحيَيهِ وما بينَ رِجْلَيهِ، أَضْمَن لَهُ الجَنَّةَ**»[٢].

قال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَكْثرُ بلاءِ الناسِ من قِبَلِ فُروجِهِم، وألْسِنَتِهِم، فَمن سَلِمَ من ضَرَرِ هَذينِ فَقد سَلِمَ، وكان النّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له كُفيلًا بالجَنّةِ»[٣].



---

(١) دليلُ الفالحينَ (٧/ ٢٨٩).

(٢) رواه البخاري (٦٤٧٤).

(٣) شرح صحيح البخاري (٨/ ٤٢٨).

الحديثُ السابعُ والثلاثونَ:

عن أَبي عِنَبَةَ الخَولانيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إنَّ للّهِ آنيَةً من أهلِ الأَرْضِ، وآنيَةُ رَبِّكُمْ: قلوبُ عِبادِهِ الصالِحينَ، وأَحَبُّها إليهِ: أَلْيَنُها، وأَرَقُّها»[١].

قولُهُ: «إنَّ للّهِ آنيَةً من أهلِ الأَرْضِ»:

آنيَةٌ: جَمْعُ إناءٍ، وهو وِعاءُ الشَّيءِ[٢].

«وَآنيَةُ رَبِّكُمْ: قلوبُ عِبادِهِ الصالِحينَ»:

وهذه إضافَةُ تَشْريفٍ، كما يُقالُ: «إنَّ للهِ في الأَرْضِ بُيُوتًا، وبُيُوتُ رَبِّكُم في الأَرْضِ المَساجِدُ».

وروى ابنُ أَبي شَيبَةَ في المُصَنَّفِ، بِإسْنادٍ جَيِّدٍ، عنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «إنَّ هذه القلوبَ أَوعيَةٌ، فاشْغَلُوها بالقرآنِ، ولا تَشْغَلُوها بِغيرِهِ»[٣].

وروى ابنُ الجَوزيِّ في ذَمِّ الهَوَى، عن أَحْمَدَ بنِ خَضْرَوَيهِ، قال: «القلوبُ أَوعيَةٌ،

---

(١) رواه الطبراني في مُسْنَدِ الشاميينَ (٨٤٠)، وأَبو عُمَرَ المُقْرِئُ في جُزْئِهِ (ص٩٩)، وحسنه الهَيثَمي، كما في فيض القدير (٢/ ٤٩٦)، وكذا حَسَّنَهُ الألباني في صحيح الجامع (٢١٦٣). وقال الحافظ العِراقي في تخريج أحاديث الإحياء (ص٨٩٠): «فيه بقيةُ بنُ الوليد وهو مدلِّسٌ، لكنه صرح فيه بالتحديث». وصحَّ عن خالدِ بنِ مَعْدانَ قال: «إنَّ للهِ تبارك وتعالى في الأرضِ آنيةً، وأحبُّ آنيةِ اللهِ إليهِ ما رَقَّ منها، وصفا، وآنيةُ اللهِ في الأرضِ قلوبُ عبادهِ الصالحينَ». رواه أحمد في الزهد (ص٣١١).

(٢) فيض القدير (٢/ ٤٩٦).

(٣) المصنف (٦/ ١٢٦).

فإذا امْتَلأَت منَ الحَقِّ، أَظْهَرَت زيادَةَ أَنْوارِها على الجَوارِحِ، وإذا امْتَلأَت منَ الباطِلِ، أَظْهَرَت زيادَةَ ظُلْمِها على الجَوارِحِ»[١].

وقال أَبو مَنْصُورٍ الثَّعالِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «القلوبُ أَوعيَةٌ، يَشْرَحُها الرِّفْقُ، ويَبْسُطُها اللُّطْفُ، ويَفْسَحُها التَّمْرينُ، وإذا تُجُوِّزَ بِها هذه الخِلالَ، إلى الاِسْتِكْراهِ، والإمْلالِ، خَرَجَت عنِ احْتِواءِ عِلْمٍ، وضاقَت عن ضَبْطِ فَهْمٍ»[٢].

وروى ابنُ عَساكِرَ في تاريخِهِ، عن ذي النُّونِ المصْريِّ، قال: «إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ خَلَقَ القلوبَ أَوعيَةَ العِلْمِ»[٣].

ويُقالُ: حَفِظْتُ الشَّيءِ، أَي: بِسَمْعي، ووَعيتُهُ، أَي: بِقلبي.

وقال أَبو شُرَيحٍ العَدَويُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لِعَمْرِو بنِ سَعيدٍ -وَهُوَ يَبْعَثُ البُعُوثَ إلى مَكَّةَ-: «ائْذَن لي أَيُّها الأَميرُ، أُحَدِّثْكَ قَولًا قامَ به النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغَدَ من يَومِ الفَتْحِ، سَمِعَتْهُ أُذُنايَ، ووَعاهُ قلبي، وأَبْصَرَتْهُ عَينايَ، حينَ تَكَلَّمَ به...» الحديثَ[٤].

وقال أَبو بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سَمِعَت أُذُنايَ، ووَعَى قلبي من رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...»[٥].

وفي الأَثَرِ المَشْهُورِ عن عَلِيِّ بنِ أَبي طالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «القلوبُ أَوعيَةٌ، فَخَيرُها أَوعاها ...»[٦].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رواهُ جَماعَةٌ منَ الحُفَّاظِ الثِّقاتِ، وفيهِ: مَواعِظُ، وكَلامٌ حَسَنٌ، رَضيَ اللهُ عن قائِلِهِ»[٧].

---

(١) ذم الهوى (ص٦٦)

(٢) سحر البلاغة (ص١٨٧).

(٣) تاريخ دمشق (١٧/ ٤١٤).

(٤) رواه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).

(٥) رواه البخاري (٦٧٦٧)، ومسلم (٦٣).

(٦) رواه أبونُعَيم في الحلية (١/ ٧٩).

(٧) البداية والنهاية (١٢/ ٣٣٥).

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولهُ رَضيَ اللهُ عنهُ: «القلوبُ أَوعيَةٌ» يُشَبِّهُ القلبَ بالوِعاءِ، والإناءِ، والوادي؛ لأَنَّهُ وِعاءٌ لِلْخَيرِ، والشَّرِّ، فالقلوبُ أَواني مَمْلُوءَةٌ منَ الخَيرِ، وأَواني مَمْلُوءَةٌ منَ الشَّرِّ، كما قال بعضُ السلفِ: «قلوبُ الأَبْرارِ تَغْلي بالبِرِّ، وقلوبُ الفُجَّارِ تَغْلي بالفُجُورِ».

وقال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد: ١٧]، شَبَّهَ العِلْمَ بالماءِ النازِلِ منَ السَّماءِ، والقلوبَ في سَعَتِها، وضيقِها، بالأَوديَةِ، فَقلبٌ كَبيرٌ واسِعٌ يَسَعُ عِلْمًا كثيرًا، كَوادٍ كَبيرٍ واسِعٍ يَسَعُ ماءً كثيرًا، وقلبٌ صَغيرٌ ضَيِّقٌ يَسَعُ عِلْمًا قَليلًا، كَوادٍ صَغيرٍ ضَيِّقٍ يَسَعُ ماءً قَليلًا؛ ولِهذا قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تُسَمُّوا العِنَبَ الكَرْمَ؛ فإنَّ الكَرْمَ قلبُ المؤمنَ**»، فإنَّهُم كانُوا يُسَمُّونَ شَجَرَ العِنَبِ الكَرْمَ؛ لِكثرةِ مَنافِعِهِ، وخَيرِهِ، والكَرْمُ: كثرةُ الخَيرِ، والمَنافِعِ، فَأَخبرَهُم أَنَّ قلبَ المؤمنِ أَولى بِهذه التَّسْميَةِ؛ لِكثرةِ ما فيه منَ الخَيرِ، والمَنافِعِ.

ولَمَّا كان القلبُ وِعاءً، والأُذُنُ مَدْخَلَ ذلك الوِعاءِ، وبابَهُ، كان حُصُولُ العِلْمِ مَوقُوفًا على حُسْنِ الاِسْتِماعِ، وعَقْلِ القلبِ، والعَقْلُ هو ضَبْطُ ما وصَلَ إلى القلبِ، وإمْساكُهُ حَتَّى لا يَتَفَلَّتَ منهُ، ومنهُ: عَقل البَعير، والدابَّة، والعِقالُ لِما يُعْقَلُ به، وعَقْلُ الإنْسانِ يُسَمَّى عَقْلًا؛ لأَنَّهُ يَعْقِلُهُ عنِ اتِّباعِ الغَيِّ، والهَلاكِ؛ ولِهذا يُسَمَّى حِجْرًا؛ لأَنَّهُ يَمْنَعُ صاحِبَه كما يَمْنَعُ الحِجْرُ ما حَواهُ.

فَعَقْلُ الشَّيءِ أَخَصُّ من عِلْمِهِ، ومَعْرِفَتِهِ؛ لأَنَّ صاحِبَهُ يَعْقِلُ ما عَلِمَهُ، فلا يَدَعُهُ يَذْهَبُ، كما تُعْقَلُ الدابَّةُ التي يُخافُ شُرُودُها.

ومُرادُنا بالعَقْلِ: المَصْدَرُ، لا القُوَّة الغَريزِيَّة، التي رَكَّبَها اللهُ في الإنْسانِ، فَخَيرُ القلوبِ ما كان واعيًا لِلْخَيرِ، ضابِطًا له، ولَيسَ كالقلبِ القاسي، الذي لا يَقْبَلُهُ، فهذا

قلبٌ حَجَرِيٌّ، ولا كالمائِعِ الأَخْرَقِ الذي يَقْبَلُ، ولَكِن لا يَحْفَظُ، ولا يَضْبِطُ، بل خَيرُ القلوبِ ما كان لَيِّنًا صَلْبًا، يَقْبَلُ بِلينِهِ ما يَنْطَبِعُ فيهِ، ويَحْفَظُ صُورَتَهُ بِصَلابَتِهِ»[١].

فالقلوبُ أَوعيَةٌ لِلْخَيرِ، والشَّرِّ.

وقولُه: «وَأَحَبُّها إليهِ»:

أَي: أكثرُها حُبًّا عِنْدَهُ.

«أَلْيَنُها، وأَرَقُّها»:

فإنَّ القلبَ إذا لانَ، ورَقَّ، وانْجَلى، صارَ كالمِرْآةِ الصَّقيلَةِ، فَصارَ مَحَلَّ نَظَرِ اللهِ من بينِ خَلْقِهِ، فَكلَّما نَظَرَ إلى قلبِهِ، زادَهُ به فَرَحًا، ولَهُ حُبًّا، وعِزًّا، واكْتَنَفَهُ بالرَّحْمَةِ، ومَلأَهُ من نُورِ العِلْمِ[٢].

وقال الصّنعانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أَلْيَنُها، وأَرَقُّها**»: فإنّه لا يَلينُ ويرِقُّ إلَّا لامْتلائِهِ بِأنوارِ الإيمانِ، وحُبِّهِ للرّحمنِ، والحديثُ إخبارٌ بأنَّ أَحَبَّ القلوبِ إلى اللهِ سُبحانَهُ، أرَقُّها، وأَلْينُها، وأنّها المَملوءَةُ بأنْوارِ الهِدايةِ»[٣].

وإذا لانَ القلبُ، ورَقَّ، صارَ أهلًا لِلْعِلْمِ، والذِّكْرِ، وإذا لانَ، ورَقَّ، كان أهلًا لِرَحْمَةِ الخلقِ، فَصارَ أهلًا لِرَحْمَةِ الرَّبِّ.

قالُوا: هذه الأَنْوارُ مَبْذُولَةٌ بِحُكْمِ الكَرَمِ الرَّبَّانِيِّ، غير مَضْنُونٍ بها على أَحَدٍ، فَلم تَحْتَجِب عنِ القلوبِ؛ لِبُخْلٍ، ومَنْعٍ، من جِهَةِ المُنْعِمِ -تَعالى عنِ البُخْلِ، والمَنْعِ- ولَكِن لِخُبْثٍ، وكُدُورَةٍ، وشُغلٍ، من جِهَةِ القلوبِ؛ لِما تَقَرَّرَ أنَّ القلبَ هو الآنيَةُ،

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٢٤-١٢٥).

(٢) فيض القدير (٢/ ٤٩٦).

(٣) التنويرُ (٤/ ٦٣).

والآنيَةُ ما دامَت مَمْلُوءَةً بالماءِ، لا يَدْخُلُها الهَواءُ، والقلوبُ المَشْغُولَةُ بِغيرِ اللهِ، وطاعَتِهِ، لا تَدْخُلُها أَنْوارُ المعرفةِ[١].

وقال العَلَّامَةُ أَبو العَونِ السَّفارينيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن أَلْقَى سَمْعَهُ، وغابَ قلبُهُ، لم يَنْتَفِع بِما يُلْقَى إليهِ منَ العُلُومِ، والمَعارِفِ، فإذا كان القلبُ حاضِرًا، وعَى ما يُلْقَى إليهِ»[٢].

والخُلاصَةُ:

أنَّ القلوبَ أَوعيَةٌ، وآنيَةٌ:

فإذا مُلِئَت عِلْمًا، وخَيرًا، ووَعَتْهُ، وضَبَطَتْهُ، وأمَرَتِ الجَوارِحَ بالعَمَلِ به؛ انْتَفَعَت بِها وعَت واحْتَوَت، وانْتَفَعَ سائِرُ البَدَنِ، فانْضَبَطَ بَطْشُ اليَدِ، ونَظَرُ العَينِ، وقَولُ اللِّسانِ، ومَشْيُ الرِّجْلِ، وهذه قلوبُ عِبادِ اللهِ، وأَوليائِهِ الصالحِينَ، كما في الحديثِ القُدُسيِّ، حديثِ الوِلايَةِ المَشْهُورِ: «**وَما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عبدي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عليهِ، وما يَزالُ عبدي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ التي يَبْطِشُ بِها، ورِجْلَهُ التي يَمْشي بِها، وإن سَأَلَني لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَني لَأُعيذَنَّهُ**»[٣].

وأَحَبُّ هذه القلوبِ إلى اللهِ، وأَقْرَبُها إليهِ: أَلْيَنُها، وأَرَقُّها؛ لأَنَّها بلينِها، ورِقَّتِها، تَلينُ لِلطَّاعَةِ، وتَرِقُّ بِذِكْرِ اللهِ، فَلَيسَت بالقاسيَةِ، ولَكِنَّها خاشِعَةٌ مُطْمَئِنَّةٌ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

---

(١) فيض القدير (٢/ ٤٩٦).

(٢) غذاء الألباب (١/ ٤٣).

(٣) رواه البخاري (٦٥٠٢).

ولأنَّها بِلينِها، ورِقَّتِها، تَرْحَمُ عِبادَ اللهِ، فَتكونُ أهْلًا لرَحْمَةِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ إنَّما يَرْحَمُ من عِبادِهِ الرُّحَماءَ.

وإذا مُلِئَتِ القلوبُ هَوًى، وشَهْوَةً، أَضَرَّها ما وعَت، واحْتَوَت، فَسَعَتِ اليَدُ، والعَينُ، واللِّسانُ، والرِّجْلُ، في مَساخِطِ الرَّبِّ، وفي غيرِ مَساعي الحَمْدِ.





الحديث الثامن والثلاثون:

عن عَليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رسولَ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **«ما منَ القلوبِ قلبٌ، إلا ولَهُ سَحابَةٌ كَسَحابَةِ القَمَرِ، بينا القَمَرُ مُضيءٌ إذ عَلَت عليهِ سَحابَةٌ، فَأَظْلَمَ، إذ تَجَلَّت عنهُ فَأَضاءَ، وبينا الرَّجُلُ يُحَدِّثُ إذ عَلَتْهُ سَحابَةٌ، فَنَسيَ، إذ تَجَلَّت عنهُ فَذَكَرَ»**[1].

فَمَثَّلَ القلبَ بالقَمَرِ المُضيءِ، عَلَتْهُ سَحابَةٌ فَأَظْلَمَ، ثُمَّ انْقَشَعَت عنهُ، فَأَضاءَ.

ومَثَّلَ ما يَغْشاهُ منَ النِّسْيانِ بِسَحابَةٍ، فَيَنْسَى إذا مَرَّت، ويَتَذَكَّرُ إذا انْقَشَعَت.

وهكذا يكونُ حالُ القلبِ مع كلِّ ما يَغْشاهُ منَ الغَفْلَةِ، والهَوَى، والشَّهْوَةِ، والجَهْلِ، وغيرِ ذلك منَ الآفاتِ.

فَتَراهُ تَغْشاهُ سَحابَةُ العِشْقِ -مَثَلًا- فَيُظْلِمُ، فإذا انْقَشَعَت أَضاءَ، وتَذَكَّرَ، أَمَّا إذا لم تَنْقَشِع أَمْطَرَت، فَساءَ مَطَرُ الغُواةِ العاشِقينَ.

وتَغْشاهُ سَحابَةُ الجَهْلِ، والهَوَى، فَيَجْهَلُ، ويَغْوَى، فإذا انْقَشَعَت عَلِمَ، وعادَ إليهِ الهُدَى، وهكذا.

وهذه إشارَةٌ إلى لُزُومِ تَعاهُدِ القلبِ، والنَّظَرِ في أَحْوالِهِ، وما يَغْشاهُ من غَياماتِ الهوَى، والفتنةِ، والبِدْعَةِ.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٥٢٢٠)، وأبونُعَيم في الحليةِ (٢/ ١٩٦)، وفي المعرفة (٤٩٤٥)، وأبو الطيِّبِ الحوراني في حديثه (٣٦)، وحسنه الألباني في الصحيحةِ (٢٢٦٨).

وعنِ ابنِ عُمَرٍ: أَنَّهُ كان إذا أَرادَ أَن يَتَعاهَدَ قلبَهُ، يَأْتي الخَرِبَةَ، فَيَقِفُ على بابِها، فَيُنادي بِصَوتٍ حَزينٍ، فيَقُولُ: «أَينَ أهلُكِ؟» ثُمَّ يَرْجِعُ إلى نَفْسِهِ فيَقُولُ: «كلُّ شَيءٍ هالِكٌ إلَّا وجْهَهُ»[1].

ورواهُ ابنُ المُبارَكِ في الزُّهْدِ، عن مُجاهِدٍ، قال: مَرَرْتُ مع عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ بِخَرِبَةٍ، فقال: «يا مُجاهِدُ، نادِهْ: يا خَرِبَةُ، أَينَ أهلُكِ؟ -أَو ما فَعَلَ أهلُكِ؟-» قال: فَنادَيتُ، فقال ابنُ عُمَرَ: «ذَهَبُوا، وبَقيَت أَعْمالُهُمْ»[2].

وقال ابنُ حِبَّان رَحِمَهُ اللَّهُ: «الواجِبُ على العاقِلِ أَن لا يَنْسَى تَعاهُدَ قلبِهِ، بِتَرْكِ وُرُودِ السَّبَبِ الذي يُورِثُ القَساوَةَ له عليهِ؛ لأنَّ بِصَلاحِ المَلِكِ تَصْلحُ الجُنُودُ، وبِفَسادِهِ تَفْسَدُ الجُنُودُ»[3].

ومَن تَعاهَدَ قلبَهُ تَعاهَدَ إيمانَهُ، وهو من فِقْهِ العبدِ، وتَبَصُّرِهِ في أَمْرِهِ، وسُلُوكِهِ مَسْلَكَ الرُّشْدِ، والهُدَى.

رَوَى أَبو القاسِمِ اللالكائيُّ، عن أَبي الدَّرْداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «إنَّ من فِقْهِ العبدِ: أَن يَتَعاهَدَ إيمانَهُ، وما نَقَصَ منهُ، ومن فِقْهِ العبدِ: أَن يَعْلَمَ أَمُزْدادٌ هُوَ، أَم مُنْتَقِصٌ؟ وإنَّ من فِقْهِ الرَّجُلِ: أَن يَعْلَمَ نَزَغاتِ الشَّيطانِ أَنَّى تَأْتيهِ؟»[4].

ودَلَّ الحديثُ على أنَّ لِلْمَعْصيَةِ ظُلْمَةً تَغْشَى القلبَ، وتَذْهَبُ بِنُورِهِ، فَيُظْلِمُ، وقد قال ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إنَّ لِلْحَسَنَةِ لَنُورًا في القلبِ، وضياءً في الوَجْهِ، وقُوَّةً في البَدَنِ، وسَعَةً في الرِّزْقِ، ومَحَبَّةً في قلوبِ الخلقِ، وإنَّ لِلسَّيِّئَةِ لَظُلْمَةً في

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٦٣).

(٢) الزهد (١/ ٢٢٥)، وسنده صحيح.

(٣) روضة العقلاء (ص٣١).

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ١٠١٦).

القلبِ، وسَوادًا في الوَجْهِ، ووَهَنًا في البَدَنِ، وضيقًا في الرِّزْقِ، وبُغْضَةً في قلوبِ الخلقِ»[١].

وقال الحسن: «إنّ للحسنةِ ثوابًا في الدّنيا، وثوابًا في الآخرةِ، وإنّ للسيئةِ ثوابًا في الدّنيا، وثوابًا في الآخرةِ، فَثوابُ الحسنةِ في الدّنيا: البَصرُ في الدِّينِ، والنُّورُ في القلبِ، والقوةُ في البدنِ، مع صُحبةٍ حَسنةٍ، وثَوابُها في الآخرةِ: رِضوانُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وثَوابُ السِّيئةِ في الدّنيا: العَمَى في الدّنيا، والظُلمةُ في القلبِ، والوَهنُ في البَدنِ، مَع عُقوباتٍ ونقماتٍ، وثوابُها في الآخرةِ: سَخطُ اللهِ عزّ وجلّ، والنارُ»[٢].

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الظُّلْمَةُ ضِدُّ النُّورِ؛ ولهِذا عَقَّبَ ذِكْرَ النُّورِ، وأَعْمالَ المؤمنينَ فيها، بِأَعْمالِ الكُفَّارِ، وأهلِ البِدَعِ والضَّلالِ، فقال: ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ**﴾ [النور: ٣٩]، إلى قولِهِ: ﴿**ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ**﴾ [النور: ٤٠]، وكذلك الظُّلْمُ ظُلُماتٌ يومَ القيامَةِ، وظُلْمُ العبدِ نَفْسَهُ من الظُّلْمِ، فإنَّ لِلسَّيِّئَةِ ظُلْمَةً في القلبِ، وسَوادًا في الوَجْهِ، يُوَضِّحُ ذلك: أنَّ اللهَ ضَرَبَ مَثَلَ إيمانِ المؤمنينَ بالنُّورِ، ومَثَلَ أَعْمالِ الكُفَّارِ بالظُّلْمَةِ»[٣].

وعن أَبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال: «**إنَّ العبدَ إذا أَخْطَأَ خَطيئَةً، نُكِتَت في قلبِهِ نُكْتَةٌ سَوداءُ، فإذا هو نَزَعَ، واسْتَغْفَرَ، وتابَ، صُقِلَ قلبُهُ، وإن عادَ زيدَ فيها حَتَّى تَعْلُوَ قلبَهُ، وهو الرانُ الذي ذَكَرَ اللهُ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾** [المطففين: ١٤]»[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٣٠).

(٢) تفسير ابن رجب الحنبليّ (٢/ ١٣٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٨٢).

(٤) رواه الترمذي (٣٣٣٤)، وصححه، وحسنه الألباني.

وقال الحَكيمُ التِّرْمِذيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحسنَةُ نُورٌ، والسَّيِّئَةُ ظُلْمَةٌ، فَإِدْراكُ النُّورِ الظُّلْمَةَ سَريعٌ؛ لأنَّ الحسنَةَ نُورٌ مُبْتَدَأَةٌ من نُورِ الإيمانِ، والإيمان هُدَى اللهِ، فَبِنُورِ الإيمانِ يَحْسُنُ طَلَبُهُ، وبِقُوَّةِ هُدَى اللهِ تعالى يُسْرِعُ إدْراكُهُ، فَلَمَّا كان في الحسنَةِ نُورُ رَبِّهِ، كان لِحاقُ الحسنَةِ السَّيئَةَ بِسُرْعَةٍ»[١].

يعني: أنَّ العبدَ -وإن أَذْنَبَ- فهُو قَريبُ الرُّجُوعِ إلى اللهِ، قَريبُ الفَيئَةِ إلى رَحْمَتِهِ، وهُداهُ، فَتَلْحَقُ الحسنَةُ السَّيِّئَةَ فَتَمْحُوها، وفي هذا حَثٌّ لِلْعِبادِ على المُسارَعَةِ في التَّوبَةِ، وحَثٌّ لهم على حُسْنِ الظَّنِّ باللهِ تعالى.

فإن تابَ العبدُ، وأَنابَ، صَلَحَ حالُهُ، وإلَّا اسْتَحْكَمَت سَيِّئَتُهُ، وغَلَبَت ظُلْمَتُها، فغشيتِ القلبَ.

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لِلْمَعاصي منَ الآثارِ القَبيحَةِ المَذْمُومَةِ، المُضِرَّةِ بالقلبِ، والبَدَنِ، في الدنيا، والآخرةِ، ما لا يَعْلَمُهُ إلَّا اللهُ.

فمنها: حِرْمانُ العِلْمِ، فإنَّ العِلْمَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ في القلبِ، والمَعْصيَةُ تُطْفِئُ ذلك النُّورَ.

ومنها: وحْشَةٌ يَجِدُها العاصي في قلبِهِ بينَهُ وبينَ اللهِ، لا تُوازِنُها ولا تُقارِنُها لَذَّةٌ أَصْلًا، ولَوِ اجْتَمَعَت له لَذَّاتُ الدنيا بِأَسْرِها، لم تَفِ بِتِلْكَ الوَحْشَةِ، وهذا أَمْرٌ لا يحسُّ به إلَّا مَن في قلبِهِ حَياةٌ، وما لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامٌ، فَلَو لم تُتْرَكِ الذُّنُوبُ إلَّا حَذَرًا من وُقُوعِ تِلْكَ الوَحْشَةِ، لَكان العاقِلُ حَريًّا بِتَرْكِها.

ومنها: ظُلْمَةٌ يَجِدُها في قلبِهِ حَقيقَةً، يُحِسُّ بِها كما يُحِسُّ بِظُلْمَةِ اللَّيلِ البَهيمِ إذا ادْلَهَمَّ، فَتَصيرُ ظُلْمَةُ المَعْصيَةِ لِقلبِهِ، كالظُّلْمَةِ الحِسِّيَّةِ لِبَصَرِهِ، فإنَّ الطاعَةَ نُورٌ،

---

(١) نوادر الأصول (٢/ ٣٤٤).

والمَعْصيَةَ ظُلْمَةٌ، وكلَّما قَويَتِ الظُّلْمَةُ، ازْدادَت حَيرَتُهُ، حَتَّى يَقَعَ في البِدَعِ، والضَّلالاتِ، والأُمُورِ المُهْلِكَةِ، وهو لا يَشْعُرُ، كَأَعْمَى أُخْرِجَ في ظُلْمَةِ اللَّيلِ يَمْشي وحْدَهُ، وتَقْوَى هذه الظُّلْمَةُ حَتَّى تَظْهَرَ في العَينِ، ثُمَّ تَقْوَى حَتَّى تَعْلُوَ الوَجْهَ، وتَصيرَ سَوادًا في الوَجْهِ، حَتَّى يَراهُ كلُّ أَحَدٍ»[1].

فَبانَ بِحديثِ عَليٍّ وحديثِ أَبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **أنَّ المَعْصيَةَ:**

إمَّا أَن تكُونَ كَغاشيَةٍ، تَغْشَى القلبَ فَتُظْلِمهُ، فإذا انْجلَتِ اسْتَنارَ، وإذا لم تَنْجَلِ بَقي في ظُلْمَتِه.

أَو تَكُونَ نُكْتَةً سَوداءَ، تُصيبُهُ فَيُصيبُهُ الرَّيْنُ، فإنِ اسْتَعْتَبَ، وتابَ، صُقِلَ قلبُهُ، وإن لم يَسْتَعْتِب، زيدَ فيها حَتَّى تَعْلُوَ قلبَهُ.

ولذلك لا بُدَّ من تَعاهُدِ القلبِ، والنَّظَرِ في أَحْوالِهِ، والحَذَرِ منَ الوُقُوعِ في الذَّنْبِ؛ خَوفَ غَوائِلِهِ.



(١) الجواب الكافي (ص٥٢-٥٤).



الحديثُ التاسعُ والثلاثونَ:

عن سَهْلِ بنِ حُنَيفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«مَن سَألَ اللّهَ الشَّهادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللّهُ مَنازِلَ الشُّهَداءِ، وإن ماتَ على فِراشِهِ»**[١].

وفي روايةٍ: **«مَن سَألَ اللّهَ الشَّهادَةَ من قلبِهِ صادِقًا، بَلَّغَهُ اللّهُ مَنازِلَ الشُّهَداءِ، وإن ماتَ على فِراشِهِ»**[٢].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ، قال: قال رسولُ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَن طَلَبَ الشَّهادَةَ صادِقًا، أُعْطِيَها، ولو لم تُصِبْهُ»**[٣].

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**المعنَى**: أنَّهُ إذا سَأَلَ الشَّهادَةَ بِصِدْقٍ، أُعْطِيَ من ثَوابِ الشُّهَداءِ، وإن كان على فِراشِهِ.

وفيهِ: استحبابُ سؤالِ الشهادَةِ، واستحبابُ نيَّةِ الخيرِ»[٤].

فمَن سألَ اللهَ الخيرَ صادِقًا من قلبِهِ، وسَعَى سعيَهُ على قَدْرِ جهدِهِ، بلَّغَه اللهُ منزلتَه في الآخرةِ، وإن لم يُصبْهُ في الدنيا.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «المُريدُ إرادَةً جازِمَةً، مع فِعْلِ المَقْدُورِ: هو بِمَنْزِلَةِ العامِلِ الكامِلِ»[٥].

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٩).

(٢) رواه الترمذي (١٦٥٣)، وصححه الألباني.

(٣) رواه مسلم (١٩٠٨).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٣/ ٥٥)..

(٥) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٣١).



وقال **ابنُ القيِّم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**قاعدةُ الشريعةِ**: أنَّ العَزمَ التامَّ إذا اقترَنَ بِهِ ما يُمكِنُ منَ الفعلِ، أو مقدّماتِ الفعلِ، نَزَلَ صاحبُه في الثّوابِ، والعقابِ، مَنزلةَ الفاعِلِ التامِّ»[١].

فمَن صدَقَ اللهَ في نيتِهِ، وعَمَلِ قلبِهِ، واجتهدَ في السَّعي والعملِ جهدَهُ، وسأَلَ اللهَ الغايةَ: مَنَّ بها عليهِ بفضلِهِ، وكرمِهِ.

وهذا ممَّا يبيِّنُ فضلَ عملِ القلبِ، وصدقِ النيَّةِ، **قال المناويُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**بلَّغَه اللهُ منازِلَ الشُّهداءِ**»؛ مجازاةً لَه على صِدْقِ الطَّلَبِ»[٢].

وعن أَبِي الدَّرْداءِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، يَبْلُغُ به النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن أَتَى فِراشَهُ، وهو يَنْوي أَن يَقُومَ فَيُصَلِّيَ منَ اللَّيلِ، فَغَلَبَتْهُ عَينُهُ حَتَّى يُصْبِحَ، كُتِبَ لَهُ ما نَوَى، وكان نَومُهُ صَدَقَةً عليهِ من رَبِّهِ**»[٣].

وعن سعيدِ بنِ المسيبِ، قال: «مَن همَّ بصلاةٍ، أو صيامٍ، أو حجٍّ، أو عمرةٍ، أو غزوٍ، فحيلَ بينه وبينَ ذلك، بلَّغه اللهُ تعالى ما نَوَى».

وقال زيدُ بنُ أسلَم: كان رجلٌ يطوفُ على العلماءِ، يقولُ: مَن يدلُّني على عملٍ لا أزالُ منه للهِ عاملًا، فإنِّي لا أُحبُّ أن تأتيَ عليَّ ساعةٌ منَ الليلِ، والنَّهارِ، إلَّا وأنا عاملٌ للهِ تعالى، فقيلَ له: «قَد وجدتَ حاجتَكَ، فاعمَلِ الخيرَ ما استطعْتَ، فإذا فترْتَ، أو تركتَهُ، فَهمَّ بعملِهِ؛ فإنَّ الهامَّ بعملِ الخيرِ كفاعِلِه»[٤].

فقولُهُ: «مَن سَأَلَ اللّهَ الشَّهادَةَ بِصِدْقٍ»:

أَي: طَلَبَ منَ اللهِ أن يُقتَلَ في سبيلِه، فيموتَ شهيدًا، صادقًا من قلبِهِ، يعلَمُ اللهُ صِدْقَ قلبِهِ، وصحَّةَ نيتِهِ، وحبَّه الشهادَة، ورغبتَهُ فيها.

---

(١) طريق الهجرتين (ص٣٦٠).

(٢) فيض القدير (٦/ ١٤٤).

(٣) رواه ابن ماجه (١٣٤٤)، وصححه الألباني.

(٤) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٢٠).

«بَلَّغَهُ اللّهُ مَنازِلَ الشُّهَداءِ»:

أَي: أعطاهُ أجرَ الشُّهداءِ، بِصدقِ نيّتِهِ(١).

وقال السّنديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُريدُ أنَّ الدُّعاءَ بالشَّهادَةِ، إذا كان بصدقٍ من قلبِهِ، فهُو مُسْتَجابٌ»(٢).

والشهادَةُ مرتبةٌ عاليةٌ بعدَ الصِّدِّيقيَّةِ، كما قال اللهُ سبحانَه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

«وَإن ماتَ على فِراشِه»:

أَي: ولو ماتَ غيرَ شَهيدٍ، فهُو في حُكْمِ الشُّهَداءِ، ولَهُ ثَوابُهُمْ(٣).

قال الشَّوكانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحديثُ يدلُّ على مَشْرُوعيَّةِ سُؤالِ العبدِ ربَّه أَن يكْتبَ له الشَّهادَةَ، فإن كتبَها له فَبِها ونِعْمَت، وإن لم يَكْتُبها له نالَ منازِل الشُّهَداء، وبلَّغَه اللهُ إليها، وأَعْطاهُ مثلَ ما أَعْطاهُم»(٤).

ولَكِن لا يلزَمُ من ذلك، استواؤُهُ في الأجرِ والفَضلِ، وشهيد المعركةِ الذي ماتَ في ساحَةِ القتالِ، وهوَ يُجاهِدُ أعداءَ اللهِ بنفسِهِ، ولكنَّه لَمَّا نَوَى الخيرَ، وفَعلَ مَقْدُورَهُ منه، استَوَى معَه في أَصْلِ الأَجْرِ(٥).

---

(١) شرح المصابيح، لابن الَملَك (٤/ ٣١٧).
(٢) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢/ ١٨٤).
(٣) مرقاة المفاتيح (٦/ ٢٤٦٦).
(٤) تحفة الذاكرين (ص٣٣٦).
(٥) ينظَر: عون المعبود (٤/ ٢٦٨).

وهذا كقولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الطاعِمُ الشاكِرُ، بِمَنْزِلَةِ الصائِمِ الصابِرِ**»(١).

قال الكَرْمانيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «التَّشْبيهُ هُنا في أَصْلِ الثَّوابِ لا في الكَمِّيَّةِ، ولا الكَيفيَّةِ، والتَّشْبيهُ لا يَسْتَلْزِمُ المُماثَلَةَ من جَميعِ الأَوجُهِ»(٢).

قال ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «اعْلَم أَن النِّيَّةَ قطبُ العَمَلِ، عليها يَدُورُ، وقد يُفيدُ مُجَرَّدُ النِّيَّةِ من غيرِ عملٍ، ولا يُفيدُ عملٌ من غيرِ نيَّةٍ، ومَن صدقَت نيَّتُه في طلبِ الشَّهادَةِ، فَكَأَنَّهُ استسلَمَ للْقَتْلِ، فلا يضرُّهُ بُعدُ بدنِهِ عَن الجِهادِ للعذرِ، مع صدقِ نيَّتِه، كما قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ**﴾ [النساء: ١٠٠] وكذلك من نام عَن صَلاةٍ، أَو نَسيَها، وكذلك لَو نوَى قيامَ اللَّيلِ، فغلبَه النُّعاسُ، كُتِبَ له ثَوابُ نيَّتِه»(٣).

وفي الحديثِ:

* بيانُ كمالِ فضلِ اللهِ على المؤمنينَ الصادقينَ من عبادِهِ، وجبرِهِم، ورفعِ درجاتِهِم إلى ما تتوقُ إليهِ نفوسُهُم، وإن لم يصلُوا إلى ذلك بأعمالِهِم.
* فضلُ صحَّةِ النيَّة، والصدقِ معَ اللهِ فيها.
* أنَّ عملَ القلبِ قد يبلُغُ بصاحبِهِ أسمَى المنازِلِ، وأعالي الدرجاتِ.
* مشروعيةُ طلبِ الشهادَةِ في سبيلِ اللهِ، ولَيسَ هذا من تَمَنِّي المَوتِ المَنْهيِّ عنهُ.



(١) رواه الترمذي (٢٤٨٦) وحسَّنه، وصححه الألباني.
(٢) فتح الباري (٩/ ٥٨٣).
(٣) كشف المشكل (٢/ ١١٧).

الحديثُ الأربعونَ:

عن ثَوبانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يُوشِكُ الأُمَمُ أن تَداعَى عَلَيكُم، كما تَداعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها»**، فقال قائلٌ: ومن قِلَّةٍ نَحْنُ يَومَئِذٍ؟ قال: **«بَل أَنْتُم يَومَئِذٍ كثيرٌ، ولَكِنَّكُم غُثاءٌ كَغُثاءِ السَّيلِ، ولَيَنْزَعَنَّ اللّهُ من صُدورِ عَدُوِّكُمُ المَهابَةَ منْكُم، ولَيَقْذِفَنَّ اللّهُ في قلوبِكُمُ الوَهْنَ»**، فقال قائِلٌ: يا رسولَ اللّهِ، وما الوَهْنُ؟ قال: **«حُبُّ الدنيا، وكَراهيَةُ المَوتِ»**[١].

قولُهُ: «يُوشِكُ الأُمَمُ أَن تَداعَى عَلَيكُمْ»:

بِأَن يَدْعُوَ بعضُهُم بعضًا؛ لِمُقاتَلَتِكُم، وكَسْرِ شَوكَتِكُم، وسَلْبِ ما مَلَكْتُمُوهُ منَ الدِّيارِ، والأَمْوالِ[٢].

وقال في **عَونِ المَعْبُودِ**: «التَّداعي: الاِجْتِماعُ، ودُعاءُ البعضِ بعضًا، والمُرادُ منَ الأُمَمِ: فِرَقُ الكفرِ، والضَّلالَةِ»[٣].

«كما تَداعَى»:

أَي: كما تَتَداعَى.

---

(١) رواه أبوداود (٤٢٩٧) -واللفظ له-، وأحمد (٢٢٣٩٧)، وابن أبي شيبة (٣٧٢٤٧)، وأبونُعَيم في الحليةِ (١/ ١٨٢)، والبغوي في شرح السُّنة (١٥/ ١٦)، والبيهقي في الدلائلِ (٦/ ٥٣٤)، وحسّنه محققو المسند.

(٢) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٣٦٦).

(٣) عون المعبود (١١/ ٢٧٢).



«الأَكَلَةُ»:

بِفَتْحَتَينِ، ورُوِيَ: «الآكِلَةُ» بالمَدِّ، على نَعْتِ الفِئَةِ، والجَماعَةِ، أَو نَحْوِ ذلك، والمعنى: كما يَدْعُو أَكَلَةُ الطَّعامِ بعضُهُم بعضًا.

«إلى قَصْعَتِها»:

أَيِ: التي يَتَناوَلُونَ منها بِلا مانِعٍ، ولا مُنازِعٍ، فَيَأْكُلُونَها عَفْوًا صَفْوًا، كذلك يَأْخُذُونَ ما في أَيديكُم بِلا تَعَبٍ يَنالُهُم، أَو ضَرَرٍ يَلْحَقُهُم، أَو بَأْسٍ يَمْنَعُهُمْ.

فقال قائِلٌ: ومن قِلَّةٍ نَحْنُ يَومَئِذٍ؟:

أَي: أَذلك التَّداعي لِأَجْلِ قِلَّةٍ نَحْنُ عليها يومَئِذٍ؟

قال: **«بَل أَنْتُم يَومَئِذٍ كثيرٌ»:**

أَي: عَدَدُكُم كثيرٌ، ولَكِن كثيرًا ما لا تُغْني كثرةُ العَدَدِ.

«ولَكِنَّكُم غُثاءٌ كَغُثاءِ السَّيلِ»:

أَي: ما يَحْمِلُهُ السَّيلُ من زَبَدٍ، ووَسَخٍ، شَبَّهَهُم به؛ لِقِلَّةِ شَجاعَتِهِم، ودَناءَةِ قَدْرِهِم، وخِفَّةِ أَحْلامِهِم، وخُلاصَتُهُ: ولَكِنَّكُم تَكُونُونَ مُتَفَرِّقِينَ، ضَعيفي الحالِ، خَفيفي البالِ، مُشَتَّتي الآمالِ.

ثُمَّ ذَكَرَ سببَهُ بِعَطْفِ البَيانِ؛ فقال:

«ولَيَنْزِعَنَّ اللهُ من صُدُورِ عَدُوِّكُمُ المَهابَةَ»:

أَي: لَيُخْرِجَنَّ اللهُ الخوفَ، والرُّعْبَ، من صُدُورِ عَدُوِّكُمْ.

«مِنْكُمْ»:

أَي: من جِهَتِكُمْ[1].

---

(١) شرح المشكاة (١١/ ٣٣٩٣)، مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٣٦٦)، عون العبد (١١/ ٢٧٢).

وفي الصّحيحين، عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**أُعْطيتُ خَمْسًا لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرَةَ شَهْرٍ**...» الحديثَ[١].

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَوقَعَ اللهُ تعالى في قلوبِ أَعْداءِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخَوفَ منهُ؛ فإذا كان بينَهُ وبينَهُم مَسيرَةُ شَهْرٍ، هابُوا، وفَزِعُوا منهُ»[٢].

وقال الحافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهذه الخُصُوصيَّةُ حاصِلَةٌ له على الإطْلاقِ، حَتَّى لَو كان وحْدَهُ بِغيرِ عَسْكَرٍ، وهَل هيَ حاصِلَةٌ لِأُمَّتِهِ من بَعْدِهِ؟ فيه احْتِمالٌ»[٣].

وفي حديثِ أَبي أُمامَةَ: «**وَنُصِرْتُ بالرُّعْبِ، يَسيرُ بينَ يَدَيَّ مَسيرَةَ شَهْرٍ، يُقْذَفُ في قلوبِ أَعْدائي**»[٤].

فَفي زَمَنِ قُوَّةِ الإيمانِ، واليَقينِ، وعَدَمِ التَّعَلُّقِ بالدنيا: يُقْذَفُ الرُّعْبُ في قلوبِ الأَعْداءِ مَسيرَةَ شَهْرٍ، من مَسيرِ جَيشِ أهلِ الإسلامِ إليهم.

أَمَّا في زَمَنِ الوَهْنِ، وضَعْفِ الإيمانِ، فقال: «**وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ من صُدُورِ عَدُوِّكُمُ المَهابَةَ منْكُمْ**»، فكانَتِ المَهابَةُ حاصِلَةً في قلوبِ الأَعْداءِ من أهلِ الإسلامِ، فَلَمَّا رَكَنُوا إلى الدنيا، وضَعُفَ الإيمانُ في قلوبِهِم، نَزَعَ اللهُ المَهابَةَ والرُّعْبَ من قلوبِ أَعْدائِهِم، ولَيسَ ذلك فَقَط، قال:

«وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ في قلوبِكُمُ الوَهْنَ»:

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيِ: الضَّعْفَ، وكَأَنَّهُ أَرادَ بالوَهْنِ ما يُوجِبُهُ؛ ولذلك فَسَّرَهُ بِحُبِّ الدنيا، وكَراهَةِ المَوتِ»[٥].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٦٧٥).

(٣) فتح الباري (١/ ٤٣٧).

(٤) رواه أحمد (٢٢١٣٧)، والبيهقي (١٠٥٩)، وحسنه محققو المسند.

(٥) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٣٦٦).

وقال الخليلُ بنُ أَحْمَدَ الفَراهيديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الوَهْنُ: الضَّعْفُ في العَمَلِ، وفي الأَشْياءِ، وكذلك في العَظْمِ، ونَحْوِهِ، وقد وهَنَ العَظْمُ يَهِنُ وهْنًا، وأَوهَنَهُ يُوهِنُهُ، ورَجُلٌ واهِنٌ في الأَمْرِ، والعَمَلِ، ومَوهُونٌ في العَظْمِ، والبَدَنِ»[١].

وقال أَبو مَنْصُورٍ الأَزْهَرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الوَهْنانَةُ منَ النِّساءِ: الكَسْلى عنِ العَمَلِ تَنَعُّمًا»[٢].

«والواهِنَةُ: داءٌ يُصيبُ الإنْسانَ في أَخْدَعَيهِ عندَ الكِبَرِ»[٣].

فهذا الأَصْلُ: «وَهَنَ» تَرْكيبٌ يَدُلُّ على الضَّعْفِ، والمَرَضِ.

فإذا اجْتَمَعَ التَّنَعُّمُ، وحُبُّ الدنيا، والضَّعْفُ عنِ العَمَلِ، والكَسَلُ، والخَوَرُ، وكَراهيَةُ المَوتِ، في قلوبِ الناسِ، تَداعَتِ الأُمَمُ العاديةُ على هذه الأُمَّة، كما تَتَداعَى الأَكَلَةُ على قَصْعَتِها.

وتَأَمَّل قَولَهُ: «**وَنُصِرْتُ بالرُّعْبِ، يَسيرُ بينَ يَدَيَّ مَسيرَةَ شَهْرٍ، يُقْذَفُ في قلوبِ أَعْدائي**».

وقَولَهُ: **«وَلَيَقْذِفَنَّ اللّهُ في قلوبِكُمُ الوَهْنَ»**.

تَأَمَّلِ الفَرْقَ بينَ القَذْفَينِ، وكَيفَ أنَّ اللهَ تعالى يَنْصُرُ أهلَ الإسلامِ بِقَذْفِ الرُّعْبِ في قلوبِ أَعْدائِهِم من مَسيرَةِ شَهْرٍ، إذا كانُوا على منهاجِ النُّبُوَّةِ، فإذا انحرفوا واخْتَلَفَت قلوبُهُم، قَذَفَ اللهُ في قلوبِهِمُ الوَهْنَ، ونَزَعَ المَهابَةَ منهُم من صُدُورِ أَعْدائِهِم.

قال قائِلٌ: يا رسولَ اللّهِ: وما الوَهْنُ؟

أَي: ما سببُهُ؟ وما مُوجِبُهُ؟ **قال الطِّيبيُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سُؤالٌ عن نَوعِ الوَهْنِ، أَو كَأَنَّهُ أَرادَ: من أَيِّ وجْهٍ يكونُ ذلك الوَهْنُ؟»[٤].

---

(١) العين (٤/ ٩٢).

(٢) تهذيب اللغة (٦/ ٢٣٤).

(٣) جمهرة اللغة (٢/ ٩٩٦).

(٤) شرح المشكاة (١١/ ٣٣٩٤)

قال: «حُبُّ الدنيا، وكَراهيةُ المَوتِ»:

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهُما مُتَلازِمانِ، فَكَأَنَّهُما شَيءٌ واحِدٌ، يَدْعُوهُم إلى إعْطاءِ الدَّنيَّةِ في الدِّينِ منَ العَدُوِّ المُبينِ، ونَسْأَلُ اللهَ العافيَةَ، فَقَدِ ابْتُلينا بِذلك، فَكَأَنَّما نَحْنُ المَعْنيُّونَ بِما ذُكِرَ هُنالِكَ»(١).

وحُبُّ الدنيا، وكَراهيَةُ الموتِ، من صِفاتِ اليَهُود، وما ظَنُّ هذه الأُمَّةِ إذا اتَّصَفَت بِصِفاتِ اليَهُودِ، ورَكَنَت إلى الدنيا، وأَصابَ قلوبَهُمُ الوَهْنُ؟

قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦].

قال الحافِظُ ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «دَلَّ ذلك على أنَّ أَولياءَ اللهِ لا يَكْرَهُونَ المَوتَ.

ثُمَّ أخبرَ أنَّهُمْ: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الجمعة: ٧]، فَدَلَّ على أنَّهُ يَكْرَهُ المَوتَ مَن له ذُنُوبٌ يَخافُ القُدُومَ عليها، كما قال بعضُ السلفِ: «ما يَكْرَهُ المَوتَ إلَّا مُريبٌ».

وفي حديثِ عَمَّارِ بنِ ياسِرٍ عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إلى وجْهِك، وشَوقًا إلى لِقائِكَ، في غيرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، ولا فتنةٍ مُضِلَّةٍ**»(٢).

---

(١) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٣٦٦).

(٢) رواه النَّسائيّ (١٣٠٥)، وصححه الألباني.

فالشَّوقُ إلى لِقاءِ اللهِ تعالى إنَّما يكونُ بِمَحَبَّةِ المَوتِ، وذلك لا يَقَعُ -غالِبًا- إلَّا عندَ خَوفِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ في الدنيا، أو فتنةٍ مُضِلَّةٍ في الدِّينِ»(١).

والمقصودُ منَ الحديثِ:

أنَّ حُبَّ الدنيا، وكَراهيَةَ المَوتِ، هو الوَهْنُ الذي يَقْذِفُهُ اللهُ في قلوبِ الناسِ في زَمَنِ الضَّعْفِ، والاِسْتِكانَةِ، وعَدَمِ التَّمْكينِ، فَتَتَسَلَّطُ عليهِمُ الأُمَمُ.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ التَّعَلُّقَ بالدنيا، ومَحَبَّتَها، من أَعْظَمِ آفاتِ القلوبِ، وأَمْراضِها.

وحُبُّ الدنيا مَرَضٌ عُضالٌ مُسْتَحْكِمٌ، فعن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**لاَ يَزالُ قلبُ الكَبيرِ شابًّا في اثْنَتَينِ: في حُبِّ الدنيا، وطُولِ الأَمَلِ**»(٢).

وهذا هو الذي ذَكَرَهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديثِ التَّرْجَمَةِ: «**حُبُّ الدنيا، وكَراهيةُ المَوتِ**»؛ فإنَّ طُولَ الأَمَلِ يَبْعَثُ على كَراهيةِ المَوتِ؛ لأَنَّهُ يَقْطَعُ على الأَمَلِ الطَّويلِ سَبيلَهُ.

وقد ذَمَّ اللهُ تعالى مَن يُحِبُّ الدنيا، ويُؤْثِرُها على الآخرةِ، كما قال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١].

وقال تعالى عن أَنْبيائِهِ الكِرامِ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص: ٤٦]، قال مالِكُ بنُ دينارٍ: «نَزَعَ اللهُ تعالى من قلوبِهِم حُبَّ الدنيا، وذِكْرَها، وأَخْلَصَهُم بِحُبِّ الآخرةِ، وذكرِها»، وكَذا قال عَطاءٌ الخُراسانيُّ(٣).

---

(١) لطائف المعارف (ص٢٩٦).

(٢) رواه البخاري (٦٤٢٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ٦٧).

وقال جُنْدُبُ بنُ عبدِ اللهِ البَجَليُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حُبُّ الدنيا رَأْسُ كلِّ خَطيئَةٍ».

وقال الحسنُ: «مَن أَحَبَّ الدنيا وسَرَّتْهُ، خَرَجَ حُبُّ الآخرةِ من قلبِهِ».

وقال عَونُ بنُ عبدِ اللهِ: «الدنيا والآخرةُ في القلبِ كَكِفَّتَيِ الميزانِ، بِقَدْرِ ما تَرْجِحُ إِحْداهُما تَخِفُّ الأُخْرَى».

وقال وهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ: «إنَّما الدنيا والآخرةُ، كَرَجُلٍ له امْرَأَتانِ: إن أَرْضَى إحْداهُما أَسْخَطَ الأُخْرَى»[1].

وعن عبدِ الرحمنِ بنِ يَزيدَ، قال: قال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنْتُم أكثرُ صَلاةً وأكثرُ صياماً من أَصْحابِ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهُم كانُوا خَيرًا منْكُمْ»، قالُوا: وبِمَ؟ قال: «كانُوا أَزْهَدَ منْكُم في الدنيا، وأَرْغَبَ منْكُم في الآخرةِ»[2].

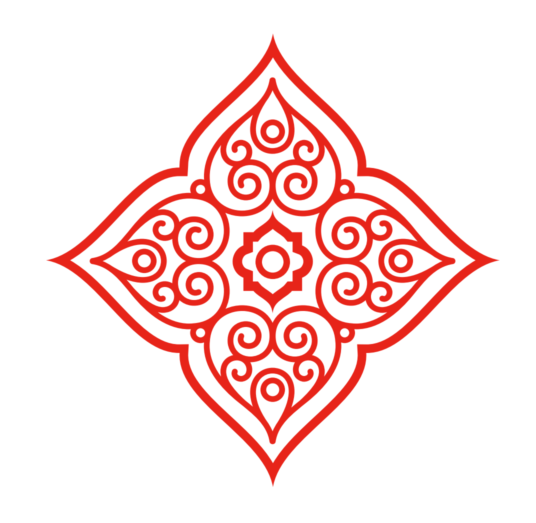


(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٠٣).

(٢) رواه الحاكمُ (٧٨٨٠)، وقال: «هذا حديثٌ صحيح على شرط الشيخين»، ووافقهُ الذّهَبي.



خلاصةُ هذه الأرْبَعينَ المُبارَكَةِ







اسْتَعْرَضْنا -بِحَمْدِ اللهِ تَعالى- في هذه الأرْبَعينَ، بعضَ أَحْوالِ القلوبِ، واخْتِلافِها، وتَغَيُّرِها، وما يَطْرَأُ عليها مِمَّا يُصيبُها بالغَشاوَةِ، والظُّلْمَةِ، وما يَنْفَعُها منَ العَمَلِ الصالِحِ، والأَحْوالِ الكريمَةِ، مِمَّا يُصْقِلُها، ويُذْهِبُ عنها الرَّينَ.

وبَيَّنَّا أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَكِلُ أَقْوامًا إلى ما جَعَلَ اللهُ في قلوبِهِم منَ الغِنَى، والخَيرِ، فَيَمْنَعُهُمُ العَطايا الدُّنْيَوِيَّةَ، فلا يَزيدُهُم ذلك إلَّا إيمانًا.

وبَيَّنَّا أنَّ من آفاتِ القلوبِ المُضِرَّةِ: كثرةَ الضَّحِكِ.

وأنَّ القلبَ إنَّما سُمِّي قلبًا من تَقَلُّبِهِ، ومَثَلُهُ كَمَثَلِ ريشَةٍ مُعَلَّقَةٍ في أَصْلِ شَجَرَةٍ، تُقَلِّبُها الرِّيحُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ.

وأنَّهُ أَسْرَعُ تَقَلُّبًا منَ القِدْرِ إذا اجْتَمَعَت غَلَيانًا.

وأنَّ قلبَ المؤمنِ يَسْكُنُ إلى البِرِّ، والتَّقْوى، وفِعْلِ المَعْرُوفِ، ويَأْنَسُ بِذلك، ولا يَطْمَئِنُّ إلى الإثْمِ، والمَعْصيَةِ.

وأنَّ مِمَّا يُلينُ القلبَ منَ الأَعْمالِ الصالِحَةِ اليَسيرَةِ: مَسْحَ رَأْسِ اليَتيمِ، وإطْعامَهُ من طَعامِكَ؛ لأنَّ ذلك يَبْعَثُ على التَّواضُعِ، ولينِ الجانِبِ.

وأنَّ من أَصْنافِ أهلِ الجَنَّةِ: الرَّجُلَ الرَّحيمَ، رَقيقَ القلبِ، لِكلِّ ذي قُرْبى، ومسلمٍ.

وأنَّ الغِنَى ليس عن كثرةِ المالِ، والعَرَضِ، إنَّما الغِنَى غِنَى القلبِ.

كما أنَّ الفَقْرَ ليس عن قِلَّةِ المالِ، وضيقِ ذاتِ اليَدِ، إنَّما الفَقْرُ فَقْرُ القلبِ.

وأَنَّهُ كان من دُعاءِ النبيِّ ﷺ: «**رَبِّ تَقَبَّل تَوبَتي، واغْسِل حَوبَتي، وأَجِب دَعْوَتي، وثَبِّت حُجَّتي، وسَدِّد لِساني، واهْدِ قلبي، واسْلُل سَخيمَةَ قلبي**».

وكذلك كان من دُعائِهِ ﷺ: «**اللهُمَّ اغْسِل قلبي بِماءِ الثَّلْجِ، والبَرَدِ، ونَقِّ قلبي منَ الخَطايا، كما نَقَّيتَ الثَّوبَ الأَبْيَضَ منَ الدَّنَسِ**».

فَيَسْأَلُ اللهَ طهارةَ القلبِ مِمَّا عَلَقَ به، وأَصابَهُ، ويَسْأَلُهُ هِدايَتَهُ إلى صِراطِهِ المُسْتَقيمِ.

وبَيَّنَّا أَنَّهُ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ لِأَوَّلِ وهْلَةٍ مَن كان في قلبِهِ مِثْقالُ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ من كِبْرٍ، لَكِنَّهُ يَسْتَحِقُّ العَذابَ، ثُمَّ هو في المَشيئَةِ، إن ماتَ على التّوحيدِ.

وأَنَّهُ لا يَدْخُلُ النارَ مَن كان في قلبِهِ مِثْقالُ خَرْدَلَةٍ من إيمانٍ، دُخُولَ الخالِدينَ، ولَكِنَّهُ قَد يَدْخُلُها بِذُنُوبِهِ، حَتَّى إذا هُذِّبَ ونُقِّيَ، دَخَلَ الجَنَّةَ.

وأَنَّ مَن كان هَمُّهُ الآخرةَ، جمعَ اللهُ شَمْلَهُ، وجَعَلَ غِناهُ في قلبِهِ، وأَتَتْهُ الدنيا وهيَ راغِمَةٌ، ومَن كانَت نيَّتُهُ الدنيا، فَرَّقَ اللهُ عليهِ ضَيعَتَهُ، وجَعَلَ فَقْرَهُ بينَ عَينَيهِ، ولم يَأْتِهِ منَ الدنيا إلَّا ما كُتِبَ له.

وأَنَّ مَن تَفَرَّغَ لِعِبادَةِ اللهِ، مَلَأَ اللهُ قلبَهُ غِنًى، ومَنِ انْشَغَلَ بالدنيا عنِ الآخرةِ، أَفْقَرَ اللهُ قلبَهُ.

وأَنَّ قلبَ المؤمنِ قلبٌ كَريمٌ على اللهِ، وهو وِعاءٌ من أَعْظَمِ أَوعيَةِ الخَيرِ؛ لِما يَمْلَؤُهُ من تَقْوَى اللهِ، وخَشْيَتِهِ، وذِكْرِهِ، والإخْباتِ إليهِ، وحُسْنِ الظَّنِّ به، وحُسْنِ التَّوَكُّلِ عليهِ، وغيرِ ذلك من خِصالِ الخَيرِ، والإيمانِ.

وأَنَّ في قلبِ المسلمِ واعِظًا يَعِظُهُ، ويُذَكِّرُهُ، ويُنْذِرُهُ، ويَأْمُرُهُ، ويَنْهاهُ، فَمَنِ اسْتَجابَ له سَلِمَ، وغَنِمَ، ومَن لم يَسْتَجِب له عَطِبَ، وغَرِمَ.

وأنَّهُ ما منَ القلوبِ قلبٌ إلَّا ولَهُ سَحابَةٌ كَسَحابَةِ القَمَرِ، مَتَى غَشيَتْهُ أَظْلَمَ، ومَتَى انْقَشَعَت عنهُ اسْتَنارَ.

وأنَّ محْزُونَ القلبِ، مَكْرُوبَهُ، يَلْجَأُ إلى اللهِ تعالى بالدُّعاءِ، والعَمَلِ الصالِحِ؛ ليَجْعَلَ القرآنَ رَبيعَ قلبِهِ، ونُورَ صَدْرِهِ، وجِلاءَ حُزْنِهِ، وذَهابَ همِّهِ، وغَمِّهِ.

كما بَيَّنَّا أنَّ أَعْمالَ الجَوارِحِ لَهَا اتِّصالٌ وثيقٌ بِأَعْمالِ القلوبِ، وأنَّ اخْتِلافَ الظَّواهِرِ سببٌ لِاخْتِلافِ القلوبِ، وأنَّ اسْتِواءَ القلوبِ يَسْتَدْعي اسْتِواءَ الجَوارِحِ، واعْتِدالَهَا.

وذكرنا أنَّ من أسبابِ ضَعْفِ الأُمَّةِ حُصُولَ الوَهْنِ في القلوبِ؛ بسببِ حُبِّ الدنيا، وكَراهيَةِ المَوتِ، وذلك مَذْكُورٌ لا لِذَمِّ الأُمَّةِ، وانْتِقاصِ قَدْرِها، ولَكِن لِبَيانِ ما يَعْرِضُ لَهَا من أسبابٍ تقتضي وهنَها، وضَعْفَها؛ لِنَتَّقِيَ ذلك، وإن كان -لا محالةَ- واقِعًا يومًا ما.

وما ذكرناهُ وبيَّنّاهُ منَ النَّصِّ والتَّحريرِ، فَمِمّا جاءَ في الكتابِ والسُّنةِ منَ البيانِ والتَّنويرِ، وما ذكَرَهُ أهلُ العلمِ منَ الشرحِ والتفسيرِ، وذلك منْ ميراثِ النُّبوَّةِ، الذي أنْعَمَ اللهُ به على هذه الأُمَّةِ.

ونَذْكُرُ في الخِتامِ -على وجْهِ الاخْتِصارِ-: بعضَ النُّصُوصِ الشَّرْعيَّةِ، ومِمَّا أُثِرَ عنِ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، والتابِعينَ لهم بِإحْسانٍ، وغيرِهم، مِمَّا ورَدَ في القلبِ، وأَعْمالِهِ، وآفاتِهِ، ومُخْتَلَفِ أَحْوالِهِ، مِمَّا ليس على شَرْطِنا، ومِمّا لم يَتّسع له المَقامُ؛ فيُعينُ ذِكْرُهُ في الختامِ على مَزيدٍ منَ المعرفةِ لِطَبيعَةِ هذا العُضْوِ الشَّريفِ، الذي هو سَيِّدُ الأَعْضاءِ، وأَميرُها، ومُقَدَّمُها.

فمما وردَ في هذا الشأنِ:

* أنَّ القرآنَ الكريمَ أنزلَهُ اللهُ على قلبِ نَبيِّهِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليُثَبِّتَهُ، ويهديَهُ به، ويهديَ به، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

* وأنَّ القلوبَ تَزيغُ وتَمرَضُ بسببِ عِصيانِها ربَّها، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥].

* وأنَّ اللهَ تعالى يَحُولُ بينَ المرءِ، وقلبِهِ، كما قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فيَحُولُ بينَ المؤمنِ وبينَ الكفرِ، وبينَ الكافِرِ وبينَ الإيمانِ، ويَحولُ بينَ أهلِ طاعَتِه وبين مَعْصيَتِه، وبينَ أهلِ مَعْصيَتِه وبينَ طاعَتِه.

* وأنَّ مَن كان قلبُهُ مُطْمَئِنًّا بالإيمانِ، فلا يَضُرُّهُ أن يُكْرَهَ على خلافِ ما اطْمَأنَّ قلبُهُ عليهِ، كما قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فَمَن أُكْرِهَ على الكفرِ، وأُجْبِرَ عليهِ، وقلبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمانِ، راغِبٌ فيهِ؛ فإنَّهُ لا حَرَجَ عليهِ، ولا إثْمَ، ويَجُوزُ له النُّطْقُ بكلمةِ الكفرِ عندَ الإكْراهِ عليها.

* وقد نَهى اللهُ تعالى نَبيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن طاعَةِ مَن شُغِلَ عنِ الدِّينِ، وغَفَلَ قلبُهُ عنِ اللهِ، وعن ذِكْرِهِ؛ فإنَّ هَؤُلاءِ هُمُ المُفَرِّطُونَ الخاسِرُونَ، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

ودَلَّتِ الآيةُ على أنَّ الذي يَنْبَغي أَن يُطاعَ، ويكونَ إمامًا لِلنَّاسِ، مَنِ امْتَلأَ قلبُهُ بِمَحبَّةِ اللهِ، وفاضَ ذلك على لِسانِهِ، فَلَهجَ بِذِكْرِ اللهِ، واتَّبَعَ مَراضيَ رَبِّهِ، فَقَدَّمَها على هَواهُ.

* وأنَّ صاحِبَ القلبِ السَّليمِ -وهُو السالِمُ منَ الآفاتِ، والأَمْراضِ- هو الناجي يَومَ الدِّينِ؛ حَيثُ لا يَنْفَعُ مالٌ، ولا بَنُونَ، قال اللهُ عن خَليلِهِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩].

قال أَبو عثمانَ النَّيسابُوريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «القلبُ السَّليمُ: هو القلبُ الخالي منَ البِدْعَةِ، المُطْمَئِنُّ إلى السُّنةِ»[١].

* كما بَيَّنَ القرآنُ أنَّ اللهَ تعالى يَرْبِطُ على قلوبِ أهلِ الإيمانِ، ويُثَبِّتُها، فلا تَضُرُّها فتنةٌ؛ فقال تعالى في قصةِ بدرٍ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

وقال عن أَصْحابِ الكهفِ: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٣-١٤].

وقال تعالى عن أُمِّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

* ولم يَجْعَلِ اللهُ لِلْعبدِ قلبينِ في جَوفِهِ، كما قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤].

فَلَيسَ لِلْعبدِ قلبانِ، يُطيعُ اللهَ، ويَتَّبِعُ أَمْرَهُ، ويَتَوَكَّلُ عليهِ، بِأَحدِهِما، والآخَرُ لِغيرِهِ، بَل ليس إلَّا قلبٌ واحِدٌ، فإن لم يُفْرِد بالتَّوكُّلِ، والمَحبَّةِ، والتَّقْوى، رَبَّهُ، وإلَّا انْصَرَفَ ذلك إلى غيرِهِ.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ١٤٩).

فَبِقَدْرِ ما يَدْخُلُ القلبَ من هَمٍّ، وإرادَةٍ، وحُبٍّ، يَخْرُجُ منهُ هَمٌّ، وإرادَةٌ، وحُبٌّ، يُقابِلُهُ، فهُو إناءٌ واحِدٌ، والأَشْرِبَةُ مُتعَدِّدَةٌ، فَأَيُّ شَرابٍ مَلأَهُ، لم يَبْقَ فيه مَوضِعٌ لِغيرِه.

* وأخبرَ القرآنُ أنَّ منَ القلوبِ قلوبًا مَريضَةً، تَتَّبعُ الشَّهَواتِ؛ فقال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلۡنَ قَوۡلًا مَّعۡرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

* وأنَّ اللهَ تعالى يَطْبَعُ على قلوبِ المُتكَبِّرينَ المُتجَبِّرينَ؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

* وأنَّ منَ العِبادِ عِبادًا، خَتَمَ اللهُ على قلوبِهِم، وطَبَعَ عليها بِظُلْمِهِمْ؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٦-٧].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

* وبيَّنَ أنَّ من أسبابِ الطَّبْعِ على القلوبِ: الِاعْتِداءَ؛ فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤].

* ومِن أسبابِ الطَّبْعِ على القلوبِ: تَقْديمُ أَمْرِ الدنيا على أَمْرِ الآخرةِ؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٧-١٠٨].

* ومنها: الجَهْلُ، والانْصِرافُ عن آياتِ اللهِ، والكفرُ بِها، واتِّباعُ الهَوَى؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٨-٥٩].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وأخبرَ اللهُ تعالى أنّهَ يَزيدُ قلوبَ أهلِ الإيمانِ إيمانًا، ويَزيدُ قلوبَ أهلِ الكفرِ والنِّفاقِ مَرَضًا؛ فقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

وقال عنِ المُنافِقِينَ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

وقال عنِ المؤمنينَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

* وأنَّ منَ القلوبِ قلوبًا أُشْرِبَت -بِظُلْمِها- حُبَّ الكفرِ، وبُغْضَ الإيمانِ؛ فقال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣].

* وأخبرَ أنَّ قلوبَ الزائِغينَ هيَ قلوبٌ مَفْتُونَةٌ، تَتَبعُ الشُّبُهاتِ فَتَضِلّ، وتُضِلّ؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧].

أَمَّا أهلُ الإيمانِ الراسِخُونَ في العِلْمِ: فَيَقُولُونَ -كما أخبرَ اللهُ عنهم-: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

* وأخبرَ أنَّ قلوبَ أهلِ الإيمانِ إنَّما تآلَفت برَحْمَتِهِ، وتَعاطَفَت بِفَضْلِ كَرامَتِهِ، ولَولاهُ سُبْحانَهُ لاخْتلَفَت، وما اتَّفَقَتْ؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

* وأخبرَ أنَّهُ يُلقي في قلوبِ الذينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِشِرْكِهِمْ؛ فقال: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥١].

وهذا يَدُلُّ على أنَّ الشِّرْكَ يُورِثُ الرُّعْبَ، والفَزَعَ، كما أنَّ الإيمانَ، يُورِثُ الطُّمَأْنينَةَ في القلبِ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

* وأنَّ عَدَمَ طهارةِ القلبِ من رِجْسِ الكفرِ، وأَدْرانِ العِصْيانِ، تجعلُهُ قلبًا مَفْتُونًا؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

* وأنَّ الضَّراعَةَ إلى اللهِ تُلينُ القلبَ، وتَرْكَها تُقَسِّيهِ؛ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٤٣].

* وأنَّ العَمَى عَمَى القلبِ، والجَهْلَ جَهْلُ القلبِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

* وأنَّ اللهَ لَو عَلِمَ في القلبِ صَلاحًا هَداهُ، ولا يَضِلُّ منَ القلوبِ إلَّا القلوبُ التي لا خَيرَ فيها، ولا صَلاحَ؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: ٧٠].

وقال سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣].

وقال سُبْحانَهُ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥].

* وأخبرَ أنَّ أهلَ الإيمانِ قلوبُهُم وجِلَةٌ، يَخْشَونَ أَن لا تُقبَلَ منهُم أَعْمالُهُمْ؛ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

* وأخبرَ سُبْحانَهُ أَنَّهُ إِنَّما يُؤاخِذُ الإنْسانَ بِما تعَمَّدَ فِعْلَهُ وكَسَبَهُ قلبُهُ، بخلافِ مَن أَخْطَأَ، ولم يَتَعَمَّدْ؛ فقال سُبْحانَهُ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وقال: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٥].

* وأخبرَ أنَّ حِجابَ المَرْأَةِ المسلمَةِ طهارةٌ لِقلبِ المسلمِ، والمسلمَةِ؛ فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

* وأخبرَ أنَّ قلوبَ أهلِ الإيمانِ مُنْشَرِحَةٌ لِلْإيمانِ، راضيةٌ به، وأنَّ قلوبَ أهلِ الكفرِ، والعِصْيانِ، قاسيةٌ، مُشْمَئِزَّةٌ، نافِرَةٌ؛ فقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ

عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

* وأخبرَ أنَّ الأَقْفالَ التي على قلوبِ الذينَ لا يُؤْمِنُونَ، مانِعَةٌ لَها من تَدَبُّرِ القرآنِ؛ فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

فَهيَ قلوبٌ مُغْلَقَةٌ، مُوصَدَةٌ، مَطْبُوعٌ عليها، مَخْتُومٌ عليها، في أَغْلافِها، فكَيفَ تُؤْمِنُ باللهِ، واليَومِ الآخِرِ؟ وكَيفَ تتَدَبّرُ القرآنَ؟

* وأخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ القلبَ يَهْوَى، ويَتَمَنَّى، وهذا هو زِنا القلبِ؛ فعن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ ﷺ، قال: «**كُتِبَ على ابنِ آدمَ نَصيبُهُ منَ الزِّنا، مُدْرِكٌ ذلك لا مَحالةَ، فالعَينانِ زِناهُما النَّظَرُ...**» الحديثَ، وفيهِ: «**والقلبُ يَهْوَى، ويَتَمَنَّى، ويُصَدِّقُ ذلك الفَرْجُ، ويُكَذِّبُهُ**»[1].

وصَحَّ عن عَطاءٍ، قال: سَمِعْتُ أَبا هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِرارًا يَقُولُ: «العَينُ تَزْني، والفَمُ يَزْني، والقلبُ يَزْني، واليَدانِ تَزْنيانِ، والرِّجْلُ تَزْني -فَعَدَّدَهُنَّ كذلك-، ويُصَدِّقُ ذلك الفَرْجُ، أَو يُكَذِّبُهُ»[2].

* وأَخْبَرَ أنّ الفِتَنَ تُعرَضُ على القلوبِ، فَقلبٌ يُشْرِبُها، وقلبٌ يُنْكِرُها؛ فعن حُذَيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ على القلوبِ كالحَصيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قلبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوداءُ، وأَيُّ قلبٍ أَنْكَرَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيضاءُ، حَتَّى تَصيرَ على قلبينِ: على أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفا، فلا**

---

(١) رواه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧)، واللفظ له.

(٢) مصنف عبدالرزاق (٧/ ٤١٤).

تَضُرُّهُ فتنةٌ ما دامَتِ السَّماواتُ والأَرْضُ، والآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبادًّا، كالكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إلَّا ما أُشْرِبَ من هَواهُ»[1].

وقَولُه: «أَسْوَدُ مُرْبادًّا، كالكُوزِ مُجَخِّيًا»: شَبَّهَ القلبَ الذي لا يَعي خَيرًا بالكُوزِ المُنْحَرِفِ، الذي لا يَثْبُتُ الماءُ فيهِ، فهو مَكْبُوبٌ مَنْكُوسٌ، فإذا اسْوَدَّ، وانْتكَسَ عَرَضَ له من هاتَينِ الآفتَينِ مَرَضانِ خَطيرانِ مُتَرامِيانِ به إلى الهَلاكِ: أَحَدُهُما: أنّه صارَ لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، والثاني: تَحْكيمُهُ هَواهُ على ما جاءَ به الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانْقيادُهُ لِلْهَوَى، واتِّباعُهُ له، وهو قولُهُ: **«إلَّا ما أُشْرِبَ من هَواهُ»**.

* وأخبرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ أهلَ الجَنَّةِ يدخلونَ الجَنَّةَ، وهُم على قلبِ رَجُلٍ واحِدٍ، لا اخْتِلافَ بينَهُم، ولا تَباغُضَ؛ فعن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: **«أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجَنَّةَ على صُورَةِ القَمَرِ لَيلَةَ البدرِ، والذينَ على إِثْرِهِم كَأَشَدِّ كَوكَبٍ إضاءَةً، قلوبُهُم على قلبِ رَجُلٍ واحِدٍ، لاَ اخْتِلاَفَ بينَهُم، ولاَ تَباغُضَ»**[2].

وفي لَفْظٍ لهما: **«قلوبُهُم قلبٌ واحِدٌ»**.

* وأخبرَ أنَّ قلوبَ الأَنْبياءِ عليهِمُ السَّلامُ لا تَنامُ؛ لأَنَّهُم مَشْغُولُونَ باللهِ، وبِذِكْرِهِ؛ فقال لأُمِّ المؤمنينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **«يا عائِشَةُ، إنَّ عَينَيَّ تَنامانِ، ولاَ يَنامُ قلبي»**[3].

وعِنْدَ ابنِ سَعْدٍ: **«إنَّا مَعْشَرَ الأَنْبياءِ تَنامُ أَعْيُنُنا، ولا تَنامُ قلوبُنا»**[4].

* كما أخبرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ زيارَةَ القُبُورِ تُرِقُّ القلبَ، وتُلينُهُ؛ فعن أنسِ بنِ مالِكٍ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«كُنْتُ نَهَيتُكُم عن زيارَةِ القُبُورِ، أَلا فَزُورُوها، فإنَّها تُرِقُّ القلبَ، وتُدْمِعُ العَينَ، وتُذَكِّرُ الآخرةَ»**[5].

---

(١) رواه مسلم (١٤٤).

(٢) رواه البخاري (٣٢٤٦)، ومسلم (٢٨٣٤).

(٣) رواه البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨).

(٤) الطبقات الكبرى (١/ ١٣٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٨٧).

(٥) رواه الحاكمُ (١٣٩٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٨٤).

* وأخبرَ أنَّ الكَذِبَ والخَديعَةَ والغِشَّ في الأَيمانِ، تجعلُ في القلبِ نُكْتَةً سَوداءَ إلى يَومِ القيامَةِ؛ فعن عبدِ اللهِ بنِ أُنَيسٍ الجُهَنيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ من أَكْبَرِ الكَبائِرِ: الشِّرْكُ باللهِ، وعُقُوقُ الوالِدَينِ، واليَمينُ الغَمُوسُ، وما حَلَفَ حالِفٌ باللهِ يَمينَ صَبْرٍ، فَأَدْخَلَ فيها مِثْلَ جَناحِ بَعُوضَةٍ[1]، إلاَّ جُعِلَت نُكْتَةً في قلبِهِ إلى يَومِ القيامَةِ**»[2].

* وأنَّ الأمانَةَ نَزَلت في جَذْرِ قلوبِ الرِّجالِ -يعني: أَصْل القلوبِ-؛ فعن حُذَيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: حَدَّثَنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنَّ الأَمانَةَ نَزَلَت في جَذْرِ قلوبِ الرِّجالِ، ثُمَّ عَلِمُوا منَ القرآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا منَ السُّنةِ**»[3].

والأَمانَةُ هيَ الإيمانُ، نَزَلَت في قلوبِ المؤمنينَ، واسْتَولَت عليها، فَكانَت هيَ الباعِثَةَ على الأَخْذِ بالكِتابِ، والسُّنةِ.

* وكان من دُعاءِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُمَّ اجْعَل في قلبي نُورًا، وفي بَصَري نُورًا، وفي سَمْعي نُورًا...**»[4]، وهذا النُّورُ هو نُورُ الإيمانِ الذي يهدي اللهُ به قلوبَ عِبادِهِ المؤمنينَ.

ويَجْعَلُ اللهُ من نُورِ هِدايَتِهِ نَصيبًا مَوفُورًا في قلوبِ عِبادِهِ المؤمنينَ؛ قال تعالى: ﴿**ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ**﴾ [النور: ٣٥].

قال أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيرُهُ: «مَثَلُ نُورِهِ في قلبِ المؤمنِ»[5].

---

(١) والمعنَى: أدخلَ فيها شَيئًا يَسيرًا، منَ الكَذِبِ، والخيانَةِ.

(٢) رواه الترمذي (٣٠٢٠)، وأحمد (١٦٠٤٣)، وحسنه الترمذي، وكذا حَسَّنَهُ الحافظ في الفَتْحِ (١٠/ ٤١١).

(٣) رواه البخاري (٦٤٩٧) -واللفظ له-، ومسلم (١٤٣).

(٤) رواه البخاري (٦٣١٦)، ومسلم (٧٦٣).

(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٤٩).

وقال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: مَثَلُ نُورِهِ في قلبِ عبدِهِ المؤمنِ، الذي امْتَثَلَ أَوامِرَهُ، واجْتَنَبَ نَواهيَهُ، وإذا اسْتَنارَ القلبُ أَقْبَلَت وُفُودُ الخَيراتِ إليهِ من كلِّ ناحيَةٍ، كما أنَّهُ إذا أَظْلَمَ أَقْبَلَت سَحائِبُ البَلاءِ والشَّرِّ عليهِ من كلِّ مَكانٍ، فما شِئْتَ من بِدَعٍ، وضَلالَةٍ، واتِّباعِ هَوًى، واجْتِنابِ هُدًى، وإعْراضٍ عن أسبابِ السَّعادَةِ، واشْتِغالٍ بِأسبابِ الشَّقاوَةِ، فإنَّ ذلك إنَّما يَكْشِفُهُ له النُّورُ الذي في القلبِ، فإذا فُقِدَ ذلك النُّورُ بَقِيَ صاحِبُهُ كالأَعْمَى الذي يَجُوسُ في حَنادِسِ الظَّلامِ»[١].

وروى التِّرْمِذيُّ، وصَحَّحَهُ، عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ اللهَ جَعَلَ الحَقَّ على لِسانِ عُمَرَ، وقلبِهِ**»[٢].

* ومَن صَدَقَ في تَوبَتِهِ، وجاءَ مُقْبِلًا بِقلبِه إلى اللهِ، قَبِلَ اللهُ منهُ تَوبَتَهُ، وكَفَّرَ عنهُ سَيِّئاتِهِ، وفي حديثِ قاتِلِ المِائَةِ -لَمَّا هاجَرَ من بَلَدِ السُّوءِ-: «**فانْطَلَقَ حَتَّى إذا نَصَفَ الطَّريقَ أَتاهُ المَوتُ، فاخْتَصَمَت فيه مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ، ومَلائِكَةُ العَذابِ، فقالت مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جاءَ تائِبًا مُقْبِلًا بِقلبِهِ إلى اللهِ، وقالت مَلائِكَةُ العَذابِ: إنَّهُ لم يَعْمَل خَيرًا قَطُّ، فَأَتاهُم مَلَكٌ في صُورَةِ آدَميٍّ، فَجَعَلُوهُ بينَهُم، فقال: قيسُوا ما بينَ الأَرْضَينِ، فَإلى أَيَّتِهِما كان أَدْنَى فهُو لَهُ، فَقاسُوهُ، فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إلى الأَرْضِ التي أَرادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ**»[٣].

وفي رِوايةٍ لِمُسلمٍ: «**فَلَمَّا كان في بعضِ الطَّريقِ أَدْرَكَهُ المَوتُ، فَنَأَى بِصَدْرِهِ**[٤]**، ثُمَّ ماتَ، فاخْتَصَمَت فيه مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ، ومَلائِكَةُ العَذابِ، فَكان إلى القَرْيَةِ الصالِحَةِ أَقْرَبَ منها بِشِبْرٍ، فَجُعِلَ من أهلِها**».

---

(١) الجواب الكافي (ص١٧٨).

(٢) رواه الترمذي (٣٦٨٢)، وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦)، واللفظ له.

(٤) أي: نَهَضَ، ومالَ.

فَصَدَقَ قلبُهُ، ونَأَى بصَدْرِه، فَدَخَلَ الجَنَّةَ، وقد كان قَتَلَ مِائةَ نَفْسٍ.

* وأخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ منَ السَّبْعَةِ الذينَ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ، يَومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ: «**وَرَجُلٌ قلبُهُ مُعَلَّقٌ في المَساجِدِ**»[١].

* وأنَّ تَقْوَى القلوبِ إنَّما تَنْفَعُ أَصْحابَها، كما أنَّ عِصْيانَها، وفُجْرَها، على أَصْحابِها، واللهُ غَنيٌّ عنِ العالَمينَ، لا تَنْفَعُهُ طاعَةُ المُطيعِ، ولا تَضُرُّهُ مَعْصيَةُ العاصي، كما روى مسلمٌ، عن أَبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ ﷺ، فيما روى عنِ اللهِ تَبارَكَ وتَعالى أنَّهُ قال: «**يا عِبادي، لَو أنَّ أَوَّلَكُم، وآخِرَكُم، وإنْسَكُم، وجِنَّكُم، كانُوا على أَتْقَى قلبِ رَجُلٍ واحِدٍ منْكُم، ما زادَ ذلك في مُلْكي شَيئًا، يا عِبادي، لَو أنَّ أَوَّلَكُم، وآخِرَكُم، وإنْسَكُم، وجِنَّكُم، كانُوا على أَفْجَرِ قلبِ رَجُلٍ واحِدٍ، ما نَقَصَ ذلك من مُلْكي شَيئًا**»[٢].

* وأخبرَ أنَّ تَوحيدَ القلبِ يُنَجِّي صاحِبَهُ منَ النارِ؛ فعن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، قال: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**إنِّي لَأَعْلَمُ كلمةً لا يَقُولُها عبدٌ حَقًّا من قلبِهِ، فَيَمُوتُ على ذلك، إلَّا حَرَّمَهُ اللهُ على النارِ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ**»[٣].

* وأنَّ يَقينَ القلبِ بالتَّوحيدِ من أسبابِ المَغْفِرَةِ؛ فعن مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قال: «**ما من نَفْسٍ تَمُوتُ، وهيَ تَشْهَدُ أَن لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأنِّي رسولُ اللهِ، يَرْجِعُ ذاكَ إلى قلبٍ مُوقِنٍ، إلَّا غَفَرَ اللهُ لَها**»[٤].

* وأنَّ إقْبالَ العبدِ في صَلاتِهِ، بِقلبِهِ على رَبِّهِ، من مُوجِباتِ الجَنَّةِ؛ فعن عُقْبَةَ بنِ

---

(١) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٣) رواه الحاكمُ (٢٤٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٥٢٨).

(٤) رواه أحمد (٢١٩٩٨)، وصححه محققو المسند.

عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: **«ما من مسلمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَينِ، مُقْبِلٌ عليهما بِقلبِهِ، ووَجْهِهِ، إلَّا وجَبَت لَهُ الجَنَّةُ»**[١].

* وأنَّه من أسبابِ المَغْفِرَةِ أيضًا؛ فعن عَمْرِو بنِ عَبَسَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: **«ما منْكُم رَجُلٌ يُقرِّبُ وضُوءَهُ فيَتَمَضْمَضُ، ويَسْتَنْشِقُ، فيَنْتَثِرُ، إلَّا خَرَّت خَطايا وجْهِهِ، وفيهِ وخَياشيمِهِ...»** الحديثَ، وفيهِ: **«فإن هو قامَ فَصَلَّى، فَحَمِدَ اللهَ، وأَثْنَى عليهِ، ومَجَّدَهُ بالذي هو لَهُ أهلٌ، وفَرَّغَ قلبَهُ للهِ، إلَّا انْصَرَفَ من خَطيئَتِهِ، كَهَيئَتِهِ يومَ ولَدَتْهُ أُمُّهُ»**[٢].

* وأنَّ إنْكارَ المُنْكَرِ بالقلبِ لا يَسْقُطُ بِحالٍ عنِ المؤمنِ؛ فعن أَبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **«مَن رَأَى منْكُم مُنْكَرًا، فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ، فإن لم يَسْتَطِع فَبِلِسانِهِ، فإن لم يَسْتَطِع فَبِقلبِهِ؛ وذلك أَضْعَفُ الإيمانِ»**[٣].

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَضْعَفُ الإيمانِ: الإنْكارُ بالقلبِ، فَمَن لم يَكُن في قلبِهِ بُغْضُ المُنْكَرِ الذي يُبْغِضُهُ اللهُ، ورسولُهُ، لم يَكُن مَعَهُ من الإيمانِ شَيءٌ»[٤].

* وأخبرَ أنَّ أمْرَ القلوبِ، إلى عَلَّامِ الخَفايا والغُيُوبِ، لا يَرْجِعُ أمْرُها إلى أَحَدٍ منَ الناسِ؛ فَفي الصَّحيحَينِ عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إنِّي لم أُومَر أَن أَنْقُبَ عن قلوبِ الناسِ، ولاَ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ»**[٥].

وعن أُسامَةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: بَعَثَنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سَرِيَّةٍ، فَصَبَّحْنا

---

(١) رواه مسلم (٢٣٤).

(٢) رواه مسلم (٨٣٢).

(٣) رواه مسلم (٤٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٦٧).

(٥) رواه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤).

الحُرَقاتِ من جُهَينَةَ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا فقال: لا إلَهَ إلَّا اللهُ، فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ في نَفْسي من ذلك، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبيِّ ﷺ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَقال لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وقَتَلْتَهُ؟!**» قال: قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّما قالها خَوفًا منَ السِّلاحِ، قال: «**أَفلا شَقَقْتَ عن قلبِهِ؛ حَتَّى تَعْلَمَ أَقالها أَم لا؟**»(١).

* وأخبرَ أنَّ الصَّلاةَ عليهِ ﷺ بإخْلاصِ قلبٍ، يَرْفَعُ اللهُ لِلْعبدِ بها الدَّرَجاتِ، ويُكَفِّرُ عنهُ بها السَّيِّئاتِ، ويُضاعِفُ له بها الحسناتِ؛ فَرَوَى النَّسائيُّ في الكُبْرَى، عن سَعيدِ بنِ عُمَيرٍ الأَنْصاريِّ، عن أَبيهِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَن صَلَّى عَلَيَّ من أُمَّتي صَلاةً، مُخْلِصًا من قلبِهِ، صَلَّى اللهُ عليهِ بِها عَشْرَ صَلَواتٍ، ورَفَعَهُ بِها عَشْرَ دَرَجاتٍ، وكَتَبَ لَهُ بِها عَشْرَ حَسَناتٍ، ومَحا عنهُ عَشْرَ سَيِّئاتٍ**»(٢).

* وأخبرَ أنَّ مَن لم يَجْعَلِ اللهُ في قلبِهِ رَحْمَةً لِلْبَشَرِ، فَقَد خابَ، وخَسِرَ؛ فعن عَمْرِو ابنِ أَبي حَبيبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**خابَ عبدٌ وخَسِرَ لم يَجْعَلِ اللهُ في قلبِهِ رَحْمَةً لِلْبَشَرِ**»(٣).

وفي الصَّحيحَينِ عن عائِشَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالَتْ: جاءَ أَعْرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فقال: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيانَ؟ فما نُقَبِّلُهُم، فقال النبيُّ ﷺ: «**أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَن نَزَعَ اللهُ من قلبِكَ الرَّحْمَةَ**»(٤).

أَي: لا أَقْدِرُ أَن أَجْعَلَ الرَّحْمَةَ في قلبِكَ، بَعْدَ أَن نَزَعَها اللهُ منهُ.

وثَبَتَ عن طارِقِ بنِ شِهابٍ -وَهُوَ صَحابيٌّ صَغيرٌ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنَّ رَجُلًا كان به

---

(١) رواه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦)، واللفظ له.

(٢) السنن الكبرى لِلنَّسائي (٩٨٠٩)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٦٥٩).

(٣) رواه الدّولابي في الكُنَى (٩٧١)، وابنُ عساكر في تاريخه (٢١/ ٥٤)، وحسنه الألباني في الصحيحةِ (٤٥٦).

(٤) رواه البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧).

جُدَريٌّ، فخَرَجَ إلى الباديةِ يَطْلُبُ دواءً، فَلَقيَ رَجُلًا، فَنعَتَ له الأَراكَ يَطْبُخُهُ -أو قال: ماءَ الأَراكِ- بِأَبْوالِ الإبِلِ، وأَخَذَ عليهِ أَلا يُخْبِرَ به أَحدًا، فَفعَلَ فَبرأَ، فَلَمَّا رَآهُ النّاسُ سَأَلُوهُ، فَأَبَى أَن يُخْبِرَهُم، فَجعَلُوا يَأْتُونَهُ بالمَريضِ، فيُلْقُونَهُ على بابِهِ، فَسَأَلَ ابنَ مسعودٍ، فقال: «لَقَد لَقيتَ رَجُلًا ليس في قلبِهِ رَحْمَةٌ لِأَحَدٍ، انْعَتْهُ لِلنَّاسِ»[1].

* وأنَّ القرآنَ العَظيمَ نَزَلَ لِتآلُفِ القلوبِ، واجْتِماعِها، لا لِاخْتِلافِها، وتَنازُعِها؛ فعن جُنْدَبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقْرَءُوا القرآنَ ما ائْتَلَفَت عليهِ قلوبُكُم، فإذا اخْتَلَفْتُم فَقُومُوا عنهُ**»[2].

* وأَمَرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَعاهُدِ القرآنِ؛ لِئَلَّا يَتَفَلَّتَ منَ القلوبِ؛ فقال: «**تَعاهَدُوا القرآنَ، فَوالذي نَفْسي بيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا منَ الإبِلِ في عُقُلِها**»[3].

وعندَ أَحْمدَ: «**تَعاهَدُوا القرآنَ؛ فإنَّهُ أَشَدُّ تَفَلُّتًا من قلوبِ الرِّجالِ منَ الإبِلِ من عُقُلِها**»[4].

«**تَعاهَدُوا القرآنَ**»: أَي: تَفَقَّدُوهُ، وراعُوهُ بالمُحافَظَةِ، وداوِمُوهُ بالتِّلاوَةِ، **قال الطِّيبيُّ**: «أَي: واظِبُوا على قِراءَتِهِ، وداوِمُوا على تَكْرارِ دِراسَتِهِ؛ لِئَلَّا يُنْسَى».

«**أَشَدُّ تَفَصِّيًا**»: أَي: ذَهابًا، وتَخَلُّصًا، وخُرُوجًا[5].

* وكانَت مَوعِظَتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحابِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، رُبَّما رَجَفَت لَها قلوبُهُمْ؛ فعنِ العِرْباضِ بنِ سارِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «صَلَّى بِنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ يومٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَينا، فَوَعَظَنا مَوعِظَةً بَليغَةً، ذَرَفَت منها العُيُونُ، ووَجِلَت منها القلوبُ»[6].

---

(١) رواه عبدالرزاق في المصنف (٨/ ٤٩٨).
(٢) رواه البخاري (٥٠٦١)، ومسلم (٢٦٦٧).
(٣) رواه البخاري (٥٠٣٣)، ومسلم (٧٩١).
(٤) رواه أحمد (٥٨٦٩١)، وصححه محققو المُسندِ على شرط الشيخين.
(٥) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٤٩٥).
(٦) رواه أبوداود (٤٦٠٧)، وصححه الألباني.

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الوَجَلُ، والخَوفُ، والخَشْيَةُ، والرَّهْبَةُ: أَلْفاظٌ مُتَقارِبَةٌ غيرُ مُتَرادِفَةٍ.

والوَجَلُ: رَجَفانُ القلبِ، وانْصِداعُهُ لِذِكْرِ مَن يُخافُ سُلْطانُهُ، وعُقُوبَتُهُ، أَو لِرُؤْيَتِهِ»[١].

وقال أَيضًا: «الوَجَلُ: خَوفٌ مَقْرُونٌ بِهَيبَةٍ، ومَحَبَّةٍ»[٢].

* وإذا خالَطَت بَشاشَةُ الإيمانِ القلوبَ لم تَرْتَدَّ عنهُ؛ ففي حديثِ هِرَقْلَ أَنَّهُ قال لِأَبي سُفْيانَ: «وَسَأَلْتُكَ: هَل يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدينِهِ بَعْدَ أَن يَدْخُلَ فيهِ؟ فَزَعَمْتَ أَن لا، وكذلك الإيمانُ، حينَ تُخالِطُ بَشاشَتُهُ القلوبَ، لاَ يَسْخَطُهُ أَحَدٌ»[٣].

قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإيمانُ إذا خالَطَت بَشاشَتُهُ القلوبَ، لم يَسْخَطْهُ أَبَدًا، والقلبُ إذا باشَرَ حَقيقَةَ الإيمانِ، لم يَتْرُكْهُ»[٤].

*** ولِلشَّيطانِ من قلبِ ابنِ آدمَ نَصيبٌ، إلَّا مَن صانَ اللهُ قلبَهُ:**

عن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أنَّ رسولَ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أَتاهُ جِبْرِيلُ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وهو يَلْعَبُ مع الغِلْمانِ، فَأَخَذَهُ، فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عن قلبِهِ، فاسْتَخْرَجَ القلبَ، فاسْتَخْرَجَ منهُ عَلَقَةً، فقال: هذا حَظُّ الشَّيطانِ منْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ في طَسْتٍ من ذَهَبٍ، بِماءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعادَهُ في مَكانِهِ**»[٥].

قال الحافِظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان هذا في زَمَنِ الطُّفُولِيَّةِ، فَنَشَأَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أَكْمَلِ الأَحْوالِ، منَ العِصْمَةِ منَ الشَّيطانِ»[٦].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٥٠٧).

(٢) شفاء العليل (ص١٠٦).

(٣) رواه البخاري (٥١).

(٤) المُسْتَدْرَكُ على مجموع الفتاوى (١/ ١٤٩).

(٥) رواه مسلم (١٦٢).

(٦) فتح الباري (٧/ ٢٠٥).

وممَّا وردَ عنْ أهلِ العِلْمِ، والإيمانِ، منْ صَحابَةِ رسولِ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتابِعينَ لَهُم بإحْسانٍ، وغيرِهِم، من أَحْوالِ القلوبِ، وخِصالِها، وآفاتِها، وأسبابِ هِدايَتِها، وفِتْنَتِها:

*** القرآنُ لَهُ رُسُوخٌ في قلوبِ المؤمنينَ:**

فَصَحَّ عنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «القرآن إذا وقَعَ في القلبِ، فَرَسَخَ؛ نَفَعَ»[1].

*** والغِناءُ يُنْبِتُ النِّفاقَ في القلبِ:**

صَحَّ ذلك عنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيرِهِ منَ السلفِ[2].

*** والذِّكْرُ يُنْبِتُ الإيمانَ في القلبِ:**

عنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «الغِناءُ يُنْبِتُ النِّفاقَ في القلبِ، كما يُنْبِتُ الماءُ الزَّرْعَ، والذِّكْرُ يُنْبِتُ الإيمانَ في القلبِ، كما يُنْبِتُ الماءُ الزَّرْعَ»[3].

*** واليَقينُ باللهِ من أَفْضَلِ أَعْمالِ القلوبِ:**

فَعنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «خَيرُ ما أُلْقيَ في القلبِ: اليَقينُ»[4].

وعن أَبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَيُّها الناسُ، إنَّ الناسَ لم يُعْطَوا في الدنيا خَيرًا منَ اليَقينِ، والمُعافاةِ، فَسَلُوهُما اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ»[5].

*** والقلوبُ تَتَفاوَتُ في الأَفْضَليَّةِ، وأَفْضَلُها أَتْقاها:**

فعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «إنَّ اللهَ نَظَرَ في قلوبِ العِبادِ، فَوَجَدَ قلبَ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيرَ قلوبِ العِبادِ، فاصْطَفاهُ لِنَفْسِهِ، فابْتَعَثَهُ بِرِسالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ في

---

(١) رواه البيهقي في السنن (٣/ ١٤).

(٢) يُنظَر: سنن البيهقي (١٠/ ٣٧٧)، مصنف ابن أبي شيبة (٤/ ٣٦٨)، شرح السنة للبغويّ (١٢/ ٣٨٢)، تَلبيس إبْليس (ص٢٠٣).

(٣) رواه البيهقي في السنن (١٠/ ٣٧٧).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١٠٦).

(٥) رواه أحمد (٣٨)، وصححه محققو المسند.

قلوبِ العِبادِ بَعْدَ قلبِ محمدٍ، فَوَجَدَ قلوبَ أَصْحابِهِ خَيرَ قلوبِ العِبادِ، فَجَعَلَهُم وُزَراءَ نَبيِّهِ، يُقاتِلُونَ على دينِهِ»[١].

*** والإيمانُ بَياضٌ في القلبِ، والنِّفاقُ سَوادٌ فيهِ:**

عن عَليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «إنَّ الإيمانَ يَبْدُو لُمْظَةً[٢] بيضاءَ في القلبِ، فكلَّما ازْدادَ الإيمانُ عِظَمًا، ازْدادَ ذلك البَياضُ، فإذا اسْتَكْمَلَ الإيمانَ، ابْيَضَّ القلبُ كلُّهُ.

وإنَّ النِّفاقَ يَبْدُو لُمْظَةً في القلبِ، فَكلَّما ازْدادَ النِّفاقُ عِظَمًا، ازْدادَ ذلك سَوادًا، فإذا اسْتَكْمَلَ النِّفاقَ، اسْوَدَّ القلبُ كلُّهُ»[٣].

*** والقلوبُ تَعْمَى، وشَرُّ العَمَى عَمَى القلبِ:**

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وعنِ ابنِ مسعودٍ، أنَّهُ كان يَقُولُ في خُطْبَتِهِ: «خَيرُ الهُدَى ما اتُّبِعَ، وشَرُّ العَمى عَمَى القلبِ...»[٤].

*** والنَّظَرُ إلى ثيابِ المَرْأَةِ يُوقِعُ الشَّهْوَةَ في القلبِ:**

قال العَلاءُ بنُ زيادٍ رَحِمَهُ اللهُ: «كان يُقالُ: لا تُتْبِعَنَّ نَظَرَكَ حُسْنَ رِداءِ امْرَأَةٍ؛ فإنَّ النَّظَرَ يَجْعَلُ شَهْوَةً في القلبِ»[٥].

*** والعِلْمُ عِلْمانِ: عِلْمُ القلبِ، وعِلْمُ اللِّسانِ:**

صَحَّ عنِ الحسنِ قال: «العِلْمُ عِلْمانِ: فَعِلْمٌ في القلبِ، فَذلك العِلْمُ النافِعُ، وعِلْمٌ على اللِّسانِ، فَذلك حُجَّةُ اللهِ على ابنِ آدَمَ»[٦].

---

(١) رواه أحمد (٣٦٠٠) بسند حسن.
(٢) اللُّمْظَةُ: النُّكْتَةُ.
(٣) رواه البيهقي في الشُّعَبِ (٣٧).
(٤) الزهد لأبي داود (١٦٠).
(٥) مصنف ابن أبي شيبة (٤/ ٦).
(٦) رواه الدارمي في سننه (٣٧٦).

*** والقلبُ مِثْلُ الكَفِّ:**

عن مُجاهِدٍ، قال: «القلبُ مِثْلُ الكَفِّ، فإذا أَذْنَبَ ذَنْبًا، قَبَضَ أُصْبُعًا حَتَّى يَقْبِضَ أَصابِعَهُ كلَّها، وكان أَصْحابُنا يرَونَ أَنَّهُ الرانُ»(١).

*** ولا بُدَّ لِلْقلبِ منَ الحُزْنِ(٢)؛ ليتوبَ، ولِئَلاَّ تَغُرَّهُ الحياةُ الدنيا:**

قال مالِكُ بنُ دينارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُقالُ: إنَّ القلبَ إذا لم يَحْزَن خَرِبَ، كما أنَّ البَيتَ إذا لم يُسْكَن خَرِبَ».

وقال أَحْمَدُ بنُ عاصِمٍ الأَنْطاكيُّ: «قِلَّةُ الخَوفِ من قِلَّةِ الحُزْنِ في القلبِ، وإذا قَلَّ الحُزْنُ في القلبِ خَرِبَ»(٣).

*** ولِلْقلبِ شُكْرٌ على نِعَمِ اللهِ:**

قال بعضُ السلفِ: «شُكْرُ القلبِ: أَن تَعْلَمَ أنَّ النِّعَمَ كلَّها منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وشُكْرُ البَدَنِ: أَن لا تَسْتَعْمِلَ جارِحَةً من جَوارِحِكَ إلَّا في طاعَتِهِ، وشُكْرُ اللِّسانِ: دَوامُ الحَمْدِ»(٤).

*** والذُّنُوبُ تُوَرِّثُ القلبَ قَسْوَةً:**

قال إبراهيمُ بنُ أَدْهَمَ: «إنَّ لِلذُّنُوبِ ضَعْفًا في القُوَّةِ، وقَسْوَةً في القلبِ، وإنَّ لِلْحَسَناتِ قُوَّةً في البَدَنِ، ونُورًا في القلبِ»(٥).

*** والمِراءُ والخُصُومَةُ تُقَسِّي القلبَ:**

عن جَعْفَرِ بنِ محمدٍ، قال: «إيَّاكُم والخُصُومَةَ في الدِّينِ؛ فإنَّها تَشْغَلُ القلبَ، وتُوَرِّثُ النِّفاقَ»(٦).

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (١/ ٢٥٩).

(٢) فيحزنُ للذّنبِ يُصيبُه، وللحسنةِ تَفوتُه.

(٣) شعب الإيمان (٢/ ٢٧٠).

(٤) المصدر السابق (٦/ ٣١٢).

(٥) المصدر السابق (٩/ ٣٨٣).

(٦) حلية الأولياء (٣/ ١٩٨).

وصَحَّ عنِ الإمامِ الشافِعيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّهُ قال: «المِراءُ في العِلْمِ يُقَسِّي القلبَ، ويُوَرِّثُ الضَّغائِنَ»(١).

*** ولِسانُ الحَكيمِ يَرْجِعُ إلى قلبِهِ:**

صَحَّ عنِ الحسنِ قال: كانُوا يَقُولُونَ: «إنَّ لِسانَ الحَكيمِ من وراءِ قلبِهِ، فإذا أَرادَ أَن يَقُولَ يَرْجِعُ إلى قلبِهِ، فإن كان له قال، وإن كان عليهِ أَمْسَكَ.

وإنَّ الجاهِلَ قلبهُ في طَرَفِ لِسانِهِ، لا يَرْجِعُ إلى القلبِ، فما أَتى على لِسانِهِ تَكَلَّمَ به»(٢).

*** والقَلبُ لَو خَشَعَ، خَشَعتِ الجَوارِحُ:**

رَأَى سَعيدُ بنُ المُسَيَّبِ رَجُلًا، وهو يَعْبَثُ بِلِحْيَتِهِ في الصَّلاةِ، فقال: «لَو خَشَعَ قلبُ هذا، لَخَشَعَت جَوارِحُهُ»(٣).

وقال أَبو حَفْصٍ الحَدَّادُ: «حُسْنُ أَدَبِ الظاهِرِ، عُنْوانُ حُسْنِ أَدَبِ الباطِنِ»(٤).

*** والإيمانُ: ما وقَرَ في القلبِ، وصَدَّقَهُ العَمَلُ:**

عنِ الحسنِ، قال: «لَيسَ الإيمانُ بالتَّحَلِّي، ولا بالتَّمَنِّي، ولَكِنْ: ما وقَرَ في القلبِ، وصَدَّقَتْهُ الأَعْمالُ، مَن قال حَسَنًا وعَمِلَ غيرَ صالِحٍ، رَدَّ اللهُ عليهِ قَولَهُ، ومَن قال حَسَنًا، وعَمِلَ صالِحًا، رَفَعَهُ العَمَلُ، ذلك بِأَنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]»(٥).

نسأَلُ اللهَ أن يُثَبِّتَ قلوبَنا على دينِهِ، ويَهدِيَنا صِراطَهُ المستقيمَ.

---

(١) شعب الإيمان (١١/ ٤١).

(٢) الزهد لابن المبارك (١/ ١٣١).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٢/ ٨٦).

(٤) حلية الأولياء (١٣/ ٢٣٠).

(٥) رواه البيهقي في الشُّعَبِ (١/ ١٥٨).